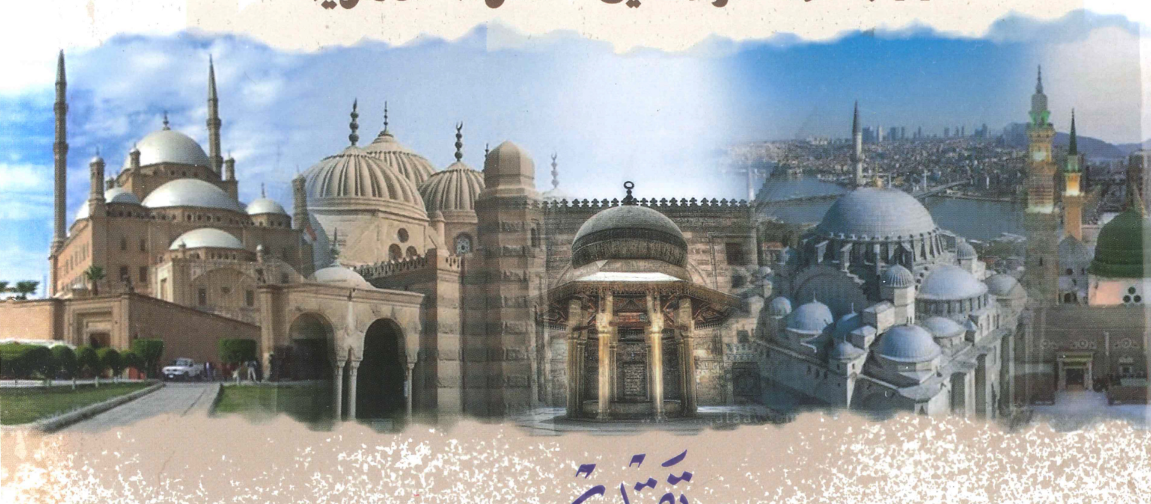
التاريخ الإسلامي

دروس وعبر

عبد الناصر الدياسطي

(١) خلافة الراشدين - الدولة الأموية



تقديم

د/ ياسر برهامي

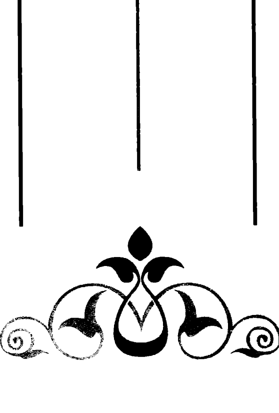
د/ سيد حسين العفاني

د/ محمد إبراهيم منصور

د/ زين العابدين كامل

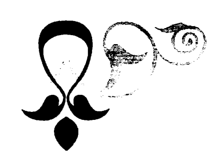
دكتوراه في التاريخ الإسلامي

دار الخلفاء الراشدين



التاريخ الإسلامي

دروس وعبر



بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٤٣هـ / ٢٠٢٢م

التاريخ الإسلامي
دروس وعبر

جمع وترتيب

عبد النَّاصِر الدِّياسْطي

دار الخلفاء الراشدين

الإسكندرية أبو سليمان ش عمر أمام مسجد الخلفاء الراشدين

الإدارة: ٠١٠٠٥٠١٣١٥١ - المبيعات: ٠١١٢٠٠٠٤٦٤٦

dar_alkholafaa@yahoo.com daralkholafaa@gmail.com

راسلونا على صفحتنا على فيسبوك (دار الخلفاء الراشدين)

دار الخلفاء الراشدين دار الفتح الإسلامي

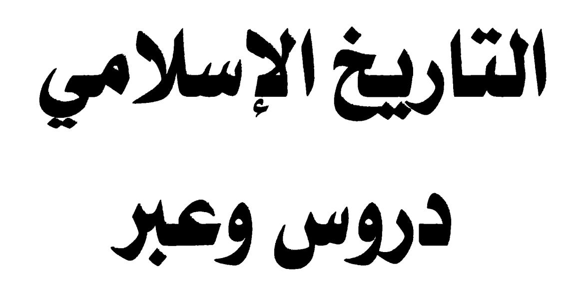
الإسكندرية - أرض شاكوس - ش ٤٩٤ كاستنيا متفرع من ش مصطفى كامل الرئيسي - برج الحمد

ش عمر - متفرع من ش أحمد أبو سليمان - أمام مسجد الخلفاء الراشدين

مصطفى كامل - ش إبراهيم الشريف - بجوار كيروسيز مول

٠١٠٠٥٠١٣١٥١ - ٠١١٢٠٠٠٤٦٤٦ ٠١١٢٦٥٠٠٦٩٦ - ٠١٠٩٤٥٥٥١٥٧

طبع • نشر • توزيع



التاريخ الإسلامي دروس وعبر

إعداد:

عبد الناصر الدِّياسْطي

الجزء الأول

خلافة الراشدين - الدولة الأموية


بسم الله الرحمن الرحيم

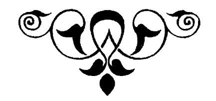
مقدمة الدكتور/ ياسر برهامي حفظه الله

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله: صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم أما بعد

فإن دراسة التاريخ دراسة إسلامية في ضوء الكتاب والسنة من أعظم ما ينفع القادة والدعاة والسياسيين والمصلحين ، لأن سنن الله في الخلق لا تبديل لها، وكما أن معرفة السنن الشرعية لا غني عنها لطالب علم أو داعية أو قائد لطائفة من الناس ، فإن معرفة السنن الكونية ضروري أيضا في معرفة ميزان المصالح والمفاسد ومعرفة المآلات وموازين القوى والضعف، وكم من أحداث تاريخية تناولها البعض من جهة العاطفة دون معرفة السنن الشرعية والكونية فأفسدوا إفساد عظيما

وهذا الكتاب الذي جمعه أخونا الفاضل الكريم الأستاذ عبد الناصر الدِّياسْطي (التاريخ الإسلامي دروس وعبر) يحقق للدارس والمطالع والقاريء قدرا جيدا مما ذكرناه، فجزاه الله خيرا ونفع به وجعله في ميزان حسنات كاتبه وناشره وقارئه

كتبه ياسر برهامي



مقدمة الدكتور/ سيد حسين العفاني حفظه الله

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)﴾ أما بعد.

فإن أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار أما بعد

فقد استمتعت بما أهداني الأخ الرباني الكريم الشيخ عبد الناصر الدياسطي من مؤلف «التاريخ الإسلامي دروس وعبر»

ومن لا يعرف تاريخه ليس له مستقبل

فالتاريخ يعيد نفسه

ونحن أمه لها تاريخ مجيد

أنت تدري أيها الحيران أنا   كيف فوق الشمس أزمانا حللنا

يا اخي

وكنا عظاما فصرنا عظاما   وكنا نقوت فها نحن قوت

لقد بحثت يا شيخ عبد الناصر في أغوار تاريخنا الجميل وعانيت أشق العناء في الاختصار وسجلت العبر والفوائد في كتابك هذا القيم فلله درك

كم نفعت إخوانك و ما تركت من بعدك إلا القليل أسأل الله أن يثقل به ميزانك وأن يبارك لك في أسرك ونسلك

وأن ينفعك بما تكتبه لإخوانك وأن ينفع إخوانك بما كتبت

وأن يرزقك الفردوس الأعلى مع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأن يهبك الله النظر إلى وجهه الكريم

والحمد لله رب العالمين

وكتبه

سيد حسين العفاني



مقدمة الدكتور محمد إبراهيم منصور حفظه الله

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد

فإن معركة الوعي الحضاري اليوم معركة شرسة يبذل فيها العلمانيون وأتباعهم بذلا هائلا في تشويه التاريخ الحضاري لهذه الأمة لدى الجميع وخصوصا أبناء الأمة أنفسهم ليكونوا ناقمين على ماضيهم بدلا من أن يكونوا فخورين به لتجعلهم هذه النقمة حريصين على الهروب من ذلك التاريخ يحاولون طمسه تحت شعار تنقية التراث وتجديد الخطاب وغيرها من الشعارات ومثل هؤلاء المغيبين المخدوعين لا يمكن أن يعملوا عملا حقيقيا للإحياء الحضاري وهذا هو المراد للعلمانيين

والوعي الحضاري يعني إدراك المنتمين لتلك الحضارة أن لحضارتهم ماض مشرف واليقين أن لها مستقبل مشرق وفي إدراك أن واقعهم الحاضر واقع مؤلم لبُعدِه عن مقومات الإحياء الحضاري

وفي نفس الوقت إدراك أن الانتقال من هذا الواقع المؤلم إلى ذلك المستقبل المشرق لابد له من أسباب وأن كل شخص منتم لهذه الحضارة هو أحد هذه الأسباب ويلزمه بذل ما يمكن بذله في سبيل ذلك الإحياء

وخلاصة المعركة هنا أن أعداء هذه الأمة يعملون جاهدين لتغييب ذلك الوعي بأبعاده ومعالمه المختلفة بينما يعمل المخلصون من أبناء هذه الأمة المدركون لتلك المعالم والأبعاد على إيقاظ ذلك الوعي وغرسه في النفوس والأجيال

ومن أهم عوامل هذا الإحياء الحضاري اليقين أن لهذه الحضارة ولهذه الأمة ماض مشرف يفخر به كل منصف من أبناء هذه الأمة وهذا يدعو إلى الاعتزاز بهذا الماضي المشرف ويحفز على العمل على استعادة تلك الأمجاد

وكذلك من أهم هذه العوامل المعرفة بما مرت به هذه الأمة من أحوال الصعود والازدهار وكذلك أحوال الضعف والتأخر ومعرفة أسباب هذا وذاك لنستلهم الدروس التي تحدد المسار الصحيح للإحياء الحضاري

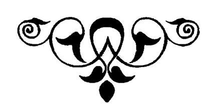
وقد جاء هذا الكتاب لأخينا الكريم الشيخ عبد الناصر الدِّياسْطي مساهمة موفقة في هذا الباب حيث عرض فيه مختصرا لتاريخ هذه الأمة بداية من الخلافة الراشدة وحتى هذه الفترة المعاصرة

وهو كتاب نافع في بابة يثري المكتبة الإسلامية ويضيف إضافة جيدة إلى مجال مدارسة التاريخ الاسلامي وهو أيضا نافع لأبناء الدعوة الإسلامية لما يتميز به من السهولة والاختصار وبما تناوله من الدروس المستفادة والعبر والعظات

فجزى الله خيرا كاتبه وناشره وقارئه ومن أعان على نشره

وكتبه

محمد إبراهيم منصور



مقدمة الدكتور/ زين العابدين كامل حفظه الله

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد،

لا شك أن البحث عن الحقيقة التاريخية المجردة والمستقاة من أوثق مصادرها، يُعد ضرورة ثقافية وحضارية، حيث أن البحث في صفحات التاريخ يوسع الآفاق الفكرية والثقافية للإنسان، ويُساعد على فهم السنن الكونية، فالتاريخ فيه استلهام للمستقبل على ضوء السنن الربانية الثابتة التي لا تتغير ولا تتبدل ولا تحابي أحدًا من الخلق بحال، ولعل من المُسَلَّم به أن دراسة التاريخ ركن أساسي لبناء أمة قوية ، ومن ثَمَّ فإن دراسة علم التاريخ ، ليست دراسة تكميلية كما يظن البعض، لأن التاريخ بمثابة الثروة التي تحتاج إلى من يحسن استثمارها، فلا مستقبل لأمة تجهل تاريخها، قال تعالى ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١].

فلن تصل الأمة إلى مرحلة الرشد الثقافي إلا بالرجوع إلى تاريخها وتراثها، بل ولن تقوم الأمة من مرقدها إلا إذا حرصت على المكون الثقافي لحضارتها.

ولعل من المظاهر الواضحة لكل ذي لب أن الأمة تعيش حالة من الفوضى الفكرية، وذلك بسبب الخور والنقص الذي يعتريها من الناحية الثقافية والعقدية، فلقد استطاع أعداء الأمة أن يشوهوا تاريخها المشرق، وأن يكدروا صفوها ويعكروا نقاءها.

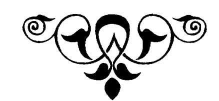
ونحن لا نشك في أن الحقائق التاريخية قد تعرضت للتزوير والتشويه، فهذا واقع مشاهد لا ينكره منصف، ومن ثم وجب على أبناء الأمة المخلصين أن يقوموا بواجب البحث والتحقيق والتنقيح للرواية التاريخية، ووجب عليهم كذلك أن يعيدوا صياغة التاريخ بأسلوب علمي رصين وبِلُغَةٍ معاصرة لا تنفصل

عن التصور الإسلامي، وذلك بعد أن فقدت الأمة كثيرًا من مركز إشعاعها الثقافي وتقطعت أوصال أصولها الحضارية.

ومن هنا كانت هذه المحاولة لفضيلة الشيخ/ عبد الناصر الدياسطي، حفظه الله، فلقد قام بهذا العمل لتصحيح المسار، وذبًّا عن الإسلام، وردًّا على المستشرقين، فلقد بذل جهدًا كبير عبر سنوات طويلة ليخرج العمل بهذه الصورة اللائقة، وقد امتاز هذا الكتاب (التاريخ الإسلامي دروس وعبر) بأنه كتاب جامع، استعرض فيه مؤلفه أهم المحطات التاريخية التي يحتاج إليها قارئ التاريخ، فبدأ المؤلف بالحديث عن الخلافة الراشدة، ثم الدولة الأموية، ثم استعرض تاريخ دولة بني العباس، ثم سلط الضوء على أهم الأحداث الخاصة بالتتار ثم دولة المماليك، وقد أشار باختصار إلى بعض المحطات الرئيسية الخاصة بتاريخ الأندلس،ثم الدولة العثمانية ثم لمحة عن التاريخ المعاصر لبعض الدول العربية وقد التزم المؤلف بالضوابط العلمية للبحث العلمي، ومن أهم هذه الضوابط: ذكر المصادر والمراجع في الهامش، وقد اهتم كذلك بالتخريج والتحقيق، وقد جمع المؤلف بين المصادر الأصلية القديمة والمراجع الحديثة، وكان يسلط الضوء على أهم الدروس المستفادة من كل حقبة تاريخية، فجاء الكتاب معتدلًا بين الإيجاز والإطناب، ليس بالطويل الممل ولا بالقصير المخل، وقد اطلعت عليه وراجعته فوجدته نافعًا في بابه، مفيدًا لطلاب العلم، فالله أسأل أن ينفع به كاتبه ومراجعه وناشره وقارئه في الدنيا والأخرة.

كتبه الفقير إلى عفو مولاه

د. زين العابدين كامل



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعين به، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المُهتدي، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا ﷺ عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾

[آل عمران]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور مُحدثاتها، وكل مُحدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار.

ثم أما بعد:

فـإن إعادة النظر مرة ثانيـة في كتابة تاريخ أمتنا، وإعادة صياغته من جديد صار واجبًا مُتحتمًا ومطلبًا مُلحًّا على العلماء وطلاب العلم النابهين؛ **وذلك لعدة أمور:**

الأول: لمُواجهة هذه الهجمة الشرسـة التي بـدأت قديمًا منذ عهد الخلافة الأموية، وازدادت شراسـتها بعد سـقوط دولـة الخلافة العثمانية أواخر سـنة ١٩٢٣م، والتي تمثلت في تشويه تاريخ الأمة وتزويره وتبديله.

«ولـم تقـف عمليـة التزوير هذه عنـد عصـر دون عصر، بل شـملت حتى الصفحات المُضيئة، والمواقف المُشَرِّفة، لم تسْلم من هذه الحملات»[١].

الثاني: لأن كتب التاريخ مليئة بالروايات الضعيفة والموضوعة التي شوهت تاريـخ أمتنا، فـكان لزامًا علينا تنقيـة هذه المصادر مما علـق بها من كل كذب وتلفيق، لنقدم للعالم أجمع تاريخ أمتنا المشرق.

الثالـث: «لأن أعـداء الإسـلام يحاولـون محو ذاكـرة الأمة وقطـع صلتها بتاريخهـا المجيد، فاعتبروا التاريخ أحد المنابع التـي يجب تجفيفها ليحولوا بيـن المسـلمين وبين أحـد مصادر شـموخهم ونهضتهـم، يقول المستشـرق (شـاتلي): إذا أردتم أن تغزوا الإسـلام وتخضدوا شـوكته، وتقضوا على هذه العقيدة التي قضت على كل العقائد السابقة واللاحقة لها، والتي كانت السبب الأول والرئيسـي لاعتزاز المسـلمين وشموخهم، وسبب سـيادتهم وغزوهم للعالم؛ فعليكم أن توجهوا جهود هدمكم إلى نفوس الشـباب المسلم، والأمة المسـلمة بإماتة روح الاعتزاز بماضيها، وكتابها «القرآن» وتحويلهم عن ذلك بواسطة نشر ثقافتكم وتاريخكم، ونشر روح الإباحية وعوامل الهدم المعنوي، وحتى لو لم نجد إلا بعض المغفلين منهم والسذج والبسطاء لكفانا ذلك، لأن الشجرة يجب أن يتسبب لها في القطع أحد أغصانها»[٢].

الرابع: لأنه يُعالج ذلك المرض الخطير الذي أُصيب به المسـلمون في هذا القرن، وهو مرض الهزيمة النفسية، والذي تسبب في أن يقبع المسلمون في ذيل القائمة بين دول العالم.

---

(١) المدرسة العصرانية ص٤٤٣، للشيخ محمد حامد الناصر، مكتبة الكوثر.

(٢) غزو العالم الإسلامي، للمستشرق (شاتلي) نقلاً عن مقدمة الشيخ محمد إسماعيل لكتاب (حقبة من التاريخ). ص ٥، ط دار الإيمان -إسكندرية.

«إن فهم هذه النقطة المحورية يُعيننا على إدراك أهمية كتابة التاريخ مرة ثانية، فالهجوم على التاريخ الإسلامي، وتنقيصه، وتبديله، وتحريفه، وفي ذات الوقت تعظيم القوى المُعادية كان له أكبر الأثر في نفوس المسلمين بصفة عامة أو من يُظن أنهم يقعون في طليعة المُتحركين لعملية النهضة بصفة خاصة»[(١)].

الخامس: لإخراج جيل مسلم يعرف حقيقة إسلامه، ومن ثم يتمسك به ويُطبقه في عباداته ومعاملاته وأخلاقياته وسلوكياته؛ لذلك لا بُد من صياغة التاريخ صياغة تُبْرَزُ فيها هذه الجوانب التي تُساعد على إيجاد هذا الجيل على هذا النحو.

المقصود بإعادة صياغة التاريخ:

المقصود: «تنقية التاريخ من الشوائب، والأخطاء، والروايات المكذوبة، ومن ثَمَّ إعادة الصياغة والتصحيح وفق المنظور الإسلامي بهدف الكشف عن الحقائق التاريخية من جهة والاستفادة من دراسة التاريخ في مجال التربية والقدوة الحسنة من جهة أخرى»[(٢)].

فلابُد أن يشمل ذلك ثلاثة أمور مهمة:

الأول: إعادة صياغة كتابة التاريخ وفق المنهج العلمي الصحيح بكل حيادية وتجرد.

الثاني: إخراج الفوائد والدروس والعبر من كل حادثة تاريخية، نصرًا كانت أم هزيمة، صائبة كانت أم خاطئة.

الثالث: تربية أفراد الأمة على هذه الفوائد والدروس والعبر، وتفعيل ذلك على أرض الواقع، أقصد واقع الصحوة الجديدة.

---

(١) الذاكرة التاريخية، د/ جاسم سلطان، ص ٤ مُؤسسة أم القرى.

(٢) منهج دراسة التاريخ الإسلامي ص ٩، د/ محمد أمحزون، دار السلام.

وسبيل ذلك يتم بعدة خطوات:

الأولى: تنبيه العلماء وطلاب العلم النابهين إلى وجوب ذلك وأهميته بصفته خطوة عظيمة نخدم بها ديننا وأمتنا في طريق عودتها إلى مكانها الطبيعي على رأس الأمم وفي مُقدمتها وطليعتها.

الثانية: تشكيل مجموعة عمل من العلماء وطلاب العلم، وتفريغهم لهذا الهدف العظيم.

الثالثة: توفير كل المصادر التاريخية، المخطوط منها والمطبوع، القديم منها والحديث، ووضعها تحت تصرفهم.

الرابعة: أن يخرج التاريخ الإسلامي في صورةٍ موسوعية، لا يحتاج الباحث معها إلى غيرها.

الخامسة: قد تصعب هذه الصورة الموسوعية على المسلم المبتدئ أو غير المتخصص أو ذي الثقافة العامة الذي يُريد أن يتعرف بسرعة على أحداث أمته؛ لذلك نقوم بعمل مُختصر غير مُخل من هذه الموسوعة يقرؤه من يُريد على عجل.

تنبيهات مهمة لمن يريد إعادة صياغة تاريخ الأمة

ونحن نُعيد صياغة تاريخ الأمة من جديد لا بُد وأن نتنبه لعدة أمور:

١- يجب علينا -ونحن نُعيد كتابة التاريخ- أن نكتبه بأمانة شديدة وتجرد كبير، فلا نواري الانحرافات، ولا نغفل عن العثرات، بل تُنقد الروايات نقدًا علميًّا وفق مبادئ علم الجرح والتعديل وأصوله، ثم نتبع ذلك باستخراج الفوائد والدروس والعبر كما نستخرجها تمامًا من البطولات والأمجاد، مع التنبيه على أنه يقبل في التاريخ والسير من الروايات ما لا يقبل في الحديث الشريف.

٢- يجب علينا -ونحن نُعيد كتابة التاريخ- أن نعلم أن هذه الانحرافات التي حدثت لأمتنا ليست إلا خطًّا أسودًا، لكنه في صفحة بيضاء تُغطي هذا السواد الضئيل، فإذا أُخفي هذا البياض الكبير الذي يطغى على باقي الصفحة، وأُبرز ذلك السواد القليل الذي لا يُمثل شيئًا يُذكر، فإننا بذلك نكون قد أغفلنا الحقيقة، ودلّسنا، وزورنا هذا التاريخ المُشرق لأعظم أمة أوجدها الله على ظهر البسيطة.

٣- عدم التركيز على ما يسمى بالتاريخ السياسي وحده، والذي قد يصور حياة المسلمين وحُكامَهم بأنها كانت قائمة على الصراعات والمنافسات وسفك الدماء، والخيانات والمكر والدهاء، بل نُعطيه حقه لا أكثر ولا أقل، ثم نُعطي -كذلك- التقدم الحضاري حقه، والتقدم العلمي حقه، والتقدم الاقتصادي، حقه، والترابط الاجتماعي حقه، وصور العدل والتسامح حقها، وصور الرحمة والإنصاف وتطبيق الشرع حقها، وصور التفاعل بين الحاكم والمحكوم حقها، ومظاهر أو صور ترسيخ القيم النبيلة حقها، وهكذا في سياق بديع مُتناسق مُتوازن، يُعطي كل ذي حق حقه.

٤- أن نتنبه ونحن نعيد صياغة التاريخ إلى ضرورة الإلمام بالسنن الكونية الثابتة التي لا تتغير، ولا تتبدل، ولا تحابي أحدًا؛ فالأمم تقوى وتضعف وفقًا لسنن ثابتة، وتزدهر الحضارات وتذبل وفقًا لسنن ثابتةٍ، فمعرفة هذه لسنن تفيدنا تجنب عوامل الضعف والسقوط وتحثنا على الأخذ بأسباب الارتقاء والنهوض، وكذلك مقارنة السنن بالسنن تساعدنا على استشراف المستقبل وتوقع مصير الأمة.

٥- ونحن نعيد صياغة التاريخ لابد وأن يكون ذلك وفق منهج علمي صحيح، منبثق من التصور الإسلامي، والعقيدة الصحيحة عن الله تعالى، والكون والإنسان والحياة.

ومن هنا تظهر أهمية التعرف على المنهج الإسلامي في كتابة التاريخ وتدريسه، وضرورة المعرفة بقواعد هذا المنهج وأهدافه ووسائل تحقيقه والالتزام بذلك، حتى لا تنحرف الدراسات التاريخية عن خط العقيدة ومقتضياتها فتأتي بآراء وتفسيرات مضاده للتصور الإسلامي عن الكون والحياة وسير الأحداث[١].

مَن المُؤرخ ؟!

ليس كل من كتب في التاريخ أو قرأ عنه يكون «مُؤرخًا» ويُطلق عليه اسم «المُؤرخ».

وليس كل من يَعْلق في ذهنه الأحداث الكبرى للتاريخ يكون مُؤرخًا.

وليس كذلك كل من أَسْهَمَ إسهامة، أو جمع ورتّب كتابًا في التاريخ عَلّقه من بين الكتب الأمهات يكون مُؤرخًا إنما المؤرخ الذي يدرس التاريخ، ويدونه، ويعتبر مرجعًا فيه، وحكمًا عليه[٢].

ولابد أن يتصف بعدة صفات:

١- أن يملك من الاستعداد النفسي مايجعله مؤهلًا للكشف عن خفايا التاريخ، واستنباطها، وتقرير أحكامه وترتيبها.

٢- أن يتميز بالذكاء الحاد والفطنة البالغة، حتى يستطيع استيعاب الأحداث التاريخية الكثيرة، والمُتشعبة، والمُعقدة أحيانًا.

أما مَن يستوعب بعض الأحداث الكبرى، أو بعض سطور التاريخ ذات الدلالة الخاصة في صفحته، فيحسن أن نُسميه له عناية بالتاريخ أو له اشتغال بالتاريخ وليس مُؤرخًا.

---

(١) منهج كتابة التاريخ الإسلامي ص ١٠، د/ محمد بن صامل السلمي، ط دار ابن الجوزي.

(٢) من هو المؤرخ؟ مقال للدكتور عماد عبد السلام رؤوف.

٣- أن يتميز بالصبر وطول النفس، حتى يستطيع تتبع الأخبار والروايات والأحداث من مصادرها.

٤- أن يكون على قدر من العلم الشرعي الذي يُؤهله لنقد الروايات التاريخية، والحُكم عليها بما يليق بحالها من حيث الصحة أو الضعف؛ لأنه بدون العلم الشرعي سيخبط خبط عشواء، لا فائدة منه، ولا طائل من ورائه.

٥- أن يكون ذا بصيرة نافذة، قادرة على النفاذ إلى الماضي حتى يستطيع استخراج العبر، واستنباط الدروس، ليضعنا أمام أسباب التدهور والضعف، وأسباب التقدم والقوة والازدهار.

أهمية التاريخ

١- التاريخ ليس مُجرد أقاصيص تُحكى، ولا هو مُجرد تسجيل وقائع وأحداث، إنما يُدرس للعبرة والتربية ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۚ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

وأحوال الأمم في صعودها وهبوطها، ورفعتها وانتكاسها، إنما تخضع لنواميس ربانية ثابتة، لا تُحابي أحدًا، ولا تنحرف عن مسارها من أجل أحد.

٢- التاريخ يُوسع أفق المسلم، ويُطْلعه على أحوال الأمم، وتاريخ الرجال، وتقلبات الأيام بها وبهم، فيرى الإنسان بعين بصيرته كيف تعمل سنة الله في المجتمعات بلا محاباة ولا جور، كيف ترقى الأمم وتهبط؟ وكيف تقوم الدول وتسقط؟ وكيف تنتصر الدعوات و تنهزم؟ وكيف ينجح القادة ويفشلون؟

٣- والتاريـخ هو ذاكرة الأمـم، لو فقدنا هذه الذاكـرة -التي هي كالذاكرة للفـرد تمامًـا- لو فقدناهـا لعدنا أطفالًا لا نعي شـيئًا مما حولنـا على ضخامةٍ أجسامنا، عاجزين أن نتبصر في أنفسنا، أو نشعر بيومنا، أو نتطلع إلى غدنا.

٤- والتاريخ ليس علم الماضي، بل هو علم الحاضر والمسـتقبل؛ فالأمة التي تسـتطيع البقاء هي التي لها ضمير حي تعي به ماضيها، وتُفسـر حاضرها، وتستشرف مستقبلها.

٥- إن الأمـم القوية تُحاول أن تفرض لغتها وتاريخها على الأمم الضعيفة، ولقـد طغت الـدول الأوروبية على الدول الإسـلامية خلال القـرون الماضية، وفرضت تاريخها، بل ودَرَّست تاريخنا إلى أفراخ المُستشرقين، فسطروه بأيديهم وغرسوه في نفوس شبابنا، فخرج جيل بعيد عن أصل عزه ومصدر قوته، لذا فإن هذا الأمر في غاية الخطورة؛ حيث إنه ينشـأ جيل بعد جيل يقرأ ما سُطِّر، فتُصبح المراجع والمصادر لكل باحث هي ما سطره هؤلاء الأوروبيون بأقلامهم.

٦- إن التاريخ يُغير الشخصية المسلمة، ويُحولها تمامًا من الارتجالية إلى المنهجيـة، ومن الجزافية إلى الهدفية، والتاريخ يُعلِّمنا أن القانع قابع، والتواق سـباق، إن التاريـخ يقدح زنـاد الطاقات الكامنـة في النفوس المسـلمة، فيرى العالَمُ من المسلم العجب العجاب.

٧- **قال ابن خلدون:** اعلم أن فـن التاريخ فن عزيز المذهب، جم الفوائد، شـريف الغايـة، إذ هـو يُوقفنا علـى أحوال الماضيـن من الأمـم في أخلاقهم، والأنبياء في سـيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا[١].

---

(١) تاريخ ابن خلدون (١/ ٥)، المكتبة العصرية.

٨- «إن التاريخ الإسلامي تاريخ دين وعقيدة، قبل أن يكون تاريخ دول ومعارك ونُظم سياسية؛ لأن العقيدة هي التي أنشأت هذه الكيانات من الدول والمجتمعات، بنُظمها السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية.

لذلك لابُد للمسلم أن يربط عمله التاريخي بعقيدته ومنهجه، كي يستفيد من الأحداث التاريخية دروسًا وتوجيهات مُثمرة.

هذا وإن التزام الباحث بمنهج العقيدة يرسم له طريقة التعامل مع الحدث، وكيفية معالجته ودرسه، وأخذ العظة منه»[1].

كيف نقرأ التاريخ

أولًا: لا نقرأ التاريخ كما يقرؤه مدرسو التاريخ بالطريقة الرتيبة البليدة، بل نقرؤه بنبض إحساس، وفيض مشاعر، وهَدْي إيمان.

نقرأ التاريخ بنور يختلج في سويداء القلب، نقرؤه بخيالات مجيدة تتلألأ بين أعيننا، نتصور عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على دابته ليأخذ مفاتيح بيت المقدس، ونتصور هارون الرشيد وهو يقول: «سِيري يا سحابة وأمطري فينا، فأينما أمطرت فخراجك يأتينا».

ونتصور المعتصم يُقْبِلُ مُلَبيًّا من بغداد الشمّاء، حيث أبرق سنا الحضارة العباسية الإسلامية للكون، وازدهت بأجمل الحلل، لينقذ فتاة الإسلام الصارخة المُستغيثة.

ونتصور كأنَّا نسمع صهيل خيل عقبة عندما وقف بعزة المُجاهد مُقسمًا: «والله لو كنت أعلم أن وراء هذا البحر أرضًا لخضته غازيًا في سبيل الله».

---

(١) المدرسة العصرانية ص٤٥٢، ٤٥٣ للشيخ محمد حامد الناصر.

نقرأ التاريخ ونحن نبحث بين أسطره عن صفات فارس الفجر الذي سيشع الأمل على يديه من جديد، فيقود الأمة إلى سابق عزها ومجدها.

نقرأ التاريخ مُرددين: «لا لن يشرأب لليأس عنقٌ في فؤادي»، فديار المسلمين تمتد من الصين شرقًا إلى المحيط غربًا، ولن يكون للمغضوب عليهم أو الضالين نجوم أو شهب في فضائنا.

نقرأ التاريخ وكلنا أمل في انبلاج ضوء الفجر، وكلنا أمل في اختراق حاجز الصمت الرهيب الذي أحاط بالأمة، وكلنا أمل في إزاحة الستائر التي تمنع انبعاث النور ليشع على الأمة من جديد.

وثانيًا: نضم إلى ما سبق، أن نقرأ التاريخ كما نقرأ السُّنَّةَ، فنحن إذا قرأنا السنة ننظر إلى الحديث هل هو ثابت أم لا؟

فكذلك إذا قرأنا التاريخ ننظر إلى الحادثة، أثابتة أم لا؟ خاصة أنه -ولله الحمد- قد رُويت معظم أحداث التاريخ لنا بالأسانيد، فلم يبق علينا إلا أن نبحث عن صحة السند والمتن ونتثبت.

وإن وجدنا حادثة بلا سند، فلا يصح قبولها والاحتجاج بها ونشرها بين الناس، خاصةً أن أعداء الأمة من اليهود والنصارى والشيعة قد أكثروا من الكذب في التاريخ.

ولكن قد يقول قائل: لو فعلنا ذلك سيظهر عندنا فترات تاريخية فارغة وسيسقط شيء من تاريخ أمتنا فلا نستطيع الوقوف على أحداثه.

فيُقال: أليس السكوت عن هذه الفترات -وهي بحمد الله لن تكون كثيرة- أوْلى من إلصاق التهم بالتاريخ الإسلامي وتشويهه؟ ومن ثم تربية الأمة جيلًا بعد جيل على تاريخ مُزور مدسوس مكذوب على أمتنا؟!

وأخيرًا

فإنني عندما قرأت في كتب التاريخ، وعلقت هذا المختصر منها، انتابتني عدة مشاعر:

الأول: شعور العز والفخر بتاريخ أمتنا المجيد، فكنت أعيش مع الأحداث التاريخية بقلبي قبل عقلي، حتى إنها شغلتني نائمًا ويقظانًا، وامتلكت عليّ جوارحي وتفكيري، وكنت أشعر بسعادة بالغة، واستعلاءٍ إيمانيٍّ كبير، عندما أقرأ أحداث فتح أو غزوة يقوم بها آباؤنا الأولون، فأتحرك بين الناس بعقلية جديدة، وطموح كبير، لأول مرة في حياتي، كنت أشعر بعز أكاد أطاول به السحاب، ولا تزال كلمات عبادة بن الصامت للمقوقس: «**إنني رجل من ألف ورائي لو رأيتهم لكنت أشد رهبة منهم لي**»، وكلمات خالد بن الوليد لملك الروم: «عَلِمْنا أن دماء الروم أطيب دماء، فجئنا لنشرب منها»، وكلمات عقبة ابن نافع لملك الصين: «**أقسم بالله، لا أدع أرضكم حتى أطأها وأختم ملوككم على أقفائهم وآخذ أموالكم**».

لا تزال هذه الكلمات وغيرها تهز كياني، وتحدث دويَّ عز وفخر في آذاني، وأشتاق لقراءتها مرة بعد مرة.

الثاني: شعور الغربة وأنا أعيش في هذا المجتمع الذي تغيَّر فيه كل شيء عما كان عليه آباؤنا الأولون.

صرنا أذلاء بعد العز، وتحولنا من المتبوعين إلى التابعين، وتبدلت الشريعة وحل محلها القانون الوضعي، وتغير حال حُكامنا؛ فبعد أن كان الأوائل يُطبقون الشرع، ويرفعون لواء الجهاد، يصلون ويحجون ويصومون ويقومون بالليل ويقرأون القرآن، ويرفعون السنة ويُعظمونها، تغير كل ذلك إلى العكس تمامًا.

وبعد أن كان الشباب يعيش لهدف ويعرف الغاية، تاه في أودية الدنيا الزائفة، ووقع في براثن الشهوات.

وبعد أن كان يتسابق إلى ميادين الجهاد، صار يتسابق إلى ميادين النوادي والملاعب وأماكن اللهو.

هذا التغير في كل شيء آلمني، وزادني حسرة على ماضي أمتي العظيم، حتى كنت أقول في نفسي: هل من الممكن أن يعود هذا الماضي العظيم؟، فأقول: نعم. لكني أقول ثانية: متى؟ فأقول: عسى أن يكون قريبًا.

الثالث: شعور المرارة عندما كنت أقرأ في أمهات الكتب كـ«تاريخ الطبري» وغيره، فأجد فيه روايات مُلفقة مكذوبة على هذا الجيل الفريد، والتي تُسيء إلى سمعته، وتُفقد الثقة به، وحينئذ كنت أقول في نفسي: إنه من أوجب الواجبات على الأمة أن تكرس جهودها وتفرغ علماءها وطلاب العلم النابهين لأجل غربلة هذه الكتب الأمهات وتمييز ضعيفها من صحيحها، وإني لأدعو الله عَزَّوَجَلَّ أن يُخْرِجَ لنا ألبانيًّا آخر، يُوقف حياته لهذا الهدف العظيم، فيُخْرج صحيح التاريخ في قسم، وضعيف التاريخ في قسم آخر، كما فعل ألباني السُّنَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وليس ذلك على الله بعزيز.

ثم أُنبه على:

١- أنني استخرجتُ هذا المختصر التاريخي من بين كتب التاريخ، وهو ليس صياغة جديدة للتاريخ فإنني لا أستطيع القيام بذلك، ولكنها إسهامة مني في محو بعضٍ من الصورة السيئة العالقة في الأذهان عن تاريخ أمتنا.

٢- وحاولتُ قدر المستطاع استخراج «**الفوائد والدروس والعبر**» بعد كل حادثة. وأحيانًا أذكر ضمن هذه الفوائد أحداثًا مهمة أو معلومات نفيسة،

لتكون ألصق في ذهن القارئ الكريم، وحتى لا تتوه في زحمة الأحداث التاريخية الكثيرة، والمتشعبة، فليكن ذلك منك على بال.

٣- وكذلك ابتعدتُ كل البعد عن ذكر روايات الكذابين والوضاعين والشيعة المحترقين الذين عاصروا أزمان التدوين، كأبي مخنف لوط بن يحيى، ومحمد بن السائب الكلبي، وسيف بن عمر، وهشام بن محمد بن السائب الكلبي، ونصر بن مزاحم، والواقدي، واليعقوبي، وأبي حنيفة الدَّيْنَوَري، والمسعودي.

٤- وحاولتُ أن أُلقي الضوء على الجوانب العلمية والحضارية لأمتنا العظيمة حتى تكتمل الصورة في ذهن القارئ؛ فمن المعلوم أن الأعداء سلطوا الضوء على الجانب السياسي وما يتبعه من اغتيالات وانقلابات، وأخفوا الجوانب المُضيئة لتخرج الصورة مُشوهة، وقد تم لهم ما أرادوا.

٥- وقمتُ كذلك -ولأجل اكتمال الصورة شيئًا ما في ذهن القارئ- بعمل ترجمة مُختصرة لأبرز علماء السلف المُعاصرين لكل حقبة تاريخية، وأظهرت اهتمام جميع طبقات الأمة حُكامًا ومحكومين بتعظيم الشرع وتطبيقه.

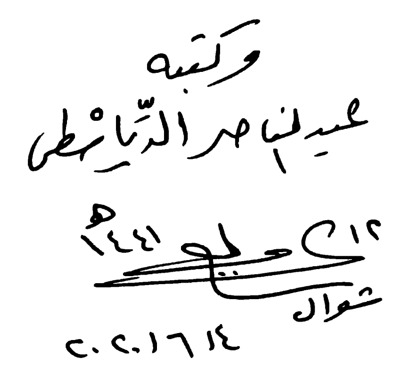
٦- حاولت دفع بعض الشبهات، والرد عليها، والتي أثارها أعداؤنا بغرض تشويه التاريخ، والإساءة إليه.

٧- وابتدأتُ هذا المختصر من أول خلافة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ وذلك لأن فترة السيرة النبوية -على صاحبها الصلاة والسلام- قد أشبعها العلماء بحثًا وكتابة، فلن أُضيف إليها جديدًا، وكذلك لعدم التطويل الذي يمل معه القارئ، متبعًا طريقة التاريخ الموضوعي، فذكرت دولة الراشدين ثم الأمويين ثم العباسيين، معرجًا على أهم الدول التي انفصلت عن الدولة العباسية، كالأمويين في

الأندلس، والأدارسة والأغالبة في بلاد المغرب، والدولة الصفارية والسامانية والغزنوية في بلاد المشرق، والدولة الطولونية والإخشيدية والحمدانية والفاطمية والأيوبية في مصر والشام، ثم ذكرت المماليك والتتار ثم الدولة العثمانية إلى السقوط.

٨- ثم انتقلت إلى الدول العربية، فذكرت نبذة عن تاريخ مصر الحديث والمعاصر إلى ثورة يناير ٢٠١١م، ثم شبه الجزيرة العربية، ثم بلاد العراق وإيران، ثم بلاد الشام.

٩- ثم ختمت الكتابة بخاتمة خيرٍ -إن شاء الله، وذلك من باب التفاؤل- فذكرت كيفية إعادة الأقصى بل الأمة كلها إلى مكان العز والريادة من جديد، سائلاً المولى عز وجل أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم وأن يجعل له القبول في الأرض وأن ينفع به المسلمين، اللهم آمين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.







خلافة

أبي بكر الصديق

رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ

إلى:	من:
جمادى الآخرة ١٣هـ	ربيع الأول ١١هـ

سنتان وثلاثة أشهر وعشرة أيام

الخليفة الأول: أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

اسمه ونسبه وصفته

هو عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعيد بن تميم، يُلقب أبوه بأبي قحافة، وأمه أم الخير سلمى بنت صخر[١].

ولد بعد النبي ﷺ بسنتين وأشهر، فإنه مات وله ثلاث وستون سنة، وكان من رؤساء قريش في الجاهلية وأهل مشورتهم، فلما جاء الإسلام آثره على ما سواه، ودخل فيه أكرم دخول[٢].

حرّم على نفسه الخمر في الجاهلية، حيث رأى رجلًا سكرانًا يضع يده في العذرة يدنيها من فيه، أخرج أبو نعيم بسند جيد عن عائشة قالت: **لقد كان حرم أبو بكر الخمر على نفسه في الجاهلية.**

ولم يسجد لصنم قط[٣]، وكان مؤلفًا لقومه، محببًا سهلاً، وكان أنسب قريش، تاجرًا ذا خلق ومعروف، وكانوا يألفونه لعلمه وتجاربه وحسن مجالسته، فجعل يدعو إلى الإسلام مَن وثق به[٤].

أما صفته: فقد كان أبيَض نحيفًا، خفيف العارضين، منحنيًا لا يستملك إزاره، يسترخي عن حقويه، غائر العينين، ناتىء الجبهة[٥].

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٤١٠)، ط التوفيقية.

(٢) عمدة التحقيق في بشائر آل الصديق، إبراهيم العبيدي المالكي، ص ١٦. ط جمعية المعارف.

(٣) التاريخ الإسلامي (٣/ ٢٨)، محمود شاكر، ط المكتب الإسلامي.

(٤) الإصابة في تمييز الصحابة، الحافظ ابن حجر، ص ٨٠٤، ط بيت الأفكار الدولية.

(٥) تاريخ الطبري (٢/ ٤١٠).

حياته في الإسلام

كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الصاحب الأول لرسـول الله ﷺ، فما أن بُعث ﷺ حتى آمن به أبو بكر وصدقه.

وصحب رسولَ الله ﷺ من حين أسلم إلى حين تُوفي، ولم يفارقه سفرًا ولا حضرًا، إلا فيما أذن له ﷺ في الخروج فيه من حج أو غزو.

وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أشـجع الناس، لا يحيد خطوة عن رسول الله ﷺ يدافع عنه، لـذا لـم تكن له تلك الحركة التـي لحمزة والمقداد والزبيـر وأبي دجانة، ومن هنا لم تظهر شـهرته أمثالهم؛ إذ يُذكر الشـجعان بعدد ما يقتلون من العدو، أما أبو بكر فكان مدافعًا عن شخص رسول الله ﷺ[١].

ولقد كان كريمًا نَفَّاقًا، كان أحيانًا ينفق ماله كله في سـبيل الله، فقد أسلم وله أربعون ألف دينار فأنفقها في سبيل الله[٢].

ولقـد أسـلم عددٌ كبير على يديه مـن كبار الصحابة، منهـم: عثمان، الزبير، عبد الرحمـن بن عوف، سـعد بن أبـي وقاص، طلحة بن عبيـد الله، عثمان بن مظعون، أبو سلمة والأرقم[٣].

الفوائد والدروس والعبر

يالهـا من قـدم مباركة، وعقلية موفقة، تأتي إلى الإسـلام بهـذا الكنز الثمين مـن كبار الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ومنهم خمسـة من المبشـرين بالجنـة، ولم يكتف أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بذلك، بل دعا أمه، ثم أباه، ثم أبناءه، أسماء وعائشة وعبد الله، وخادمـه عامـر بن فهيـرة، هـذا كله يبيـن أهميـة الدعـوة الفردية التـي بدأها

---

(١) التاريخ الإسلامي(٣/ ٣٣)، محمود شاكر.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ص ٨٠٥، الحافظ بن حجر.

(٣) التاريخ الإسلامي (٣/ ٣٤)، محمود شاكر.

أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١] ليكون أول داعية أدى هذه المهمة اقتداءًا بالنبي ﷺ، وهؤلاء العمالقة في تاريخ الإسلام هم ثمرة الدعوة الفردية لأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فتحرك بكل إيجابية وحب لهذا الدين، فكان له دور كبير في وضع أولى اللبنات القوية في صرح هذا الدين، وظل كذلك يدعو، ويبني، ويدافع عن هذا الدين بحماس ذاتي وحب عميق إلى آخر حياته، فرفعه ذلك إلى منزلة لم يصل إليها أحد من الخلق، سوى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وكان إذا مر بعبد يُعذَّب اشتراه وأعتقه ابتغاء وجه الله الأعلى، فاشترى عامر بن فهيرة، وبلال بن رباح[٢].

ثم حان وقت الهجرة، فأمر رسولُ الله ﷺ أصحابه بالهجرة إلى المدينة، فخرجوا أرسالًا، ورسولُ الله ﷺ ينتظر أن يُؤذن له في الهجرة.

وجاء الإذن، فهاجر ومعه أبو بكر، ونزل القرآن يصور ذلك: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: ٤٠].

فكان هذا من أعظم مناقبه، وقال له ﷺ وهما في الغار كما في الصحيحين عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟»[٣].

وفي الصحيحين أيضًا عن البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: اشترى أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من عازب

---

(١) تاريخ الدعوة الإسلامية في عهد الراشدين د/ يسري محمد هاني (١/ ٩٠) ط جامعة أم القرى.
(٢) الإصابة في تمييز الصحابة، ص ٨٠٥. بتصرف.
(٣) السابق.

(والـد البراء) رحـلًا بثلاثة عشـر درهمًا، فقال أبـو بكر لعـازب: مُر البراء فليحمل إليّ رحلي. فقال عازب: لا، حتى تُحدِّثنا كيف صنعت أنت ورسـول الله ﷺ حيـن خرجتما من مكة والمشـركون يطلبونكم ؟ قال أبو بكر: ارتحلنا عن مكة فسـرنا يومنا وليلتنا حتى أظهرنا، وقـام قائم الظهيرة، فرميت ببصري هل أرى من ظل فأوي إليه ؟ فإذا صخرة أتيتها فنظرت بقية ظل لها فسويته، ثم فرشت للنبي ﷺ فيه، ثم قلت له: اضطجع يا نبي الله، فاضطجع النبي ﷺ، ثم انطلقـت أنظر ما حولي، هل أرى من الطلب أحدًا؟ فإذا أنا براعي غنم يسـوق غنمه إلى الصخرة، يريد فيها الذي أردنا، فسألته فقلت له: لمن أنت يا غلام ؟ قال لرجل من قريش. سماه، فعرفته. فقلت: هل في غنمك من لبن؟ قال: نعم. قلـت: فهل أنت حالـب لبنًا لنا؟ قال: نعـم. فأمرته فاعتقل شـاة من غنمه، ثم أمرته أن ينفض ضرعها من الغبار، ثم أمرته أن ينفض كفيه، فقال: هكذا ضرب إحـدى كفيه بالأخرى، فحلب لي كُثبة (قليلًا) من اللبن، وقد جعلت لرسـول الله ﷺ إداوة علـى فمها خرقة، فصببتُ على اللبن حتى برد أسـفله، فانطلقت إلى النبي ﷺ فوافقته قد اسـتيقظ، فقلت: اشـرب يا رسـول الله، فشرب حتى رضيـت، ثـم قلت: قد آن الرحيل يارسـول الله ؟ قال: «بلـى. فارتحلنا والقوم يطلبوننا، فلم يدركنا أحد منهم غيرُ سـراقة بن مالك على فرس له، فقلت: هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله. فقال: «**لا تحزن إن الله معنا**».

الفوائد والدروس والعبر

١ - **قـال الحافظ بـن حجر**: وفي الحديث مـن الفوائد: خدمـة التابع الحر للمتبوع في يقظته والذب عنه عند نومه، وشدة محبة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للنبي ﷺ، وأدبـه معـه، وإيثاره لـه على نفسـه، وفيه أدب الأكل والشـرب، واسـتحباب

التنظيف لما يُؤكل ويُشرب، وفيه استصحاب آلة السفر كالإداوة والسفرة، ولا يقدح ذلك في التوكل[١]

٢ -ذكر **ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن أبا بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ليلة انطلق مع رسول الله ﷺ إلى الغار، كان يمشي بين يديه ساعة، ومن خلفه ساعة، فسأله، فقال: «أذكر الطلب فأمشي خلفك، وأذكر الرصد فأمشي أمامك»، فقال ﷺ: «لو كان شيء أحببت أن تقتل دوني؟» قال: «إي والذي بعثك بالحق»[٢].

٣ - عن عبد الله بن أحمد بن حنبل في زيادات المسند، عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ «أبو بكر صاحبي ومؤنسي في الغار»[٣]

ودخل رسول الله ﷺ المدينة في استقبال مهيب رهيب، ومعه أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ثم مرض أبو بكر مرضًا شديدًا بالحُمَّى، فدعا رسول الله ﷺ قائلًا: «**اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، وصححها وبارك في صاعها ومُدِّها، وانقل حُمّاها فاجعلها بالجحفة**»[٤].

ويوم بدر استشار رسول الله ﷺ أصحابه في خوض المعركة، فتكلم أبو بكر فأجاد، وانتهت المعركة بنصر كبير للمسلمين.

وكان عبد الرحمن بن أبي بكر مع المشركين في هذه المعركة، فقال مرة لأبيه بعد أن أسلم: لقد أَهْدَفْتَ لي يوم بدر، فَضِفْتُ عنك، ولم أقتلك. فقال له أبو بكر: ولكنك لو أهدفت لي لم أَضِف عنك؛ لأن الإسلام لا يتفق والشرك أبدًا.

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر (٨/ ٣٢٢) ط دار طيبة.

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١/ ٥٤) ط الرسالة.

(٣) قال الحافظ: رجاله ثقات، (الفتح ٨/ ٣٢٢).

(٤) البخاري، كتاب الدعوات، ومسلم، كتاب الحج.

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وفي أُحد ثبت أبو بكر حول رسول الله ﷺ ثبوت الجبال يدافع عنه.

ثم كانت غزوة بني المصطلق، وكان فيها حادث الإفك، ثم نزلت براءة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فأقسم أبو بكر ألا ينفق على مسطح بن أثاثة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]، فقال: والله إني لأحب أن يغفر الله لي. ثم أعاد النفقة، وكان مسطح قد جُلد في حادثة الإفك.

ثم جاء صلح الحديبية، فشعر المسلمون ببعض الانقباض من جراء الصلح، ومنهم عمر، فكلم النبي ﷺ في الصلح، فقال له رسول الله ﷺ: إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري. فقال عمر: أولست كنت تحدثنا أننا سنأتي البيت فنطوف به؟، فقال له رسول الله ﷺ: أَوَ أخبرتك أنا نأتيه هذا العام؟ قلت: لا. قال: فإنك آتيه ومطوفه.

ثم أتى عمرُ أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فكلمه، فقال له أبو بكر: أيها الرجل، إنه رسول الله ﷺ وليس يعصيه، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه. فقال عمر: أوليس كان يحدثنا أننا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: أفخبرك أنك تأتيه هذا العام؟ قلت: لا، قال: فإنه أتيه ومطوف به. فكانت أجوبته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تشبه أجوبة الرسول ﷺ[1]

---

(١) التاريخ الإسلامي (٣/ ٤١)، لمحمود شاكر.

وفي غزوة تبوك كانت راية المسلمين بيد أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثم في حنين انهزم المسلمون، فثبت رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر وعمر وعلي والعباس والفضل بن العباس وأبو سفيان، ثم عاد المسلمون فاجتمعوا إلى رسول الله ﷺ وانتصروا ثانية.

وأجمع أهل السير على أن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يتخلف عن رسول الله ﷺ في مشهد من المشاهد(١) ثم بعثه رسول الله ﷺ أميرًا على الحج سنة تسع للهجرة(٢).

ثم ذهب رسول الله ﷺ ليصلح بين بني عمرو بن عوف من الأوس، وأمر بلالًا أن يقدم أبا بكر للصلاة إن هو تأخر، وكان ذلك، ثم رجع رسول الله ﷺ وأبو بكر في الصلاة، فنبهه المسلمون، فرجع، فأشار إليه ﷺ أن يثبت، لكنه رجع وتقدم النبي ﷺ.

ثم أمر ﷺ لما ثَقُل به أن يؤم الناسَ أبو بكر، وكان هذا إيذانًا وإعلامًا بإمرة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٣).

ثم تُوفي رسول الله ﷺ، فوقف عمر وتكلم، فجاء أبو بكر فأسكته، ثم قال: من كان يعبد محمدًا ﷺ فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ في السماء لا يموت، وتلا: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾(٤) [آل عمران: ١٤٤].

---

(١) تحفة أهل التصديق ببعض فضائل الإمام أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جلال الدين المحلي، ص ١٣٧ ط الدار السلفية.

(٢) الرياض النضرة في مناقب العشرة (١/ ١٦٣) ط دار الكتب العلمية. بتصرف

(٣) السابق (١/ ١٧٠). بتصرف

(٤) نفسه (١/ ١٤١).

مُبايعة الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

تُوفي رسـول الله ﷺ، وشـعر الأنصار أنهم بحاجة ماسَّـة إلـى اختيار خليفة منهم يتولى شئون المدينة؛ **وذلك لأمور منها:**

١- أن مدينتهم مهـددة من الأعراب ورجال القبائل، خاصة أن أكثرهم لم يدخل في الإيمان بعد.

٢- أنهـم محل هـدف العدو أكثر مـن غيرهم؛ لأنهـم آووا الدولـة الحديثة ونصروا رسول الله ﷺ، وفتحوا بيوتهم للمهاجرين فتمكنوا من إخضاع العرب.

٣- أن المهاجريـن ربمـا يتركون المدينة ويرجعون إلـى بلدهم مكة، فهم تركوها لأنها كانت بلد كفر، أَمَا وإنْ صارت بلد إسلام فلا مانع حينئذ -في نظر الأنصار- من العودة إليها، خاصة أن أموالهم وبيوتهم ما زالت هناك بمكة، بل إن هذا خطر في بال الأنصار في فتح مكة، وصرحوا به لرسول الله ﷺ، فأجابهم ﷺ بما طمأن نفوسـهم قائـلًا: «**فوالذي نفس محمد بيده لـولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سـلك الناس شـعبًا وسَـلَكَتِ الأنصار شـعبًا، لسلَكْتُ شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار**».

إذن فمـادام أن هذا الشـعور موجود لدى الأنصار، فهـم المعنيون بالدرجة الأولى بإيجاد الخليفة، بِغَضِّ النظرِ عن وجود المهاجرين.

لذا اجتمعوا في السـقيفة وحدهم، والخزرج هم أكثر الأنصار، وسيدهم سعد بن عبادة من كبار الصحابة، ومن الذين تركهم رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، لذا فقد بايعوه بالخلافة، وقد كان مريضًا، فقال لابنه: إني لا أقدر لشكواي أن أُسمع القوم كلهم كلامي، ولكنك تَلَقَّ مني قولي فأسمعهموه، وتمت البيعة لسعد.

أما المهاجرون فقد كانوا أكثر بعدًا عن هذا الموضوع، بعضهم شغل بوفاة رسول الله ﷺ، وبعضهم لم يُفكر في اختيار الخليفة، إذ إن النبي ﷺ لم يُدفن بعد.

وإذ الأمر كذلك إذ جاءهم الخبر باجتماع الأنصار في السقيفة لاختيار الخليفة، فأدرك المهاجرون أهمية هذا الأمر لتسيير الأمور، حتى لا يحدث خلاف واختلاف[١].

فقال عمر لأبي بكر: انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار. فانطلقا، ووجدا أبا عبيدة في طريقهما، فاصطحباه حتى السقيفة.

فلما دخلوا عليهم، قام خطيب الأنصار فحمد الله وأثنى عليه، وقال: أما بعد، فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشر المهاجرين حي منا، وبلغنا أنكم أردتم أن تحضنوا الأمر من دوننا، وإن رسول الله ﷺ كان إذا استعمل رجلًا منكم، قرن معه رجلًا منا، فأرى أن يلي الأمر رجلان، أحدهما منا، والآخر منكم[٢].

يقول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فلما قضى الأنصاري مقالته أردت أن أتكلم، وكنت زَوَّرْتُ في نفسي مقالة أعجبتني أريد أن أقوم بها بين يدي أبي بكر، فلما أردت الكلام، قال أبو بكر: على رِسْلك. فكرهت أن أغضبه، وقد كان أحلم مني وأوقر، فتكلم، فوا الله ما ترك من كلمة أعجبتني إلا وأتي بمثلها أو أحسن منها في بديهته،

---

(١) التاريخ الإسلامي، محمود شاكر الخرستاني (٣/ ٤٧)، بتصرف واختصار، وقد ذكر البخاري هذا الحديث في صحيحه برقم (٣٦٦٨) كتاب الفضائل.

(٢) قال الحافظ: قال ابن التين: إنما قالت الأنصار: «منا أمير ومنكم أمير» على ما عرفوه من عادة العرب ألا يتأمر على القبيلة إلا من يكون منها، فلما سمعوا حديث «الأئمة من قريش» رجعوا عن ذلك وأذعنوا (الفتح ٨/ ٣٥٧).

ولم يدع شيئًا أُنزل في القرآن أو قاله رسول الله ﷺ إلا ذكره، فقال: لقد علمت أن رسول الله ﷺ قال: «لو سلك الناس واديًا وسلك الأنصار واديًا لسلكت وادي الأنصار، وما ذكرتم فيكم من خير فأنتم أهله، ولكن العرب لا تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، هم أوسط (أحسن) العرب دارًا ونسبًا، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم. وأخذ بيدي ويد أبي عبيدة، فو الله ما كرهت من مقالته غيره؛ ولأن أقدم فتضرب عنقي لا يكون في ذلك إثم أحب إليّ من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر».

الأنصار يتراجعون

فقالوا: والله ما نحسدكم على خير ساقه الله إليكم، ولا أحد أحب إلينا ولا أرضى عندنا منكم، ولكن نشفق مما بعد اليوم، فلو جعلتم اليوم رجلا منكم فإذا هلك جعلنا رجلًا منا، فإذا هلك اخترنا منكم وهكذا إلى الأبد.

فقال عمر: لا ينبغي هذا الأمر ولا يصلح إلا لرجل من قريش، ولن ترضى العرب إلا به، ولن تعرف الإمارة إلا له.

ثم وقف الحباب بن المنذر، وقال: منا أمير ومنكم أمير[1].

فقال عمر: لا يجتمع اثنان في قرن، والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم وبنيها من غيركم، ولنا بذلك الحجة الظاهرة والسلطان المبين، من ذا ينازعنا سلطان محمد ﷺ وإمارته ونحن أولياؤه وعشيرته.

---

(١) أضاف الحباب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما عند ابن سعد: فإنا والله ما ننفس عليكم هذا الأمر ولكنا نخاف أن يليها أقوام قتلنا آباءهم وإخوتهم «ذكره الحافظ في الفتح (٨/ ٣٥٥) ط دار طيبة، يعني: يخافون لو تولوا أن ينتقموا منهم، وهذا سبب آخر يضاف إلى ما سبق من أسباب استعجال تولية الخليفة من الأنصار وكذلك من أسباب ذلك أنهم ظنوا أن لهم في الخلافة حقًّا مجتهدين في ذلك.

فقال أبو عبيدة: يا معشر الأنصار، إنكم أول من نصر وآزر، فلا تكونوا أول من بدّل وغيّر.

فقام بشير بن سعد الأنصاري، فقال: يا معشر الأنصار، إنا والله لئن كنا أَوْلى فضيلة في جهاد المشركين وسابقة في هذا الدين، ما أردنا به إلا رضاء ربنا وطاعة نبينا ﷺ، فما ينبغي أن نستطيل به، ولا نبتغي به عرضًا من الدنيا، فإن الله ولى النعمة علينا، ألا إن محمدًا ﷺ من قريش، وقومه أحق به وأولى، ولا يراني الله أنازعهم في ذلك الأمر أبدًا، فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم.

وقام أسيد بن حضير الأنصاري ودعا إلى بيعة المهاجرين.

وقال عمر للأنصار: ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قدم أبا بكر للصلاة؟ قالوا: بلى.

قال: فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم من قدمه رسول الله ﷺ.

قالوا: نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر[١].

ثم قال زيد بن ثابت الأنصاري: إن رسول الله ﷺ كان من المهاجرين، وإن الإمام إنما يكون من المهاجرين، ونحن أنصاره كما كنا أنصار رسول الله ﷺ.

وعندما رأى الأنصار أن المهاجرين سيبقون في المدينة ولن يغادروها، اقتنعوا بأنهم أولى بهذا الأمر[٢]، فأخذ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بيد أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقال: من له هذه الثلاثة؟ «إذ هما في الغار» من هما ؟ «إذ يقول لصاحبه» مَن صاحبه؟ «إن الله معنا» مع من ؟ ثم بسط يده فبايعه، ثم قال: بايعوه. فبايعه الناس[٣]،

---

(١) رواه أحمد في المسند (١/ ٢١٣) وقال الشيخ أحمد شاكر : إسناده صحيح.

(٢) موجز التاريخ الإسلامي، أحمد العسيري ص ١٠٠ ط مكتبة كتب التاريخ.

(٣) فتح الباري، لابن حجر (٨/ ٣٥٧) وأسند الأثر للبزار وغيره وصححه الألباني في مختصر الشمائل المحمدية برقم (٣٣٣) ط مكتبة المعارف

ولم يبق أحد لم يبايع في السقيفة حتى سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقد بايع هو الآخر في أعقاب النقاش الذي دار في السقيفة، ففي المسند أن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال له: ولقد علمت يا سعد أن رسول الله ﷺ، قال وأنت قاعد: «**قريش ولاة هذا الأمر، فَبَرُّ الناس تبع لبرهم، وفاجر الناس تبع لفاجرهم**». فقال سعد: صدقت، نحن الوزراء وأنتم الأمراء[١].

كما أن اللقاء في السقيفة لم يكن غرضه الاستئثار بالخلافة، أو الرغبة في الزعامة والوجاهة، ولكن كانت المصلحة العامة للإسلام والمسلمين لا غير خوفًا على وضع المدينة.

وفي اليوم الثاني من البيعة نودي للصلاة، ووقف أبو بكر على المنبر، وقام عمر بين يديه وقَبَّله، وقال: إن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله ﷺ وثاني اثنين إذ هما في الغار، وأولى الناس بأموركم، فقوموا فبايعوه.

فبايع الناس بيعة عامة بعد بيعة السقيفة، ولم يتخلف أحد عن البيعة إلا الذين كانوا مشغولين بتجهيز رسول الله ﷺ، فلما انتهوا من ذلك بايعوه[٢].

الفوائد والدروس والعبر

١- مكانة سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند الأنصار خاصة والصحابة عامة، فهو سيد الخزرج وأحد النقباء يوم العقبة الثانية، كان شريفًا في قومه، شهد جميع المشاهد مع رسول الله ﷺ، زاره رسول الله ﷺ في بيته ورفع يديه داعيًا: «**اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد**»[٣]

---

(١) صححه الألباني بشواهده في السلسلة الصحيحة برقم (١١٥٦).

(٢) البداية والنهاية (٧/ ٨٩). بتصرف.

(٣) قال الحافظ في الفتح (١١/ ١٤٢) : سنده جيد.

٢- فضيلته كذلك في تقديمه المصلحة العامة على المصلحة الخاصة؛ إذ إنه لم يُنافس على الرياسة، ولم يعترض على ما حدث رغم مبايعته أول الأمر، وعندما ذَكَّره أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بحديث النبي ﷺ أذعن وانقاد مباشرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جميعًا، **قال شيخ الإسلام**: وفيه فائدة جليلة جدًّا (يعنى: حديث نحن الوزراء) وهي: أن سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نزل عن مقامه الأول في دعوى الإمارة وأذعن للصديق بالإمارة -فرضي الله عنهم جميعًا[١].

٣-جواز تهيئة الخطبة وتحسينها بالكتابة أو غيرها قبل الشروع في خطبتها، وإذا لم يفعل ذلك الخطيب وشرع في الخطبة من حفظه فهذا هو الأفضل كما فعل أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢].

٤-معرفة الأنصار فضل المهاجرين ومكانتهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جميعًا.

٥- حكمة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ العظيمة في فض النزاع في السقيفة، وذلك أنه بادر فأخذ بيد أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فبايعه، فانصب الناس وتتابعوا في مبايعة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وانفض النزاع، والحمد لله تعالى[٣].

٦-بلاغة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فقد تكلم في السقيفة فأجاد وأفاد حتى قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فتكلم أبلغ الناس»[٤].

٧-أن بيعة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تمت بعد مشاورات بين فضلاء المهاجرين والأنصار، وفي هذا دلالة على أن الذي يقوم بالاختيار هم فضلاء القوم

---

(١) منهاج السنة (١/ ٣١٧) ط دار الحديث - القاهرة.

(٢) فقه الخطابة وزاد الخطيب ص ٢١، أبو عائش عبد المنعم إبراهيم، مكتبة الإيمان بالمنصورة.

(٣) الدروس والعبر المستفادة من حادثة سقيفة بني ساعدة، د/ عبد الملك بن ظافر (مقال).

(٤) الإمامة العظمى، عبد الله بن عمر الدميجي ص ١٤٨ ط دار طيبة.

وعلماؤهم ورؤساؤهم، وهم من يسمون بـ «أهل الحل و العقد»[١].

٨-مشروعية البيعة للخليفة المختار من قِبل أهل الحل والعقد أولًا، ثم مِن قبل عامة المسلمين ثانيًا، كما تم لأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٩-لا يشترط في الانتخاب حضور جميع أهل الحل والعقد، كما لم يضر تخلف علي والزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، إذ تخلفا لتجهيز النبي ﷺ، وإن كانا بايعاه بعد ذلك.

١٠-فيه دليل على أنه لا يمكن أن يكون للمسلمين خليفتان، ويستحيل أن يفعل المسلمون ذلك في أحوال الأمة الطبيعية، لأنه سبيل إلى الفرقة والخلاف.

١١-فقه الأنصار وفضلهم، وحُسن تصرفهم في مواطن الفتن والمضايق، ونبل معدنهم مما يجعلهم ظاهرة فريدة يستحيل أن تتكرر في التاريخ بهذه الصورة، قال رسول الله ﷺ: «الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق، فمن أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله»[٢] وكان رسول الله ﷺ يحبهم، وكانوا يحبونه، مما جعل الصحابة جميعًا يُجِلُّونهم، روى البخاري ومسلم عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «خرجت مع جرير بن عبد الله البجلي في سفر فكان يخدمني، فقال أنس لا تفعل، فقال جرير: إني قد رأيت الأنصار تصنع برسول الله شيئًا، آليت أن لا أصحب أحدًا منهم إلا خدمته».

١٢-مكانة عمر وأبي عبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عند أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وزهد الجميع في الرئاسة والقيادة، أما في التاريخ الحديث فنجد أن حب الرئاسة وصل إلى درجة تذبح فيها الأوطان، وتُهان الشعوب كي تبقى الرئاسة ويبقى الرئيس[٣].

---

(١) الإمامة العظمى، عبد الله بن عمر الدميجي ص ١٤٨.

(٢) البخاري كتاب مناقب الأنصار، ومسلم كتاب الإيمان.

(٣) هل يُعيد التاريخ نفسه؟ ص ١٥، الشيخ محمد العبدة، بتصرف. الناشر: المنتدى الإسلامي.

١٣-اتفـاق الصحابة كلهم على تقديم أبـي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على غيره ومعرفة فضله.

١٤-جواز تقبيل يد العالم ورأسـه، ولكن حيث تؤمن الفتنة ؛ لأن ذلك من مدح الرجل في وجهه، فتُراعى فيه الضوابط الشرعية والمصلحة والمفسدة.

١٥-براعة الصديق الأكبر في كيفية تعامله مع النفوس، وقدرته على الإقناع والوصـول بسـفينه الصحب الكرام إلى بـر الأمان دون تعريضها للفتن وشـر الاختلاف.

١٦-قول الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «العرب لا تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي»، أي: لن تجتمع الأمة وتسمع وتطيع إلا لمن هذا شأنه، وهذا من فقه الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالواقع ومراعاة حال الناس والظروف والملابسات التي تحيط بالأمة، فالحكمة تقتضي أن يتولى الأنسـب الـذي تجتمع عليه الأمـة وإن كان أقل فضلًا وعلمًا وصلاحًا، وأن يؤخر الأعلم والأتقى والأورع إذا افترقت عليه الأمة واختلفت.

أول خطبة للصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

كانت أول خطبة خطبها الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال:

أما بعد:

أيها الناس، قد وُليت عليكم ولسـت بخيركم، فإن أحسـنت فأعينوني، وإن أسـأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف منكم قوي عندي حتى أُزيح علته، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق إن شـاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سـبيل الله إلا ضربهم الله بالذُّل، ولا يشـيع قوم الفاحشـة

إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ﷺ، فإذا عصيت الله ورسوله ﷺ فلا طاعة لي عليكم[١].

الفوائد والدروس والعبر

١- فيه دليل على جواز تولية المفضول مع وجود الفاضل لقول الصديق: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «ولست بخيركم»، وتكون بيعته صحيحة وطاعته واجبة.

٢- وفيه دليل على أن الأمة -متمثلة في أهل الحل والعقد- لها حق مراقبة الحاكم ونصحه وتقويمه عند الزيغ والشطط، وعلى الحاكم أن يستجيب لذلك، والشيء المُحزن أن كثيرًا من الدول الإسلامية[٢] تُعرض عن هذا النظام الحكيم، فعظمت مصيبتها في تسلط الحكام وجبروتهم، والتخلف الذي يعم معظم ديار المسلمين ما هو إلا نتيجة لتسلط بغيض، ودكتاتورية لعينة أماتت في الأمة روح التناصح والشجاعة، وبذرت فيها وزرعت بها الجبن والفزع[٣].

٣- تذكير القائد والرئيس رعيته بأهمية الصدق، وقبح الكذب وأنه من الأخلاق المدمرة للأفراد والجماعات والدول، أما تسمية الكذب في عصرنا بـ «**السياسة**»، وأن «**السياسة لا تعرف الصدق**»، فهذا من دعاوَى الأبالسة والدجاجلة المُنحلين عن التزام الدين، وهو من باب تسمية الأشياء بغير اسمها، وهي سُنة إبليسية قبيحة.

٤- من أعظم مهمات الرئيس والقائد إقامة العدل ومنع الظلم؛ إذ بهما تبقى

---

(١) أورد الخطبة ابن كثير في «البداية والنهاية» (٧/ ٨٩) عن ابن اسحاق قال: حدثني الزهري: حدثني أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فذكره، وقال: هذا إسناد صحيح.

(٢) كذا قال، والصواب أن يُقال كل الدول الإسلامية الآن، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(٣) تاريخ الدعوة إلى الإسلام (١/ ٢٤٩) د/ يسري محمد هاني، جامعة أم القرى - معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي.

الأمم والدول وبدونهما يُقضى عليها وتزول، وهذه سُنة الله تعالى في خلقه، **يقول ابن تيمية**: فإن الناس لم يتنازعوا في أن عاقبة الظلم وخيمة وعاقبة العدل كريمة، ولهذا يروى: أن «الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة»[١]، فبالعدل تستصلح الرجال وتستغزر الأموال.

٥- إعلان التمسك بالجهاد، وتهيئة المجتمع لذلك، وتذكير الرعية بأن ترك الجهاد ذُل ومهانة وضعف واستضعاف، كما قال ﷺ: **"إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلًّا لا ينزعه حتى تراجعوا دينكم"**[٢].

٦- **وهي من أهم الفوائد**: أن ولي الأمر الشرعي من يلتزم مقاصد الإمامة، **وهي تتمثل في مقصدين**:

أولاهما: إقامة الدين؛ وإقامته تكون بحفظه وتطبيقه.

الثاني: سياسة الدنيا بالدين، ويشمل ذلك فصل الخصومات، وإقامة الحدود والعقوبات، والعمل على سد حاجات المحاويج ومداواة المرضى والزمْنى والتيسير على مريدي الزواج، وتوفير الحاجات الأساسية للأمة.

ويلتزم للأمة بإقامة معاني الإحسان والإيمان والإسلام، وأن يفي للأمة بمقتضى العقد والبيعة، فقد بايعته الأمة على إقامة العدل والإنصاف، والقيام بفروض الإمامة، وبايعته على إقامة الشرع، فمتى وفَّى لها بما بايعته عليه، وفَّت له الأمة بحق السمع والطاعة والنصرة والمناصحة، ومتى نقض العهد ونكث البيعة، فقد حل من رقبة الأمة كل ما يتعلق ببيعته والسمع له، والطاعة وقد

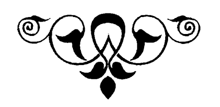
---

(١) (الحسبة) لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٧ ط دار الكتب العلمية.

(٢) رواه أبو داود، وصححه الألباني برقم (٣٤٢٦).

قيدت السنة المطهرة السمع والطاعة بقيد إقامة الشريعة «اسمعوا وأطيعوا وإن أُمِّر عليكم عبد حبشي ما أقام فيكم كتاب الله» قال عياض: أجمع العلماء على أنه لو طرأ عليه كفر أو تغيير للشرع أو بدعة خرج عن حكم الولاية وسقطت طاعته ووجب على المسلمين القيام عليه وخلعه، ونصب إمام عادل إن أمكنهم ذلك[١] والمقصود بالبدعة أي: المكفرة، وقال ابن حزم: الإمام واجب طاعته ما قادنا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فإن زاغ عن شيء منهما منع من ذلك، وأقيم عليه الحد والحق، فإن لم يؤمن أذاه إلا بخلعه خلع وولي غيره»[٢].

٧- يتبين من كلام الصديق رضي الله عنه أن الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا، وعقدها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع[٣]، فولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين إلا بها، فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع، ولابد لهم عند الاجتماع من رأس، لأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولايتم ذلك إلا بقوة وإمارة، وكذلك سائر ما أوجب من الجهاد والعدل وإقامة الحج والجمع والأعياد ونصر المظلوم وإقامة الحدود لاتتم إلا بالقوة و الإمارة.[٤]



(١) شرح مسلم للنووى (١٢/ ٢٢٩).

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٤/ ١٧٦).

(٣) الماوردي، الأحكام السلطانية ص ٥، ط دار الحديث - القاهرة.

(٤) السياسة الشرعية لابن تيمية ص ٧٩ نشر وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد.

شبهات وردود حول البيعة

أولًا: تَخَلّف سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن البيعة

والجواب: أنه ما تخلف، بل كان من المُبايعين في السقيفة لأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم جميعًا، ولم يثبت بالسند الصحيح أنه تأخر عن مبايعته أو نافس المهاجرين على الإمارة، كما يُروج بعض الكُتَّاب من أصحاب الأهواء والقلوب الحاقدة على الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم، مُعتمدين على كبير الوضاعين والأفاكين أبي مخنف الذى امتلأ تاريخ الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ من الرواية عنه، ولا يعتمد على روايته إلا الشيعة حيث إنه من أعظم مؤرخيهم؛ إذ لا يصح حرف واحد عن تأخر سعد بن عبادة، ولا منافسته لأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولا عن تأخره عن الصلاة، وهذا هو اللائق بسعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ولله الحمد، بل الثابت في مسند أحمد أنه قال لأبي بكر: «نحن الوزراء وأنتم الأمراء»، وقد مر الحديث[١].

ثانيًا: أُشيع أن أبا سفيان حَرَّضَ عليًا والعباس

والجواب: يُستبعد مثل ذلك على أبي سفيان، فإنه أسلم وحَسُن إسلامه، ولا يمكن كذلك أن يَقبل منه ذلك عليٌّ والعباسُ وهما على تلك الصورة من الإيمان.

ثم إن هذا الخبر لو صح لكان عَلَى أبي بكر أن يسأل أبا سفيان عن هذا التصرف الذي يُؤدي إلى الفرقة والخصام، ولَمَّا لم يحدث هذا فعُلم قطعًا أنه من تصرف بعض الرواة وليس له حقيقة ثابتة[٢].

---

(١) الأنصار في العهد الراشدي، د/ حامد محمد الخليفة، ص ١٢٠ مكتبة الصحابة - الإمارات، وهي رسالة دكتوراه، وقد عزا الأثر إلى الطبري (٣/ ٢٢٣) والمنتظم في تواريخ الملوك والأمم، لابن الجوزي (٣/ ٢١٦).

(٢) حقبة من التاريخ، للشيخ عثمان الخميس، ط دار الإيمان بالأسكندرية.

ثالثًا: أُشيع أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوصى لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

والجواب: أنه لم يأت بذلك نقل صحيح يعتمد عليه، بل كل ما ورد ضعيف غاية الضعف، بل موضوع مختلق، من وضع الشيعة الروافض، وفي الصحيحين قيل لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إنهم يقولون: إن رسول الله ﷺ أوصى إلى علي. فقالت: بما أوصى إلى عليٍ؟ لقد دعا بطست ليبول فيه وأنا مسندته إلى صدري فانخنث فمات، وما شعرت، فيم يقول هؤلاء إنه أوصى إلى علي[1] ؟» وفي البخاري: «قال العباس لعلي: والله إني لأرى في وجه رسول الله ﷺ الموت فاذهب بنا إليه فنسأله فيمن هذا الأمر ؟ فقال علي: إني لا أسأله ذلك، والله إن منعناها لا يعطيناها الناس بعده أبدًا»[2]. وفي الصحيحين أن عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خطب، فقال: «من زعم أن عندنا شيئًا نقرؤه ليس في كتاب الله وهذه الصحيفة - لصحيفة معلقة في قراب سيفه فيها أسنان الإبل وأشياء من الجراحات - فقد كذب»[3]. ولو كان من الأمر كما زعم الشيعة لما ردّ ذلك أحد من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فإنهم كانوا أطوع لله و لرسوله ﷺ في حياته وبعد وفاته من أن يفتاتوا عليه فيقدموا غير مَن قدمه، حاشا وكلا، ومن ظن بالصحابة رضوان الله عليهم الفجور والتواطئ على معاندة الرسول ﷺ ومضادتهم في حكمه ونصه فقد خلع ربقة الإسلام وكفر بإجماع الأمة الأعلام، ثم لو كان مع علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نص فلم لا كان يحتج به على الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على إثبات إمارته عليهم وإمامته لهم[4] ؟ وهو القوي في الحق المجاهر به، الذي لا يخاف في الله لومة لائم.

---

(١) البخاري كتاب الوصايا، ومسلم كتاب الوصية.

(٢) البخاري كتاب المغازي.

(٣) البخاري كتاب الجزية، ومسلم كتاب الحج.

(٤) خلافة أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ د/ محمد بن صامل السلمي ص ٦٨.

رابعًا: أشيع أن عليًا والزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **تأخرا في بيعة الصديق** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

والجواب: أنه ثبت بالسند الصحيح أن عليًّا والزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بايعا الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في اليوم التالي مباشرة.

يقول ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: وقد اتفق الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على بيعة الصديق في ذلك الوقت حتى علي بن أبي طالب والزبير بن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وأرضاهما، والدليل على ذلك ما رواه البيهقي عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «قُبض رسول الله ﷺ واجتمع الناس في دار سعد بن عبادة وفيهم أبو بكر وعمر، قال: فقام خطيب الأنصار، فقال: أتعلمون أن رسول ﷺ كان من المهاجرين وخليفته من المهاجرين، ونحن كنا أنصار رسول الله ﷺ فنحن أنصار خليفته، كما كنا أنصاره.

قال: فقام عمر بن الخطاب، فقال: صدق قائلكم، ولو قلتم غير هذا لم نتابعكم، فأخذ بيد أبي بكر، وقال: هذا صاحبكم فبايعوه. فبايعه عمر، وبايعه المهاجرون والأنصار، قال: فصعد أبو بكر المنبر فنظر في وجوه القوم، فلم ير الزبير، قال: فدعا بالزبير فجاء، قال: قلت: ابنُ عمة رسول الله ﷺ وحواريه، أردتَّ أن تشق عصا المسلمين؟!، قال: لا تثريب يا خليفة رسول الله ﷺ، فقام فبايعه، ثم نظر في وجوه القوم، فلم ير عليًّا، فدعا بعلي بن أبي طالب، فجاء، فقال: قلت: ابنُ عم رسول الله ﷺ وختَنَهُ على ابنته، أردت أن تشق عصا المسلمين؟ قال: لا تثريب يا خليفة رسول الله ﷺ، فبايعه».

قال الحافظ أبو علي النَّيْسابوري: سمعت ابن خزيمة يقول: جاءني مسلم بن الحجاج، فسألني عن هذا الحديث، فكتبته له في رُقعةٍ وقرأتُ عليه، فقال:

هذا يساوي بدنة، فقلت: يساوي بدنة!! بل يسوي بَدَرة[١][٢]. وعلق ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ **على هذا الحديث بقوله**: هذا إسناد صحيح محفوظ، وفيه فائدة جليلة، وهي مبايعة علي بن أبي طالب، إما في أول يوم أو في اليوم الثاني من الوفاة، وهذا حق، فإن علي بن أبي طالب لم يفارق الصديق في وقت من الأوقات، ولم ينقطع في صلاة من الصلوات خلفه[٣].

فأنت ترى أنه اجتمع على تصحيح هذا الحديث ثلاثةٌ من كبار فحول أهل هذا الفن، وهم: الإمام الكبير الثقة الحافظ ابن خزيمة، وتلميذه النجيب صاحب أصح كتاب حديث بعد «صحيح البخاري»، وهو الإمام مسلم بن الحجاج، ثم الإمام الثقة المحدث الكبير ابن كثير.

وذكر ابن كثير أن سبب غضب علي والزبير أنهما أُخِّرا عن المشورة، فقد ذكر عن موسى بن عقبة باسناده عن عبدالرحمن بن عوف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «ثم خطب أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ واعتذر للناس وقال: والله ما كنت حريصًا على الإمارة يومًا ولا ليلة، ولا سألتها الله في سرٍّ ولا علانية. فقبِل المهاجرون مقالته، وقال علي والزبير: ماغضبنا إلا لأننا أُخّرنا عن المشورة، وإنا نرى أن أبا بكر أحقُّ الناس بها بعد رسول الله ﷺ، إنه لصاحب الغار، وإنا لنعرف شرفه وخيره، ولقد أمره رسول الله ﷺ بالصلاة بالناس وهو حي»، وهذا اللائق بعلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، والذى تدل عليه الآثار من شهوده معه الصلوات، وخروجه معه إلى ذي القَصَّةَ بعد موت رسول الله ﷺ وبذله له النصيحة والمشورة بين يديه، وهذا إسناد جيد ولله الحمد والمنة[٤].

---

(١) البدرة : كيس فيه ألف أوعشرة آلاف، لسان العرب، والمعنى: أنه كنز ثمين.

(٢) البداية والنهاية (٧/ ٨٩).

(٣) خلافة أبي بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ د/ محمد بن صامل السلمي، ص ٦٢، ط دار الوطن، وهو ترتيب وتهذيب لكتاب «البداية والنهاية».

(٤) البداية والنهاية (٧/ ٩٠).

وأما ما يُذكر من أن عليًّا بايع ثانية بعد ستة أشهر، فهذا بمنزلة تجديد للبيعة واعتذار من علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عما حدث منه من جفوة ومن عدم تردده على دار أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لانشغاله بتمريض فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: وأما ما يأتي من مبايعته بعد موت فاطمة - وقد ماتت بعد أبيها عليه الصلاة والسلام بستة أشهر - فذلك محمول على أنها بيعة ثانية أزالت ما كان قد وقع من وحشة بسبب الكلام في الميراث، ومَنْعِه إياهم من ذلك بالنص عن رسول الله ﷺ في قوله: «**لا نورثُ، ما تركنا فهو صدقة**»[1].

وقول ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: وخروجه معه إلى ذي القَصَّة يعني لقتال المُرتدين، فأمسك علي بزمام راحلته وقال له: «**لا تفجعنا بنفسك وارجع إلى المدينة، فوالله لئن فجعنا بك لا يكون للإسلام نظام أبدًا**»، فرجع[2].

وقوله **بسبب الكلام في الميراث** يعني: أن فاطمة والعباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أتيا أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يلتمسان ميراثهما من رسول الله ﷺ، وهما حينئذ يطلبان أرضيهما من فدك، وسهمهما من خيبر، فقال لهما أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا نوَرثُ، ما تركنا فهو صدقة**»[3]. فحينئذ تركت المجادلة وهي امرأة من البشر ليست بواجبة العصمة، وقد استرضاها أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قبل وفاتها، فعندما مرضت أتاها فاستأذن عليها، فقال علي: يا فاطمة: هذا أبو بكر يستأذن عليك؟ فقالت: أتحب أن آذن له؟ قال: نعم. فأذنت له، فدخل عليها يترضاها، فقال: والله ما تركت الدار والمال والأهل والعشيرة إلا ابتغاء مرضات الله ومرضاة رسوله ﷺ، ومرضاتكم أهل البيت. ثم ترضاها حتى رضيت[4]، وهذا إسناد جيد قوي[5].

---

(١) البداية والنهاية (٧/ ٩٠).

(٢) السابق (٧/ ١٠٣).

(٣) البخاري كتاب الفرائض ومسلم كتاب الجهاد والسير.

(٤) تاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ٣٢).

(٥) البداية والنهاية نقلاً عن: خلافة أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. د/ محمد بن صامل السلمي ص ٧٤.

الفـوائد والـدروس والعبـر

شنع الشيعة كعادتهم على الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ واتهموا أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه منع فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ميراثها من أبيها رسول الله ﷺ، فرد عليهم شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ بقولـه: فهذه الأحاديـث الثابتة المعروفة عند أهل العلـم (كقوله ﷺ: **لا نورث مـا تركنـاه صدقة**) فيها ما يبيـن أن فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا طلبت ميراثها من رسـول الله ﷺ علـى مـا كانت تعرف من المواريـث، فأُخبرت بما كان من رسـول الله ﷺ فسـلمت ورجعت، ثم قـال: ونحن نعلم أن مـا يُحْكى عن فاطمـة وغيرها من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من القوادح كثير منها كذب، وبعضها كانوا فيه متأولين، وإذا كان بعضهـا ذنبًـا فليس القوم معصومين، بل هم مع كونهـم أولياء الله ومن أهل الجنة لهم ذنوب يغفرها الله لهم، وكذلك ما ذكروه من حلفها أنها لا تكلمه ولا صاحبه حتى تلقى أباها وتشتكي إليه، أمر لا يليق أن يذكر عن فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا[١].

خامسًا: لقد بُثت اخبار كثيرة وروايات متنوعة في وصف حادث السقيفة.

الجـواب: نعـم، معظمها كذب مختلـق من فعل الرافضة الذين أسـرفوا في وضع الأحاديث والأخبار بما يتفق مع هواهم، فكما وضعوا الحديث في فضل علـي وآل البيـت، فقد وضعوا أيضًا الأحاديث في ذم الشـيخين أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وألحقـوا ضـررًا بالغًا بالتاريخ الإسـلامي، بتشـويه أحداثه وتحريف حقائقـه، وقد روى الطبري في تاريخه عن أئمتهم كأبي مخنف لوط بن يحيى، **قال عنه ابن عدي**: شيعي محترق صاحب أخبارهم[٢]. وروي كذلك عن جابر بـن يزيد الجعفي، قال عنه ابن معين: كان جابر كذابًا[٣]. وقال يحيى بن معين:

---

(١) منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية (٤/ ١٠٦) وما بعدها. ط دار الحديث - القاهرة.

(٢) ابن عدي: «الكامل في ضعفاء الرجال» (٩/ ٢١١٠).

(٣) ابن معين: «التاريخ» (٣/ ٣٦٤).

سمعت زائدة يقول: جابر الجعفي رافضي يشتم أصحاب النبي ﷺ[١]

وقال ابن حبان: كان سبئيًا من أصحاب ابن سبأ، كان يقول: إن عليًّا يرجع إلى الدنيا[٢]. وروى الطبري كذلك عن هشام بن محمد بن السائب، **قال عنه ابن عساكر:** رافضي ليس بثقة[٣] **وقال عنه ابن حبان:** كان غاليًا في التشيع، أخباره في الأغلوطات أشهر من أن يحتاج إلى الإغراق في وصفها[٤].

سادسًا: قول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بيعة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كانت فلتة وقى الله شرها.

الجواب: أن قول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ورد عنه كما في الصحيح لما سمع أن رجلًا يقول: لو مات عمر لقد بايعت فلانًا، فوالله ما كانت بيعة أبي بكر إلا فلتة فتمت.

فغضب عمر، وقال: ألا وإنها قد كانت كذلك، ولكن الله وقى شرها، وليس منكم من تقطع الأعناق إليه مثل أبي بكر، من بايع رجلًا من غير مشورة من المسلمين، فلا يبايَع هو ولا الذي بايعه، تَغِرَّةً أن يُقتلا.

قال شيخ الإسلام: معناه أن بيعة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بُودِر إليها من غير تريث ولا انتظار لكونه كان متعينًا لهذا الأمر، كما قال عمر. «ليس فيكم من تقطع إليه الأعناق مثل أبي بكر»، وإن كان ظهور فضيلة أبي بكر على من سواه وتقديم رسول الله ﷺ له على سائر الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أمرًا ظاهرًا معلومًا، فكانت دلالة النصوص على تعيينه تغني عن مشاورة وانتظار وتريث بخلاف غيره، فإنه لا يجوز مبايعته إلا بعد المشاورة والانتظار والتريث، فمن بايع غير أبي بكر عن غير انتظار وتشاور لم يكن له ذلك[٥].

---

(١) الذهبي «الميزان» (١/ ٣٨٣). (٢) ابن حبان «المجروحين» (٣/ ٩١).

(٣) الذهبي «سير أعلام النبلاء» (١٠/ ١٠١). (٤) ابن حبان «المجروحين» (٣/ ٩١).

(٥) منهاج السنة (٥/ ٤٦٩) ط قرطبة.

سابعًا: تَرَكَ الصحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ دفنَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمدة يومين وبحثوا عن الخلافة والإمارة كما يقول الشيعة الروافض؟

والجواب: أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ اشتغلوا بما يحفظ على الأمة أمرها وشأنها، ليقطعوا على الشيطان سبيل التفرق والاختلاف، وكي لا يخلو الأمر من إمام يقيم فيهم الحق، ويخلف رسولَ الله ﷺ في الشؤون العظام، قيل لسعيد بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «متى بويع لأبي بكر؟ قال: يوم مات رسول الله ﷺ، كرهوا أن يبقوا بعض يوم وليسوا في جماعة»[1]. فلما بويع أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أقبل الناس على جهاز رسول الله ﷺ ودفن ليلة الأربعاء[2].

وكذلك من الأمور التي دعت إلى تأخير الدفن، حرص جميع الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على الصلاة عليه، فقد صلى عليه جميع الناس، الرجال والنساء والصبيان، صلوا جماعات متفرقين لم يؤمهم إمام واحد، وكذلك منهم من يصلون فرادى.

وكذلك اختلفوا في شأن غسله ﷺ ومن يغسله، وأين يدفن، قال الألباني: ولدهشتهم بهذا الأمر الهائل[3]، فلم تكد عقولهم وقلوبهم الطاهرة الزكية تحتمل ثقل المصيبة العظيمة، قال الزرقاني رَحِمَهُ اللَّهُ: إنما أخروا دفنه لاختلافهم في موته أو في محل دفنه، أو لاشتغالهم في أمر البيعة بالخلافة، ولدهشتهم من ذلك الأمر الهائل الذي ما وقع قبله ولا بعده مثله، فصار بعضهم كجسد بلا روح، وبعضهم عاجزًا عن النطق، وبعضهم عن المشي، أو لخوف هجوم العدو، أو لصلاة جمٍّ غفير عليه[4]. ومع كل هذه الأحداث المتنوعة، فإن الأمر كله لم يستغرق سوى بعضٍ من نهار الاثنين، ويوم الثلاثاء، ثم دفن ﷺ ليلة الأربعاء.

---

(١) الكامل لابن الأثير (٢/ ٢٢٤) نقلاً عن: الأنصار في العصر الراشدي، ص ١١٩، د/ حامد محمد خليفة.

(٢) صححه الألباني في مختصر الشمائل المحمدية برقم (٣٣١) ط دار المعارف.

(٣) السابق ص ١٩٨.

(٤) شرح الموطأ (٢/ ٩٤).

أعمال الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفتوحاته

بلغت مدة خلافته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سنتين وثلاثة أشهر وعشرة أيام.

ورغم ذلك كانت مليئة بالأعمال الجليلة والأحداث العظيمة، فقد ثَبَّت أركان الدين وأرسى دعائمه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **وإليك أهم الأحداث في هاتين السنتين:**

أولًا: إنفاذ جيش أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

معلوم أن ظواهر الردة بدت في الأفق زمان النبي ﷺ، إذ تنبأ الأسود العنسي في اليمن، ومسيلمة الكذاب في اليمامة، وطليحة الأسدي في نجد، إلا أنهم لم يعلنوا ذلك حال حياة النبي ﷺ لخوفهم من القتل.

فلما تُوفي رسول الله ﷺ أعلنوا ردتهم وصرحوا بنبؤتهم.

وأظهرت غالب القبائل نفاقها، وأعلنت عودتها للجاهلية، ولم يَسْلم من ذلك سوى مكة والمدينة والطائف.

ثم تجرأوا وأرسلوا إلى الصديق ليعافيهم من الزكاة، ظانين أن النواحي المالية ما كان ليهتم بها المسلمون، ولكنهم نسوا أن الزكاة من أركان الإسلام ودعائمه التي لا تقبل المفاصلة.

وفي ذات الوقت أصر الصديق على إنفاذ جيش أسامة، إذا كان أعده النبي ﷺ لغزو البلقاء جنوبي الأردن، وجنوبي فلسطين، ثم ما لبث أن مات رسول الله ﷺ.

وهنا كانت المعضلة، ولكن قوة إيمان الصديق ونور بصيرته هي التي حلت المعضلة[١].

---

(١) التاريخ الإسلامي (٣/ ٦١)، محمود شاكر، بتصرف يسير.

جاءه الناس وقالوا: إن هؤلاء -يعنون جيش أسامة- جند المسلمين، والعرب على ما ترى قد انتقضت بك، فلا ينبغي أن تفرق جماعة المسلمين عنك. فقال أبو بكر: والذي نفسي بيده لو ظننت أن السباع تختطفني، لأنفذت جيش أسامة كما أمر النبي ﷺ[١].

وقف أسامة بالناس ورغب إلى عمر في التخلف عن هذا البعث والمقام مع أبي بكر شفقة من أن يدهمه أمر.

وقالت الأنصار: فإن أبى إلا المضي، فليولِّ علينا أسن من أسامة. فأبلغ عمر أبا بكر، فقام وقعد، وقال: لا أترك أمر رسول الله ﷺ حتى أخرج أو أنفذه[٢].

ثم خرج أبو بكر حتى أتاهم بالجرف، فشيعهم وأوصى أسامة أن يفعل ما أمر به رسول الله ﷺ[٣]، فسار، فلما دنوا من الشام أصابتهم ضبابة شديدة فسترتهم حتى أغاروا وأصابوا حاجتهم، فقُدِم بنعي رسول الله ﷺ على هرقل وإغارة أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من ناحية أرضه خبرًا واحدًا، فقالت الروم: مابال هؤلاء يموت صاحبهم وأغاروا على أرضنا ؟[٤] فهابوا المسلمين.

فكان مسيره ذاهبًا وقافلًا أربعين يومًا[٥].

وكان إنفاذ جيش أسامة أعظم الأمور نفعًا للمسلمين، فإن العرب قالوا: لو لم تكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش. فكفوا عن كثير مما كانوا يُريدون أن يفعلوه[٦].

---

(١) الكامل، لابن الأثير (١/ ٣٧٢)، ط المكتبة العصرية.

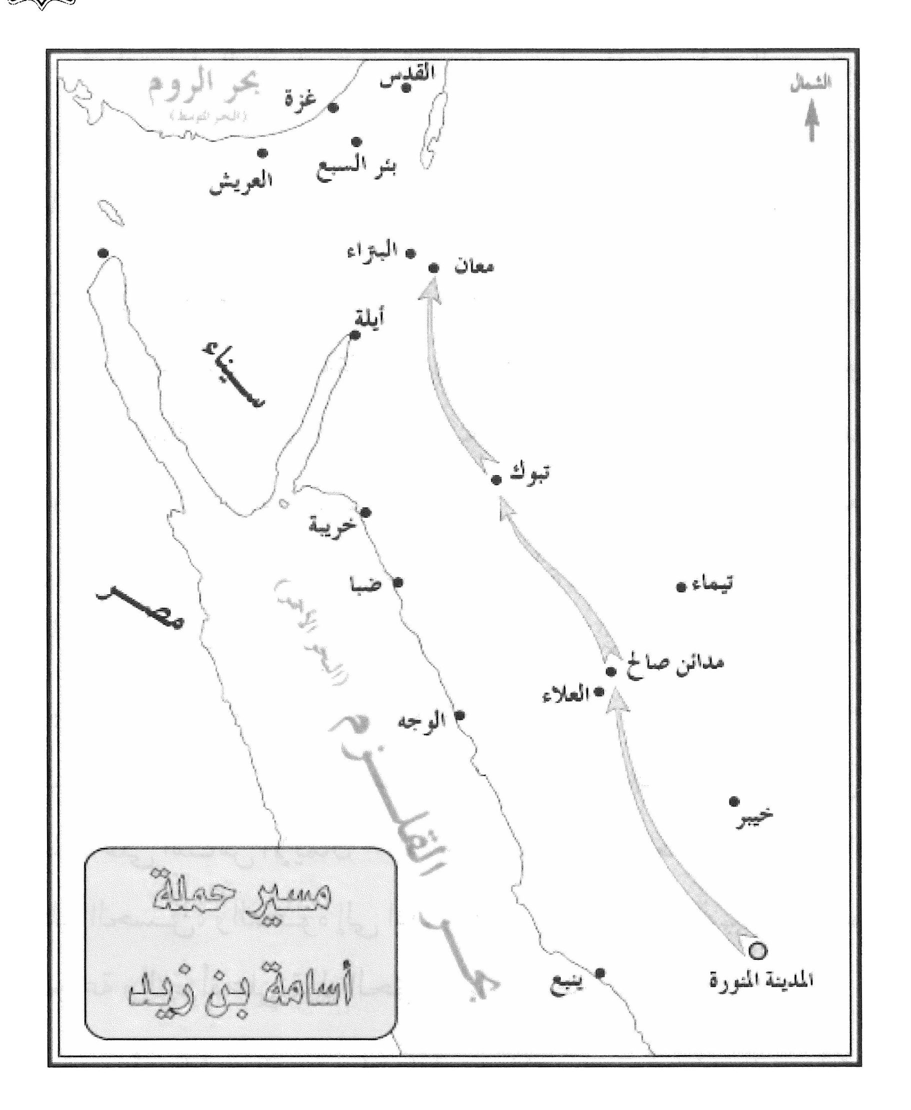
(٢) التاريخ، لابن خلدون (١/ ٦١٣).

(٣) الكامل (١/ ٣٧٢).

(٤) تاريخ الإسلام، للذهبي (٢/ ١٥).

(٥) تاريخ خليفة بن خياط ص ٦٤، ط الفكر.

(٦) الكامل (١/ ٣٧٢).



الفـوائد والـدروس والعبـر

١- **الدعـوة الربانية لا تموت بموت قائدها؛** لأنها منسـوبة إلى ذات الرب عزوجل: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨].

فمسـيرة الدعوة لـم تتوقف منذ نشـأتها؛ بل تزداد على مـر العصور توهجًا وانتشارًا، مما يدل على أنها ليست من تأسيس بشر.

٢- أن انتصار المسلمين يتوقف على مدى طاعتهم لله تعالى واتباعهم للنبي ﷺ، فبقدر توثيق العلاقة بين الأمة وبين ربها يكون النصر حليفها، وبقدر بعدها عن المنهج الرباني يكون الذل والصغار قرينها.

٣- دور الشباب في رفع راية الإسلام، فقد عين النبي ﷺ أسامة بن زيد أميرًا على الجيش المعد لقتال الروم، وهي القوة العظمى في ذلك الوقت، وكان عمره آنذاك عشرين سنة[1]، لينبه إلى دور الشباب في إعلاء كلمة الله، وبناء دولة الإسلام، وتاريخنا الإسلامي حافل بالشباب المجاهد العامل، الذي شكل عنصر الحركة والعطاء، إذ إنه لم تنهض أمة من الأمم غالبًا إلا على أكتاف الشباب وحماسته المتجددة، لذلك اهتم النبي ﷺ اهتمامًا خاصًا بالشباب، فكانوا هم عماد دعوته، فأيدوها ونصروها ونشروها، وتحملوا المشاق لأجلها، **وفي حركة بعث الأمة من جديد** يجب أن نلتفت إلى تربية الشباب على أساس الإيمان - العقيدة الصحيحة النابعة من الكتاب والسنة. والخلق الحسن، والدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والشجاعة والجرأة على قول الحق، وسائر المعاني الإسلامية.

ويجب أن نلتفت إلى وسائل الأعداء لإفساد عقائد الشباب وأفكارهم واستهداف قناعتهم بالانتماء لأمتهم لتبديلها، واستهداف أخلاقهم وسلوكهم لتدميرها، واستهداف عقولهم وأجسادهم لإتلافها بالمخدرات والمسكرات.

٤- أهمية تربية الأفراد على تبادل الأدوار الدعوية، فقد كان النبي ﷺ حريصًا على تربية الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على ذلك. ففي غزوة ذات السلاسل أمّر عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على سرية فيها أبو بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وفي

---

(١) تاريخ الإسلام، للذهبي (٢/ ١٥).

جيش أسامة كذلك كان هو الشاب حديث السن وتحت إمرته الشيخان أبو بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وذلك قبل وفاة النبي ﷺ، ولم يعترض أحد على ذلك، ولا حدث أدنى شيء يُعكر صفو المسيرة الدعوية.

ثم في أول عهد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان من أول أعماله بعد موت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن عزل خالد بن الوليد وهو في قمة انتصاراته، وعيّن بدلًا منه أبا عبيدة بن الجراح، وهكذا تتوالى العظمة في حياة الأوائل، فلا مانع عندهم من أن يصير القائد جنديًّا، والجندي قائدًا، في تواضع عظيم وإنكار للذات لم يُر مثله في مسيرة أمة من الأمم.

٥- ثبات أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقت النوازل ونفوذ بصيرته، وهذا ليس ببعيد عن أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فهو الذي لم يتلعثم عندما دعاه رسول الله ﷺ بادئ الأمر إلى هذا الدين، ولم يتزلزل عندما أخبره المشركون أن رسول الله ﷺ يُحَدِّث أنه عُرج به إلى السماء السابعة ثم عاد في نفس الليلة، وهو الذي لم يتردد أو يشك في صلح الحديبية، وهو الذي لم يُدهش ولم يفقد عقله عند موت رسول الله ﷺ، فكيف لا يُوفَّق في إنفاذ جيش أسامة، وهو المُوفَّق المُلهَم والمُصيب للحق منذ أسلم، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه.

ذكر خليفة بن خياط بسنده إلى عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «تُوفي رسول الله ﷺ، فلو نزل بالجبال الراسيات ما نزل بأبي لهاضها، إشرأب النفاق بالمدينة، وارتدَّت العرب، فوالله ما اختلفوا في نقطة إلا طار أبي إلى أعظمها في الإسلام»[1] وقد روي أنه لما قيل له: **لقد نزل بك ما لو نزل بالجبال لهاضها وبالبحار لغاظها، وما نراك ضعفت. فقال: ما دخل قلبي رعب بعد ليلة الغار،**

---

(١) تاريخ الإسلام، للذهبي (٢/ ٢١).

فإن النبي ﷺ لما رأى حزني قال: لا عليك أبا بكر، فإن الله قد تكفل لهذا الأمر بالتمام[1].

٦- لقد تجلت شخصية الصديق في أجلى صورة للقائد المؤمن الذي يفتدي قومه بنفسه، فالقائد في فهم المسلمين قدوة في أعماله، فكان من آثار هذه السياسة الحكيمة أن تقوَّى المسلمون، وتشجعوا لحرب عدوهم واستجابوا لتطبيق الأوامر الواردة إليهم من القيادة.

وهكذا يتعلم المسلمون من سيرة الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأنه لم يكن يرغب بنفسه عن نفوس أتباعه بأي أمر من أمور الدنيا، وما اضطربت أمور المسلمين منذ زمن إلا لأنهم كانوا يعدون الرئاسة وسيلة للجاه، وبابًا لجلب المغانم ودرء المغارم، وإيثارًا للعافية، والاكتفاء بكلمات تُزجى من وراء أجهزة الإعلام، أو من غرف العمليات، بعيدًا عن المشاركة الحقيقية في قضايا الأمة[2].

٧- أهمية تربية الكوادر الدعوية التي يغير الله بها مجريات الأمور؛ فقد ارتَدَّت شبه الجزيرة كلها إلا ثلاث مدن، مكة والمدينة والطائف، وقرية وحيدة وهي قرية جواثى بالبحرين شرق شبه الجزيرة، أما مكة فقد أصابها من زلزال الردة ما جعلها في مهب الريح، ولكن الله عصمها بسهيل بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي قام فخطب فيهم خطبة بليغة تشبه خطبة أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ التي ألقاها على الأنصار يوم السقيفة، فثبتت قريش على الإسلام، أما قرية جواثي فثبتهم الله برجل يُدعى الجارود بن يعلى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي دعاهم إلى الثبات على الإسلام بعد موت النبي ﷺ، فعصمهم الله كذلك من زلزال الردة بفضل هذا الصحابي الجليل.

---

(١) أحمد الشجاع، حروب الردة - حماية مجتمع قام على تقوى من الله (تقرير).

(٢) السابق.

ثانيًا: حروب الردة

ظهر النفاق، وأعلن المنافقون عن وجههم القبيح، **وقد كانوا طائفتين:**

١- منهم من سار وراء الكذابين المتنبئين أمثال: مسيلمة وطليحة والأسود.

٢- ومنهم من بقي على إيمانه، لكنه منع الزكاة وعدها ضريبة، وأرسل لأبي بكر يطلب المسامحة في ذلك.

لكن أبا بكر رد عليهم بقولته المشهورة: «**والله لو منعوني عِقالًا كانوا يُؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه**».

فقال عمر لأبي بكر: كيف تقاتلهم وقد قال رسول الله ﷺ: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها....».

فقال أبو بكر: «فإن الزكاة حق المال»، فرأى أن الإسلام كل لا يتجزأ، ولا يمكن تطبيق جزء من الإسلام وإهمال جزء آخر.

تجهيزات المعركة

جعل أبو بكر كبار الصحابة على منافذ المدينة مثل: علي والزبير وطلحة وسعد وابن عوف وابن مسعود.

وطلب من أهل المدينة أن يكونوا على أهبة الاستعداد، قائلًا لهم: إن الأرض كافرة، وقد رأى وفدهم منَّا قلة، فاستعدوا وأعدوا.

وأراد أبو بكر تأجيل القتال لحين عودة أسامة، لكن المنافقين عجلوا ذلك، وهاجموا المدينة -مدينة رسول الله- ﷺ، ولكن الصحابة استبسلوا ودافعوا، وردوا المنافقين خائبين مهزومين، وطاردوهم ليلًا، وكان على الميمنة

النعمان بن مُقَرِّن، وعلى الميسرة أخوه عبدالله بن مقرن، وعلى الساقة سويد بن مقرن، وكلهم إخوة، فلما أصبح الصباح لم يشعر المنافقون إلا والمسلمون يعملون فيهم السيف، فولى المنافقون الأدبار، وارتفعت معنويات المسلمين إلى أعلى الدرجات، فكانت هذه الوقعة من أكبر العون على نصر الإسلام وأهله[١].

ثم عاد جيش أسامة فخلفه أبو بكر على المدينة، وقال له: أريحوا وأريحوا ظهوركم. فأخذوا قسطًا من الراحة[٢]، ثم عقد أبو بكر أحد عشر لواءً لقتال المرتدين في أنحاء الجزيرة وهم:

١- خالد بن الوليد، وأرسله إلى مضر ببلاد نجد؛ لقتال طليحة بن خويلد الأسدي.

٢- عكرمة بن أبي جهل، أرسله إلى اليمامة؛ لقتال الكذاب.

٣- شرحبيل بن حسنة، إلى اليمامة أيضًا في إثر عكرمة.

٤- طُرَيْفَة بن حاجز، إلى منازل بني سليم.

٥- عمرو بن العاص، إلى قضاعة.

٦- خالد بن سعيد، إلى مشارف الشام.

٧- العلاء بن الحضرمي، إلى البحرين.

٨- حذيفة بن محصن، إلى دُبَا بعُمان.

٩- عرفجة بن هرثمة، إلى أهل مهرة.

١٠- المهاجر بن أبي أمية، إلى صنعاء.

١١- سويد بن مُقَرّن، إلى تهامة باليمن[٣].

---

(١) البداية والنهاية (٧/ ١٠١). بتصرف.

(٢) التاريخ الإسلامي (٣/ ٦٨). محمود شاكر.

(٣) تاريخ الطبري(٢/ ٣٠٥).

حروب الردة عام ١١هـ

ولقد نجح هؤلاء الأبطال في القضاء على حركات الردة.

فخالد في عشرة آلاف تقاتل مع طليحة الأسدي في أربعين ألفا، وهُزم طليحة، وهرب إلى الشام وأسلم بعد ذلك، وذهب إلى مكة مُعتمرًا أيام الصديق، واستحيا أن يواجهه مدة حياته، وقد حسن إسلامه،[1] ثم رجع فشهد القتال مع خالد، وكتب الصديق إلى خالد: «أن استشره في الحرب ولا تؤمره»، يعني معامَلَتُه بنقيض ما كان قصده من الرياسة في الباطل، وهذا من فقه الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه[2].

أما عكرمة، فتقاتل مع مسيلمة الكذاب قبل وصول شرحبيل بن حسنة

(١) تاريخ الإسلام، للذهبي (٢/ ٢٢). بتصرف.

(٢) البداية والنهاية (٧/ ١٠٦).

فناجزهم فنكب، ثم عجل شرحبيل أيضًا فنكب[١]، فلم يقاوما بني حنيفة؛ لأنهم في نحوٍ من أربعين ألفًا من المقاتلة، فانتظرا خالدًا، فقاد الجيوش، وجعل على المقدمة شرحبيل بن حسنة، وعلى المجنِّبتين زيدًا وأبا حذيفة، فاصطدم المسلمون والكفار، فكانت للمسلمين جَوْلة، وانهزمت الأعراب، حتى دخلت بنو حنيفة خيمة خالد بن الوليد، ثم تذامر الصحابة بينهم، وقام ثابت بن قيس بن شَمَّاس، فأتى الصف والناس منهزمون، فقال: هكذا عن وجوهنا، فضارب القوم، ثم قال: بئس ما عودتم أقرانكم ماهكذا كنا نقاتل مع رسول الله ﷺ فاستشهد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢]: وحمي البراء بن مالك، وكان إذا رأى الحرب يثور كما يثور الأسد، وقاتلت بنو حنيفة قتالًا لم يُعهد مثله، وجعلت الصحابة يتواصون بينهم ويقولون: يا أصحاب «البقرة»، بطل السِّحْر اليوم، وحفر ثابت بن قيس لقدميه في الأرض إلى أنصاف ساقيه، وهو حامل لواء الأنصار بعدما تحنط وتكفن، فلم يزل ثابتًا حتى قتل هناك، وقال المهاجرون لسالم مولى أبي حذيفة: نخشى أن نؤتى من قِبلك !فقال: بئس حامل القرآن أنا إذًا.

وقال **زيد بن الخطاب**: أيها الناس عضوا على أضراسكم، واضربوا في عدوكم وامضوا قدمًا، والله لا أتكلم حتى يهزمهم الله، أو ألقى الله فأكلمه بحجتي. فلم يزل يتقدم بالراية في نحر العدو وهو يقول: اللهم إنى أعتذر إليك من فرار أصحابى، وأبرأ إليك مما جاء به مسيلمة. فقتل شهيدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣].

وقال أبو حذيفة: يا أهل القرآن، زينوا القرآن بالفعال. وحمل فيهم حتى أبعدهم وأصيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

---

(١) تاريخ الدعوة إلى الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين (١/ ٣٠٢) . د/ يسري محمد هاني.

(٢) تاريخ الإسلام، للذهبي (٢/ ٢٧).

(٣) السابق (٢/ ٣٩)

وحمل الراية سالمٌ مولى أبي حذيفة، فقطعت يمينه، فحملها بشماله، فقطعت، فحملها بعضديه، ثم قال: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ ﴾، يذكر نفسه ومن معه أن هذا هو السبيل»[١]

وحمل خالد ابن الوليد حتى جاوزهم، وسار بحيال مسيلمة، وجعل يترقب حتى يصل إليه فيقتله، ثم رجع، ثم وثب بين الصفين ودعا إلى البِراز، وقال:

أنا ابن الوليد العَوْد   أنا ابن عامر وزيد

ثم نادى بشعار المسلمين، وكان شعارهم يومئذ: «يا محمداه»، وجعل لا يبرز له أحد إلا قتله، ولا يدنو منه شيء إلا أكله، وصبرت الصحابة في هذا الموطن صبرًا لم يعهد مثله، ولم يزالوا يتقدمون إلى نحور عدوهم حتى فتح الله عليهم، وولّى الكفار الأدبار، وأتبعوهم يقتلون في أقفائهم، حتى ألجئوهم إلى حديقة الموت، وأغلقت بنو حنيفة الحديقة عليهم، وأحاط بهم الصحابة، **وقال البراء بن مالك** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا معشر المسلمين، ألقوني عليهم في الحديقة، فاحتملوه فوق الجَحَفِ، ورفعوها بالرماح وألقوه عليهم من فوق أسوارها، فلم يزل يقاتلهم دون بابها حتى فتحها، وبه بضع وثمانون جراحة ما بين رمية بسهم وضربة برمح أو بسيف، فحُمل إلى رحله يُداوى، فأقام عليه خالد بن الوليد شهرًا[٢].

ودخل المسلمون الحديقة من حيطانها وأبوابها يقتلون من فيها من المرتدة من أهل اليمامة، حتى خلصوا إلى مسيلمة -لعنه الله- وإذا هو واقف في ثلمة

(١) البداية والنهاية (٧/ ١١٣).

(٢) تاريخ خليفة بن خياط ص٧١.

جـدار، كأنـه جمل أَوْرَق[١]، فتقدم إليه وحشـي قال: فلمـا التقى الناس رأيت مسـيلمة، فتهيـأت لـه وتهيأ له رجـل من الأنصار مـن الناحية الأخـرى، كلانا يريـده، فهززت حربتي حتى إذا رضيت عنها دفعتها عليه، فوقعت فيه، وضربه الأنصاري بالسيف، فربُّك أعلم أينا قتله، فإن كنت قتلتُه فقد قتلتُ خير الناس بعد رسول الله ﷺ، وقتلتُ شر الناس[٢].

وكان جملـة من قُتل في الحديقة وفي المعركة قريبًا من عشـرة آلاف مقاتل، وقيل أحدٌ وعشرون ألفًا[٣].

وأمـا مـن المسـلمين، فذكر خليفة بـن خياط عن زيد بن أسـلم قـال: قُتل مـن المهاجرين والأنصـار مائةٌ وأربعون رجلًا، وكان جميـع القتلى أربع مائة وخمسين رجلًا.

وذكر عن ابن المسـيب قال: شـهداء اليمامة خمس مائة، فيهم خمسون أو ثلاثون من حملة القرآن[٤].

والروايتـان كلتاهما متقارب، فالقتلى مـن الصحابة والتابعين يتراوحون ما بين الخمسمائة والأربعمائة شهيد.

أمـا باقي الجيوش التي عقـد لواءها الصديـق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فواصلت انتصاراتها السـاحقة حتـى قضى تمامًا علـى المرتدين، وثبتـت أركان ودعائم هذا الدين ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٥].

---

(١) البداية والنهاية (٧/ ١١٤)، بتصرف يسير.

(٢) خليفة بن خياط ص ٧١، وذكر ابن كثير أن الذي ضربه بالسيف هو أبو دجانة سِماك بن خَرَشة.

(٣) البداية والنهاية (٧/ ١١٤).

(٤) تاريخ خليفة بن خياط ص ٧٢.

الفوائد والدروس والعبر

١- كانت الجيوش التي أعدها الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قليلة العدد إلا أن النصر كان حليفها، وذلك لوضوح هدفها وهو تعبيد الدنيا بالدين، وكذلك لوضوح غايتها وهو رضا الله والجنة، فكان سبيل ذلك واضحًا وهو الإخلاص في الجهاد الذي هو ذروة سنام الإسلام.

٢- كان لابد من تحقيق الوحدة السياسية بعد الوحدة الدينية لتصبح شبه الجزيرة مهيئة لانطلاق الفتوح، إذ أنها تعد مركزًا لذلك، فلم يكن منطقيًّا أن تنطلق الجيوش منها وهي بعدُ غير مستقرة، فساعدت حروب الردة على تحقيق هذا الهدف.

٣- كانت الحروب بين العرب في الجاهلية وحتى نهاية العصر النبوي على مستويات محدودة، حتى جاءت حروب الردة لتعلن عن نقلة عسكرية وعملية خُطط لها بدقة ابتداءًا من الحشد والتعبئة العامة إلى التحركات والسير والالتحام إلى أعمال الدوريات والحصار والجاسوسية والتدابير اللوجستية، مما ساعد على تسارع وتيرة الفتوحات بعد ذلك.

٤- من أعظم فوائد حروب الردة أنها أكسبت المسلمين ثقة بالنفس وكذا بالقادة الذين يديرون الحروب، مما ساعد على مواجهة أكبر دولتين آنذاك فارس والروم.

٥- الفضل العظيم - بعد الله سبحانه - لأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على الأمة جميعًا، بل وعلى سائر البشرية، وهو وقوفه حائلًا وصدًّا منيعًا أمام انحدار العنصر البشري إلى ظلمات الجهل والردة والتخلف بعد ظهور النور والعلم والهدى على يدي النبي الكريم ﷺ.

٦- أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جغرافي دقيق، خبير بالتضاريس والتجمعات البشرية، فكأن مصوَّر الجزيرة مجسَّم واضح نصب عينيه في غرفة عمليات مجهزة بأحدث وسائل التقنية، فمن يتمعن المصوَّر وتسيير الجيوش ووجهة كل منها، واجتماعها بعد تفرقها، وتفرقها لتجتمع ثانية، يرى تغطية سليمة رائعة صحيحة مثالية لجميع أرجاء الجزيرة، مع دقة في الاتصال مع هذه الجيوش، فأبوبكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في كل ساعة يعلم أين مواقع هذه الجيوش، ويعلم دقائق أمورها وتحركاتها، والمراسلات دقيقة وسريعة، تنقل إلى مقر القيادة في المدينة أخبار الجبهات باتصال دائم ومستمر[١].

٧- من أبرز أسباب الردة عمق آثار العصبية القبلية عند العرب، وكون الإسلام من الأمور الجديدة التي لامست أسماعهم دون أن تدخل إلى الأعماق، ومعظم من ارتدَّ ما وفد على رسول الله ﷺ مطلقًا لينال قسطًا من التربية والتزكية والتعليم، فهيأ الله عَزَّ وَجَلَّ لهذه الأمة رجالًا صادقين، على رأسهم خليفة رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فتمكنوا من إخماد هذه الثورة المضادة، وإرجاع العرب إلى الطاعة، وإلى وحدة الكلمة، وإلى العقيدة الإلهية التي بلغها رسول الله ﷺ[٢].

ثالثًا: جمع القرآن الكريم

بدأ العام الثاني عشر، وكان من آثار معارك المرتدين استشهاد كثير من القراء خاصة في موقعة اليمامة، فخاف عمر، وأخبر أبا بكر بهذا الخطر، فأرسل إلى زيد بن ثابت وأمره بجمع القرآن الكريم من صدور الرجال ومن الجلود

---

(١) في التاريخ الإسلامي، د/ شوقي أبو خليل ص ٢٢٦.

(٢) السابق ص ٢٢٧.

والرقاع، فأتم زيد بن ثابت هذه المهمة الضخمة، وحفظ الله كتابه كما قال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

عن زيد ابن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:** أرسل إليَّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة، وعنده عمر، فقال أبو بكر: إن عمر أتاني، فقال: إن القتل استحر يوم اليمامة بالناس، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن، فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه، وإني لأرى أن تجمع القرآن. فقال أبو بكر: فقلت لعمر: كيف أفعل شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: هو والله خير. فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري، ورأيت الذي رأي عمر، قال زيد: وعمر عنده جالس لا يتكلم. فقال أبو بكر: إنك رجل شاب ولا نتهمك، كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه، فوالله لو كلفوني نقلَ جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن. قلتُ: كيف تفعلان شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ؛ فقال أبو بكر: هو الله خير. فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدري للذي شرح الله له صدر أبي بكر وعمر، فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعُسُب وصدور الرجال، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين عند خزيمة بن ثابت لم أجدهما مع أحد غيره: «**لقد جاءكم رسول من أنفسكم**» إلى آخرهما، وكانت الصحف التي جُمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عمر حتى توفاه الله، ثم عند حفصة[1]!

رابعًا: الفتوحات

بعد أن استغرقت حروب الردة السنة الحادية عشرة كلها، واستقرت الأمور ثانية بدأت الفتوحات الإسلامية، وتمثلت في إرسال الجيوش إلى جهتين اثنتين: العراق والشام.

---

(١) البخاري، كتاب التفسير.

وقد جمعت لك شتات هذه الأحداث قبل الإشارة إليها؛ ليسهل فهمها وتصورها في الذهن، ثم استيعابها:

١- شملت خطة الفتوحات العراق والشام.

٢- قاتل المسلمون الفرس ببلاد العراق، والروم ببلاد الشام.

٣- عاصمة الفرس المدائن، والتي تقع شرق نهر دجلة وقربه، والتي فتحت في عهد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٤- تمثل دمشق بالنسبة للروم حصنهم وبيت مملكتهم، وقد تم فتحها في عهد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٥- أعد الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جيشين لفتح العراق، الأول بقيادة خالد بن الوليد والثاني بقيادة عياض بن غنم.

٦- خاض خالد في العراق إحدى عشرة معركة وهي: ذات السلاسل، المذار، الولجة، أُلَّيْس، الحيرة، الأنبار، عين التمر، دومة الجندل، الحُصَيْد، المُصَيَّخ، الفِراض.

٧- أرسل الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أربعة جيوش لفتح الشام، وهي:

الأول: لأبي عبيدة بن الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الثاني: ليزيد بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

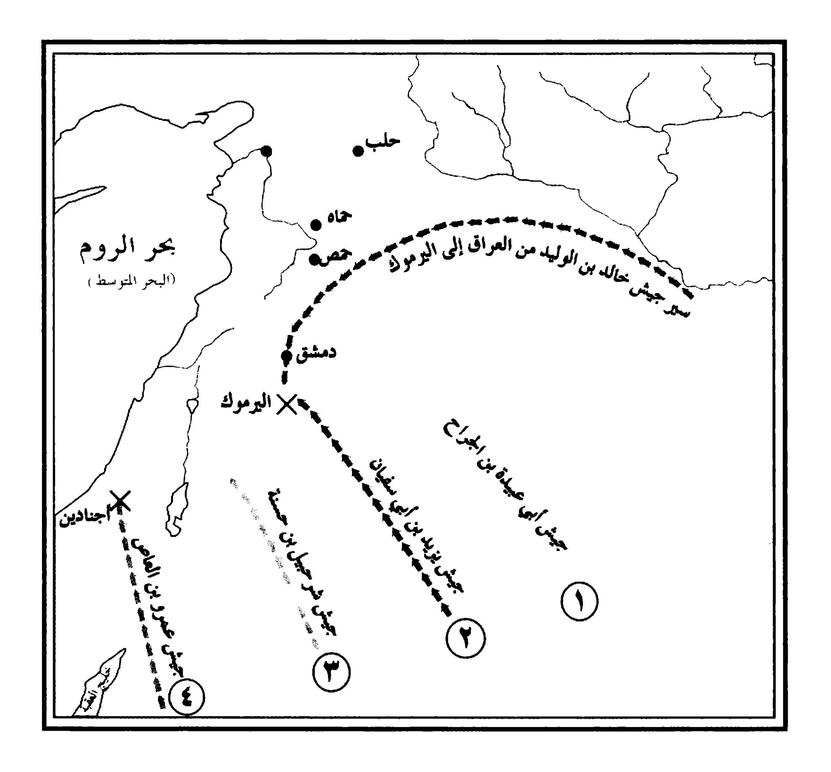
الثالث: لشرحبيل بن حسنة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الرابع: لعمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٨- أمر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خالد بن الوليد بالاتجاه إلى الشام لمساعدة هذه الجيوش، وأن يُسلِّم قيادة العراق للمثنى بن حارثة الشيباني.

٩- انتصـر المسـلمون في كل معارك الشـام تقريبًا، والتـي كان من أهمها: اليرموك، وأجنادين، كل هذا حدث في عهد الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

١٠- تُوفي الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ومعركة اليرموك قائمة لم تنته بعد.



(خريطة توضح مسار الجيوش الأربعة التي أرسلها الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ)

١١-تواصلت الفتوحات في بلاد الشـام، ثم عادت إلى بلاد العراق في عهد عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وسنعرض لها في مكانها إن شاء الله تعالى.

بلاد العراق

جهـز أبو بكر جيشـه الأول بقيادة خالـد، وأمره أبو بكـر أن يأتيها من جهة الجنـوب الغربـي، والآخـر بقيادة عيـاض بن غُنْـم، وأمره أن يأتيهـا من جهة الشمال الشرقي.

وأمر أبو بكر المثنى بن حارثة أن يأتي خالدًا يساعده، وخاض خالد إحدى عشـرة معركة في العراق بجيش قِوامه ثمانية عشـر ألفًا[١]، في أواخر عام ١١هـ وأوائل عام ١٢هـ، وانتصر فيها كلها، وهذه إشارات إلى هذه المعارك.

١ـ ذات السلاسل «المحرم ١٢هـ»

تحرك خالد بجيشه بعد أن قسمه ثلاث فرق، جعل على المقدمة المثنى بن حارثة، ثم فرقة أخرى جعل عليها عدي بن حاتم، ثم الثالثة يقودها بنفسه.

وكان خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد طلب مددًا من الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فأرسل إليه القعقاع بـن عمرو، فقيل له: أتمد رجلًا ارفَضَّ عنه جنوده برجل؟ فقال: لا يُهزم جيش فيهم مثل هذا[٢].

ثم أرسل خالد رسالة إلى هرمز صاحب ثغر الأُبُلَّة[٣] يقول له: جئتك بأناس يحبون الموت كما تحبون الحياة، فأسلم تَسْلم، أو تعقد لنفسك وقومك الذمة وأقرر بالجزية، وإلا فلا تلومن إلا نفسك.

فالتقى الجيشان، وانتصر المسلمون، وقتل خالدُ هرمزَ قائد الفرس، وقد ربط الفرس أنفسهم بالسلاسل لئلا يفروا، فلم تغن عنهم شيئًا أمام الليوث البواسل، وسميت هذه المعركة بذات السلاسل، وغنم المسلمون من الفرس حمل ألف بعير، وبعث خالد سراياه لتفتح ما حول الحيرة من حصون، فغنموا أموالًا كثيرة.

ولـم يعرض خالد للفلاحين الذين لم يقاتلوه، وأحسـن معاملتهم، بل كان يقاتل المقاتلة فقط[٤].

ثم ولى خالدُ القعقاع بن عمرو على الحيرة بعد أن تركها.

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٣٦٢)، والكامل (١/ ٣٩٢).
(٢) تاريخ الطبري (٢/ ٣٦٢).
(٣) موقع محافظة البصرة اليوم.
(٤) االبداية والنهاية (٧/ ١٣٤). بتصرف.

الفـوائد والـدروس والعبـر

١-صِدْق فراسة أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حينما قال عن القعقاع: **«لا يهزم جيش فيه مثلُ هذا»**.

٢-أن الإسلام لا يُحارب إلا الأنظمة الكافرة، والقوانين الوضعية التي ضُربت على الناس قهرًا، فأبعدتهم عن دين الحق وعن سماع الحق، ويقتضي ذلك أن تُحارب تلك الجيوش التي تحمي هذه الأنظمة الكافرة، فإذا خلوا بين الإسلام وبين الناس، فالناس أحرار حينئذ في اختيار ما يدينون وما يعتقدون، وفي ضوء ذلك يُفهم قوله: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

يعني: بعدما يُخَلَّى بين الناس وبين سماع الحق، فحينئذ لا يكرهون على عقيدة ما، حتى لو كانت العقيدة الصحيحة.

٣-الدعوة إلى الإسلام أولًا قبل القتال، فلا يجوز قتال المشركين إلا بشرطين:

الأول: إبلاغهم الدعوة إلى الإسلام إذا كانت لم تبلغهم.

الثاني: أن يكونوا حربيين غير مستأمَنين ولا مُعاهدين، ولا أهل ذمة. لأن دماء هؤلاء مصونة معصومة.

عن بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرًا، ثم قال: **« اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغُلُّوا ولا تغدِروا ولا تُمثِّلوا**

ولا تقتلوا وليدًا، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم.... فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم[1] ".

٢ـ المذار أو الثِّنْي في صفر سنة ١٢ هـ[2]

سببها أن هرمز أرسل إلى كسرى يستنجده لقتال خالد، فأرسل إليه مددًا بقيادة «قارن»، ولكن هرمز انهزم وفر بجيشه، فقابل قارن، واتفقوا على العودة لقتال خالد، وفعلًا اقتتل الجيشان، ودعا قارن خالدًا للمبارزة، ولكن معقل بن الأعمش سبق وقتله[3]، وانهزم الفرس، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وقسم خالد رضي الله عنه الغنيمة وترك الأسلاب لساليبها، وبعث بالخمس وخبر النصر إلى الصديق رضي الله عنه[4].

وكانت الغنيمة عظيمة، وسُبي عيالات المقاتلة، وكان في السبي أبو الحسن البصري، وكان نصرانيًّا[5].

٣ـ الوَلَجة «صفر ١٢ هـ»

بلغ خبر هزيمة الجيش الفارسي في معركة المذار إلى كسرى، فأرسل أردشير أحد قواده المشهورين بالشجاعة، ويُسمى «الأندرزغر»، وبدأت

---

(١) مسلم، كتاب الجهاد والسير.

(٢) في ميسان بين واسط والبصرة على ضفة الثني.

(٣) الكامل (١/ ٣٩٢). بتصرف.

(٤) تاريخ الدعوة إلى الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين (١/ ٣٤٤) د/ يسري محمد هاني.

(٥) الكامل (١/ ٣٩٢).بتصرف.

المعركـة وانقـض خالد على جيـش العدو، فدب الفـزع في صفوفهم، وهرب قائدهم ومات في طريقه عطشًا، وقُتل وأسُر خلق كثير[١].

٤ـ أُلَّيس[٢] أو نهر الدم

وكانـت في صفر سـنة ١٢ هجريًّا، وذلك أن خالدًا كان قـد قتل يوم الولجة طائفـة مـن بنـي بكر بـن وائل، مـن نصـارى العرب، ممـن كان مـع الفرس، فاجتمعت عشـائرهم، وكاتبوا الأعاجم، فأرسـل إليهم أردشـير جيشًـا مددًا، فاقتتلوا قتالًا شـديدًا، والمشركون يرقبون قدوم «بَهْمَنَ» مددًا من جهة الملك إليهم، فهم في قوة وشدة وَكَلبٍ في القتال، وصبر المسلمون صبرًا بليغًا[٣]، وأمر خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أصحابه بكبس المشـركين والفرس والشـدة عليهم، فانكشفوا وانهزموا[٤]، فمنح الله عَزَّوَجَلَّ المسلمين أكتافهم.

وبعث خالد إلى أبي بكر ببشارة الفتح وبالخمس من الغنيمة، فلما بلغ ذلك أبا بكر خطب الناس، وقال لهم: يا معشر قريش، عدا أَسَدُكم على الأُسد فغلبه علـى خراذيله (قطـع اللحم)، أُعجزِت النسـاء أن يلدن مثـل خالد. ثم جرت أمـور طويلة لخالد في أماكن متعددة يُمَلُّ سـماعها، وهـو مع ذلك لا يكل ولا يَمَلُّ ولا يَهنُ ولا يحزن، بل كل حاله في قوة وصرامة، وشـدة وشـهامة، ومثل هذا إنما خلقه الله إعزازًا للإسلام وأهله، ودرءًا للكفر وشتات شمله[٥].

---

(١) الكامل (١/ ٣٩٢). بتصرف

(٢) مكان على نهر الفرات.

(٣) البداية والنهاية (٧/ ١٣٥)، بتصرف يسير.

(٤) تاريخ الدعوة الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين (١/ ٣٤٦)، د/ يسري محمد هاني.

(٥) البداية والنهاية (٧/ ١٣٥).بتصرف

٥- الحيرة «ربيع الأول ١٢ هـ»

وصلت أنباء النصر إلى الحيرة، فتجهزوا لقتال خالد، وركب خالد وجيشه السفن واتجهوا نحو الحيرة، وقابل جيشهم فهزمهم وفروا وتحصنوا في قصورهم، فرماهم خالد بالنَّبل وحاصرهم حتى نزلوا على حكمه، فرضوا بالجزية وصالحوه على مائة وتسعين ألفًا، فبعث خالد بالفتح والهدايا إلى أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لكن لما وصلت الهدايا إلى الخليفة قَبِلَها، لكنه عدها من الجزية[١]؛ تعففًا وتورعًا منه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الفوائد والدروس والعبر

أ-يعتبر فتح الحيرة عملًا حربيًّا عظيم القيمة، وَسَّعَ أمل المسلمين في فتح بلاد فارس، وأرغم الدهاقين على صلح المسلمين، وكانوا من قبل يتربصون وينظرون ما يصنع أهل الحيرة، وتمت للمسلمين الغلبة على أحد جانبي السواد، وصار في وسعهم أن يهددوا شاطيء دجلة، وكتب خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ينذر ملوك الفرس[٢]، وحصل المسلمون على ميزة سياسية وعسكرية، فهي قاعدة وموطئ قدم للانطلاق نحو الداخل العراقي، كما أنها طريق مناسب لأي انسحاب إسلامي إذا لزم الأمر.

ب-أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُؤسس مدرسة للأخلاق السامية والتعفف الرفيع عن أموال الرعية، والورع البليغ عن حطام الدنيا الزائل.

---

(١) الكامل (١/ ٣٩٥). بتصرف.

(٢) حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول، ص ٤٤، شكري فيصل، مطابع دار الكتاب العربي – مصر.

٦ـ الأنبار (ذات العيون)

وصل خالد إلى الأنبار، فوجدهم قد تحصنوا، فأمر خالد جنده أن يُصَوّبوا النبل إلى عيونهم، فأصابوا في أول رمية ألف عين من عيونهم، فسُميت المعركة «**ذات العيون**».

فوضعوا شروط الاستسلام، لكنها لم تُعجب خالدًا، فعمد إلى الإبل الضعيفة فنحرها وجعلها في أضيق نقطة من الخندق، واقتحمه وأعمل فيهم القتل[١]، وكان رأس القوم شيرازاد عاقلاً، فراسل خالدًا في الصلح، فقبل خالد منه على أن يخلي الحصن ويلحق بأمنه في جريدة من الخيل ليس معهم من المال والمتاع شيء، فوفَّى له خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بما صالح عليه[٢].

٧ـ عين التمر

ثم اتجه خالد بجيشه إلى عين التمر، فوجد جيشًا عظيمًا من قبائل التمر وتغلب وإياد، فأراد خالد أن ينهي المعركة بلا قطرة دم، فحمل على أميرهم وهو يسوي صفوف جيشه فأسره، وانهزم الجيش من غير قتال، فأكثروا فيهم الأسر والقتل.

ورجعت فلول النصارى إلى حصن فاحتموا به، فحاصرهم خالد ونزلوا على رأي خالد، فضرب عنق رئيسهم أمام الحصن، وغنم جميع ما في الحصن، ووجد فيه أربعين شابًا يتعلمون الإنجيل ففرقهم في الأمراء، وكان منهم حِمران مولى عثمان[٣]، وسيرين والد محمد بن سيرين التابعي الشهير،

(١) الكامل (١/ ٣٩٥). بتصرف

(٢) تاريخ الدعوة الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين (١/ ٣٥١).

(٣) الكامل (١/ ٣٩٦)، والبداية والنهاية (٧/ ١٣٩).

ويسار الذي من ولده محمد بن إسحاق بن يسار صاحب السير، ونصير أبو مالك بن نصير[١].

٨ـ دومة الجندل

حاصر عياض بن غُنْم دومة الجندل، وهم أيضًا سدوا عليه الطريق فهو محاصَر أيضًا، فأرسل إلى خالد، فانتهى من عين التمر وحرك جيشه إلى دومة الجندل، فما أن علموا بمقدِم خالد حتى دب الرعب في نفوسهم، فقال لهم أكيدر بن عبد الملك رئيسهم: «أنا أعلم الناس بخالد، لا أحد أيمن طائرًا منه، ولا أَحَدَّ في حرب، ولا يرى وجه خالد قومٌ أبدًا قلوا أو كثروا إلا انهزموا عنه، فأطيعوني وصالحوا القوم». فأبوا عليه[٢].

فدارات المعركة، وانتصر المسلمون، ودانت المدينة للمسلمين بالولاء، وكانت هذه المدينة ذات مكانة استراتيجية هامة، فهي ملتقى الطريق إلى ثلاث جهات:

١- من الجنوب: شبه الجزيرة.

٢- من الشمال الشرقي: العراق.

٣- من الشمال الغربي: الشام.

لذا أولاها أبو بكر أهمية خاصة، ولو لم تذعن للمسلمين لبقي أمرهم في العراق تَحُفه المخاطر[٣].

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط ص ٧٨.

(٢) تاريخ الطبري (٢/ ٣٨١).

(٣) الموسوعة المُيسرة في التاريخ الإسلامي، (١/ ٨٤) ط مؤسسة إقرأ.

٩ـ الحُصَيْد

استنصرت القبائل العربية بالأعاجم لهزيمة المسلمين، وتقابلوا في الحصيد، وكالعادة انتصر المسلمون، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وغنموا مغانم كثيرة، وانهزم الأعاجم إلى الخنافس[١]، فطاردهم أبو ليلى بن فدكي بمن معه، فهربوا إلى المُصَيَّخ[٢].

١٠ـ المصيَّخ

علم خالد بتحشد القبائل في المصيَّخ، فهاجمهم خالد وانتصر عليهم[٣]، وقد أغار عليهم وهم نائمون من ثلاثة أوجه، ووفق خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مباغتات سريعة أن يحول بين الفرس والعرب وبين الاجتماع في جبهة واحدة[٤].

١١ـ الفِراض

هي تخوم الشام والعراق والجزيرة، سار إليها خالد في شهر رمضان، ولأول مرة يجتمع الفرس والروم لقتال المسلمين، والتقت الجموع على نهر الفرات، فقتل من الفرس والروم أكثر من مائة ألف[٥].

وتُعتبر هـذه المعركة خاتمة المعارك التي دارت في العراق وعددها إحدى عشرة معركة، انتصر فيها المسلمون كلها ولله الحمد، ثم أذن خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في القفل إلى الحيرة وأظهر أنه في الساقة، ولكنه مضى إلى الحج في طريق غير مطروقة.

---

(١) الكامل (١/ ٣٩٦). بتصرف

(٢) تاريخ الطبري (٢/ ٣٨٣).

(٣) الكامل (١/ ٣٩٦). بتصرف

(٤) حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول ص ٤٦، شكري فيصل.

(٥) الكامل (١/ ٣٩٧).

الفوائد والدروس والعبر

١- استقام العراق للمسلمين أسفله وأعلاه، أسفل السواد وضفاف الفرات والضفاف الغربية بنوع خاص، وخضعت الحيرة والأنبار، واتصل ما بين الشام والعراق والجزيرة في الفراض على رضًا من القبائل العربية أو كره، وعلى كره من الفرس لاشك، وعلى رضًا من الفلاحين[١] لاشك في ذلك.

٢- **توجت المرحلة الأولى** من تحرير العراق بدخول الحيرة من نحوٍ، وكانت من عمل خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من نحوٍ آخر، وفي خلافة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من نحوٍ ثالث، وكانت آمادها العراق العربي والقبائل العربية الضاربة فيه وفيما حوله من نحوٍ أخير.

٣- أمر أبو بكر - خالدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن يستخلف على العراق ويمضي إلى الشام ينجد المسلمين من تجمع الروم، فاستخلف المثنى بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

٤- **تبدأ المرحلة الثانية**، مرحلة العراق العجمي من الحيرة إلى القادسية في عهد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٢].

حجة خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

بعد أن انتهى خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من هذه الحروب الكثيرة محققًا فيها كلها الانتصارات المذهلة، خرج من الفِراض مكتتمًا بحجه، ومعه عدة من أصحابه يعتسف البلاد حتى أتى مكة، فتأتى له من ذلك ما لم يتأت لدليل ولا رئبال[٣]، فسار طريقًا من طرق الحيرة لم يُر قط أعجب منه ولا أصعب،

---

(١) حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول ص ٤٦، شكري فيصل.

(٢) السابق ص ٤٧.

(٣) الرئبال: من أسماء الأسد والذئب.

فكانت غيبته عن الجند يسيرة، فلم يعلم بحجه أحد إلا من أفضى إليه بذلك[1] فما تَوَافى إلى الحيرة آخرُهم حتى وافاهم مع صاحب الساقة الذي وضعه، فقدما معًا، ولم يعلم أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بذلك إلا بعد، فعتب عليه وأرسل إليه كتابًا وفيه: "**أن سر حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك، فإنهم قد شجوا وأشجوا، وإياك أن تعود لمثل ما فعلت، فإنه لم يَشْجِ الجموع من الناس بعون الله شجاك، ولم ينزع الشجى من الناس نزعك، فليهنك أبا سليمان النية والحظوة، فأتمم يتمم الله لك، ولا يدخلنك عُجب فتخسر وتخذل، وإياك أن تُدِلّ بعملك، فإن الله له المن، وهو ولي الجزاء**"[2].

ثم أمره أن يذهب إلى الشام، وفيها أبو عبيدة بن الجراح، وقال له: إذا أتيت فأنت أمير الجماعة والسلام. وقال: والله لأقطعن وساوس الروم بخالد.

فتحرك خالد إلى الشام، وكتب كتابًا إلى أبي عبيدة، وفيه: "أما بعد، فإني أسأل الله لنا ولك الأمن يوم الخوف، والعصمة في دار الدنيا من كل سوء، وقد أتاني كتاب خليفة رسول الله ﷺ يأمرني بالقدوم إليك، وبالقيام على الجند، والله ما طلبت ذلك، ولا أردته، فأنت على حالك، لا نعصيك ولا نخالفك ولا نقطع دونك أمرًا، فأنت سيد المسلمين، لا ننكر فضلك ولا نستغني عن رأيك، تمم الله بنا وبك من إحسان، ورحمنا وإياك من صليّ النار، والسلام عليك ورحمة الله".

الفوائد والدروس والعبر

١ - تنبيه القائد جنوده إذا حدث منهم خطأ حتى لو كان غير مقصود فقد يعود ذلك على المجموع بالضرر.

---

(١) تاريخ الإسلام، للذهبي (٢/ ٤٩).

(٢) تاريخ الطبري (٤/ ٢٠٢).

٢- جواز مدح الإنسان في وجهه بشرط أن تُؤمْن عليه الفتنة.

٣- تذكير النفس دائمًا وقت نشوة النصر في المعارك، ونشوة الفتوحات الدعوية بأن ذلك محض فضل من الله عَزَّوَجَلَّ؛ حتى لا يتسلل العُجب والغرور إلى الصفوف فتضعف الدعوة ثم تضمحل.

٤- أن دوام النعم مرتبط بشكرها، وزوالها مرتبط بكفرها.

٥- ضرورة تنظيم الصفوف وتولية الأمور أحدَ الموجودين؛ لضمان تسيير الأمور وترتيبها؛ لذا قال أبو بكر لخالد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: فأنت أمير الجماعة.

٦- عدم السعي للإمارة والرغبة فيها، فقد كان الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ لعمق فهمهم يهربون من هذه المسئوليات، لأنها أمانات سيُسألون عنها أمام الله عَزَّوَجَلَّ.

٧- مع عظيم فضل خالد وأحقيته بالإمارة إلا أنه لم يَغْمِط حق أبي عبيدة وسبقه وعقله، فلله درهم، ما أعظمهم وأنبلهم وأخلصهم لله عَزَّوَجَلَّ، إن هذا التعامل الرفيع بين هذين العظيمين يكشف لنا عن معاني الأخوة الإيمانية والتربية العقدية الصحيحة التي أزالت من القلوب كل معوقات سيرها إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

بلاد الشام

بدأ أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في جمع الجنود ليبعثهم إلى الشام، وذلك في مطلع سنة ١٣هـ، فبعد أن أمر خالدًا بالتوجه إليها، أرسل إلى عمرو بن العاص وكان قد استعمله على صدقات قضاعة ومعه الوليد بن عقبة، فكتب إليه يستنفره إلى الشام: «إني كنت رددتك على العمل الذي ولاكه رسولُ الله ﷺ مرة، وسماه لك أخرى، وقد أحببتُ- أبا عبد الله- أن أفرغك لما هو خير لك في حياتك ومَعادِك منه، إلا أن يكون الذي أنت فيه أحبَّ إليك».

فكتب إليه عمرو بن العاص: «إني سهم من سهام الإسلام، وأنت عبد الله الرامي بها والجامعُ لها، فانظر أشدَّها وأخشاها. وأفضلها، فارم به»[١].

ثم عبأ الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أربعة جيوش، وشيعها إلى الشام، وهي:

١- يزيد بن أبي سفيان، في سبعة آلاف، إلى دمشق.

٢- عمرو بن العاص، وكانت وجهته فلسطين.

٣- شرحبيل بن حسنة، وكانت وجهته الأردن.

٤- أبو عبيدة، وكانت وجهته حِمْص.

وبقي عكرمة في ستة آلاف؛ ردءًا للمسلمين.

وصية خالدة للدنيا بأسرها

ودع الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أمراءه، وسار مع يزيد بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يمشي على قدميه ويزيد على دابته، فقال يزيد: يا خليفة رسول الله ﷺ إما أن تركب وإما أن أنزل. فقال الصديق: ما أنت بنازل وما أنا براكب، أليست خطاي هذه في سبيل الله؟! ثم قال: يايزيد، إنكم ستقدمون بلادًا: فإذا أكلتم الطعام فَسَمُّوا الله على أولها، واحمدوه على آخرها، وستجدون أقوامًا حبسوا أنفسهم لصوامع فدعوهم وما حبسوا (أنفسهم له)، وستجدون أقوامًا قد اتخذ الشيطان على رؤوسهم مقاعد فاضربوا تلك الأعناق، لا تقتلوا كبيرًا هرمًا ولا امرأة ولا وليدًا، ولا تعقروا بهيمة إلا لنفع، لا تخربن عمرانًا، لا تقطعن نخلًا إلا لنفع، لاتغل، ولا تغدر، لا تخن، ولينصرن الله من ينصره أُقرؤك السلام وأستودعك الله[٢].

---

(١) البداية والنهاية (٧/ ١٤٤)، والكامل(١/ ٣٩٩).

(٢) الاستذكار لابن عبد البر - كتاب الجهاد - باب النهي عن قتل النساء والولدان في الغزو.

الفوائد والدروس والعبر

١- في ركوب يزيد ومشي أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا رخصة في أن الجليل من الرجال راجلًا مع من دونه راكبًا للتواضع، واحتساب الخطى في سبيل الله كما ذكر، وقد روي عن النبي ﷺ «من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمهما الله على النار»[1].

٢- وفيه ما كانوا عليه من حسن الأدب وجميل الهدي، وأداء ما يلزمهم من توقير أئمة العدل وإجلالهم وبرهم[2].

٣- الذين اتخذ الشيطان على رؤوسهم مقاعد، أوضح ابن عبد البر أنهم الشمامسة، أصحاب الديانات، والرهبان المخالطون للناس، وفيهم من الرأي والمكيدة[3].

١- معركة أجنادين (٣ جُمادى الأولى ١٣ هـ)[4]

وصل خالد إلى الشام بعد فتح قناة بصرى، وكانت أول مدينة من مدائن الشام فتحت في خلافة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم اجتمع بقادة المسلمين، أبي عبيدة وشرحبيل بن حسنة، ويزيد بن أبي سفيان، ودرسوا الموقف العسكري جيدًا، واطلعوا على موقف عمرو بن العاص[5] والذي كان ينسحب بمحاذاة ضفة نهر الأردن ليلتقي بباقي الجيوش المسلمة، وأثناء ذلك حاول القائد الرومي أن يجر جيش عمرو إلى معركة فاصلة، ولكن جيش عمرو كان سبعة آلاف فقط مقابل سبعين ألفًا لجيش الروم.

فرأى خالد أن يلتحق بجيش عمرو ليخوض معركة فاصلة مع جيش الروم، فيقضي على قوة الروم ويُثَبِّت أقدام المسلمين في فلسطين.

---

(١) الاستذكار لابن عبد البر - كتاب الجهاد - باب النهي عن قتل النساء والولدان في الغزو.
(٢) السابق.
(٣) نفسه.
(٤) خليفة بن خياط ص ٨٠.
(٥) تاريخ الطبري (٢/ ٤٠٤). بتصرف.

وسار عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين سمع بالمسلمين، فلقيهم، ونزلوا بأجنادين وعسكروا عليهم، والتقوا يوم السبت لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة، فظهر المسلمون، وهُزم المشركون، وقُتل القيقلان وتذراق، واستشهد رجال من المسلمين منهم سلمة بن هشام بن المغيرة، وهبار بن الأسود، ونعيم بن عبد الله النحام، وهشام بن العاص بن وائل[١].

وكان أميرهم القيقلان بعث رجلًا عربيًّا، وقال له: ادخل في هؤلاء القوم فأقم فيهم يومًا وليلة، ثم ائتني بخبرهم. فدخل في الناس رجل عربي لا ينكر، فأقام فيهم يومًا وليلة، ثم أتاه فقال له: مه ما وراءك ؟ قال: بالليل رهبان وبالنهار فرسان، ولو سرق ابن ملكهم قطعوا يده، ولو زنى لرُجِم، لإقامة الحق فيهم. فقال له القيقلان: لئن كنت صدقتني لبطن الأرض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها، ولوددت أن حظي من الله أن يخلي بيني وبينهم، فلا ينصرني عليهم ولا ينصرهم علي. ثم تزاحف الناس فاقتتلوا، فلما رأي القيقلان ما رأي من قتالهم، قال للروم: لفوا رأسي بثوب، قالوا له: لم؟ قال: هذا يوم بئيس، ما أحب أن أراه، مارأيت من الدنيا يومًا أشد من هذا. قال: فاحتز المسلمون رأسه، وإنه لملفف[٢].

الفوائد والدروس والعبر

١- إن المسلمين على مدار تاريخهم لا ينتصرون بعدد ولا بعُدَّة، بل ينتصرون بإيمانهم بالله سبحانه، فانظر مثلًا إلى حنين أول معركة يجتمع بها للمسلمين جيش عدده اثنا عشر ألفًا، فأعجبتهم كثرتهم، لقد غفلوا عن مُسبب

---

(١) الكامل لابن الأثير، ص ٤٠٤ ط المكتبة العصرية.

(٢) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء (١/ ٢٠٥) لسليمان بن موسى الكلاعي ط دار الكتب العلمية.

النصـر، عن مُنزل النصر، عن مُثبت القلوب، فأراهم الله عَزَّوَجَلَّ في أول المعركة نتيجة غفلتهم عنه، ثم نصر نبيّه ﷺ بقلة مؤمنة ثبتت معه، والتصقت به، وتفانت في الجهاد في سبيل الله، وفي سبيل نصرة رسول الله ﷺ.

إن الإعجاب بالكثرة هزيمة روحية تسبق الهزيمة في ميدان المعركة.

إن معركة حنين نتيجة طبيعية للانشغال عن الله والاعتماد على قوة غير قوته، لتكشف لنا عن حقيقة أخرى ضمنية حقيقة القوى التي تعتمد عليها كل عقيدة. إن الكثرة العددية ليست بشيء، إنما هي القلة العارفة المتصلة الثابتة المتجردة للعقيـدة، وإن الكثرة لتكون أحيانًا سـببًا في الهزيمة؛ لأن بعض الداخلين فيها، التائهيـن في غمارهـا، ممن لم يدركوا حقيقـة العقيدة التي ينسـاقون في تيارها تتزلزل أقدامهم وترتجف في سـاعة الشـدة، فيشيعون الاضطراب والهزيمة في الصفـوف، فوق ما تخدع الكثرة أصحابها فتجعلهم يتهاونون في توثيق صلتهم بالله، انشغالًا بهذه الكثرة الظاهرة عن اليقظة لسر النصر في الحياة.

لقـد قامت كل عقيـدة بالصفوة المُختارة، لا بالزَّبد الذي يذهب جفاءً، ولا بالهشيم الذي تذروه الرياح)[1].

٢- لقد وضع جاسـوس القيقلان يديه على مفتاح النصر الذي جعل الجيش الإسـلامي يواجـه أعتى دولتين آنذاك فـارس والروم على أرضهـم، إنهم رهبان بالليل يقيمون الليل بين يدي الله، يصلون ويبكون، يركعون ويسـجدون والناس نيـام، لهـم دوي كدوي النحل، سـمتهم ليس كسـمت الناس، أخلاقهم ليسـت كأخـلاق النـاس، وإذا أتـى النهـار كانوا فرسـانًا يقاتلـون، ويكـرون، ويهزمون عدوهم، ويلقون في قلوبهم الرعب، فجمعوا بين حسن التوكل على ربهم والأخذ بالأسـباب المادية، ولن تنتصر أمتنا وتعود إلى سـابق عزها ومجدها إلا بتحقيق

(١) عوامل النصر والهزيمة ص ٤٩، د/ شوقي أبو خليل.

الأمرين معًا، كما في قوله سبحانه: «﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾» [الأنفال: ٦٠].

٣- كلمات من ذهب تلك التي سطرها عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لتكون نبراسًا للسائرين في هذا الطريق الشاق الذي تكتنفه مخاطر عدة من أعداء متربصين: الشيطان، الهوى، النفس التواقة للشهرة والرياسة، حب الدنيا والسعي لزخرفها، فتحرر عمرو من كل ذلك غير عابئ بكل هذه المغريات الفانية الزائلة، وأثبت لنا أن هدفه الأول والأخير هو الدعوة، لا حَظَّ نفسه وهواها، لقد جاءت كلماته: "إني سهم من سهام الإسلام، فأنا عبد الله المرمي وأنت عبد الله الرامي" لتحرر الإنسان من عبودية النفس والهوى والأنا، لينطلق إلى رحاب عبودية الله الواسعة الفسيحة، وبمثل هذه الحقائق والمعاني الصادقة انتصر المسلمون الأوائل وفتحوا العالم أجمع، وبلغت دعوتهم كل مبلغ.

٤- من شهداء معركة أجنادين: أبان بن سعيد بن العاص، وكانت أصابته نشابة فنزعها وعصبها بعمامته، فحمله إخوته، فقال: لا تنزعوا عمامتي عن جرحي فلو نزعتموها تبعتها نفسي، أما والله ما أحب أنها بحجر من جبل الحمر -وهو جبل السماق- فمات فيها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأبلى يومئذ بلاءً حسنًا وقاتل قتالًا شديدًا عظم منه غناؤه، وعرف به مكانه، وكان قد تزوج أم أبان بنت عتبة بن ربيعة وبنى بها، فباتت عنده الليلة التي زحفوا للعدو في غدها، فأصيب[1]، وهذا يدل على تهيؤ المجتمع رجالًا ونساءً كبارًا وصغارًا للجهاد ورفع راية الإسلام في كل مكان.

---

(١) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء (١/ ٢٠٤) لسليمان بن موسى الكلاعي.

٥- بلغ عدد القتلى من جيش الروم ثلاثة آلاف، ومن جيش المسملين عدد قليل، وذلك لفرار الجيش الرومي بعد قليل من بدء المعركة[١].

معركة اليرموك (١٣ هـ)[٢]

انطلقت أخبار النصر الساحق في أجنادين في كل مكان، فأصيب الروم بهزيمة نفسية كبيرة، وفي المقابل ارتفعت معنويات المسلمين، وتحفزوا لإيقاع الهزيمة الثانية بالجيش الرومي.

تشاور المسلمون فيما بينهم في المكان المناسب لأرض المعركة، ووقع الاختيار على "اليرموك"[٣]، ووافق أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على هذا الموقع بعد مخاطبته بذلك، وامتاز هذا الموقع بسهولة الاتصال بينه وبين غرفة العمليات العسكرية بالمدينة.

تحركت الجيوش المسلمة وعددها ٣٦ ألفًا، وكان عدد الروم ٢٤٠ ألفًا.

أقبلت الروم في خيلائها وفخرها، وسدت أقطار تلك البقعة، سَهْلها ووعرها، كأنهم غمامة سوداء، يصيحون بأصوات مرتفعة، ورهبانهم يتلون الأناجيل ويحثونهم على القتال.

وطلب "**ماهان**" قائد الروم مقابلة خالد، وقال له: لقد علمنا بأنكم ما أخرجكم من بلادكم إلا الجهد والجوع، فهلموا إليّ أُعطي كل واحد منكم

---

(١) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء (١/ ٢٠٤).

(٢) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، أبو الفرج بن الجوزي (٤/ ١٢٣).

(٣) قال في الفتح (٧/ ٣٦٩) : واليرموك : موضع من نواحي فلسطين، ويقال : أنه نهر، والتحرير أنه موضع بين أذرعات ودمشق، كانت به الواقعة المشهورة، نقلًا عن : الخلافة الراشدة والدولة الأموية ليحيى بن إبراهيم ص٢٥٧ ط دار الهجرة.

عشـرة دنانير وكسـوة وطعامًا وترجعون. فقال خالد: إنه لم يخرجنا من بلادنا ما ذكرت، غير أنَّا قوم نشرب الدماء، وأنه قد بلغنا أن لا دم أطيب من دم الروم، فجئنـا نشـرب منه. ثم رجـع خالد إلى عسـكره، وقد كان في الخيـل بين يدي الجيش، فسـاق بفرسـه إلـى أبي عبيدة، فقال له: إني مشـير بأمـر. فقال: قل ما أراك الله، أسـمع لك وأطع. فقال له خالد: إن هؤلاء القوم لابد لهم من حملة عظيمة لا محيد لهم عنها، وإني أخشـى على الميمنة والميسـرة، وقد رأيتُ أن أفرق الخيـل فرقتين وأجعلها من وراء الميمنة والميسـرة، حتى إذا صدموهم كانوا لهم ردءًا من ورائهم. فقال له: نِعْم ما رأيت(١).

وقال لأبي عبيدة: مَن كنتَ تجعل على ميمنتك ؟ قال: معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قـال: أهـلٌ لذلك، هو الرضي الثقة فولها إياه. فأمر أبـو عبيدة معاذًا، فوقف في الميمنة، فكان لوجوده في ذلك المكان أثر كبير، زاد من معنويات الجند، فضلًا عما كانوا يسـمعون من إرشاده ووعظه وتشجيعه، وقد شهد اليرموك أكثر من ألف صحابي من أصحاب رسول الله ﷺ،فيهم نحو مائة من أهل بدر(٢).

فـكان خالـد في أحد الخيلين مـن وراء الميمنـة، وجعل قيس بـن هبيرة في الخيـل الأخـرى، وأمر أبـا عبيدة أن يتأخر عـن القلب إلـى وراء الجيش كله، حتى إذا رآه المنهزم اسـتحيا منه ورجع إلى القتـال، فجعل أبو عبيدة مكانه في القلب سعيد بن زيد أحد العشرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

ولمـا تراءا الجمعان وتبارز الفريقان قال خالـد: إن هذا يوم من أيام الله، لا ينبغـي فيه الفخر ولا البغي، أخلصـوا جهادكم وأريدوا الله بعملكم(٣). ووعظ

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٣٩٢).

(٢) الأنصار في العصر الراشدي، ص ٢٣٧ د/ حامد محمد الخليفة.

(٣) تاريخ الطبري (٢/ ٣٩٢).

أبـو عبيدة المسـلمين، فقال: عبـاد الله، انصروا الله ينصركـم ويثبت أقدامكم، يا معشـر المسـلمين: اصبروا، فإن الصبر منجـاة من الكفـر، ومرضاة للرب، ومدحضة للعار، ولا تبرحوا مصافكم، ولا تَخْطُوا إليهم خطوة، ولا تبدءوهم بالقتال، وأشـرعوا الرماح، واستتروا بالدَّرق، والزموا الصمت إلا من ذكر الله في أنفسكم، حتى آمركم إن شاء الله تعالى.

وقـال معاذ: يا أهـل القرآن وأنصار الهـدى والحق، إن رحمـة الله لا تُنال، وجنتـه لا تُدْخل بالأماني، ولا يُؤتي الله المغفرة والرحمة الواسـعة إلا الصادق المصدق، فاستحيوا أن يراكم ربكم فرَّارًا من عدوكم وأنتم في قبضته.

وقال عمرو: أيها المسـلمون، إذا حملوا عليكـم فأمهلوهم، حتى إذا ركبوا أطراف الأسـنة، فثِبُوا عليهم وثبة الأسـد، ولا يَهولَنكّـم جمعهم ولا عَددُهم، فإنكم لو صدقتموهم الشد تطايروا تطاير الحَجَل.

وقـال أبو سـفيان: والله لا ينجيكم من هؤلاء القـوم، ولا يبلغ بكم رضوان الله غدًا إلا بصدق اللقاء والصبر في المواطن المكروهة، ألا وإنها سُنَّة لازمة.

ثم عاد فنادى: يا معشـر أهل الإسـلام، حضر ما ترون، فهذا رسولُ الله ﷺ والجنةُ أمامكم، والشيطان والنار من خلفكم. ثم سار إلى موقفه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وعن ابن المسيب عن أبيه قال: خمدت الأصوات يوم اليرموك، والمسلمون يقاتلـون الروم إلا صوت رجل يقول: (يانصـر الله اقترب، يانصر الله اقترب)، فرفعتُ رأسي فإذا هو أبوسفيان بن حرب تحت راية ابنه يزيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[١]

وتنازل الأبطال، وحميت الحرب، وقامت على سـاق، واجتمع جماعة من

---

(١) تاريخ الإسلام، للذهبي (٢/ ٨٣)

الأبطال إلى الزبير بن العوام رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فقالوا له: ألا تحمل، فنحمل معك؟ فقال: إنكم لا تثبتون. فقالوا: بلى. وحملوا، فلما واجهوا صفوف الروم أحجموا وأقدم هو، فاخترق صفوف الروم حتى خرج من الجانب الأخر وعاد إلى أصحابه، ثم جاءوا إليه مرة ثانية، ففعل كما فعل في الأولى، وجُرح يومئذ جرحين بين كتفيه، وجعل معاذ بن جبل كلما سمع أصوات القسيسين والرهبان يقول: اللهم زلزل أقدامهم، وأرعب قلوبهم، وأنزل علينا السكينة، وحبب إلينا اللقاء، ورضنا بالقضاء. وخرج ماهان، فأمر صاحب الميسرة، فحمل على الميمنة، فثبتوا حتى صدوا أعداء الله، ثم ركبهم من الروم أمثال الجبال، فزال المسلمون من الميمنة إلى ناحية القلب، وانكشفت طائفة من الناس إلى العسكر، وثبت صدر من المسلمين عظيم يقاتلون تحت راياتهم، وانكشفت زبيد، ثم تنادوا فتراجعوا، وحملوا حتى نهنهوا مَن أمامهم من الروم وأشغلوهم عن اتباع مَن انكشف مِن الناس.

ويُقال: إن أول من قُتل من المسلمين يومئذ شهيدًا رجل جاء إلى أبي عبيدة، فقال: إني قد تهيأت لأمري، فهل لك من حاجة إلى رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، تُقرؤه مني السلام، وتقول: يا رسول الله، إنَّا قد وجدنا ما وعدنا ربُنا حقًّا. قال: فتقدم الرجل، فقاتل حتى قُتل.

وثبت كل قوم على رايتهم حتى صارت الروم تدور كأنها الرحى، فلم يُر يوم اليرموك أكثرُ قِحفًا ساقطًا ومعصمًا نادرًا، وكفًّا طائرة من ذلك الموطن، ثم حمل خالد بمن معه من الخيالة على الميسرة التي حملت على ميمنة المسلمين، فأزالوهم إلى القلب، فَقَتَل في حملته هذه ستة آلاف منهم، ثم قال: والذي نفسي بيده، لم يبق عندهم من الصبر والجلد غير ما رأيتم، وإني لأرجو

أن يمنحكـم الله أكتافهم. ثم اعترضهـم، فحمل بمائة فارس معه على نحو من مائـة ألف، فما وصـل إليهم حتى انفـض جمعهم، وحمل المسـلمون عليهم حملة رجل واحد فانكشفوا، وتبعهم المسلمون لا يمتنعون منهم.

وبينمـا هـم في جولة الحرب وحومـة الوغى، والأبطـال يتصارعون من كل جانـب، إذ قـدم البريد من نحو الحجـاز، فدُفع إلى خالد، فقال لـه: ما الخبر؟ فقال له فيما بينهما: إن الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد تُوفي واستخلف عمر، فاستناب على الجيوش أبا عبيدة بن الجراح. فأسـرها خالد ولم يُبدِ ذلك للناس، لئلا يحصل ضعـف ووهن في تلك الحال، وقال له والناس يسـمعون: أحسـنت. وأخذ منه الكتاب ووضعه في كنانته، واشتغل بما كان فيه من تدبير الحرب والمقاتلة[١].

وخرج جَرَجـةُ أحدُ الأمراء الكبار من الصف، واسـتدعى خالد بن الوليد، فجـاء إليـه حتـى اختلفت أعنـاق فرسيهما، فقال جرجـة: ياخالـد، أخبرني، فاصدقني ولا تكذبني، هل أنزل الله على نبيكم سـيفًا من السماء، فاعطاكه فلا تسـله على أحد إلا هزمته؟ قال: لا. قال: فبم سُـميت سـيف الله؟، قال: إن الله بعث فينا نبيه ﷺ فهدانا به وبايعناه، فقال لي: «**أنت سيف من سيوف الله، سله الله على المشـركين**»، ثم دعاه خالد إلى الإسلام[٢] فأسلم، وأصيب ولم يُصلِّ إلا ركعتيـن مـع خالد، وتضعضعت الروم، ثم نهد خالـد بالقلب حتى صار في وسـط خيول الروم، فهربت خيولهم، واشـتدت بهم في تلك الصحراء، وأفرج المسـلمون بخيولهم حتى ذهبوا، وأخر الناس صلاتي العشـاءين حتى اسـتقر الفتـح، وعمـد خالد إلى الرجالـة، ففصلوهم عن آخرهم حتـى صاروا كأنهم حائـط قـد هُدم، ثم تبعـوا من فر من الخيالـة، واقتحم خالـد عليهم خندقهم،

---

(١) البداية والنهاية (٧/ ١٤٧) وما بعدها باختصار.

(٢) تاريخ الدعوة الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين (١/ ٣٦٦) د/ يسري محمد هاني.

وجاء الروم في ظلام الليل إلى الواقوصة، فجعل الذين تسلسلوا وقيدوا بعضهم ببعض إذا سقط واحد منهم سقط الذين معه، **قال ابن جرير**: فسقط فيها وقتل عندها مائة ألف وعشرون ألفًا سوى من قُتل في المعركة.

وقُتل من المسلمين في هذا اليوم ثلاثة آلاف، وثبت يومئذ يزيد بن أبي سفيان، وقاتل قتالًا شديدًا، وذلك أن أباه مَرَّ به، فقال له: يا بني، عليك بتقوى الله والصبر، ولا يكونن أحد من أصحابك بأرغب في الأجر والصبر في الحرب ولا أجرأ على عدو الإسلام منك، فقال: أفعل إن شاء الله. فقاتل يومئذ قتالًا شديدًا، وأكمل خالد ليلته في خيمة تَذَارِق أخي هرقل، وهو أمير الروم كلهم يومئذ، وقتل تَذَارِق، وكان له ثلاثون سرادقًا وثلاثون رُواقًا من ديباج بما فيها من الفُرُش والحرير، فلما كان الصباح حازوا ما كان هنالك من الغنائم، وما فرحوا بما وجدوا بقدر حزنهم على الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ حين أعلمهم خالد بذلك، ولكن الله عوضهم بالفاروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثم أتبع خالد من انهزم من الروم حتى وصل إلى دمشق، فخرج إليه أهلُها، فقالوا: نحن على عهدنا وصُلْحِنا؟ قال نعم، ثم أتبعهم إلى ثنية العُقاب، فقتل منهم خلقًا كثيرًا، ثم ساق وراءهم إلى حمص، فخرج إليه أهلُها، فصالحهم، وبعث أبو عبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عياضَ بن غنم وراءهم أيضًا، فساق حتى وصل مَلَطْية، فصالحه أهلُها ورجع، وانتهت الروم منهزمة إلى هرقل وهو بحمص، والمسلمون في آثارهم يقتلون ويَأسرون ويَغنمون، فلما وصل الخبر إلى هرقل ارتحل من حمص، وجعلها بينه وبين المسلمين وترَّس بها.

قال ابن اسحاق: كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يثبت لهم عدو فُوَاقَ ناقة عند اللقاء، فقال هرقل، وهو على أنطاكية لما قدمت منهزمة الروم: ويلكم!

أخبروني عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم، أليسوا هم بشرا مثلكم؟! قالوا: بلى. قال: فأنتم أكثر أم هم؟ قالوا: بل نحن أكثر منهم أضعافًا في كل موطن. قال: فما بالكم تنهزمون كلما لقيتموهم؟! فقال شيخ عظيم من عظمائهم: من أجل أنهم يقومون الليل ويصومون النهار، ويُوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويتناصفون بينهم، ومن أجل أنَّا نشرب الخمر، ونزني، ونركب الحرام، وننقض العهد، ونغصب ونظلم، ونأمر بما يسخط الله، وننهى عما يُرضي الله، ونُفسد في الأرض. فقال: أنت صدقتني[1].

الفوائد والدروس والعبر

١ - عندما سمع خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قُبيل بدء المعركة جنديًّا يقول: «ما أكثر الروم وأقل المسلمين!»، فقال خالد: «ما أقل الروم وأكثر المسلمين، إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال، والله لوددت أن الأشقر- يعني فرسه- براء وأنهم أضعفوا العدد».

إن توجيه الإسلام وتربيته جعلت خالدًا ينطق بهذا، نُطق المُتيقن مما يقول، ففي تربية الإسلام أصبح خالد لا يُعادل ربع مليون من أعدائه، لا بل فرسه الأشقر يعادل ربع مليون من أعدائه، فما قيمة خالد إذن؟ هل نقول: الملايين؟! لا غرابة، فجنودٌ وقادة تربوا على هدي الإسلام لابد أن يكونوا بمثل هذه المعنويات[2].

٢ - رأى بعض الشباب في أحد متاحف تركيا سيفَ خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأخذوا يبكون لما رأوا السيف الذي فتح هذه البلاد ونشر فيها نور الإسلام،

---

(١) البداية والنهاية (٧/ ١٤٧) وما بعدها، باختصار.

(٢) عوامل النصر والهزيمة ص ١٩، د/ شوقي أبو خليل.

يقولـون: إن حجـم السـيف ووزنـه لا يسـتطيع حملـه مجموعةٌ مـن الرجال الأقويـاء، فضـلًا عن أن يحمله رجلٌ واحد يركب فرسًـا، يهزه هـزًّا ويقاتل به الكفار(١)، قوة رهيبة وشجاعة مفرطة.

٣ - قـد يكـون من الصعـب تقويم منجـزات خالد وما تركه مـن أثر في فن الحـرب، إنه أسـطورة الأجيـال وخالد كخلـود الأجيال الأوائل، نقرأ سـيرته ونعيـش حياته، فتجد فيها عالمًا لا حدود له، وقد تراكمت الأبحاث في سـيرة خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حتى كأنه هو الفتح الإسلامي، أو كأن الفتح هو خالد بن الوليد، لقـد أثار الرعـب في صفوف أعداء المسـلمين، وكان الرعب وسـيلة خالد في بعـض انتصاراته، حتى بات كل من بالشـام والعـراق يتوقع ظهور خالد في كل مكان وفي كل وقت(٢).

٤ - استطاع الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مدة خلافته القصيرة أن يفرض واقعًا عالميًّا جديـدًا؛ فبعـد أن كان الفـرس والـروم أصحابَ السـيطرة والنفـوذ وحدهم، زاحمتهـم الدولة الإسـلامية الناشـئة بقـوة، بل وأوقعـت بهم هزائـم منكرة، وأزاحتهم عن مكان الريادة العالمي، وصار للمسلمين دولة مُهابة الجانب.

٥ - كانت سياسـة الصديق الخارجية قائمة على بسـط لـواء العدل، فرأت الشـعوب في المسـلمين الفاتحين أخلاقًا لم ترها في أبناء جنسها، وسماحة لم يشاهدوا مثيلًا لها، رأوا جيوشًا ترحم الصغير، والشيخ المسن، ولا تقتل امرأة ولا طفـلًا، ولا تقطع نخـلًا ولا تبيد زرعًا، ولا تروع عابـدًا في صومعته، رأت جيوشًا تعدل ولا تفرق في العدل بين المسلمين وغيرهم، ولا بين عظيم وغيره،

---

(١) شرح صوتي لـ (الأربعين الرياضية) د/ محمد إسماعيل المقدم - حفظه الله-.

(٢) قادة فتح بلاد الشام والعراق، بسام العسيلي ص ٢٦٠، ط دار النفائس.

ولا بين غني وفقير، رأت حكام المسلمين يرفقون بالرعية ويزهدون فيما في أيدي المحكومين، وهذا لم يلقوه في حكامهم، فكان شيوع هذه الأخلاق عنهم يسبقهم، ويفتح لهم القلوب قبل المدن والحصون[١].

٤- اكتسح المسلمون جيوش فارس والروم، واستطاعوا كسر شوكتهم في وقت قياسي في تاريخ الحروب، والسبب في ذلك يرجع إلى إيمان المسلمين بالحق الذي يقاتلون من أجله، ويقين المسلمين بربهم جَلَّ وَعَلَا، وسماحة المسلمين وعدالتهم مع الشعوب المفتوحة، ورحمة المسلمين بهم ووفائهم بالعهد معهم، إضافة إلى امتلاك المسلمين ثروة كبيرة من الرجال الأبطال والقادة الشجعان والمخططين الأذكياء الذين أحكموا الخطط الحربية، فجمع المسلمون بين ركني النصر والتمكين، وهما:

الركن الأول أولاهما: توثيق العلاقة فيما بينهم وبين ربهم جَلَّ وَعَلَا، وفيما بينهم وبين نبيهم ﷺ عملًا بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

والركن الثاني: الأخذ بالأسباب المادية والعناية بها وعدم إهدارها، عملًا بقول الله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

٥- لعلنا نتبين الآن من ذلك الحوار الذي دار بين هرقل وذاك الشيخ أسبابَ الهزائم التي حلت بأمتنا، فإنها سنن كونية لا تتخلف ولا تتبدل ولا تُحابي أحدًا، فعندما نأمر بما يُسخط الله عَزَّوَجَلَّ، وننهى عما يُرضي الله، ونُفسد في الأرض، ونستبعد شرع الله، ونُحارب سنة النبي ﷺ، ونُضيق على

---

(١) تاريخ الدعوة إلى الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين (١/ ٣٢٤) د/ يسري محمد هاني.

الدعـاة والعلماء، ونغصب ونظلم، ونُولي من لا يصلح، ونُوالي أعداء الدين، ونستسـلم لهم، وننفذ أوامرهم وننشر مخططاتهم، ونُحارب كل عفة وطهارة، وننشر كل رذيلة وخلاعة، وندفع الأجيال دفعًا ليعبوا من الشهوات عبًّا، ونمنع عنهم كل أسـباب الهداية، عندما نفعل ذلك سنظل هكذا في ذيل الأمم ومؤخر الشعوب نتجرع مر الهزيمة والهوان على الناس.

٦ - من روائع اليرموك: عن هشام بن عروة عن أبيه أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا للزبير: ألا تشـد فنشـد معك ؟ فقال: إني إن شـددت كذبتم. فقالوا: لا نفعل. فحمل عليهم حتى شـق صفوفهـم، فجاوزها وما معه أحد، ثم رجع مقبـلاً، فأخذوا بلجامه، فضربوه ضربتيـن على عاتقه، بينهما ضربة ضربها يوم بـدر، قال عـروة (ولده): كنـت أُدخل أصابعـي في تلك الضربـات ألعب وأنا صغيـر. وكان معه عبـد الله بن الزبير يومئذ وهو ابن عشـر سـنين فحمله على فرسه ووكل به رجلا[١].

وهكـذا فإن القادة العظـام يعلمون أبناءهـم اقتحام الصعـاب، والعيش في ظروف شـديدة قاسـية، والخوض في مواقف المعضلات، والتربية على حب الجهاد، وشجاعة القلب، فنشأ ابن الزبير كبيرًا منذ طفولته.

٧ - وروى الحاكم في مسـتدركه، عن حبيب بن أبي ثابت:(أن الحارث بن هشام، وعكرمة، وعياش بن أبي ربيعة ارْتَأَوْا يوم اليرموك، فدعا الحارث بماء ليشـربه، فنظر إليه عكرمة، فقال: ادفعوه إلى عكرمـة. فنظر إليه عياش، فقال: ادفعـوه إلى عياش. فما وصـل إلى عياش ولا إلى أحد منهـم حتى ماتوا (وما ذاقـوه) إنـه نموذج عملي رائع لتطبيق المبادئ التي آمنوا بها من حب المسـلم

(١) البخاري، كتاب المغازي، باب : قتل أبي جهل.

لأخيه ما يحبه لنفسه، فنعم الرجال هم، ونعم المجتمع الذي ضم، ونعم المربي الأعظم ﷺ.

٨ - يقول الذهبي: وكانت الروم قد سلسلوا أنفسهم، الخمسة والستة في السلسلة لئلا يفروا، فلما هزمهم الله عَزَّوَجَلَّ جعل الواحد يقع في نهر اليرموك فيجذب معه السلسلة حتى ردموا في الوادي واستووا فيما قِبل حافتيه، فداستهم الخيل وهلك خلق لا يحصون[1].

وهكذا فإن من يقاتل لغير مبدأ أو عقيدة ويُعْوِزُهُ الإيمان الراسخ ليربطه بقضيته سيحتاج إلى سلاسل يُرْبَط بها لئلا يفر.

٩ - قدمت نساء المسلمين نماذج رائعة في الشجاعة والبطولة ومنافسة الرجال في خدمة الدين، ففي سنن سعيد بن منصور «أن أسماء بنت يزيد الأنصارية شهدت اليرموك، فقتلت سبعة من الروم بعمود فسطاط أظلتها» أمة ولود، ودين زاخر، وأمجاد رائعة، وتاريخ مشرق، وماضٍ مشرف، وعز وفخر ومجد، واستعلاء إيماني، وتضحية وبذل، وحب للشهادة وقوة قلب، وتربية إيمانية، وقضية واضحة وهدف سام وغاية نبيلة، فكانوا كما ذكر ربهم جَلَّ وَعَلَا ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

١٠ - **يقول ابن جرير الطبري**: شهد اليرموك ألفٌ من أصحاب رسول الله ﷺ، فيهم نحو مائة من أهل بدر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وكان أبو سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يسير فيقف على الكراديس، فيقول: الله الله إنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك، اللهم إن هذا يوم من أيامك، اللهم أنزل نصركِ على عبادك.

---

(١) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام (٣/ ١٣٩). الإمام الذهبي.

فكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جنديًا مثاليًا لا يأنف -وهو من سادة العرب- أن يقاتل تحت راية ابنه يزيد، مما يؤكد صحة القصد وسلامة الصدر، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد فقد عينه الثانية في هذه المعركة، معركة اليرموك بعدما فقد الأولى في غزوة الطائف(١) ويقول سعيد بن المسيب عمن حدثه أنه: لم يسمع صوتًا أشد من صوت أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوم اليرموك وهو تحت راية ابنه وهو يقول: هذا يوم من أيام الله، اللهم نصرك(٢).

١١ - ولأن اليرموك ملحمة من أعظم ملاحم التاريخ، بها تغير وجه الأرض وازدان بحلة الإسلام، وانجلى الكفر والشرك والإظلام، لذا فقد تغنى بها الشعراء، فقال أبو الفضل الوليد:

أدمشقُ ما أَمْضَى سيوفَ بنيكِ !! تلك التي شلت عروش ملوك
ولكل أرض من جمالكِ قسمةٌ وجمال كل الأرض في ناديكِ
إن الضحايا في هواكِ كثيرةٌ فتذكري ما كان في اليرموكِ
اللهُ راضٍ عن شهادةِ فتيةٍ بعيونهم وقلوبهم حجبوكِ
أبناؤكِ العُرْبُ الكرامُ تطوعوا واستُهْلكوا ليقوكِ أو ليفوكِ
سالت لديكِ دماؤهم فتلطفي بتحية لشبيبة نفديكِ

وفاة الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

كانت وفاة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لثمان ليال بقين من جُمادي الأخرة ليلة الثلاثاء، وهو ابن ثلاث وستين سنة، وكان قد اغتسل في يوم بارد، فحُم خمسة عشر يومًا لا يخرج إلى الصلاة، فأمر عمر أن يُصلي بالناس، ولما مرض قال له

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٣٣٦).

(٢) المطالب العالية، لابن حجر، كتاب المناقب، فضل أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

النـاس: ألا ندعو الطبيب؟ قـال: «قد أتاني وقال لي: أنا فاعل ما أريد»، فعلموا مراده وسـكتوا عنه، ثم مات رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ودفن ليلًا، وصلى عليه عمر في مسـجد رسـول الله ﷺ، ودخل قبرَه ابنُه عبدُ الرحمن وعمـر وعثمان وطلحة، وجُعل رأسه عند كتفي النبي ﷺ وألصقوا لحده بلحد النبي ﷺ، وجعل قبره مثل قبر النبي ﷺ مُسطحًا[1].

سـمات المجتمع في عهد الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: تميز المجتمع المسلم في عهد خلافـة الصديـق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بمجموعة من السـمات أهلته للثبـات على الدين، وحمايتـه مـن أعظم المخاطر التـي أحاطت به وأهمها خطر الـردة، ومن هذه السمات:

١- أنـه في عمومه مجتمع مسـلم بكل معاني الإسـلام، عميـق الإيمان بالله واليـوم الآخـر، يطبق تعاليم الإسـلام بجديـة واضحة، والتـزام ظاهر، وبأقل قـدر مـن المعاصي وُضِع في أي مجتمع في التاريخ، فكان الدين بالنسـبة له هو الحياة، وليس شـيئًا هامشـيًّا يفيء الناس إليه بين الحين والحين، إنما هو حياة الناس وروحهم، ليس فقط فيما يؤدون من شعائر تعبدية، وإنما في أخلاقياتهم، وتصوراتهم، واهتماماتهم، وقيمهم وروابطهم الاجتماعية، وعلاقات الأسـرة والجوار، والبيع والشراء، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والرقابة على أعمال الحكام والولاة.

٢- أنه مجتمع أخلاقي، وهي قاعدة لا تشـمل علاقة الجنسـين وحدها- وإن كانت من أبرز سـمات المجتمـع، فهو خالٍ من التبرج، ومـن فوضى الاختلاط، ومن كل ما يخدش الحياء، ومن الفاحشة إلا القليل الذي لا يخلو منه مجتمع على الإطلاق- ولكن القاعدة الأخلاقية أوسـع بكثير من علاقة الجنسين، فهي تشمل

---

(١) الكامل لابن الأثير (١/ ٤٠٥). بتصرف.

السياسة والاقتصاد والاجتماع، والفكر، والتعبير، فالحكم قائم على أخلاقيات الإسلام، والعلاقات الاقتصادية من بيع وشراء وقرض ومضاربة قائمة على أخلاقيات الإسلام، وعلاقات الناس قائمة على الصدق والأمانة والإخلاص والتعاون والحب، لاغمز ولا لمز، ولا غيبة ولا نميمة، ولا قذف ولا بغي.

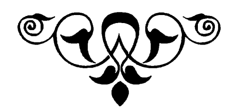
٣- **أنه مجتمع جاد، مشغول بمعالي الأمور لا بسفاسفها**، وليس الجد بالضرورة عبوسًا وصرامة، ولكنه روح تبعث الهمة في النفوس، وتحث على العمل والعطاء، فلم يكن مجتمعًا فارغًا مترهلًا يبحث أفراده عن وسيلة لقتل الوقت من شدة الفراغ.

٤- **أنه مجتمع مجند للعمل**، في كل اتجاه تلمس فيه روح الجندية واضحة، لا في القتال في سبيل الله فحسب، وإن كان القتال في سبيل الله قد شغل حيزًا كبيرًا في حياة هذا المجتمع، ولكن في جميع الاتجاهات فالكل متأهب للعمل وبأقصى سرعة، ومن ثم لم يكن في حاجة إلى تعبئة عسكرية ولا مدنية، فهو معبأ من تلقاء نفسه بدافع العقيدة وبتأثير شحنتها الدافعة لبذل النشاط في كل اتجاه.

٥- **أنه مجتمع متعبد**، تلمس فيه روح العبادة، ليس فقط في أداء الفرائض والمحافظة على النوافل، بل في جميع الأعمال، فالعمل في حسه عبادة، يؤديه بروح العبادة، والحاكم يسوس رعيته بروح العبادة، والتاجر يبيع ويشتري بروح العبادة، والزوج يرعى بيته بروح العبادة، والزوجة ترعى بيتها بروح العبادة، والمعلم يعلم القرآن بروح العبادة، والجار يعامل جاره بروح العبادة، وهكذا حتى صارت كل حركات المجتمع تنبض بروح العبادة.

فهذه السمات وغيرها جعلته مجتمعًا مسلمًا في أعلى آفاقه، وجعلت هذه الفترة هي الفترة المثالية في تاريخ الإسلام، وساعدت في نشر هذا الدين بسرعة فائقة،

حتى أصبحت حركة الفتوحات من أسرع حركات الفتح في التاريخ كله، بحيث شملت في أقل من خمسين عامًا أرضًا تمتد رقعتها من المحيط غربًا إلى الهند شرقًا، في ظاهرة نادرة تستحق الدراسة والتحليل، وكانت هذه السمات كذلك سببًا في دخول الناس في الإسلام في البلاد المفتوحة بلا قهر أو ضغط، فأحب الناس الإسلام لما رأوه مطبقًا على هذه الصورة الرائعة الوضاءة، فأحبوا أن يكونوا من معتنقيه.





خلافة
عمر بن الخطاب
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

إلى:	من:
٢٣هـ	١٣هـ

عشر سنوات

الخليفة الثاني: عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

اسمه ونسبه وصفته

اسـمه عمـر بن الخطاب بن نفيل بـن عبد العزى من بني عـدي، وكان أبوه الخطاب بن نفيل غليظًا يتسم بالقسوة وجلافة الطبع، وعرف بعذابه لابن أخيه زيد بن عمرو بن نفيل الذي كان يُنكر على قريش عبادتها الأصنام.

وُلد عمر بن الخطاب في السـنة الثانية والأربعين قبل الهجرة، وكان عمره يوم بُعث النبي ﷺ تسعة وعشرين عامًا[١]، وروى يعقوب بن سفيان في تاريخه، بسند جيـد إلى زر بن حبيش قال: رأيت عمر أعسـر، أصلـع، آدم، قد فرع الناس، كأنه على دابة. فذكرت هذه الصفة لبعض ولد عمر، فقال: سمعنا أشياخنا يذكرون أن عمر كان أبيَض، فلما كان عام الرمادة، وهي سـنة المجاعة، ترك اللحم والسمن وأدمن أكل الزيت حتى تغير لونه وكان قد احمرّ فشـحب لونه، وأخرج ابن سعد بسـند جيد من طريق سماك بن حرب، أخبرني هلال بن عبد الله، قال: رأيت عمر جسيمًا كأنه من رجال بني سدوس[٢].

واسـتمر في الجاهلية ست سنوات، إذ إنه أسلم العام السادس[٣]، فيكون قد أمضى خمسًا وثلاثين سنة في الجاهلية، لم يكن له فيها مركز ولا شهرة، ولولا الإسلام ما عُرف ابن الخطاب.

---

(١) مناقـب عمر بن الخطاب ص ١٠، لابن الجوزي، ط دار المنار، والتاريخ الإسـلامي لمحمود شاكر (٣/ ١٠٩).

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر، ص ٩٥٠.

(٣) طبقات ابن سعد (٣/ ٢٦٩).

ثـم مات زيد بـن عمرو بن نفيل وعمه الخطاب، ومـا مضى زمن طويل إلا وشـعَّ نور الإسـلام، فآمنت به طائفة من السـابقين، كان منهـم سـعيد بن زيد، وأخته فاطمة بنت الخطاب(١).

ومع شـدة عمـر، وجلافة طبعه إلا أنه كان رقيقًا، طيـب القلب إذا لم تُوجه إليه كلمات تغضبه، فرغم إيذائه للمسلمين إلا أنه كان يَرِقُّ لهم أحيانًا، فعندما انطلق المهاجرون إلى الحبشة وكان فيهم عامر بن ربيعة وزوجه ليلى بنت أبي حنتمـة، فمر عليهم عمر، وكان عامر مضى لبعض حاجته، فرأى فاطمة، فقال لهـا: إنه الفراق يا أم عبد الله؟ قالت: نعـم، آذيتمونا وقهرتمونا، فَرَقَّ عمر لها، فأخبرت عامر بن ربيعة برقته، فقال لها: أطمعت في إسلامه؟ قالت: نعم. قال: والله، لو أسلم حمار الخطاب لأسلم عمر(٢). يأسًا من إسلامه، ولكن الله يفعل ما يشاء.

إسلام عمر بن الخطاب

لم يُعرف سـبب واضح لإسـلام عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إلا أن النبـي ﷺ كان يدعو ويقول: اللهم أعز الإسـلام بأحب العمرين إليك، عمرو بن هشـام أو عمر بن الخطاب(٣). فعلم من ذلك أن الله سبحانه يحب عمر بن الخطاب، وفي فضائل الصحابـة لخيثمة من طريـق أبي وائل عن ابن مسـعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال ﷺ: **«اللهم أيد الإسلام بعمر»**(٤).

---

(١) التاريخ الإسلامي(٣/ ١٠٩)، لمحمود شاكر، بتصرف واختصار.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٧٠) ط دار الكتاب العربي.
(٣) الترمذي، وقال الألباني : «صحيح» برقم (٣٦٨١).
(٤) الخلافة الراشدة والدولة الأموية من فتح الباري، يحيى بن ابراهيم اليحيى، ص ٢٢٢ ط دار الهجرة.

فأسلم عمر، ثم قال: أيُّ قريش أنقل للحديث؟ فقيل له: جميل بن معمر الجمحي. فغدا عليه، فقال له: أعلمت يا جميل أني أسلمت؟، فما راجعه حتى قام على باب المسجد ونادى بأعلى صوته: يا معشر قريش، ألا إن عمر قد صبأ، فقال عمر من خلفه: كذب، إنما أسلمت، وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله.

فثاروا عليه، فما بَرِح يُقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم، فأعياه التعب، فقعد وقاموا على رأسه، فقال لهم: افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله أن لو كنا ثَلاثمائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا[١].

قال ابن مسعود: «إن إسلام عمر كان فتحًا، وهجرته كانت نصرًا، وإمارته كانت رحمة، وما كنا نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشًا، حتى صلى عند الكعبة، وصلينا معه»[٢] **وفي البخاري عنه قال: «مازلنا أعزة منذ أسلم عمر»**[٣]، وروى ابن سعد عن صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لما أسلم عمر قال المشركون: انتصف القوم منا!»[٤]

ثم أَذِنَ رسول الله ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى المدينة، فخرج الكل مُتخفيًا، إلا عمر، تقلد سيفه وتنكس قوسه، ومضى قِبل الكعبة وقريش بفنائها، فطاف سبعًا، ثم صلى في المقام، ثم قال لهم: شاهت الوجوه، من أراد أن يثكِّل أمَّه، أو يوتّم ولده، أو يرمل زوجته، فليلقني خلف هذا الوادي. قال علي: فما اتَّبعه

(١) مناقب عمر، لابن الجوزي ص ١٣. بتصرف.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (١٢/ ٢٧)، مجمع الزوائد (٩/ ٦٣).

(٣) الخلافة الراشدة والدولة الأموية من فتح الباري، يحيى بن إبراهيم اليحيى، ص ٢٢٠ ط دار الهجرة.

(٤) السابق، وعزا الأثر لابن سعد في الطبقات (٣/ ٢٦٩) بمعناه.

أحد إلا قوم من المستضعفين علمهم وأرشدهم ثم مضى لوجهه. واتفق هو وعياش بن ربيعة وهشام بن العاص أن يُهاجروا معًا، فتخلف هشام فقد حبسه قومه، وفُتن عن دينه(١).

وكان عمر من الصحابة الذين يستشيرهم رسول الله ﷺ، وكان في المكانة عند رسول الله ﷺ بعد أبي بكر، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ؛ فقد شهد بدرًا، وقاتل فيها قتال الأبطال حتى تنزل النصر من الله على المؤمنين.

ثم شهد أُحُدًا، وكان فيها ما كان من هزيمة للمسلمين، فوقف أبو سفيان ونادى بأعلى صوته: أفيكم محمد ﷺ؟ فقال ﷺ: **لا تُجيبوه**. ثم قال: أفيكم ابن أبي قحافة؟ فقال: ﷺ **لا تُجيبوه**.ثم قال: أفيكم ابن الخطاب؟ فقال ﷺ: **لا تُجيبوه**. فقال: إن هؤلاء قتلوا، فلو كانوا أحياءً لأجابوا. فلم يملك عمر نفسه، فقال: كذبت يا عدو الله، أبقى الله عليك ما يخزيك، قال أبو سفيان: أُعْلُ هبلْ، فقال ﷺ: **أفلا تُجيبوه؟** فقالوا: وماذا نقول؟ فقال: **قولوا: الله أعلى وأجلُّ**، قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم، فقال النبي ﷺ: **أجيبوه**. قالوا: ما نقول؟ قال: **قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم**، قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، وتجدون مُثلة لم آمر بها ولم تسؤني(٢). قال عمر: **لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار**.

الفوائد والدروس والعبر

١- قال الحافظ: وفي الحديث من الفوائد: منزلة أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا من النبي الكريم ﷺ وخصوصيتهما به؛ بحيث كان أعداؤه لا يعرفون بذلك

(١) عزاه الحافظ في «الإصابة» ص ١٣٦٠ إلى ابن السكن وقال: سنده صحيح.
(٢) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة أحد (٩/ ١٠٨) ط دار طيبة.

غيرهما، إذ لم يسأل أبو سفيان عن غيرهما، وفيه شؤم ارتكاب النهي، وأنه يعم ضررُه مَنْ لم يقع منه، كما قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢٥] .

واسْتُفِيد من هذه الحادثة أخذ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الحذر من الوقوع في مثلها، والمبالغة في الطاعة[١].

٢- قال ابن القيم ما ملخصه: أمرهم ﷺ بجوابه عند افتخاره بآلهته وبشركه تعظيمًا للتوحيد، ولم يأمرهم بإجابته حين قال: أفيكم محمد ﷺ ؟ أفيكم ابن أبي قحافة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؟ أفيكم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؟ لأن كَلْمهم لم يكن برد بعدُ في طلب القوم، ونار غيظهم بعد متوقدة، فلما قال لأصحابه: أما هؤلاء فقد كُفيتموهم، حمِيَ عمر واشتد غضبه، وقال: كذبت يا عدو الله. فكان في هذا الإعلام من الإذلال والشجاعة وعدم الجبن ما يؤذنهم بقوة القوم وبسالتهم وأنهم لم يَهِنُوا ولم يضعفوا، وكان في الإعلام ببقاء هؤلاء الثلاثة بعد ظنه وظن قومه أنهم قد أصيبوا من المصلحة وغيظ العدو والفتّ في عضده ما ليس في جوابه حين سأل عنهم واحدًا واحدًا، فكان سؤاله عنهم ونعيهم لقومه آخر سهام العدو وكيده، فصبر له النبي ﷺ حتى استوفى كيده، ثم انتدب له عمر فرد سهام كيده عليهم، وكان ترك الجواب أولا عليه أحسن، وذكره ثانيًا أحسن[٢].

٣- إن في ترك إجابته حين سأل عنهم إهانةً له، وتصغيرًا لشأنه، فلما مَنَّتْهُ نفسُه موتَهم وحصل له بذلك من الكبر والأشر ما حصل، كان في جوابه إهانةٌ له وتحقيرٌ وإذلالٌ.[٣]

---

(١) فتح الباري (٩/ ١٠٨) ط طيبة.

(٢) زاد المعاد (٣/ ٢٠٢).

(٣) السابق (٣/ ٢٠٢).

٤- ولـم تكن إجابة عمـر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مخالفة لقوله ﷺ «لا تجيبوه» فإنه إنما نهـى عن إجابته حين سـأل: أفيكم محمد ﷺ؟ أفيكم فـلان ؟ أفيكم فلان ؟ ولم ينه عن إجابته حين قال: أما هؤلاء فقد قتلوا.(١)

ثـم انطلق رسـول الله ﷺ بالمسـلمين إلى بنـي المصطلِق، وقـد تجمعوا يريدون غزو المدينة، فباغتهم رسول الله ﷺ، وانتصر عليهم في «المريسيع»، وقتـل منهم وأسـر، وفي هـذه المعركة اشـتبك مهاجـريٌّ وأنصـاريٌّ، فنادى الأنصـاري الأنصـار، والمهاجـري المهاجرين، فأخفضهم رسـول الله ﷺ، وقـال: **أبدعوى الجاهلية وأنـا بين أظهركم؟ دعوها فإنهـا منتنة.** فاغتاظ ابن سـلول، وقال: أوقد فعلوهـا؟ لقد نافرونـا وكاثرونا في بلادنـا، والله ما أمُرنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول: سمّن كلبك يأكلْك، والله ليخرجن الأعز منهـا الأذل. فقال عمر: مر يا رسـول الله عباد بن بشـر أن يضرب عنقه، فقال ﷺ: **أتُريد أن يتحدث الناس أن محمدًا ﷺ يقتل أصحابه؟.**

ثـم سـار رسـول الله ﷺ يُريـد البيـت، إلا أن قريشًـا وقفـت في وجهه في الحديبية، ظانة أنه جاء مُقاتلًا فتسمع العرب بذلك فتقلّ هيبتها وتقوى شوكة المسلمين.

وحدث الصلح الذي لم يرض عنه عمر، وعرض إشـكاله على رسول الله ﷺ قائـلًا: ألسـنا على الحق وعدونـا على الباطل؟ قال: **بلى**، قـال: فَلِمَ ندع الدنية في ديننا؟ فقال: **يا عمر إني رسول الله، وهو ناصري، ولست أعصيه.**

فذهب إلى أبي بكر فقال له: أيها الرجل، الزم غرزه، إنه عبد الله ورسـوله، وهـو ناصره وليس يعصيه. فقال عمر: فعملـت لذلك أعمالًا؛ مخافة كلامي

(١) زاد المعاد (٣/ ٢٠٢).

الذي تكلمت به، حتى رجوت أن يكون خيرًا[١].

ثم سار المسلمون مع رسول الله ﷺ يُريدون فتح مكة، وتقدمت قوافل المسلمين نحو مكة، وكانت راية الأنصار بيد سعد بن عبادة، فقال: اليومُ يومُ الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، فسمع عمر ذلك، فأسرع إلى رسول الله ﷺ قائلًا: يا رسول الله، اسمع ما قال سعد، ما نأمن أن تكون له صولة في قريش. فقال ﷺ لعلي: **أدركه فخذ منه الراية، فكن أنت الذي تدخل بها.** وأراد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يضرب عنق أبي سفيان، فمنعه النبي ﷺ، ودخل المسلمون مكة، والتقى الرسول ﷺ بقريش وعفا عنهم، فقال: **اذهبوا فأنتم الطلقاء.**

ثم انطلق رسول الله ﷺ إلى حُنين لمداهمة هوازن وثقيف، إلا أن هوازن كمنت للمسلمين، وقد كان المسلمون أعجبتهم كثرتهم فلم تغن عنهم شيئًا، ففروا وثبت رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعلي والعباس وابنه الفضل وأبو سفيان بن الحارث وأخوه ربيعة بن الحارث ابنا عم رسول الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ[٢].

ثم ما لبث رسول الله ﷺ أن لَحِق بالرفيق الأعلى وتولى الخلافة من بعده أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نعم الوزير والمعاون.

ثم قَرُب أجل أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأراد أن يموت مُطمئنًا على حال المسلمين من بعده، فهداه تفكيره إلى أن يختار عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فكتب كتابًا بعد أن استشار عثمان وابن عوف وسعيد بن زيد وأسيد بن حضير وغيرهم من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فأمر عثمان أن يكتب كتابًا يستخلف فيه عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جميعًا.

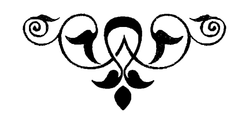
---

(١) التاريخ الإسلامي (٣/ ١٣٠)، لمحمود شاكر. بتصرف.

(٢) السابق (٣/ ١٣٠).

الفوائد والدروس والعبر

١- قال د/ صالح العصيمي: بعد بحث في كتب الأحاديث والتخريج لم أجد لقصة وأد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لابنته أثرًا إلا في كتب الشيعة، والمتهم باختلاقها الرافضي الخبيث نعمة الله الجزائري صاحب الأنوار النعمانية، والأصل ألا يثبت ذلك إلا بإسناد صحيح، ومما يؤكد زيفها أن أول امرأة تزوجها عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ زينب بنت مظعون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فولدت له حفصة وعبد الله وعبد الرحمن الأكبر، كما في البداية والنهاية، وكذا لم يعرف في بني عدي الذين ينسب لهم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأد البنات، بدليل أن أخته فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بقيت حية حتى تزوجت سعيد بن زيد ابن عم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ[1]



---

(١) مقال بعنوان: «التبين والتثبت» بتصرف يسير.

الفتوحات في عهد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

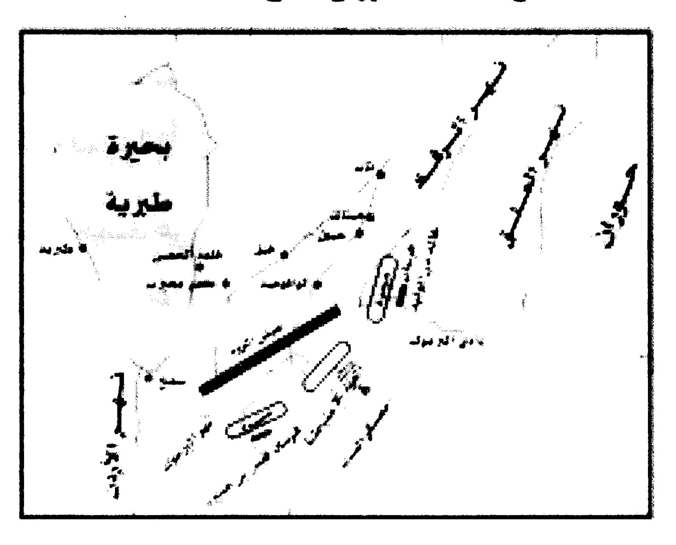
شملت الفتوحات في عهد عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بلاد العراق والمشرق، والتي يُسيطر عليها الفُرس، وبلاد الشام ومصر وليبيا والتي يُسيطر عليها الروم.

أولًا: فتوحات الشام

١ـ معركة اليرموك ٤ رجب ١٣هـ

تُـوفي الصديق ومعركة اليرموك متواصلـة، إذ وصل البريد بالخبر، وأخفى خالـد الخبر حتى لا يتأثـر الجند، وظلت المعركة مسـتمرة، وهي كما يصفها ابن كثير: حامية الوطيس، مسـتعرة الأوار، السـيوف تخطـف الأرواح وتزيل الهام وتفري الأجسـاد، وكان عدد المسلمين في هذه المعركة ٣٦ ألفًا، والروم ٢٤٠ ألفًا.

معركة اليرموك ١٣هـ



عزل خالد أثناء المعركة

وبعد توالي الانتصارات والتي بدأت بالعراق ومرت بالشام، وأثناء المعركة الكبرى في اليرموك، جاء الكتاب من أمير المؤمنين بعزل خالد بن الوليد، وتولية أبي عبيدة بن الجراح إمرة الجيش.

لقد عُزل خالد، سيف الله المسلول، الذي لم يهزم في جاهلية ولا إسلام، القائد المحنك الشجاع، الذي يحبه جنده وقد بقى بينهم وبين الافتتان به شعرة، الذي يَبُثُّ روح النصر في القلوب، وينتزع روح الهزيمة من النفوس، تُرعد لذكر اسمه الدول، فُرْسُها ورومها، وتحول في نظر العدو إلى أسطورة لا يصمد لها أحد، إنه خالد بن الوليد المغوار، الجريء المقدام، التواق السباق، عالي الهمة.

عُزل خالد، ولم يحدث في الحقيقة أي رد فعل أو ضجة، عُزل خالد، ولم يقف عند هذا الحادث أحد من المسلمين، عُزل خالد القائد، فأدى دور الجندي بكفاءة وشجاعة، لم يكْسل ولم يفقد ثقته في بنفسه، ولم تنطفئ حماسته الحربية ولا الإيمانية، ولم يتربص بالقائد الجديد يرجو عثرته وينتظر سقطته، وكذلك لم يتباطأ في تنفيذ الأوامر.

روى الإمام أحمد عن عبد الملك بن عمير قال: استعمل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أبا عبيدة على الشام وعزل خالد، فقال خالد: بُعث عليكم أمين هذه الأمة، سمعت رسول الله ﷺ يقوله. فقال أبو عبيدة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«خالد سيف من سيوف الله، فنعم فتى العشيرة»**.

وروى الطبري وغيره في تاريخه: **أن أبا عبيدة دفع كتاب توليته وعَزْلِ خالد إلى خالد بعد وصول الكتاب بعشرين يومًا، فلما رآه خالد أعظم ذلك، وأقبل**

على أبي عبيـدة، فقال له: يغفر الله لك، أتاك كتاب أمير المؤمنين فلم تعلمني، وأنت تصلي خلفي والسلطان سلطانك؟

فقال أبو عبيدة: «وأنت يغفر الله لك، قد كنت أُعْلِمُك إن شاء الله، وما كنت لأكسر عليك حربك حتى ينقضي ذلك كله، وما سلطان الدنيا أريد، وما للدنيا أعمل، وأن ما ترى سيصير إلى زوال وانقطاع، وإنما نحن إخوان وقوّام بأمر الله، وما يضير الرجل أن يلي عليه أخوه في دينه ودنياه، بل يعلم الوالي أنه يكاد يكون أدناهما إلى الفتنة وأوقعهما في الخطيئة إلا من عصم الله عَزَّوَجَلَّ».

الفوائد والدروس والعبر

١- أراد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعزل خالد أن يحمي جناب التوحيد، لذلك كتب إلى الأمصار كما ذكر الطبري في تاريخه كتابًا جاء فيه: «إني لم أعزل خالدًا عن سُخطة ولا خيانة، ولكن الناس فتنوا به، فخفت أن يُوكَلُوا إليه ويُبْتَلوا به، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع، وألا يكونوا بعرض فتنةٍ، أو نقول: إن الدافع من وراء عزل خالد أو توليته إنما هو اختلاف إداري، فيرى أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه ينبغي إعطاء مساحة للولاة يعبرون عن أنفسهم، ويُعْمِلون فكرهم، ويبرزون مواهبهم، أما عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فكان يرى أنه ينبغي أن يُرْجَع إلى الحاكم في كل الأمور، فكانت هذه الطريقة لا تتناسب مع بقاء خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قيادة الجيوش، أو نقول كما قال ابن تيمية: «أن المتولي الكبير إذا كان خُلقه يميل إلى اللين فينبغي أن يكون خلق نائبه يميل إلى الشدة، وإذا كان خلقه يميل إلى الشدة فينبغي أن يكون خلق نائبه يميل إلى اللين؛ ولهذا كان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يؤثر استنابة خالد، وكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يؤثر عزل خالد واستنابة أبي عبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، لأن خالدًا كان شديدًا كعمر، وأبا عبيدة كان لينًا كأبي بكر، فكان

الأصلح لكل منهما أن يولي مَنْ ولاه، ليكون أمره معتدلا[١].

٢- ينبغي استعمال الرجل لمصلحة راجحة وإن كان هناك من هو أفضل منه، لذا كان النبي ﷺ يستعمل خالدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ منذ أسلم، ويقول: «**إن خالدًا سيف سله الله على المشركين**» مع أنه أحيانًا قد كان يعمل ما ينكره النبي ﷺ كقتله بني خزيمة بنوع شبهة، حتى رفع النبي ﷺ يديه وقال: «**اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد**» ومع هذا فما زال يقدمه في إمارة الحرب، لأنه كان أصلح في هذا الباب من غيره، وكان أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أصلح منه في الأمانة والصدق، ومع هذا فقد نهاه النبي ﷺ عن الإمارة والولاية، لأنه رآه ضعيفًا، مع أنه قد روي: «**ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر**» وأمَّر النبي ﷺ مرة عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في «غزوة ذات السلاسل» استعطافًا لأقاربه الذين بعثه إليهم، على من هم أفضل منه، وأمَّرَ أسامة بن زيد لأجل طلب الثأر لأبيه، وكذلك كان يستعمل ﷺ الرجل لمصلحة راجحة مع أنه قد يكون مع الأمير من هو أفضل منه في العلم والإيمان[٢].

٣- عندما بلغ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نبأ وفاة خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مدينة حمص وذلك سنة ٢١ هـ، قال: «قد ثُلم في الإسلام ثُلمة لا تُرتَق، كان والله سدادًا لنحور العدو ميمون النقيبة»، وانتشر خبر موت خالد، وخرجت نساء بني مخزوم يندبن فتى العشيرة، وسمع عمر صوت البكاء فحمل سوطه وهَمَّ بالخروج لمنع البكاء كعادته، ثم سمع صوت بكاء ابنته حفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ففكر لحظة، ثم عاد وعلق سوطه وقال: «ما عليهن أن يبكين أبا سليمان مالم يكن نقع أو لقلقة، فعلى مثل أبي سليمان تبكي البواكي» وعندما أحس عمر بدنو أجله

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٥٦).

(٢) السابق (٢٨/ ٢٥٦)، بتصرف يسير.

قال: لو أدركت خالدًا لوليته، فإذا قدمت على ربي فسألني: من وليت على أمة محمد ﷺ؟ قلت: إي ربي سمعت عبدك ونبيك ﷺ يقول: خالد سيف من سيوف الله سله الله على المشركين(١).

٤- التطبيق العملي لمعاني الإخلاص وإنكار الذات، وتقديم مصلحة الأُمة والدعوة على اعتلاء منصب ما أو البقاء في أبهة السلطة والرياسة، فقام خالد بوضع كل فنه العسكري وكل مهارته الحربية تحت تصرف القائد الجديد، وتحول القائد الأعلى للجيوش إلى جندي عادي.

٥- ظهور أثر التربية النبوية لجيل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وأهمية الاعتناء بها في حركة بعث الأمة من جديد.

٦- هيمنة الوازع الديني والسمو الأخلاقي على تصرفات القائدين العظيمين خالد وأبي عبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وضربهما المُثل العليا في الزهد في الدنيا ودفع الرياسة، والعمل للآخرة، ليحتذي حذوهما كل قائد وكلُّ رئيس وكل مسئول.

٧- تجلي مواقف العظمة في أبهى صورها في مجتمع المسلمين، فلم يُذكر أي اعتراض على هذا القرار الخطير، بل قابله المجتمع بالتسليم التام، والاعتراف بحق الخليفة في التولية والعزل، وهكذا تنساب آيات العظمة في تدفق عجيب لم يُر مثله في أي مجتمع من المجتمعات، ولو اعترض خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على قرار عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لوجد من يؤيده ويقف بجانبه، لكن هذا يعني شق الصفوف وتعريض الجيش للهزيمة والدولة للخطر، وتوقف المسيرة الجهادية والدعوية، ولم يكن خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليفعل ذلك هو ولا أحد من أصحاب النبي ﷺ، فرضي الله عنهم جميعًا.

(١) قادة فتح بلاد الشام والعراق، بسام العسيلي، ص ١٣٨ ط دار النفائس.

٨- «وما يضر الرجلَ أن يلي عليه أخوه في دينه ودنياه»، إنها كلمات كالكنوز الثمينة، بل أثمن -والله- من الكنوز، إنها روعة الصدق وجلال التخلي عن حظوظ النفس، إنها كلمات المخلصين حقًّا، المحبين للدين صدقًا، كلمات من يتحرق قلبه لأجل دينه ودعوته، إنها المعاني الإيمانية التي يسقط أمامها المتشدقون بالكلمات الجوفاء التي سرعان ما تنهار مع أول اختبار حقيقي لمعاني التجرد وإنكار الذات.

٢- معركة فِحْل[1] بغور الأردن

بعد انسحاب الروم أمام المسلمين في معركة اليرموك إلى دمشق، وهرقل إلى أنطاكية، عاودوا التجمع بمكان يسمى «فِحْل» بغور الأردن، فتوقف أمير الجيوش أبو عبيدة لا يدري أيطارد الجيش الرومي في دمشق، أم ينتقل إلى منطقة «فِحْل»؟

وجاء الأمر من أمير المؤمنين أن يبدأ بدمشق، فإنها حصن الروم وبيت مملكتهم، وأن يشغلوا أهل فِحْل بخيول تكون تلقاءهم، فإن فتحها الله قبل دمشق فذلك الذي نحب، وإن فُتحت دمشق قبلها، فسر أنت ومن معك واستخلف على دمشق، فإذا فتح الله فِحْل فسر أنت وخالد إلى حِمص، واترك عمرًا وشرحبيل على الأردن وفلسطين.

فأرسل أبو عبيدة عمارة بن مُخِشٍّ إلى فحل، فوجد الروم ثمانين ألفًا وقد طوقوا المياه، فاندلعت الحرب، فظفر المسلمون بهم وركبوهم، ولم تعرف الروم مأخذهم، فانتهت بهم الهزيمة إلى «الوحل» فركبوه، ولحقهم المسلمون، فأخذوهم ولا يمنعون يد لامس، فوخزوهم بالرماح، فكانت

(١) فِحْل: بكسر الفاء وتسكين الحاء، هكذا ذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٧/ ١٦٧).

الهزيمة، وأصيب الروم، وهم ثمانون ألفًا[١]، وقتل بطريقهم وزهاء عشرة آلاف معه، وتفرق الباقون في مدن الشام ولحق بعضهم بهرقل[٢].

٣ـ فتح دمشق (١٤ رجب ١٤ هـ)

اهتم الروم بمدينة دمشق التي لا تزال تتمتع بأكبر حامية رومية فيها، فهي عاصمتهم وبيت مملكتهم، فحصنوها بالأسوار الشاهقة، ثم تحرك أبو عبيدة باتجاهها، جاعلًا خالدًا في القلب، وسار هو في الميسرة، وعمرو في الميمنة، وعياض بن غُنْم على الخيل، وشرحبيل بن حسنة على الرَّجَّالة.

وانطلق الجيش الإسلامي فوصل إلى دمشق من ناحية الشرق، فتوزع يحاصرها، فوقف خالد على الباب الشرقي، وسارت الميسرة على جنوب دمشق، فنزل يزيد بن أبي سفيان على الباب الصغير، ونزل أبو عبيدة على باب الجابية من جهة الغرب، ونزل عمرو بن العاص على باب توما، ونزل شرحبيل بن حسنة على باب الفراديس[٣].

واستمر الحصار عدة أشهر، وفي ليلةٍ احتفل فيها الجند الرومي بمولود للبطريق فشربوا حتى سكروا، فوصل الخبر إلى خالد بن الوليد، فإنه كان لا ينام ولا يترك أحدًا ينام، بل مُرَاصد لهم ليلًا ونهارًا.

وكان عند خالد سلالم من حبال مهيأة، فاستدعى القعقاع بن عمرو ومذعور بن عدي، وأحضر الجند عند الباب، وقال إذا سمعتم تكبيرنا فارقوا إلينا، ثم قطع

(١) الكامل لابن الأثير (١/ ٤٠٩). بتصرف

(٢) فتوح البلدان، البلاذري ص ١٥٨، ط مؤسسة المعارف - بيروت.

(٣) محض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (١/ ٤٢٣) لابن المبرد، ط أضواء السلف - الرياض، بتصرف

خالد وأصحابه الخندق سباحة في ليالي الشتاء القارص، وأثبتوا السلالم على شرفات السور وصعدوا، وكبروا ونزلوا على حراس الباب فقتلوهم، وفتحوا الباب عنوة وقد كسروا مغاليقه، واندفع الجند من الباب إلى الداخل[١].

ودخل خالد إلى قلب المدينة، واندفع بقية القادة يقتلون ويأسرون كالطوفان الجارف الذي لا يعرف الهوادة، وانتصر المسلمون نصرًا عظيمًا، وفتحوا دمشق وكان ذلك بعد اليرموك بسنة كاملة[٢] ولحق بشر كثير من أهلها بهرقل وهو بأنطاكية، فكثرت فضول منازلها، فنزلها المسلمون[٣].

٤ـ فتح بيت المقدس سنة ١٦هـ

سارت الجيوش الإسلامية إلى بيت المقدس وحاصروها حتى قبلوا الصلح مع المسلمين بشرط أن يَقْدُم عمر بن الخطاب، فاستشار علي بن أبي طالب فوافقه، وخالفه عثمان، فرضي قول علي، واستخلفه على المدينة، وسار إلى الشام وعلى مُقَدِّمته العباسُ بن عبد المطلب، فركب فرسًا فرأى به عرجًا، فنزل عنه وأُتي ببرذَوْن فركبه، فجعل يتجلجل به، فنزل وضرب وجهه، وقال: لا أعلم من علّمك هذه الخيلاء! ثم لم يركب برذونًا قبله ولا بعده، واستقبله أمير الجيوش: أبو عبيدة بن الجراح، والجندي: خالد بن الوليد، والجندي: يزيد بن أبي سفيان، والجندي: عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُم.

فلما وصل عمر، أشار أبو عبيدة ليقبل يد عمر، فهمّ عمر ليقبل رجل أبي عبيدة، فكف أبو عبيدة فكف عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

---

(١) تاريخ الإسلام، للذهبي (٢/ ٧٤). بتصرف.

(٢) البداية والنهاية (٧/ ١٦١)، والكامل (١/ ٤٠٨).

(٣) فتوح البلدان، للبلاذري ص ١٦٨.

ثـم دخل عمر حافيًـا يخوض في المـاء والطين، تضرب صلعتَه الشـمسُ، فقـال أبـو عبيدة: قـد صنعت اليوم صنعًـا عند أهـل الأرض، والله ما أحب أن يـراك الناس هكذا. فصكه عمر في صدره، وقـال: أوّه يا ابن الجراح، لو غيرك قالهـا لجعلته نكالًا لأمـة محمد ﷺ، كنا أذل أمة فأعزنا الله بالإسـلام، فمهما ابتغينا العز في غير ما أعزنا الله به أذلنا الله[١].

ثم دخل عمر، وصالح النصارى على أن يُجْلوا الروم من بيت المقدس بعد ثلاثة أيام، ثم دخل عمر المسـجد من حيث دخله رسـول الله ﷺ ليلة الإسراء وصلى به[٢].

وفرح أهل إلياء (بيت المقدس) بما أعطاهم المسلمون من الأمان، ووجد أرطبون ومَن معه الفرصة مواتية للخروج من القدس آمنين، فخرجوا إلى مصر حيث تُرابط الروم هناك.

الفـوائد والـدروس والعبـر

أ- كانت فلسـطين كبقية بلاد الشـام قبل الفتح الإسـلامي تقع تحت حكم الـروم، وكانت في صلـب الأحداث التي نجمت عن الحـروب الانتقامية التي شنها هرقل الروم على كسرى فارس ردًّا على هجوم فارس واحتلالها أنطاكية ودمشـق وبيت المقدس، وإعمال السـيف في أهلها، وأخـذ الصليب المقدس إلى عاصمة فارس، واسـتطاعت الروم أن ترد الضربة لفارس وتسترد ما فقدته من أرض ومن جملتها فلسطين.

ب- بدأ تطلع النبي ﷺ إلى شـمال شـبه الجزيرة؛ فكانت مؤتة أول معركة

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٥٢٤)، والبداية والنهاية (١/ ٢٠١)، والكامل (١/ ٤٣٦).

(٢) حقبة من التاريخ ص ٧٣، لعثمان الخميس.

بين المسلمين والروم، ثم جهز ﷺ جيشًا إلى الشمال بقيادة أسامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ولكنه توفى ﷺ فأنفذه أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فوصل إلى حدود شرق الأردن وأحرز نصرًا وعاد للمساعدة في حروب الردة، ثم أرسل أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عدة جيوش سنة ١٢هـ نحو الشمال، فاتجه عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إلى جنوب فلسطين وانتصر على الروم في أجنادين سنة (١٣هـ)، فأخذ جنوب البلاد، فأسرع هرقل إلى إرسال جيش ضخم، فأمر أبو بكر خالدًا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا الذي كان يقاتل في العراق أن يتجه إلى الشمال ليخوض معركة فاصلة مع الروم في اليرموك سنة (١٣هـ) ليتم فتح فلسطين كاملة.

جـ- أما القدس فقد اشترط البطريرك صفرونيوس أن يتسلمها الخليفة بنفسه، فجاءه عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وأعطى سكانها الأمان على أنفسهم ودينهم وكنائسهم، وقد استقبل البطريرك الخليفة بنفسه، ودخلا القدس معًا سنة (١٦هـ)، ولا غرابة في أن يذهب عمر بنفسه لتسلم مفاتيح القدس التي كانت مقدسة عند المسلمين؛ فهي أولى القبلتين، وإليها أُسري بالنبي ﷺ ومنها عُرج به إلى السماء.

د- إنها لحظة تاريخية تلك التي تسلم فيها عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مفاتيح القدس، لقد انطلق عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقطع الفيافي التي امتد طولها ٢٤٠٠ كيلومترًا في رحلة شاقة تحت لهيب الشمس هو وخادمه، يمشيان تارة ويركبان أخرى، حتى وصل إلى القدس، من غير خيل قوية ولا جيوش جرارة ولا بعظمة وأبهة غير عظمة الإيمان في قلبه، وحشود الروم -العسكريون والمدنيون- متجمهرين عند الأسوار، ينظرون غير مصدقين لأغرب مشهد في التاريخ، مشهد يجمع بين العظمة والوقار والتواضع الإيماني الرفيع، ليُعْلَن في هذا المشهد الرائع عن زوال دولة الروم وقيام دولة الإسلام الجديدة، **وعند البلاذري:** أنهم قابلوا

عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالسيوف والريحان[١]، معظمين لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خاضعين لحكمه.

هـ- **قال البخاري**[٢]: وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنا لا ندخل كنائسهم من أجل التماثيل التي فيها الصور». هذا الأثر وصله عبد الرزاق من طريق أسلم مولى عمر، قال: لما قدم عمر الشام، صنع له رجل من النصارى طعامًا وكان من عظمائهم وقال: أحب أن تجيئني وتكرمني. فقال عمر: إنا لا ندخل كنائسكم من أجل الصور التي فيها[٣].

٦- لقد مهدت صفات المجاهدين الخُلُقية والروحية طريق النصر، فالسمعة الطيبة والأخلاق التي تحلى بها المسلمون الفاتحون حببتهم إلى الشعوب وخذلت عنهم الأعداء، هذه الصفات هي التي جعلت أهل إيلياء يفرحون بمقدم المسلمين إليهم، وجعلت أهل حِمص يبكون عندما غادرهم الجيش المسلم إلى اليرموك، وجعلتهم يغلقون أبوابهم في وجه الروم.

وهي التي جعلت أهل سمرقند يعشقون جيش قتيبة، وهي التي جعلت الآلاف في الأندلس ينضمون إلى جيش طارق.... هذه الصفات الخُلُقية الرفيعة هي التي جعلت جنوب شرق آسيا، وأواسط وجنوب إفريقية تدخل في الإسلام، وينتصر فيها الإسلام عقيدة وانتسابًا، على الرغم من وصول جيوش تحمل السيوف إليها.

خُلُق المسلم وسمعته الطيبة كانا سببين وجيهين لانتصار الإسلام على العقائد الأخرى، فالمقاتل المسلم ليس له شبيه من مقاتلي الأمم الأخرى،

---

(١) فتوح البلدان، ص ١٩٠.

(٢) كتاب الصلاه، باب: الصلاة في البيعة.

(٣) فتح الباري (٢/ ١٧١).

إنه الجندي المثالي الذي خرج من جزيرته لنشر عقيدة تحمل في ثناياها حرية، وإنسانية، وخيرًا للبشرية جمعاء، خرج ليبلغ كتاب الله إلى الناس أجمع، فيصبحوا تحت لوائه إخوانًا "لهم ما لنا وعليهم ما علينا".

فما أعظم الإسلام وما أعظم تربيته وتوجيهاته لأتباعه[١].

٥ـ فتح سواحل الشام

تقدم عمر بن مالك ففتح قرقيسياء، وصالح أهل هَيْتَ، وكان يزيد بن أبي سفيان أرسل أخاه معاوية بِناءً على أوامر أبي عبيدة، ففتح صور وصيدا وبيروت وطرابلس، وبهذا أصبحت بلاد الشام كلها بيد المسلمين.

الفوائد والدروس والعبر

١- بهذه الجهود الخارقة، والجهاد المتواصل، والفتوحات المتلاحقة، تمكن أبو عبيدة ومعه أمراء الحرب وقادة المعارك: خالد ويزيد وشرحبيل وعمرو ومعاذ وعياض وغيرهم؛ من بَسْط سلطان الإسلام على بلاد الشام كلها، من نهر الفرات إلى العريش المتاخم للديار المصرية، وتشمل معها سورية ولبنان والأردن وفلسطين[٢].

٢- وأبو عبيدة ومن معه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ سجلوا بهذه الفتوحات الجليلة السطر الأخير في نعي إمبراطورية الروم في بلاد الشام، ونفذ قضاء الله على الروم، حيث حرَّم عليهم أن يملكوا بلاد الشام برمتها إلى آخر الدهر، مصداقًا لما في الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفسي بيده لتنفقن**

---

(١) عوامل النصر والهزيمة ص ٢٦، د/ شوقي أبو خليل، بتصرف يسير.

(٢) عمر بن الخطاب، عبد الستار الشيخ ص٦١٢.

كنوزهما في سبيل الله»، وانحنى هرقل موليًّا نحو بلاد الروم، فلما وصل إلى (شمشاط) جنوبي تركية، علا على شَرَف، والتفت نحو سورية وقال: (قد كنت سلمت عليك تسليم المسافر، فأما اليوم فعليك السلام يا سورية سلامًا لا اجتماع بعده) ومضى حتى نزل القسطنطينية[١].

ثانيًا: فتح مصر وليبيا

١ـ فتح مصر (ربيع أول ٢٠ هـ)

لما انتهى فتح المسلمين لبلاد الشام، وانتهى عمرو بن العاص من فتح فلسطين، طلب عمرو من أمير المؤمنين السير إلى مصر لفتحها، فوافق عمر، وسيره وأمده ببسر بن أرطأة، وخارجة بن حذافة، وعمير بن وهب الجمحي[٢]، سار عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بجنده مخترقًا صحراء سيناء حتى وصل العريش فوجدها خالية من القوات البيزنطية فدخلها، ثم اتجه إلى الفرما –وهي على الساحل من ناحية مصر– وحاصرها، فجرت مناوشات بين الطرفين استمرت لعدة أشهر، ثم فتحها المسلمون، ثم اتجه إلى بلبيس، ووقعت مقتلة عظيمة بين الطرفين استطاع فيها المسلمون قتل ألفٍ من جنود المقوقس وأسر نحو ثلاثة آلاف، ودخل المسلمون على أثر ذلك مدينة بلبيس[٣].

وحاصر المسلمون عين شمس، وهي مدينة فرعون موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وخرج (تيودور) قائد الجيش البيزنطي على رأس عشرين ألفًا، فقابلهم عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بخطة ذكية، إذ فصل من جيشه فرقتين، كل فرقة خمسمائة مقاتل، وأرسل

---

(١) السابق، عمر بن الخطاب، عبد الستار الشيخ ص ٦١٢. بتصرف

(٢) تاريخ الإسلام، للذهبي (٢/ ١١٠).

(٣) فتوح البلدان للبلاذري ص ٢٩٩، تاريخ الخلفاء الراشدين د/ محمد سهيل طقوش، ص ٢٩٥ دار النفائس.

إحداهما إلى أم دنين، والأخرى إلى قلعة الجبل شرقي العباسية بقيادة خارجة بن حذافة السهمي، وبدأت المعركة واحتدم القتال، وأثناء ذلك خرج أفراد الكمين بقيادة خارجة واجتاحوا مؤخرة الجيش البيزنطي التي فوجئت، ودب فيها الفزع وتقهقروا نحو أم دنين، فقابلتهم الفرقة الأخرى فلاذوا بالفرار، وهزم الجيش البيزنطي، ودخل بعضهم الحصن[1]، وارتقى الزبير السور، فلما أحسوا فتحوا الباب لعمرو، وخرجوا إليه مصالحين، فصالحهم عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثم أرسل جيشًا إلى الإسكندرية حيث يقيم المقوقس، وحاصروها وصالحوهم على الجزية، واستخلف عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عبد الله بن حذافة، وقد كانت الإسكندرية عند فتح المسلمين لها عاصمة البلاد، وثاني حواجز الإمبراطورية البيزنطية بعد القسطنطينية، وقد كان الروم يخشون من فتح الإسكندرية، ويدركون خطورة استيلاء المسلمين عليها، حتى قال هرقل: «لئن ظهر المسلمون على الإسكندرية، فإن ذلك انقطاع ملك الروم وهلاكهم»[2].

وأُنشئت مدينة الفُسطاط مكان خيمة عمرو حيث بُني المسجد الذي ينسب إليه الآن.

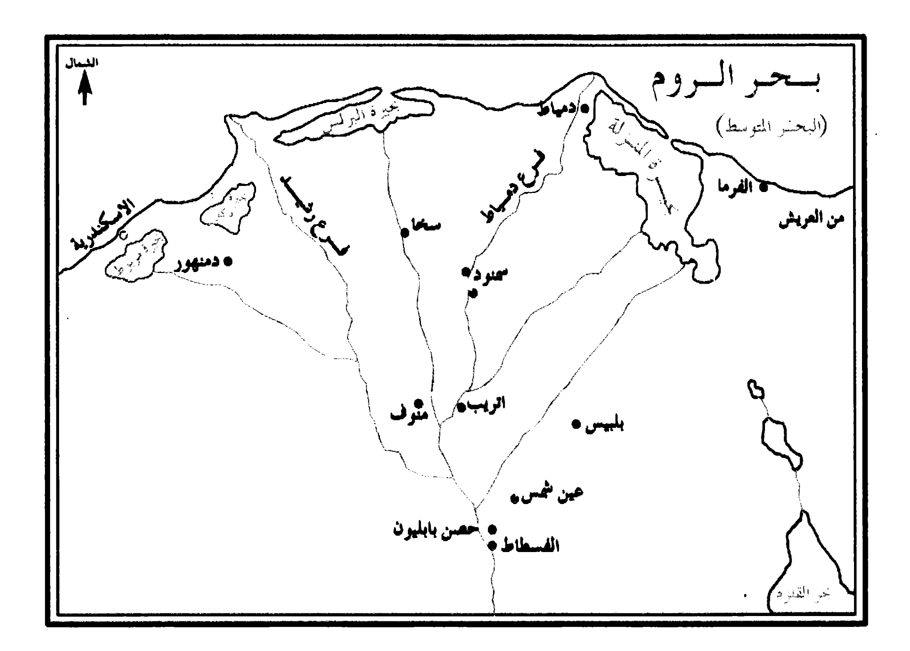
وأرسل قوة إلى الصعيد بإمرة عبد الله بن سعد بن أبي السرح، ففتحها، وأرسل خارجة بن حذافة ففتح من الفيوم إلى سوهاج، وأرسل عمير بن وهب الجمحي إلى دمياط وتنيس ودقهلا (الدقهلية)، فصالح أهل تلك الجهات واتجه عقبة بن عامر ففتح جنوب مصر[3].

---

(١) فتوح البلاد للبلاذري ص ٢٩٩، وتاريخ الخلفاء الراشدين د/ محمد مهيل طقوش ص ٢٩٥ دار النفائس.

(٢) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم ص ٥٨ ط مؤسسة دار التعاون -مصر. بتصرف.

(٣) تاريخ الخلفاء الراشدين، د/ محمد سهيل طقوس ص ٢٩٧ ومابعدها. بتصرف.



من روائع فتح مصر

١- اتجـه عمرو نحو الفيوم، فجاءته أنباءُ احتشـاد الروم، عندئذ لزم عمرو مكانه وبعث إلى عمر يستمده، فأمده عمر وأرسل له رسالة جاء فيها: «إني قد أمددتـك بأربعة آلاف رجل، على كل ألفٍ رجلٌ يقـوم مقام الألف». وهؤلاء الأربعة: المقداد بن الأسود، عبادة بن الصامت، الزبير بن العوام، و مسلمة بن مخلـد الأنصـاري، وقال عمر للزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يا أبا عبـد الله، هل لك في ولاية مصـر؟ فقـال: لا حاجة لي فيها، ولكنـي أخرج مجاهدًا وللمسـلمين معاونًا، فـإن وجـدتُ عَمْرًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد فتحهـا لم أعرض لعملـه، وقصدت إلى بعض السواحل فرابطت بها، وإن وجدته في جهاد، كنت معه، فسار على ذلك[1]

٢- لما طال الحصار أرسل المقوقس رسالة إلى عمرو؛ يتهدده قائلًا: طال مقامكم في أرضنا وأنتم عصبة يسيرة وقد أظلكم الروم، وأحاط بكم هذا النيل، وإنما أنتم أسارى في أيدينا، فابعثوا لنا رجالًا نكلمهم.

(١) فتوح البلدان، للبلاذري، ص ٢٩٩.

فلما عادت الرسـل ومعهم رسـالة فيهـا: «إنه ليس بيننـا وبينكم إلا إحدى ثلاث إما أن تدخلوا الإسـلام فتكونوا إخواننـا، أو تُعطوا الجزية عن يد وأنتم صاغـرون، أو القتال»، فسـأل المقوقس رسـله عن المسـلمين، فقالـوا: رأينا أقوامًا الموت أحب إليهـم من الحياة، والتواضع أحب إليهم من الرفعة، ليس لأحدهـم في الدنيـا رغبة ولا نهمة، إنما جلوسـهم على الـتراب، وأكلهم على ركبهم، أميرهم كواحد منهم، ما يُعرف رفيعُهم مِن وضيعِهم، ولا السـيد فيهم من العبد، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم واحد، يغسلون أطرافهم بالماء، ويتخشعون في صلاتهم. فقال المقوقس: والذي يُحلف به لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها، ولا يقوى على قتال هؤلاء أحد[1].

غير أن المقوقس ألحّ على عمرو أن يُرسـل وفدًا للتفاوض، فأرسـل عشرة من خيرة القوم على رأسهم عبادة بن الصامت، وكان أسمر اللون طويل القامة، فدخلوا على المقوقس، فهابه لسواده، وقال: نَحُّوا عني هذا الأسود فإني أهابه.

قالـوا: إنه أفضلنا وأعلمنا، وقد أمّره الأمير علينا، وأمرنا ألا نخالف له رأيًا. قـال المقوقِس: وكيـف رضيتم أن يكون هذا الأسـود أميرًا عليكـم؟!، قالوا: ليس يُنكر السـواد فينا. فقال المقوقس لعُبادة: تقدم يا أسود وكلمني برفق فإني أهابك، وإن اشتد كلامك عليّ ازددت لك هيبة.

قال عبادة: قد سـمعت مقالتك، وإنه فيمن خلّفت ورائي من أصحابي ألف رجل أشـد سـوادًا مني و أفظع منظرًا، ولو رأيتَهم لكنـتَ أهيب لهم منك لي، وأنا قد وليت وأدبر شبابي، وإني مع ذلك -بحمد الله- ما أهاب مائة رجل من عدوي، ولو استقبلوني جميعًا، وكذلك أصحابي[2].

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٥٩٥)، والكامل (١/ ٤٦٢)، والبداية والنهاية (٧/ ٢٤٣).

(٢) فتوح مصر وأخبارها، لابن عبد الحكم ص ٥٣.

الفـوائد والـدروس والعبـر

١- يظهر من الحوار الذي دار بين المقوقس وعبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نباهة عبادة، وإدراكه لمرامي عدوه، فاستطاع بكل براعة أن يُصَدِّر له الهزيمة النفسية، فهُزم في الحال قبل بدء المعركة، كما ظهر عبادة واضحًا في تصوراته وأهدافه، وأظهر عزة المسلم واستعلاءه بإيمانه.

٢- يظهر بجلاء في هذا الحوار أيضًا أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ليسوا بطلاب دنيا، ولكنها محاولة رجل يائس أراد أن يصنع شيئًا يُعْذر به أمام قومه، يحاول الأقزام دائمًا أن يستنزلوا العظماء من عليائهم ليشاركوهم تدني أفكارهم، والمقوقس يدرك جيدًا أن المسلمين بلغوا منزلة تؤهلهم لملك الأرض كلها ومع ذلك يعرض عروضه المتدنية على قومٍ حالهم:

اشترانا منا فقلنا رَبحنا فلا نقيل يارب ولا نستقيل

٣- ما تركه المسلمون من الأصنام والتماثيل في البلاد التي فتحوها على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما كان في هذه الأصنام داخلًا في كنائسهم ومعابدهم صولحوا عليها فتترك بشرط عدم إظهارها، كما في الشروط العمرية.

القسم الثاني: أن تكون تلك الأصنام والتماثيل من القوة والإحكام بحيث يعجزون عن هدمها، مثل تلك المنحوتة في الجبال والصخور، وقد ذكر ابن خلدون في مقدمته: أن ما كان من الهياكل العظيمة جدًّا لا تستقل ببنائها الدولة الواحدة، بل تتم في أزمنة متعاقبة حتى تكتمل وتكون فاتنة للأعيان.

القسم الثالث: أن تكون تلك الأصنام مطمورة تحت الأرض، أومغمورة بالرمال ولم تظهر إلا بعد انتهاء زمن الفتح، وهذا مثل كثير من آثار الفراعنة

في مصـر، كما ذكر المقريزي في خططه: أن أبا الهول كان مغمورًا تحت الرمال ولم يظهر منه إلا الرأس والعنق دون الباقي، بخلاف اليوم[١].

٤ - عندمـا توجـه جيش عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لفتـح مصر، قابله القبط بحفاوة بالغة، بل وانضموا إلى جيشه لقتال الروم الذين أذاقوهم سوء العذاب، **فقد ذكر ابن عبد الحكم**: أن أسـقفًا للقبط بالإسـكندرية يقال له: بنيامين، لما بلغه قدوم عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كتب إلى القبط يعلمهم أنه لا تكون للروم دولة، وأن ملكهـم قد انقطع، ويأمرهم بتلقي عمـرو، فيقال: إن القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ لعمرو أعوانًا[٢].

ويقـول أيضًـا: فخرج عمـرو بن العـاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالمسـلمين حيـن أمكنهم الخروج، وخرج معه جماعة من رؤسـاء القبط وقـد أصلحوا لهم الطرق وأقاموا لهم الجسور والأسواق، وصارت لهم القبط أعوانًا على ما أرادوا من قتال الروم[٣]، وهكـذا حدد الأقبـاط المضطهدون من المحتل الرومـاني موقفَهم منذ البداية من الفتح الإسلامي، وكان هذا من العوامل الهامة في تيسير أمر فتح مصر[٤].

٥ - ويقول الشماس منسي يوحنا صاحب كتاب «تاريخ الكنيسة القبطية»: وبينما كان الفاتح العربي يشـتغل في تدبير مصالحه بالإسكندرية، سمع رهبان وادي النطـرون و«برية شـيهات» أن أمة جديدة ملكت البلاد، فسـار منهم إلى عمـرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سـبعون ألفًـا، حفاة الأقـدام بثيـاب ممزقة، يحمـل كل واحد

(١) موسـوعة الخطـب والدروس للشـيخ: علي بـن نايف الشـحود، والمقريزي مُتَوَفَّى سـنة ٧٤٥هـ، وظهـور رأس أبـى الهـول وعنقه فقـط كان في زمانه، وسـئل الزركلي عن الأهرام وأبـي الهول هل رآهـا الصحابـة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فقـال: كان أكثرهم مغمورًا بالرمال ولاسـيما أبا الهول. وانظر «الإسـلام عدو الأصنام» د. محمد اسماعيل المقدم.

(٢) فتوح مصر وأخبارها، لابن عبد الحكم ص ٤٩.

(٣) السابق ص ٥٧.

(٤) من القبطية إلى الإسلام، قصة فتح مصر، حامد سليمان ص ٤٣ ط المكتب العربي للمعارف - مصر.

منهم عكازًا، بسبب الآلام التي عانوا منها بسبب الاضطهاد الديني الروماني، فتوجس منهم عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وأقلقه منظر هذا الجمع الغفير من الأقباط، ولكنهم تقدموا إليه وطلبوا منه أن يمنحهم حريتهم الدينية، ويأمر برجوع بطريركهم (الشرعي) بنيامين، فأجاب عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ طلبهم، فازدادوا ثقة به، ومالوا إليه، فساعدوه بخبرتهم في بناء العاصمة التي لم يكن بها مسجد واحد، ولم يضايقهم أن يصلي المسلمون في كنائسهم الفاخرة بالإسكندرية، وأثبت عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن الفتح الإسلامي جاء لنشر الإسلام، أما من يرغب في الاحتفاظ بدينه فله ذلك[١].

٦- عندما عاد بنيامين آمنًا في ظل حكم الإسلام بعد هروبه ثلاثة عشر عامًا من اضطهاد الروم، قال له أحد الأساقفة: الحمد لله الذي نجاك من الكفرة - الروم - وحفظك من الطاغية الأكبر الذي شردك، فعدت إلى أبنائك تراهم ملتفين حولك مرة أخرى. وقال بنيامين: كنت في بلدي - الإسكندرية - فوجدت بها أمنًا من الخوف، واطمئنانًا بعد البلاء، وقد صُرف عنا اضطهاد الكفرة - الروم - وفرح القبط كما تفرح السخال إذا حلت من قيودها وأُطلقت لترتشف من لبان أمهاتها. وقال الأسقف حنا النيفوس: لم يضع عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يده على شيء من ملك الكنائس، ولم يرتكب شيئًا من النهب أو الغصب بل إنه حفظ الكنائس وحماها إلى آخر حياته[٢].

٧ - كان عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قصيرًا، عظيم الهامة، ناتئ الجبهة، واسع الفم، عظيم اللحية، عريض ما بين المنكبين، عظيم الكفين والقدمين، قال الليث: يملأ هذا المسجد[٣]. عاش تسعين سنة، صَرفَ الشَّطرَ الناضج

(١) السابق بتصرف يسير ص ٦٢.

(٢) مع الرعيل الأول، محب الدين الخطيب، ص١٢٤ ط المكتبة العلمية-بيروت.

(٣) فتوح مصر وأخبارها، لابن عبد الحكم، ص ٤٨.

المبارك منها تحت رايات الإسلام، وأخرج الإمام أحمد بسند حسن عن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بعث إليّ النبي ﷺ فقال: **خذ عليك ثيابك وسلاحك ثم ائتني**، فأتيته، فقال: **إني أريد أن أبعثك على جيش فَيُسَلِّمُكَ الله ويُغْنِمُكَ، وأرغب لك من المال رغبة صالحة**، فقلت يا رسول الله: ما أسلمت من أجل المال، بل أسلمت رغبة في الإسلام. فقال ﷺ يا عمرو: **نِعْمَ المال الصالح للرجل الصالح**.

وجعل النبي ﷺ تحت قيادته أهل الشرف من المهاجرين والأنصار، ثم أمده ﷺ بمدد، على رأسه أبو عبيدة وأبو بكر وعمر والمهاجرون الأولون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فكان عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يرأسهم جميعًا ويصلي بهم، وذلك في غزوة ذات السلاسل، ثم في عهد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جاء مصر على رأس كتيبة لا يزيد عددها على أربعة آلاف مقاتل، وليس على وجه الأرض قائد يبلغ به الاعتداد بالنفس والاعتماد على خالقها حتى يقتحم قطرًا عظيمًا كمصر بمثل هذا الجند.

وليست المعجزة في فتح مصر تنحصر في عدد الجيش وما يحمله من عدة ولا بما حققه من نصر وتوفيق لا مثيل له، ولكن المعجزة تكمن فيما أحدث من انقلاب اجتماعي حوّل لغة مصر في أسواقها وبيوتها وثقافتها إلى هذه اللغة السماوية التي نتكلم بها اليوم، وحوّل عقولهم وقلوبهم وإيمانهم إلى حالة عجزت عقول أدهى الأمم عن أن توفق إلى مثلها، ولم يقتصر هذا النجاح في الانقلاب الاجتماعي على مصر، بل سبقه إلى العراق والشام وشمال إفريقية والسودان، ولو بقيت قيادة الإسلام في أيدي أهله الأولين، واستمرت طريقتهم على ما كانت عليه، لوصل هذا الانقلاب بلغته وآدابه وعقائده إلى اليابان وأمريكا وكل مكان يسكنه البشر[1].

---

(١) مع الرعيل الأول، لمحب الدين الخطيب ص ١٠٧ وما بعدها، بتصرف يسير.

٨- هـذه المعجـزة الباهـرة تسـتدعي مـن مصـر والمصريين أن يعرفـوا لعمرو بن العاص وجيشـه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، أعظم جميل أسـداه مخلوق لمخلوق، لذا نسـتطيع أن نحكـم بنفس مطمئنـة أن عمرو بـن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لـم ينطبع على صفحـات النيـل ظلُّ رجلٍ من بني الإنسـان أعظـم أثرًا منه في هـذا الوادي، وفي سكان هذا الوادي من أقدمِ العصور إلى الآن[1].

٢ـ فتح ليبيـا

توجه عمرو مباشـرة إلى الغرب ففتح برقة، ثم سار إلى طرابلس فنزل على القبة التي على الشـرف من شرقيها فحاصرها شـهرًا، ثم دخلها وأفلتت الروم بما خف لهم من مراكبهم، وغنم عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ماكان في المدينة[2]، وأرسـل عقبة بن نافع ففتح زويلة، واتجه نحو بلاد النوبة، ثم انطلق إلى طرابلس ففتحها بعد حصار دام شهرًا، وفتح صُبراته، ثم منعه عمر أن يتقدم أكثر من ذلك.

ثالثًا: فتوحات العراق والمشرق

١ـ معركة النمارق (٨ شعبان ١٣هـ)

عـود علـى بدء، فلقد بـدأت الفتوحات جهة العراق زمـان أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في المحـرم ١٢ هــ، إذ أمر أبو بكـر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خالـدًا أن يتحول إلى الشـام تاركًا العراق، فاسـتخلف المثنى بن حارثة الشيباني، والمثنى أشبه بخالد في بطولاته وشجاعته ودهائه.

رحـل خالـد ومعه نصـف الجيش، ولم يبق مع المثنى سـوى تسـعة آلاف مقاتـل، وفي هذا الوقت تُوفي الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ واسـتخلف عمر، فطلب المثنى المـدد من المدينة، فأرسـل إليه عمر مددًا بقيادة أبي عبيد بن مسـعود الثقفي،

---

(١) السابق، بتصرف يسير، ص ١١٠.

(٢) فتوح مصر وأخبارها، لابن عبد الحكم، ص ١١٦.

وكتب إلى أبي عبيد وهو بالشام أن يرسل من كان بالعراق ممن قدم مع خالد، فسيرهم أبو عبيد إلى العراق بإمرة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، وأرسل عمرُ مددًا آخر بقيادة جرير بن عبد الله البجلي قِوامه أربعة آلاف.

وانطلق جيش أبي عبيد، وأرسل رستم جيشًا لقتال المسلمين، فالتقى الطرفان في النمارق بين الحيرة والقادسية، فهَزم المسلمون الفُرس، وفروا إلى المدائن بيت مملكتهم، وقهرهم أبو عبيد، وغنم منهم شيئًا كثيرًا وأطعمات كثيرة جدًّا[1].

٢ـ معركة الجسر ٢٣ شعبان ١٣هـ

بعد هزيمة الفُرس في النمارق اجتمعوا إلى رستم وجاءوا بجيش كبير، ومعهم الفيلة، فالْتَقَوْا بالمسلمين، وبينهم نهر الفرات وعليه جسر، وأرسل «بِهْمَن» قائد الفُرس رسالة إلى أبي عبيد يخاطبه: إما أن تعبروا لنا أو نعبر لكم[2]، فقال المسلمون: لا تعبر يا أبا عبيد. وكان من أشد الناس على أبي عبيد سليطُ بن قيس الأنصاري، وقال لأبي عبيد: قد أشرنا عليك بالرأي، فترك الرأي، وقال: لا يكونوا أجرأ على الموت منا، بل نعبر إليهم[3]. فأقام جسرًا عبروا عليه، لكن بِهْمن حصره في مكان ضيق، يحيط بهم الماء من ثلاث جهات على شكل حرف "U"، وبدأت المعركة، وكانت الخيول تفر من أمام الفيلة، فاندفع المسلمون لقتل الفيلة، واتجه القائد المغوار أبو عبيد تجاه الفيل العظيم، فأدماه أبو عبيد، فقَتل الفيلُ أبا عبيد، فأخذ الراية أخوه الحكم فقُتل، فأخذه ابنه جبر فقُتل، ثم إن المثنى بن حارثة أخذه ساعة وانصرف بالناس[4]

(١) البداية والنهاية (٧/ ١٦٨). (٢) البداية والنهاية (٧/ ١٦٩).

(٣) الأنصار في العصر الراشدي، ص ٢٥١، د/ حامد محمد خليفة، ط مكتبة الصحابة - الإمارات.

(٤) فتوح البلدان للبلاذري، ص٣٥٢.

وسبقهم إلى الجسر عبد الله بن يزيد فقطعه، وقال: قاتلوا عن دينكم، فاقتحم الناس الفرات، فغرق منهم ناس كثير، ثم عقد المثنى الجسر وعبره الناس، واستشهد يومئذ ألف وثمانمائة[1].

وقد قُتل من الفُرس ستة آلاف بالرغم من هذا الوضع السيء الذي كان فيه المسلمون، مما يدل على بسالة المسلمين وقوتهم.

وعاد المسلمون إلى مواقعهم، وبقي ثلاثة آلاف مع المثنى، فأرسل إلى عمر يستمده[2].

الفوائد والدروس والعبر

أ- وقع في معركة الجسر خطأ تسَبَّب في هزيمة المسلمين وهو مخالفة أبي عبيد لمن معه من أركان الجيش، لقد نهوه عن العبور فلم ينته، واستقل برأيه، لقد عبر أبو عبيد الجسر بشجاعة وإقدام وإيمان وحب للشهادة، لكنه لم يحسب للمعركة حسابها الكامل، ولم يدرس أرض المعركة بشكل كاف.

إن التاريخ لَيُسجِّل لأبي عبيد بن مسعود الثقفي إقدامه بكل فخر: «لا يكونون أجرأ منَّا على الموت»، وإنه لَيُسجِّل أيضًا تَعَجُّلَه وعدم تبصره بالأمور قبل إقدامه؛ ليحقق النصر بأقل خسارة مُمكِنة[3]، فلابد أن يُعلم أن من أعظم أسباب الهزيمة الاستقلال بالرأي، والإقدام حتى التهور.

ب- كان المثنى أميرًا للجيش في العراق، ثم جاء مدد أبي عبيد وسار أبو عبيد أميرًا عليه، ثم بعد مقتل القادة الثمانية عاد أميرًا، وليس هناك أدنى مشكلة، فما أعظم أخلاقهم وتجردهم لله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) تاريخ الإسلام، للذهبي (٢/ ٧٦). (٢) البداية والنهاية (٧/ ١٦٩).

(٣) عوامل النصر والهزيمة ص ٥٤، د/ شوقي أبو خليل، بتصرف يسير.

ج- على الرغم من القيادات المختلفة التي كانت تقود الفتوحات، فإن وحدة الصف رسمت خطوطًا موحدة في السير، وسياسة واضحة مدروسة، أولها السرعة في العمل والانتقال من فتوح إلى فتوح أُخَر؛ لتبليغ رسالة الإسلام[1].

٣- معركة البُوَيْبِ، رمضان ١٣هـ، والتي اقتص المسلمون فيها من الفُرس

علم الفُرس أن عمر بدأ يحشد قوات إضافية ليدفع بها إلى المثنى للقضاء على الفُرس، فأراد الفُرس التعجل والقضاء على المثنى.

علم المثنى بذلك، وكان مُعسكِرًا بالحيرة، فخرج إلى البويب وأخبر أمير المؤمنين بتغيير موقعه، وكتب المثنى إلى من يصل إليه من الأمداد أن يُوافوه بالبويب، وعلى رأس هؤلاء جرير بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فوصل الخبر إلى المدد فتركوا نساءهم وأثقالهم وأسرعوا للحاق بالمثنى قبل المواجهة، وفعلًا وصلوا مكان المعركة[2] على البويب، مما يلي موضع الكوفة اليوم، ومضى المثنى يقود المعركة في شجاعة ودربة، وأولى أمر النظام عناية خاصة، لكأنه يريد بذلك أن يعوض ما كان يوم الجسر من غلبة الحماس على الطاعة[3]، وعزم المثنى على المسلمين في الفطر، فأفطروا جميعًا ليكون أقوى لهم، وأرسل مهران إلى المثنى يقول له: إما أن تعبروا إلينا وإما أن نعبر إليكم. وما كان للمثنى أن يعيد خطأ أبي عبيد، والتزم كذلك بنصيحة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ألا يعبروا بحرًا أو جسرًا إلا بعد ظفر»، وعبر الفرس إلى البويب ومعهم ثلاثة أفيال[4]، وكان عدد المسلمين اثنا عشر ألفًا، والتقى الجيشان،

(١) السابق ص ٩٣.

(٢) الطبري (٢/ ٤٣٣).

(٣) حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول، ص ٥٢ شكري فيصل، ط دار الكتاب العربي – مصر.

(٤) عمر بن الخطاب، عبد الستار الشيخ، ص ٥٦٩ دار القلم.

وكان للفرس صيحات مزعجة، ولكن المسلمين ثبتوا، وركز المثنى على قلب الجيش وفيهم قائدهم، ونجح في قتله فانفرط عقد الفُرس، وقد أوجع قلبُ المسلمين قلبَ المجوس، ودق فيهم المثنى إسفينه، وكان فيمن تقدم في القلب جرير بن عبد الله ومعه المنذر بن حسان، وقاتل قرط بن جماح العبدي حتى تكسرت في يده رماح وأسياف، واستمر القتال حتى أفنى المسلمون قلب المشركين وأوغلوا فيه، فلما رأى المسلمون ذلك قويت مجنباتهم وجعلوا يردون الأعاجم على أدبارهم، وجعل المثنى والمسلمون في القلب يدعون لهم بالنصر، وأرسل المثنى من يقول لهم: «عاداتكم في أمثالكم، انصروا الله ينصركم»، فهَزموا القوم، وكلف المثنى فرقة بقطع الجسر في الوقت المناسب، فقطعوه، فلم يجد الفُرس طريقًا إلا القفز في النهر أو الهرب إلى الصحراء الشاسعة المهلكة، فقُتل منهم يومئذ وغرق قريب من مائة ألف، وغنم المسلمون مالًا جزيلًا وطعامًا كثيرًا، وذلت هذه الوقعة رقاب الفُرس، وتمكن الصحابة من الغارات في بلادهم فيما بين الفرات ودجلة، وكانت هذه الوقعة بالعراق نظير اليرموك بالشام.

وخاطب المثنى عمر بن الخطاب، فأمره بالانسحاب من العراق ويكتفي بالمرابطة على الحدود؛ لأن عمر ومعه المثنى كانا يعلمان أن المسلمين أدركوا من التقدم والاكتساح أكثر مما تسمح قوتهم بالاحتفاظ به، ومن شأن هذا ألا يدوم؛ لذلك كان الأمر من عمر أن يخرجوا من بين ظهراني العجم، وكذلك أراد عمر أن ينظم جنده ويحشد كل قواه للقضاء نهائيًّا على الفُرس.

فأرسل عمر كتابًا إلى أمراء البدو والحضر جاء فيه: «لا تدعوا أحدًا له سلاح أو فرس أو نجدة إلا انتخبتموه ثم وجهتموه إليّ..... العَجَل العجلْ»[1].

---

(١) البداية والنهاية (٧/ ١٧٠).

٤ـ القادسية[1] أم المعارك ١١ محرم ١٤هـ

حث عمر المسلمين على الجهاد، ونجح في حشد عددٍ كبيرٍ من المجاهدين، وأراد أن يقود الجيوش بنفسه، واستدعى عليًّا وسلمه أمور الخلافة، وخرج من المدينة وتوجه ناحية العراق، وقد فجر ترؤس عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للجيش الإسلامي حماسًا عامًا بين وحداته القتالية، ووصل إلى (صرار) وهو أول منازل السفر إلى العراق وعسكر على ماء هناك[2]، ويبدو أن كبار الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ رأوا أن ذهاب عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى أرض المعركة بنفسه لا يتلاءم مع المصلحة العامة، فعرضوا عليه أن يبقى في المدينة[3] وكان مما قال عبد الرحمن بن عوف: أخشى إن كُسِرْتَ أن تُضعِف أمر المسلمين. فارتاح لرأيه، فاستشارهم فيمن يعين قائدًا على الجهاد في العراق، فاقترحوا سعد بن أبي وقاص، فوافق وعينه، ثم رجع إلى المدينة، وكتب إلى المثنى وجرير في إطاعة سعد بن أبي وقاص، وكان بدء تحرك الجيش ١٣ شعبان ١٣هـ[4].

وكان في جيش القادسية بضعة وسبعون بدريًّا، وثلاثمائة وبضعة عشر ممن كانت له صحبة فيما بين بيعة الرضوان وما بعدها، وثلاثمائة ممن شهد فتح مكة، وسبعمائة من أبناء الصحابة[5]، سار سعد حتى نزل بالقادسية، فمكث فيها شهرًا لم ير أحدًا من الفُرس، وكان عمر يتابع أخبارهم ويوجه إليهم الكتب والنصائح، وكان مما كتب: «أما بعد: فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو في الحرب،

---

(١) وهي قريبة من الكوفة وكربلاء العراق، فهي إلى الجنوب منهما.

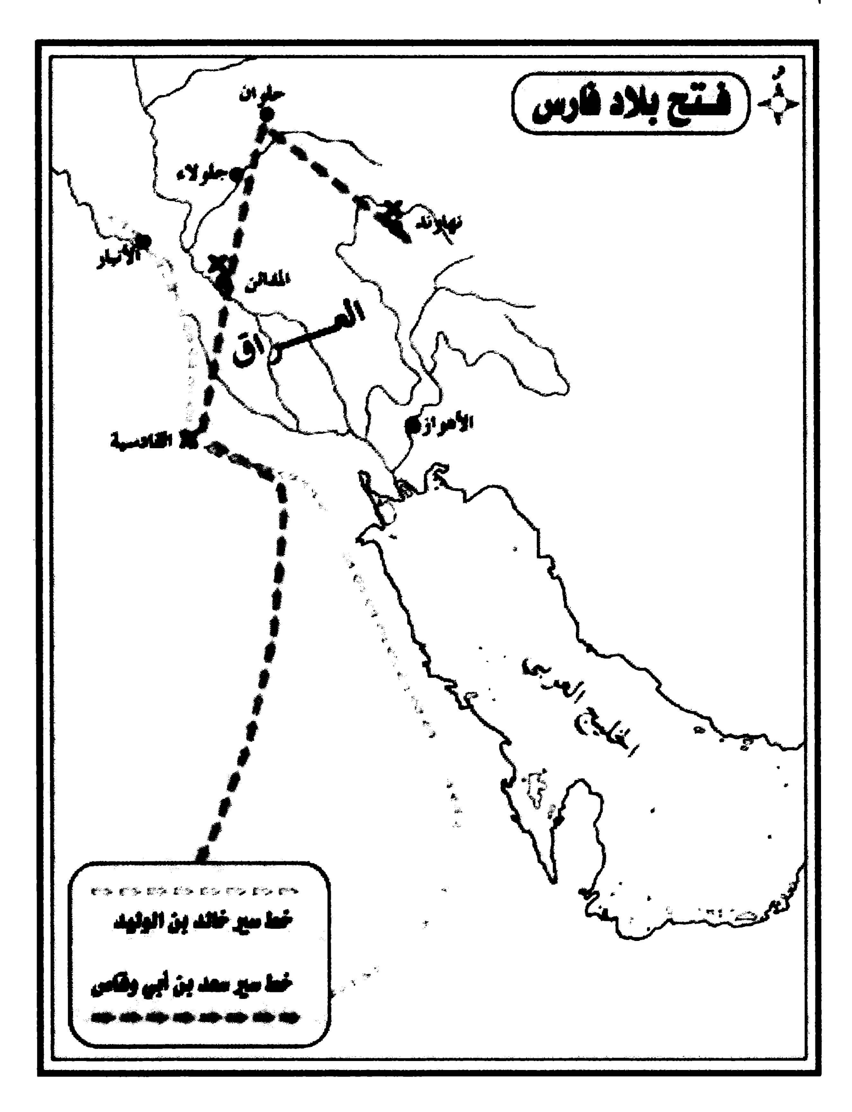
(٢) الطبري (٣/ ٤٤٥).

(٣) تاريخ الخلفاء الراشدين، ص ١٩٤ د/ محمد سهيل طقوش ط دار النفائس.

(٤) تاريخ الطبري (٢/ ٤٤٦).

(٥) الأنصار في العصر الراشدي ص ٢٥٢، د/ حامد محمد خليفة.

وآمرك ومن معك أن تكون أشد احتراسًا من المعاصي منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما يُنْصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة؛ لأن عددنا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»[1].



(١) تاريخ الطبري (٢/ ٤٤٧). بتصرف

الفـوائد والـدروس والعبـر

١-إنها لموعظة بليغة من خليفة راشـد عظيـم، أدرك نقطة الضعف التي تُؤتى من قبلها الجيوش، فتفتُّ في عضدها، وتسهِّلُ على العدو افتراسها؛ وهي الذنوب والمعاصي التي توهن القلب وتلقي فيه الرعب، وتُذْهِب البصيرة، وتبث الضغائن وروح الفرقة والتنازع في صفوف الجند، فتحل الهزيمة وتتوالى النكبات.

٣- نبه عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سعدًا وجيشه إلى أن تقوى الله عَزَّوَجَلَّ هي السلاح الأول الذي يتسـلحون به في نزال عدوهم، والذي لو فقدوه لفقدوا أعظم وأهم سلاح يُحققون به النصر.

الجيش الفارسي يُقرر القتال

تحـرك الجيش الفارسـي لملاقاة المسـلمين بعـد تردد مـن قائدهم العجوز «رسـتم» لعلمه بقوة المسلمين، وأرسل سعد جماعة من سادات المسلمين إلى رستم يدعوهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

وكان مـن بينهـم: النعمان بن مقرن، والمغيرة بن شـعبة، والأشـعث بن قيس، وفُرات بن حيان، وعطارد بن حاجب، وحنظلة بن الربيع، وعمرو بن معدي كرب.

تحـرك هذا الوفـد الميمون حتـى أتى المدائـن وأُدخِلوا على ملـك الفُرس يزدجرد، فسـألهم: مـا جاء بكم؟ فقال النعمـان: «جئنا ندعوكم إلـى ديننا، فإن أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر أشر منه: الجزية، فإن أبيتم فالمناجزة».

فغضب يزدجرد، وقال: لولا أن الرسل لا تُقتل لقتلتكم. وأُمر بهم فأُخرجوا.

لكـن هذه الكلمـات كان لها وقع عظيم في نفوس الفُـرس، فأصابتهم بالهلع والفزع لما سمعوا من الوفد، وثقتهم بالله ويقينهم بالنصر[١].

---

(١) البداية والنهاية (٧/ ١٨٣). بتصرف.

ثـم خرج رسـتم بجيش هائل وصل إلى ١٢٠ ألفًا يليهـم من الأتباع والخدم ١٢٠ ألفًا آخرون، حتى أتى القادسية أمام عسكر المسلمين، يحول بينهم النهر، وكان جند المسلمين ثلاثة وثلاثين ألفًا[١].

وحاول رسـتم أن يلجأ إلى طريق الإغراء، فزينوا مجلسًا بالنمارق المذهبة، والحرير، وأظهروا اللآلئ والياقوت والأحجار الكريمة الثمينة، وجلس رسـتم على سـرير واسـع من الذهب، ثم طلب من سـعد إرسال رسـول آخر، فأرسل ربعي بن عامر، فسـار إليه بثياب صفيقة وأسـلحة مُتواضعة وفرس صغير، ولم يزل راكبها حتى داسـت على الديباج والحرير، ثم نزل عنها وربطها في قطع من الحريـر مزقها من أمامه، وأقبل على رسـتم يتوكأ علـى رمحه حتى خرق معظم النمـارق، فحاولـوا منعه مـن الدخول بالسـلاح فقـال: أنتم أرسـلتم إلينا، فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت، فأمرهم رستم فتركوه، فدخل.

فقـال له رسـتم: ما جاء بكم؟ فقال: الله ابتعثنا لنخـرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله رب العباد، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سـعة الدنيـا والآخرة، فمن قَبِل منـا قبلنا منه ورجعنا عنه، ومـن أبى قاتلناه حتـى نفضي إلى موعود الله عَزَّوَجَلَّ. قـال: وما موعود الله ؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي.

قال رسـتم: هل لكم أن تؤخـروا هذا الأمر حتى ننظر فيـه؟ قال ربعي: نعم، يومًا أو يومين، فإن رسولنا ﷺ ما سن لنا أن نُؤخر الأعداء أكثر من ثلاث.

فانظـر في أمرك وأمرهم واختر لنفسـك واحدة من ثلاث: الإسـلام وندعك وأرضك، أو الجزية فنقبل ونكف عنك، أو المُنابذة.

قال له: أسيدهم أنت؟ قال ربعي: لا، ولكن المسلمين كالجسد الواحد يجير أدناهم على أعلاهم. فاجتمع رستم بقومه وقال لهم: هل رأيتم قط أعز وأرجح

(١) عمر بن الخطاب، عبد الستار الشيخ ص ٥٧٩.

من كلام هذا الرجل؟ فقالوا: معاذ الله أن نترك ديننا لدين هذا الرجل، أما ترى ثيابه؟ فقال: ويلكم إن العرب لا تنظر إلى الثياب والمأكل، ولكنهم يصونون الأحساب، ولا تنظروا إلى ثيابه وانظروا إلى رأيه وكلامه وسيرته[(١)].

الفوائد والدروس والعبر

١- إن وضوح العقيدة الإسلامية وبُعْدها عن الإسرار والتكتم جعلها واضحة جلية في أذهان أتباعها وقلوبهم، فالمنطلق واحد والهدف واضح.

كان الأعرابي يُقاتل إما لثأر أو مغنم تحت لواء صنم القبيلة الخاص، أَمَا قال أبو سفيان بعد أحد: «اعل هبل، اعل هبل»؟! أَمَّا تحت لواء الإسلام فسار المسلم يُقاتل تحت عقيدة «الله رب العالمين»، وهذا جعل تجانسًا في الفكر وتوحيدًا في المنهج؛ إذا قاموا إلى الصلاة قاموا جميعًا، وفي الليل لهم دوي كدوي النحل من تلاوة القرآن، ولذلك جاءت إجابات رسل المسلمين إلى أعدائهم دائمًا واحدة متجانسة:

قال عبادة بن الصامت للمقوقس: «ليس بيننا وبينك خصلة نقبلها منك ولا نُجيبك إليها إلا خصلة من ثلاث، فاختر أيها شئت، ولا تطمع نفسك في الباطل، بذلك أمرني الأمير -يعني عمرو بن العاص-، وبها أمره أمير المؤمنين -يعني: عمر بن الخطاب-، وهو عهدُ رسول الله ﷺ من قبله إلينا.

وقالها ربعي بن عامر لقائد الفُرس، وتكررت هذه الكلمات كثيرًا في الجبهة الفارسية، وفي جبهة بلاد الشام، وفي الأندلس، وعلى أسوار الصين، خصلة من ثلاث: إما الإسلام، وإما الجزية، وإما الحرب.

هذه العقيدة التي جانست فكر المجاهدين من مبادئها: العزة، والصبر، والإخلاص، والوفاء، والقوة، والحذر، والثبات، والإخاء، والإيثار، واليقظة....

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٤٦٩).

هـذه العقيـدة تمكنت من قلـوب المجاهدين، فجعلتهم لا يُبالـون أوَقعوا على الموت، أمْ وقع الموت عليهم.

فجيش عقيدتـه مُوحدة، جيش مُتجانس فكريًّا، هدفه ثابت، وسـعيه مُوَحَّد؛ وجيش تتخطفه عقائد مُتعددة، جيش مُفكك، وهو قريب من الهزيمة، بعيد عن النصر(١).

اندلاع المعركة

اختـار الفُـرس الحرب، وقد كانت أرض القادسـية تقع عنـد التقاء الصحراء بالسـواد ووراءهـا الصحـراء العربية، وأمامها أنهار السـواد وبطائحـه المغمورة بالمياه والزرع، فإذا كانت المعركة لصالح المسلمين انحصر الفرس بين الأنهار، وتعذر على قواتهم الكثيفة الانسـحاب، مما يجعلهم هدفًا سهلًا للمسلمين، أما إذا دارت الدائرة على المسـلمين فخط رجعتهم مفتوح على الصحراء الذي يتوه فيها الخصم، وسـبق المسـلمون الفرس إلى أرض المعركـة واتخذوا مواقعهم فيها(٢)، وبدأت المعركة بعد الظهيرة، فصلى سـعد بالجند وخطب فيهم وحثهم علـى القتال، واسـتمر القتال إلى الليل، وقـد قُتل من الفريقين بشـرٌ كثير، وكان اليوم الأول من المعركة قاسـيًا على المسـلمين، شـديد الوطـأة عليهم، وكانت خسـائرهم فيـه كبيـرة، فوكل سـعد رجلًا بنقل الشـهداء إلـى «العُذَيْـب» ونقل الجرحى إلى النسـاء يقمن عليهم(٣)، لقد كان مصير فارس سـيتوقف على نتيجة المعركة، فإذا لـم يضرب رستم المسلمين، فسوف ينهار سلطان الأكاسرة، وتزول هيبـة فارس(٤). ثم اسـتؤنفت المعركة في اليوم الثاني ولمـدة ثلاثة أيام، وفي اليوم

(١) عوامل النصر والهزيمة ص٢٢، د/ شوقي أبو خليل.

(٢) تاريخ الخلفاء الراشدين، ص ٢٠٢، د/ محمد سهيل طقوش.

(٣) قادة فتح بلاد الشام والعراق، بسام العسيلي، ص ٢٩٦.

(٤) تاريخ الخلفاء الراشدين، ص ٢٠٠، د/ محمد سهيل طقوش.

الرابع اشتد أثر الفيلة على المسلمين، إذ كانت الخيول تنفر منها، فوجه الصحابة اهتمامهم إليها حتى قتلوها ومَن عليها، وأبلى جرير والقعقاع وطلحة الأسدي، وعمرو بن معدي كرب وخالد بن عُرْفُطة وضرار بن الخطاب بلًا حسنًا؛ إذ كانوا يقلعون أعين الفيلة، فتشرد بهم بمن عليها، ثم تُقتَل ويُقتَل أصحابها.

وألبس القعقاع بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الإبل براقع في وجوهها، ففزعت منها الخيول، ودب الهلع والاضطراب في صفوف الفُرس.

وفي اليوم الرابع هبت ريح فاقتلعت خيام الفُرس، وطاردهم المسلمون فقَتل القعقاعُ وهلالُ بن علقمة رستم قائد الفُرس، وقد قُتل من الفُرس في اليوم الرابع وحده عشرة آلاف، ومثلهم في الأيام السابقة، فكان مجموع القتلى عشرين ألفًا.

واستُشهد من المسلمين ثمانية آلاف وخمسمائة، وهذا العدد يُعتبر أكبر عدد قدمه المسلمون في معاركهم في الفتوح الإسلامية الأولى، وهذا يدل على عنف المعركة، وعلى استبسال هؤلاء وتعرضهم للشهادة[١].

فكانت وقعة القادسية وقعة عظيمة، لم يكن بالعراق أعجب منها[٢].

وتم النصر للمسلمين بعد قتال طويل وزلزال شديد، وقد لقوا المسلمين بعُدَّة لم ير الراءون مثل زهائها، فلم ينفعهم الله بذلك، بل سلبهموها ونقلها عنهم إلى المسلمين.

ولما قدمت غنائم رستم على عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جمع المسلمين، وقال لهم: مايحل للوالي من هذا المال ؟ قالوا: قوته وقوت عياله وكسوته وكسوتهم لاوكس ولاشطط ودابتان لجهاده وحوائجه، والقسم بالسوية أن يعطى أهل البلاد على قدر بلائهم، ويرم أمور المسلمين ويتعاهدهم[٣].

---

(١) الطبري (٢/ ٤٩٦).بتصرف (٢) البداية والنهاية (٧/ ١٨٥).

(٣) تاريخ الإسلام، للذهبي (٢/ ٨٥).

وبهذا النصر الكبير ساد المسلمون العالم إذ حيث كان العرب في أنحاء الجزيرة العربية ينتظرونه، كما يقول الطبري: إن العرب في جميع أنحاء الجزيرة العربية كانوا متعلقين بأخبار هذه المعركة ليعرفوا نتيجتها، حتى أن الرجل كان يريد الأمر فيقول: لا أنظر فيه حتى أنظر ما يكون من أمر القادسية، فبهذا النصر صار المسلمون سادة العالم، وبلغ عزهم في الآفاق مبلغًا، وفر الفُرس إلى المدائن مدينة مَلكِهم التي فيها الإيوان الكِسْروي[1].

الفوائد والدروس والعبر

١- الحوار الذي دار بين قادة الفُرس وقادة المسلمين يدل على وضوح الأهداف عند المسلمين واستعلاء الإيمان في نفوسهم، وأن من يقاتل بعقيدة لا يُهزم أبدًا، وتلحظ -كذلك- ثقة بالنفس، ثقة بموعود الله، ثقة بالنصر، وهذا هو سر الانتصارات المتتالية التي حققها المسلمون على فارس والروم.

٢- استخدم الفُرسُ تكتيكًا جديدًا في هذه الحرب، فقدموا الفيلة التي أخافت خيول المسلمين، لكن المسلمين تفوقوا على الفُرس في الابتكار الحربي، وقد واجهوا الفُرس بخطتين جديدتين:

الأولى: صَوَّبَ المسلمون نبالهم إلى أعين الفيلة، فكانت تشرد بهم فتُقْتَل ويُقْتَل من عليها، وكذلك اتجهوا إلى قطع وَضَنَيْها (حبالها) فتقع التوابيت التي تحمل الجند عليها، فارتفع عواء الفيلة وكثر القتل فيهم.

الثانية: قام القعقاع بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعمل مكيدة قعقاعية، فألبس الإبل براقع في وجوهها وحملوا عليها المشاة وأحاطوها بالخيول لحمايتها، وهجموا بها على خيول الفُرس، فنفرت الخيول وركبتهم خيول المسلمين، فهُزِموا هزيمة منكرة.

---

(١) البداية والنهاية (٧/ ١٨٦).

وهكذا يثبت المسلمون الأوائل تفوقهم على عدوهم في التكتيك والتخطيط والابتكار الحربي والإعداد المادي، بعد تفوقهم في الإعداد الروحي، وهكذا يجب أن يكون المسلمون على مر الدهور.

٣- وصل المسلمون في هذه المعركة إلى قمة الشموخ والثقة بالنفس، وفي المقابل هُزم عدوهم هزيمة نفسية منكرة، فقد كان الرجل يشير إلى الفارس فيأتيه فيقتله، وربما أخذ سلاحه فقتله به، وربما أمر رجلين، فيقتل أحدهما صاحبه[1].

٤- إن التحام القادة مع الجند من أعظم أسباب النصر، فقد كان النبي ﷺ قُبيل غزواته يُكرر: «**أشيروا عليّ أيها الناس**».

واستشار سعد جنده قُبيل القادسية، كيف لا، وهو الذي رأى عمر يستشير الناس بشأن الجبهة الشرقية الفارسية؟!

واستشار النعمان بن مقرن جنده قُبيل معركة نهاوند.

وقالت رسل المقوقس له: «أميرهم كواحد منهم»، وهذا ما لَمَسَتْهُ رسل كسرى وقائده رستم أيضًا.

هذا الالتحام بين القيادة والشعب جعل الجبهة الداخلية صفًّا واحدًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

فلأهمية وحدة الصف جعل الله عَزَّوَجَلَّ سورة في القرآن العظيم عنوانها «الصف»، أي: الصف الواحد الذي وصفته آية في السورة نفسها: «بالبنيان المرصوص».

فجبهة داخلية مُفككة هي في انهزام داخلي قبل انهزامها العسكري الأكيد، وأمة هي بنيان مرصوص أقرب إلى النصر منها إلى الهزيمة[2].

---

(١) الكامل لابن الأثير (١/ ٣٤٠).

(٢) عوامل النصر والهزيمة ص ٢١، د/ شوقي أبو خليل.

٥ ـ معركة المدائن (١٦هـ)

تحـول الفُرس بكاملهم إلـى المدائن عاصمة الدولة الفارسـية، وكان جيش المسلمين كله من الفرسان لكثرة ما غنموا في القادسية، فكان لكل مجاهد فرس، والمدائن تتكون من سبع مدن، أهمها: طيْسَفون وأسبانير وهذه فيها مقر كسرى وإيوانـه وقصره والحدائـق الملكية[1]، وقـد زادت دجلة زيـادة عظيمة، وأُخبر سـعد بأن كسـرى يزدجرد عازم على أخذ الأموال من المدائن إلى حلوان، وأنه إن لـم يدركـه قبل ثلاثة أيام فات عليه وتفارط الأمر، فخطب سـعد المسـلمين علـى شـاطئ دجلة، فحمد الله وأثنـى عليه، وقال: إن عدوكـم قد اعتصم منكم بهـذا البحر، وإني عزمت على قطعه إليهـم. فقالوا جميعًا: عزم الله لنا ولك على الرشد، فافعل.

فعند ذلك ندب سـعدٌ الناس إلى العبور، وقـال: من يبدأ فيحمي لنا الفِراض -يعني ثغرة المخاضة التي في الناحية الأخرى وهي ساحل البحر الشرقي- حتى يتلاحق به الناس؟[2]

فانتدب له سـتون من الشجعان، والأعاجم وقوفًا صفوفًا من الجانب الآخر، فاقتحـم النـاس، وقد افـترق السـتون فرقتين، فلمـا رآهم الفُـرس يطفون على وجـه الماء قالـوا: مجانينُ مجانيـنُ، والله ما تُقاتلون الإنس بـل تُقاتلون الجن، ثم أرسـلوا فرسانًا منهم في الماء يلتقون أول المسـلمين ليمنعوهم من الخروج مـن المـاء، فأمر قائدهم أن يشـرعوا لهم الرماح ويتوخوا الأعيـن، ففعلوا ذلك بالفرس، فقلعوا أعين خيولهم، فرجعوا أمام المسلمين لا يملكون كف خيولهم حتى خرجوا من الماء، واتبعهم المسـلمون حتى طردوهم إلى الجانب الآخر،

---

(١) عمر بن الخطاب، عبد الستار الشيخ ص ٥٨٢.

(٢) إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء، ص٧٣ للشيخ محمد الخضري، ط المكتبة الثقافية بيروت.

ووقفوا على حافة الدجلة من الجانب الآخر، واقتحمت فرقة أخرى على إثرها حتى وصلوا الشاطيء الشرقي، وكان عددهم ستمائة من الفدائيين.

وكان قائد الكتيبة الأولى عاصم بن عمرو، وقائد الثانية القعقاع بن عمرو[(١)].

ثم نزل سعد ببقية الجيش وذلك عند تحصين الجانب الآخر، وأمر سعد جيشه أن يقول عند دخول الماء: «نستعين بالله، ونتوكل عليه، حسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»، ثم اقتحم بفرسه، واقتحم الناس لم يتخلف عنه واحد، فساروا فيه كأنما يسيرون على وجه الأرض، حتى ملئوا ما بين الجانبين فلا يُرى وجه الماء من الفرسان والرَّجالة، وجعل الناس يتحدثون على وجه الماء كما يتحدثون على وجه الأرض؛ لِما حصل لهم من الطمأنينة والأمن والوثوق بأمر الله ووعده ونصره وتأييده؛ ولأن أميرهم سعد بن أبي وقاص أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وقد تُوفي رسول الله ﷺ وهو عنه راضٍ، ودعا له فقال: «**اللهم أجب دعوته**»، والمقطوع به أن سعدًا دعا لجيشه هذا في هذا اليوم بالسلامة والنصر، وقد رمى بهم في هذا اليم، فسددهم الله وسلمهم، فلم يُفقد من المسلمين رجل واحد، وكان الفَرَسُ إذا أعيا وهو في الماء، يقيض الله له مثل النَّشْز المرتفع، فيقف عليه فيستريح، وكان يومًا عظيمًا، وأمرًا هائلًا، وخطبًا جليلًا، وخارقًا باهرًا، ومعجزة لرسول الله ﷺ خلقها الله لأصحابه، لم يُر مثلها في تلك البلاد ولا في بقعة من البقاع.

وكان الذي يُساير سعد بن أبي وقاص سلمان الفارسي، فجعل يقول: حسبنا الله ونعم الوكيل، والله لينصرن الله وليّه، وليظهرن الله دينه، وليهزمن الله عدوه، إن لم يكن في الجيش بغي أو ذنوب تغلب الحسنات.

فقال سلمان: إن الإسلام جديد، ذُلِّلت لهمَ والله البحور، كما ذلل لهم البر،

---

(١) البداية والنهاية (٧/ ٢٠٧).

أمـا والذي نفسُ سـلمان بيده ليخرُجُنَّ منه أفواجًا كمـا دخلوا أفواجًا. فخرجوا منه كما قال سـلمان، لم يغرق منهم أحد ولم يفقدوا شـيئًا[١]، وعبر المسـلمون نهر دجلة في معجزة تاريخية وكرامة إلهية امتن الله بها عليهم، وخرجت خيولهم تنفـض أعرافها صاهلة فسـاقوا وراء الأعاجم[٢] فدهشـوا من عبور المسـلمين وهرب يزدجرد قاصدًا حلوان، ودخل المسـلمون من غير معارض، ونزل سعد القصر الأبيض، واتخذه مصلى وقرأ قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [الدخان][٣].

وجمـع المسـلمون غنائـم لا حصر لهـا، لم يسـتطيعوا حملها، فيها بسـاط كسرى وتاجه وسواراه، فما غيَّرتهم هذه الكنوز، لذا قال سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والله إن الجيـش لذو أمانة، ولو لا ما سـبق لأهل بدر لقلت: وأيـم الله - على فضل أهل بدر - لقد تتبعت من أقوام هنات وهنات فيما أحرزوا، ما أحسـبها ولا أسـمعها مـن هـؤلاء القوم، ولقد جاء رجـل بحُق ثمين، فأعطاه إلـى صاحب الأقباض، فقـال: والله ما رأينا مثله وما عندنا ما يقاربه، من أنت؟ فقال: أما والله لو لا الله ما أتيتك به، فعرفوا أن للرجل شأنًا، فحاول صاحب الأقباض معرفته، ولكنه قال: «لا أخبركـم لتحمدوني ولا غيركم فيُقَرِّظـوني، ولكني أرضى بثواب الله»، فتبعه رجل، فإذا هو عامر بن عبد قيس[٤].

وأرسل سعد بخُمس الغنائم إلى عمر مع بشير بن الخصاصية، فلما رأى عمر ذلك بكى، فقال له ابن عوف: وما يُبكيك يا أمير المؤمنين؟ فوالله إن هذا لموطن شُـكر فقال عمر: والله ما ذاك يُبكيني، وتالله ما أَعْطى الله هذا لقوم إلا تحاسـدوا وتباغضـوا، ولا تحاسـدوا إلا ألقـى الله بأسـهم بينهم، ثم قسـم سـعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

---

(١) البداية والنهاية (٧/ ٢٠٧).
(٢) عمر بن الخطاب، عبد الستار الشيخ ص ٥٨٢.
(٣) إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء، ص ٧٤.
(٤) تاريخ الطبري (٢/ ٥٤٣).

الغنائم بين الفاتحين، فأصاب الفارس إثنا عشر ألفًا، وقسم المنازل بين الناس/ وأحضر العيالات من العقيق فأنزلهم الدور، وصارت المدائن قاعدة لأعمال العراق يقيم بها أميره(١).

واستولى المسلمون في ثلاثة أعوام على كرسي مملكة كسرى، وعلى كرسي مملكة قيصر، وعلى أُمّيْ بلادهما، وغنم المسلمون غنائم لم يسمع بمثلها قط من الذهب والجواهر والحرير والرقيق والمدائن والقصور، فسبحان الله العظيم الفتاح(٢).

الفوائد والدروس والعبر

١- ظهور أثر التربية الإيمانية في جيش المسلمين، حيث عبروا النهر بكل طمأنينة وثقة في نصر الله وتأييده.

٢- أن القائد المُحنك لابُد وأن يتصف بالحزم والفطنة، واغتنام الفرص، وتفجير طاقات جنوده، وإزكاء روح التضحية بين أفراد الجيش، وأن يبث فيهم روح النصر والثقة بالله تعالى.

٣- ذكر ابن كثير في «البداية والنهاية»: أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما وصلته الغنائم ألبس سراقة بن مالك سواري كسرى، وبذلك تكون نبوءة النبي ﷺ قد تحققت عندما أخبر سراقة يوم الهجرة بأنه سيلبس سواري كسرى، فصلى الله وسلم على النبي الكريم المبعوث رحمة للعالمين.

٤ - قال إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف: أُتي عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بكنوز كسرى، فقال عبد الله بن الأرقم: أتجعلها في بيت المال حتى تقسمها ؟ فقال عمر: لا والله لا آويها إلى سقف حتى أمضيها، فوضعها في وسط المسجد، وباتوا يحرسونها،

---

(١) إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء ص ٧٤.

(٢) تاريخ الإسلام، للذهبي (٢/ ٩٣).

فلما أصبحوا كشف عنها، فرأى من الحمراء والبيضاء ما يكاد يتلألأ، فبكى فقال له أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما يبكيك يا أمير المؤمنين، فوالله إن هذا ليوم شكر ويوم سرور؟ فقال: ويحك إن هذا لم يعطه قوم إلا ألقيت بينهم العداوة والبغضاء(١).

٥- كان المُقاتل يُقاتل لله، للعقيدة الخالصة، لذلك كانت الغنائم مُحرمة، لقد كانت تُحرق؛ ليبقى قلب المجاهد وحده، ولمَّا رُبِّيت هذه الأمة التربية المثالية عاشت لله، فالغنائم لم تعد تُزلزل مواقفهم عن مواطن الجهاد، فأُعطيت ثواب الآخرة، وزيادة على ذلك غنائم الدنيا لتحصيل حاصل بعد المعركة، لذلك إن مالت النفوس إلى الغنائم تكون الهزائم.

وإن أصبح القتال لدنيا لا لنشر عقيدة ارتضاها الله لعباده، ونسي المقاتلون الله وشريعته، تُصبح الحال بين الكفار والمسلمين اسمًا: يا أيها الكفرة اقتلوا الفجرة(٢).

٦ - روى مسلم في صحيحه عن جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**عصيبة من المسلمين يفتتحون البيت الأبيض، بيت كسرى أو آلِ كسرى**»، قال النووي: هذا من المعجزات الظاهرة لرسول الله ﷺ وقد فتحوه بحمد الله في زمن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والعصيبة تصغير عصبة وهي الجماعة(٣).

وفي السنن الكبرى للنسائي عن البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق عرضت لنا صخرة لا تأخذ فيها المعاول، فاشتكينا ذلك إلى النبي ﷺ، فجاء فأخذ المعول، فقال: «**بسم الله**»، فضرب ضربة فكسر ثلثها وقال: «**الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام والله إني لأبصر قصورها الحمر الساعة**»، ثم

---

(١) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، للحافظ الذهبي، (٢/ ٩٦) ط دار الكتب العلمية.

(٢) عوامل النصر والهزيمة ص٢٥، د/ شوقي أبو خليل.

(٣) مسلم بشرح النووي (١٢/ ٤٠٩) ط دار المعرفة - بيروت.

ضرب الثانية فقطع الثلث الآخر، فقال: «**الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن أبيض**»، ثم ضرب الثالثة وقال: «**بسم الله**»، فقطع بقية الحجر فقال: «**الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة**»[١].

٦ـ معركة جلولاء ذو القعدة ١٦ هـ

فَرَّ يزدجرد من المدائن، والتف حوله عدد كثير من الفُرس وتجمعوا بجلولاء، فراسل سعدٌ عمرَ يخبره، فكتب إليه: أقم مكانك -بالمدائن- ووجه إليهم جيشًا فإن الله ناصرك ومتمم وعده. فعقد لابن أخيه هشام بن عتبة بن أبى وقاص[٢] فأمره أن يقيم هو بالمدائن، في اثني عشر ألفًا، فجعل على المقدمة القعقاع، والميمنة سِعْر بن مالك، والميسرة عمر بن مالك، والمؤخرة عمرو بن مرة، فحاصرهم المسلمون، ثم اشتبكوا معهم في معركة عنيفة واقتتلوا قتالًا شديدًا لم يقتتلوا مثله رميًا بالنبل وطعانًا بالرماح حتى تقصفت، وتجالدوا بالسيوف حتى انثنت، ثم إن المسلمين حملوا حملة واحدة فقلعوا بها الأعاجم عن موقعهم[٣]، فانهزم الفُرس، وقُتل يومئذ منهم مائة ألف، فجللت القتلى المجال وما بين يديه وما خلفه، فسميت جلولاء، بما جللتها من قتلاهم[٤]، وأصاب المسلمون أموالاً عظيمة وسبايا، فبلغت الغنائم ثمانية عشر ألف ألف، وجاء عن الشعبي: أن فيء جلولاء قسم على ثلاثين ألف ألف[٥] وبرز من الأبطال: القعقاع، وعمرو بن معدي كرب، وحِجر بن عدي، وقيس بن مكثوح، وطليحة الأسدي.

وتقدمت قوات أخرى تفتح تكريت والموصل ونَيْنَوى على نهر دجلة.

---

(١) قال الحافظ في «الفتح»: إسناده حسن (٩/ ١٨٩)، وحسنه الألباني في سنن النسائي برقم (١٣٧٦).

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ٩٤).

(٣) فتوح البلدان، للبلاذري ص ٣٦٨. بتصرف.

(٤) الكامل لابن الأثير (١/ ٤٤٣).

(٥) تاريخ الإسلام، للذهبى (٢/ ٩٤).

وقوات أيضًا تفتح هيث وقرقيسياء على نهر الفرات.

وبنى المسلمون مدينة الكوفة، وكانت مقر سعد بن أبي وقاص[١].

٧- معركة نَهَاوَنْد (فتح الفتوح ٢١ هـ)

منذ معركة القادسية بالعراق والانتصار الساحق الذي حققه المسلمون فيها والمسلمون ينتقلون من نصر إلى نصر، ويتوغلون في مملكة فارس حتى أضعفوها وأنهكوها، وذلك لمدة أربع سنوات متتالية، فأثارت هذه الانتصارات الساحقة حفيظة الفُرس، فقرروا أن يحشدوا كل قواتهم لقتال المسلمين، فزحف للمسلمين زحف لم ير مثله، زحف لهم أهل أصبهان وأهل همذان والري وقومس ونهاوَنْد وأذربيجان، فوافوا مكانًا يسمى نهاوند[٢] ويقع في إيران، وفي المقابل وردت الأخبار إلى عمر أن الفُرس قد تجمعوا في نهاوند، فرغب هو بنفسه أن يسير على رأس جيش لقتال الفُرس، إلا أنه لما استشار أصحابه عدل عن رأيه، وأقنعه بالعدول علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فكتب إلى حذيفة أن يسير بجند الكوفة، وإلى أبي موسى أن يسير بجند البصرة، وإلى النعمان بن مقرن أن يسير بجنده فإذا التقوا فكل على جنده أميرًا، وعلى الجميع النعمان بن مُقَرِّن[٣]، وقدر عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن القتال سيكون ضاريًا، وربما أدى إلى استشهاد القائد، فاقتدى برسول الله ﷺ في مؤتة، فعين سبعة من الرجال خلفًا للنعمان في حال قُتل، منهم حذيفة وجرير وقيس بن مكشوح، وغيرهم[٤].

وسار المسلمون نحو نهاوند، وقد عزل عمرُ سعدَ بن أبي وقاص، وعين مكانه عبد الله بن عبد الله بن عتبان، ثم لما أَمَرَ بفتح نهاوند أمّر النعمان بن

(١) التاريخ الإسلامي، لمحمود شاكر (٣/ ١٧٣).

(٢) تاريخ الإسلام، للذهبي (٢/ ١٢٤).

(٣) تاريخ الطبري (٢/ ٦٠١).

(٤) تاريخ الخلفاء الراشدين ص ٢٢٠، د/ محمد سهيل طقوش.

مقرّن، فاجتمع لـه ثلاثون ألفًا مـن المسـلمين، في مقدمتهم أكابـر الصحابة منهـم: حذيفـة وابن عمر وجريـر بن عبـد الله والمغيرة بن شـعبة وعمرو بن معدي كرب، وطليحة الأسدي[1]، والقعقاع بن عمرو رضي الله عنهم جميعًا.

بـدأت المعركة، ولكن الفُرس لجـأوا إلى حيلة عجيبة جديدة، فقد حفروا خندقًـا حول المدينة، وطرحوا الحسـك حولها ونثروهـا كالألغام، وخططوا بينها ممرات يعرفونها، فصار من المستحيل أن يقتحم جيش المسلمين.

خطة خادعة

لما كان الأمر كذلك، أشار طليحة الأسدي بخطة عظيمة تتلخص في الآتي:

١ - تتقـدم فرقة من المسـلمين للتحرش بالفرس وتغـري بهم للالتحام في مبارزة بالكر والفر.

٢- تتظاهر الفرقة المُشتبكة بالانكسار وتتراجع أمام الفُرس.

٣- يتراجع صلب جيش المسلمين أيضًا ويتخذ مواقع تَرَصُّدية.

٤- تواصل الفرقة المُشـتبكة تراجعها وهي تسـحب وراءها جيش الفُرس إلى موقع يستطيع المسلمون الإطباق عليهم فيه.

وبالفعـل نجحـت الخطة، وأظهر المسـلمون الانهـزام فطمع فيهـم الفُرس ونادوا بعضهم: الهزيمة للمسلمين، وأزالوا حسك الحديد، وطاردوا المسلمين فانقطعوا عن مواقعهم، فأطبق عليهم المسلمون، وكانت المفاجأة للفرس مذهلة عندمـا وجدوا أنفسـهم في آخر المطـاف محاصرين بين قوات المسـلمين التي شرعت سيوفها في حصد رقاب الفُرس، ولاذوا بالفرار ليتحصنوا بخندقهم، إلا أنهم سـقطوا فيه وفي الحسك الشائك، واسـتمر المسلمون يطاردونهم ويُعمِلون سـيوفهم في ظهورهم وأقفيتهم حتى سـقط من الفُرس ألوف في الخندق، وطارد

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٦٠١).

القعقاع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قائدهم (الفيرزان) فقتله وقضى عليه[١].

وقال النعمان بن مقرن: اللهم اجعلني أوّل شهيد، وقال: إن قُتلت فالأمير فلان ثم فلان، حتى عد سبعة، آخرهم المغيرة بن شعبة.

وأصيب النعمان وسقط من على فرسه، فأتاه بعضهم وبه رمق، فغسل وجهه من إداوة ماء، فقال: ما صنع المسلمون؟ قالوا له: أبشر بفتح الله ونصره. قال: الحمد لله، اكتبوا إلى عمر[٢]، وتلقى منه الراية أخوه نُعَيْم بن مقرن، وناولها إلى حذيفة، ولم ينقضِ اليوم حتى انتصر المسلمون[٣]، وقسمت الغنائم بين المجاهدين، فكان نصيب الفارس يوم نهاوند ستة آلاف، وسهم الراجل ألفين، وأقام حذيفة في نهاوند ينتظر أمر الخليفة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[٤].

وكانت معركة نهاوند من المعارك الفاصلة، فقد استأصلت إمبراطورية الفُرس نهائيًّا، وسميت لذلك "فتح الفتوح"؛ لأنه لم يكن للفرس بعده اجتماع، وملك المسلمون بلادهم[٥].

الفوائد والدروس والعبر

ذكر الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة أحداث هذه الغزوة، ورغم طولها إلا أنني أنقلها بتمامها، وذلك لتوثيق أحداث التاريخ الصحيحة.

فعن نعمان بن مقرِّن: أنَّ عمرَ بنَ الخطابِ رِضوانُ اللهِ عليه قال للهُرمُزانِ أما إذا فُتِّنِي بنفسِك فانصحْ لي وذلك أنه قال له تكلَّم لا بأسَ فأَمَّنَه فقال الهُرمُزانُ

---

(١) تاريخ الإسلام، للذهبي (٢/ ١٢٤). بتصرف.

(٢) فتوح البلدان للبلاذري ص ٤٢٦.

(٣) الكامل لابن الأثير (١/ ٤٦٩).

(٤) الأنصار في العصر الراشدي ص ٢٥٤، د/ حامد محمد الخليفة.

(٥) الكامل لابن الأثير (١/ ٤٦٩).

نعم إنَّ فارسَ اليومَ رأسٌ وجَناحانِ قال فأين الرأسُ قال نَهاوِنْدُ مع بُندارِ قال فإنَّ معه أساورةُ كِسرى وأهلِ أصفِهانَ قال فأين الجناحانِ فذكر الهُرمُزانُ مكانًا نسِيتُه فقال الهُرمُزانُ اقطَعْ الجناحَينِ تُوهَنُ الرأسُ فقال له عمرُ رِضوانُ اللهِ عليه كذَبْتَ يا عدوَّ اللهِ بل أعمدُ إلى الرأسِ فيقطعُه اللهُ وإذا قطعه اللهُ عنِّي انقطعَ عني الجَناحانِ فأراد عمرُ أن يسير إليه بنفسِه فقالوا نُذكِّرك اللهَ يا أميرَ المؤمنينَ أن تسيرَ بنفسِكَ إلى العجَمِ فإن أُصبتَ بها لم يكن للمسلمين نظامٌ ولكنِ ابعثِ الجنودَ قال فبعث أهلَ المدينةِ وبعث فيهم عبدَ اللهِ بنَ عمرَ بنِ الخطابِ وبعث المُهاجِرينَ والأنصارَ وكتب إلى أبي موسى الأشعريِّ أن سِرْ بأهلِ البصرةِ وكتب إلى حُذيفةَ بنِ اليمانِ أنْ سِرْ بأهلِ الكوفةِ حتى تجتمِعوا بنَهاوَندَ جميعًا فإذا اجتمعتُم فأميرُكُم النُّعمانُ بنُ مُقرِّنٍ المُزَني فلما اجتمعوا بنَهاوَندَ أرسل إليهم بُندارَ العِلجَ أن أرسِلوا إلينا يا معشرَ العربِ رجلًا منكم نُكلِّمُه فاختار الناسُ المغيرةَ بنَ شُعبةَ قال أبي فكأني أنظرُ إليه رجلٌ طويلٌ أشعرُ أعورُ فأتاه فلما رجع إلينا سألْناه فقال لنا إني وجدتُ العلجَ قدِ استشار أصحابَه في أيِّ شيءٍ تأذنون لهذا العربيِّ أبَشارتَنا وبهجتَنا وملكَنا أو نتقشَّفُ له فنزهدُه عما في أيدينا فقالوا بل نأذنُ له بأفضلَ ما يكون من الشَّارةِ والعُدَّةِ فلما رأيتُهم رأيتُ تلك الحرابَ والدَّرقَ يلمعُ منه البصرُ ورأيتُهم قيامًا على رأسِه وإذا هو على سريرٍ من ذهبٍ وعلى رأسِهِ التَّاجُ فمضيتُ كما أنا ونكستُ رأسي لأقعدَ معه على السَّريرِ فقال فدفعتُ ونهرتُ فقلتُ إنَّ الرسلَ لا يُفعلُ بهم هذا فقالوا لي إنما أنت كلبٌ أتقعد مع الملِكِ فقلتُ لأَنا أشرفُ في قومي من هذا فيكم قال فانتهرَني وقال اجلِسْ فجلستُ فترجَم لي قولَه فقال يا معشرَ العربِ إنكم كنتُم أطولَ الناسِ جوعًا وأعظمَ الناسِ شقاءً وأقذرَ الناسِ قذرًا وأبعدَ الناسِ دارًا وأبعدَه من كلِّ خيرٍ وما كان منعني أن آمرَ هذه الأساورةَ حولي أن ينتظموكم بالنِّشابِ إلا تنجُّسًا بجيَفِكم

لأنكم أرجاسٌ فإن تذهبوا يُخَلَّى عنكم وإن تأْبَوا نُبوِّئكم مصارعَكم قال المُغيرةُ فحمدتُ اللهَ وأثنيتُ عليه وقلتُ واللهِ ما أخطأتَ من صفتِنا ونعْتِنا شيئًا إن كنَّا لأبعدَ النَّاسِ دارًا وأشدَّ الناسِ جوعًا وأعظمَ الناسِ شقاءً وأبعدَ النَّاسِ من كلِّ خيرٍ حتى بعثَ اللهُ إلينا رسولًا فوعدَنا بالنَّصرِ في الدنيا والجنَّةِ في الآخرةِ فلم نزلْ نتعرَّفْ مِن ربِّنا مُذْ جاءَنَا رسولُه ﷺ الفلاحَ والنصرَ حتى أتيناكم وإنا واللهِ نرى لكم ملكًا وعيشًا لا نرجعُ إلى ذلك الشقاءِ أبدًا حتى نغلبَكم على ما في أيديكم أو نُقتَلَ في أرضِكم فقال أما الأعورُ فقد صدقَكم الذي في نفسهِ فقمتُ مِن عندِه وقد واللهِ أرعبتُ العلجَ جهدي فأرسل إلينا العلجُ إما أن تعبروا إلينا بنَهاوندَ وإما أن نعبرَ إليكم فقال النعمانُ اعبُروا فعبَرْنا فقال أبي فلم أر كاليومِ قطُّ إنَّ العُلوجَ يجيئون كأنهم جبالُ الحديدِ وقد تواثَقوا أن لا يفِرُّوا من العربِ وقد قُرِنَ بعضُهم إلى بعضٍ حتى كان سبعةٌ في قرانٍ وألقَوا حَسَكَ الحديدِ خلفَهم وقالوا من فرَّ منا عقرَهُ حسَكُ الحديدِ فقال المُغيرةُ بنُ شعبةَ حين رأى كثرتَهم لم أرَ كاليومِ قتيلًا إنَّ عدوَّنا يتركون أن يتنامُوا فلا يعجَلوا أما واللهِ لو أن الأمرَ إليَّ لقد أعجلتُهم به قال وكان النعمانُ رجلًا بكَّاءً فقال قد كان اللهُ جلَّ وعز يشهدك أمثالَها فلا يحزِنك ولا يَعيبُك موقفُك وإني واللهِ ما يمنعني أن أناجزَهم إلا بشيءٍ شهدتُه من رسولِ اللهِ ﷺ إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كان إذا غزا فلم يقاتلْ أولَ النهارِ لم يعجلْ حتى تحضرَ الصلواتُ وتهبَّ الأرواحُ ويطيبَ القتالُ ثم قال النعمانُ اللهمَّ إني أسألك أن تقَرَّ عيني بفتحٍ يكون فيه عزُّ الإسلامِ وأهلِه وذُلُّ الكفرِ وأهلِه ثم اختِمْ لي على أثرِ ذلك بالشهادةِ ثم قال أمِّنُوا يرحمْكم اللهُ فأمَّنَّا وبكى وبكَينا فقال النعمانُ إني هازٌّ لوائي فتيسَّروا للسِّلاحِ ثم هازُّه الثانيةَ فكونوا مُتيسِّرينَ لقتالِ عدوِّكم بإزاركِم فإذا هززتُه الثالثةَ فليحملْ كلُّ قومٍ على من يلِيهم من عدوِّهم على بركةِ اللهِ قال فلما حضرتِ الصلاةُ وهبَّتِ الأرواحُ كبَّر وكبَّرْنا وقال ريحُ الفتحِ واللهِ

إن شاء اللهُ وإني لأرجو أن يستجيبَ اللهُ لي وأن يفتحَ علينا فهزَّ اللواءَ فتيسَّروا ثم هزَّها الثانيةَ ثم هزَّها الثالثة فحملْنا جميعًا كلٌّ قومٍ على من يليهم وقال النعمانُ إن أنا أُصبتُ فعلى الناسِ حذيفةُ بنُ اليمانِ فإن أُصيبَ حذيفةُ ففلانٌ فإن أُصيبَ فلانٌ ففلانٌ حتى عدَّ سبعة آخرُهم المغيرةُ بنُ شعبةَ قال أبي فو اللهِ ما علمتُ من المسلمينَ أحدًا يحبُّ أن يرجعَ إلى أهلهِ حتى يقتلَ أو يظفرَ فثبَتوا لنا فلم نسمعْ إلا وقعَ الحديدِ على الحديدِ حتى أُصيبَ في المسلمين عصابةٌ عظيمةٌ فلما رأَوْا صبرَنا ورأَوْنا لا نريد أن نرجعَ انهزموا فجعل يقعُ الرجلُ فيقعُ عليه سبعةٌ في قِرانٍ فيُقتلون جميعًا وجعل يعقرهُم حَسكُ الحديدِ خلفَهم فقال النعمانُ قدِّموا اللواءَ فجعلْنا نُقدِّمُ اللواءَ فنقتُلهم ونهزمُهم فلما رأى النعمانُ قد استجاب اللهُ له ورأى الفتحَ جاءتهُ نشَّابةٌ فأصابتْ خاصرتَه فقتلتْه فجاء مَعقِلُ بنُ مُقرِّنٍ فسجَّى عليه ثوبًا وأخذ اللواءَ فتقدم ثم قال تقدَّموا رحمَكم اللهُ فجعلْنا نتقدَّمُ فنهزمُهم ونقتلُهم فلما فرغْنا واجتمع الناسُ قالوا أين الأميرُ فقال مَعقلٌ هذا أميرُكم قد أقرَّ اللهُ عينَه بالفتحِ وختم له بالشهادةِ فبايع الناسُ حُذيفةَ بنَ اليمانِ قال وكان عمرُ بنُ الخطابِ رِضوانُ اللهِ عليه بالمدينةِ يدعو اللهَ وينتظرُ مثل صيحةِ الحُبلَى فكتب حذيفةُ إلى عمرَ بالفتحِ مع رجلٍ من المسلمينَ فلما قدم عليه قال أَبْشِرْ يا أميرَ المؤمنين بفتحٍ أعزَّ اللهُ فيه الإسلامَ وأهلَه وأذلَّ فيه الشركَ وأهلَه وقال النعمانُ بعثك قال احتسِبِ النعمانَ يا أميرَ المؤمنين فبكى عمرُ واسترجعَ فقال ومن ويحَك قال فلانٌ وفلانٌ حتى عدَّ ناسًا ثم قال وآخرين يا أميرَ المؤمنين لا تعرفُهم فقال عمرُ رِضوانُ اللهِ عليه وهو يبكي لا يضرّهم أن لا يعرفَهم عمرُ لكنَّ اللهَ يعرفُهم(١).

---

(١) السلسلة الصحيحة ٦/ ٧٨٥.



استشهاد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

ذكر البخاري قصة استشهاد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وملخصها أن عمرو بن ميمون قال: إني لقائم ما بيني وبينه إلا عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا غداة أصيب، وكان إذا مر بالصفوف قال: استووا، حتى إذا لم ير فيهن خللًا تقدم فكبر؛ وربما قرأ سورة يوسف أو النحل حتى يجتمع الناس، فما هو إلا أن كبر فسمعته يقول: قتلني - أكلني - الكلب، حين طعنه، فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنسًا، فلما ظن العلج أنه مأخوذ فطعن نفسه، وتناول عمر يد عبد الرحمن بن عوف فصلى بهم، ثم قال: يا ابن عباس: انظر من قتلني، فجال سالم، ثم جاء فقال: غلام المغيرة، فاحتمل إلى بيته، فأتى بنبيذ فشربه فخرج من جوفه، ثم أتى بلبن فشربه فخرج من جرحه، فعلموا أنه ميت، فقالوا: أوص يا أمير المؤمنين،

استخلف. فقال: ما أجد أحدًا أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، فسمى عليًّا وعثمان والزبير وطلحة وسعدًا وعبد الرحمن، وقال: يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شيء، فإن أصابت الأمرةُ سعدًا فهو ذاك، وإلا فليستعن به أيكم ما أُمِّر، فإني لم أعزله عن عجز ولا خيانة وأخذ الناس يثنون عليه، فقال: وودت أن ذلك كَفَافٌ لا عليَّ ولا لي[1].

الفوائد والدروس والعبر

١- كان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مثالًا للخليفة العادل، المؤمن المجاهد، التقي الورع، الصادق الأمين، الفذ البطل، الحصن المنيع للأمة وعقيدتها، أفنى حياته في خدمة دينه وأمته فكان السياسي المحنك، والفقيه المجتهد، والعابد الزاهد، والقاضي العادل، والإداري الحكيم، أحكم قيادة الأمة وتوطدت في عهده دعائم الدولة الإسلامية، زلزل أركان أعظم دولتين، مات وترك عَلَمَ الأمة يرفرف على معظم البلاد المحيطة بالجزيرة العربية، فرضي الله عنه وأرضاه.

٢- الحقد الدفين الذي يُضمره أعداء الدين للمسلمين، فقد طعن أبو لؤلؤة المجوسي -لعنه الله- أميرَ المؤمنين عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وثلاثة عشر صحابيًا معه، استُشهِد منهم سبعة، ففي رواية البخاري: فطار العلج بسكين ذات طرفين لا يمر على أحد يمينًا ولا شمالًا إلا طعنه، حتى طعن ثلاثة عشر رجلًا، مات منهم سبعة.

وهذا يدل على مدى الحقد الذي تنطوي عليه قلوب الفرس الأعاجم.

٣- فرح الشيعة بمقتل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فرحًا غامرًا، واتخاذهم ذلك اليوم عيدًا، وتعظيمهم لأبي لؤلؤة المجوسي -لعنه الله.

---

(١) البخاري كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب: قصة البيعة والاتفاق على عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يقول السيد حسين الموسوي -من علماء النجف[١]: واعلم أن في مدينة كاشان الإيرانية في منطقة تُسمى: «باغى فين» مشهدًا على غرار الجندي المجهول، فيه قبر وهمي لأبي لؤلؤة فيروز الفارسي المجوسي، قاتل الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، حيث أطلقوا عليه ما معناه بالعربية «مرقد بابا شجاع الدين»، وهو لقب أطلقوه على أبي لؤلؤة لقتله عمر بن الخطاب، وقد كُتب على جدرانه هذا المشهد بالفارسية: «مرك بر أبو بكر، مرك بر عمر، مرك بر عثمان»، ومعناه بالعربية: الموت لأبي بكر، الموت لعمر، الموت لعثمان.

وهذا المشهد يُزار من قِبَل الشيعة الإيرانيين، وتُلْقى فيه الأموال والتبرعات، وقد رأيتُ هذا المشهد بنفسي.

وكانت وزارة الإرشاد الإيرانية قد باشرت توسيعه وتجديده، وفوق ذلك قاموا بطبع صورة المشهد على بطاقات تُستخدم لإرسال الرسائل والمكاتيب[٢].

٤ - لما فُتحت (تستر) استسلم الهرمزان على أن ينزل على حكم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فحُمل إلى المدينة وأسلم بين يدي عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بحيلة ماكرة، والمتأمل في سيرته يرتاب في صحة إسلامه، ويجزم بتدبيره المكائد للمسلمين، ولما اجتمع الفرس بنهاوند، استشاره عمر، فلم يصدقه النصيحة، فكشف عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خبثه ودهاءه فرجع إلى الصواب[٣].

٥ - تعظيم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لقدر الصلاة وانشغاله بتأديتها في وقتها، فقد حُمل إلى بيته والدم يسيل من جرحه وذلك قبل طلوع الشمس، فجعل يفيق ثم

(١) صاحب كتاب: لله ثم للتاريخ.

(٢) لله ثم للتاريخ، كشف الأسرار وتبرئة الأئمة الأطهار، حسين الموسوي، ص١٣٣ ط جمعية تبليغ الإسلام.

(٣) عمر بن الخطاب، عبد الستار الشيخ ص ٧٢٣.

يُغمى عليه، ثم يُذكرونه بالصلاة، فيفيق ويقول: نعم، ولا حظ في الإسلام لمن تركها، ثم صلى في الوقت رضي الله عنه وأرضاه[١].

٦- مكانة الستة أصحاب الشورى عند عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وشهادته لهم بالفضل وثناؤه عليهم، وهم: علي وعثمان وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

٧- شدة خوف عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من ربه جَلَّ وَعَلَا، وانكساره وخشيته له، وهذه عجيبة من عجائب هذا الإمام العادل الرباني، ينبغي أن يتربى عليها القادة والمُصلحون والدُعاة أجمعون؛ حتى يستطيعوا تربية الأمة تربية نافعة.

٨- لقد أصيب المسلمون بفاجعة عظيمة بمقتل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يقول عمرو بن ميمون: وكأن الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ، ويقول الأحنف بن قيس: فلما طُعن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أمر صهيبًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يصلي بالناس، ويطعمهم ثلاثة أيام حتى يجتمعوا على رجل، فلما وضعت الموائد كف الناس عن الطعام، فقال العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا أيها الناس إن رسول الله ﷺ قد مات فأكلنا بعده وشربنا، ومات أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فأكلنا بعده وشربنا، وإنه لابد للناس من الأكل والشرب، فمد يده فأكل الناس[٢]، وبكى سعيد بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: على الإسلام أبكي، إن موت عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثلم الإسلام ثلمة لا ترتق إلى يوم القيامة[٣].

٩- لما دخل عليه شاب فرأى إزاره يصل إلى الأرض فأنكر عليه، قال الحافظ: وفي إنكاره ما كان عليه من الصلابة في الدين وأنه لم يشغله ما هو فيه

(١) البداية والنهاية (٧/ ٢٨٧).

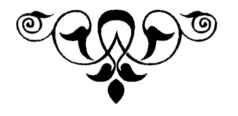
(٢) محض الصواب في مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ص ٨٤٩ لابن المبرد.

(٣) عمر بن الخطاب، عبد الستار الشيخ، ص ٧١٤.

من الموت عن الأمر بالمعروف، قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يرحم الله عمر، لم يمنعه ما كان فيه من قول الحق[1]. .

١٠- قال ابن عباس لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: «أليس قد دعا رسول الله ﷺ أن يعز بك الدين والمسلمين إذ يخافون بمكة، فلما أسلمت كان إسلامك عزًّا، وظهر بك الإسلام، وهاجرت فكانت هجرتك فتحًا، ثم لم تغب عن مشهد شهده رسول الله ﷺ من قتال المشركين، ثم قُبض وهو عنك راضٍ، ووازرت الخليفة بعده على منهاج النبوة، فضربت من أدبر بمن أقبل، ثم قُبض الخليفة وهو عنك راضٍ، ثم وليت بخير ما ولي الناس: مَصَّرَ الله بك الأمصار، وجبا بك الأموال، ونفى بك العدو، وأدخل الله بك على أهل بيت من سيوسعهم في دينهم وأرزاقهم، ثم ختم لك بالشهادة، فهنيئًا لك، فقال: يوم القيامة؟ فقال: والله إن المغرور من تغرونه، ثم قال: أتشهد لي يا عبد الله عند الله يوم القيامة؟ فقال: نعم. فقال: اللهم لك الحمد».

قال الحسن البصري -وذكر له فعل عمر عند موته وخشيته من ربه، فقال-: هكذا المؤمن جمع إحسانًا وشفقة، والمنافق جمع إساءة وعزة، والله ما وجدت إنسانًا ازداد إحسانًا إلا وجدته ازداد مخافة وشفقة، ولا ازداد إساءة إلا ازداد عزة[2].



(١) فتح الباري (٨/ ٤١٠).
(٢) السابق (٨/ ٤١١).



خلافة
عثمان بن عفان
رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ
مـن:
إلى:
٢٣ هـ
٣٥ هـ
اثنتا عشرة سنة

الخليفة الثالث: عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

لما دُفن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وصُلِّيَ عليه، جمع المقداد أصحاب الشـورى في بيت المسور بن مخرمة، وشهدهم ابن عمر، وليس له من الأمر شيء.

فقال عبد الرحمن: اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم.

فقال الزبير: جعلتُ أمري إلى علي.

وقال طلحة: جعلتُ أمري إلى عثمان.

وقال سعد: جعلتُ أمري إلى عبد الرحمن.

وهكذا تنازل ثلاثة: طلحة والزبير، وسعد.

وبقي المُرشحون ثلاثة: علي، وعثمان، وابن عوف.

فقال ابن عوف: أيكما يتبرأ من هذا الأمر فنجعله إليه، واللهُ عليه والإسـلامُ لينظرن أفضَلَهُم في نفسه.

ثـم قـال ابن عوف: أتجعلونه إليّ على أن لا آلو عـن أفضلكما؟ قالا: نعم. فخلا بعلي، وقال لك قرابة من رسول الله ﷺ والقدم في الإسلام ما قد علمت، فـالله عليك لئن أمرتك لتعدلِنَّ، ولئن أمرت عثمان لتطيعَنَّ، قال: نعم. ثم خلا بعثمان، وقال له مثلما قال لعلي.

ثم جلس ابن عوف ثلاثة أيام يسأل المهاجرين والأنصار، حتى قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والله؛ ما تركت بيتًا من بيوتهم إلا وسألتهم فما رأيتهم يعدلون بعثمان أحدًا.

فصـار إجماع الصحابة، ثم أتاهم وقـال: ارفع يدك يا عثمان فبايعه، وبايعه علي، وولج من في الدار فبايعوه[1].

---

(١) البخاري كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ. باب: قصة البيعة والاتفاق على عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الفوائد والدروس والعبر

١- في مشاورة عبدالرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للمسلمين في أمر الخلافة الغاية في رجاحة العقل، وسلامة النية والقصد والنصح للإسلام والمسلمين، فإنه لو شاء لاقتصر على نظره واختياره هو نفسه وهو المؤتمن على رأيه، المطاع في قوله لو فعل، ولكنه جعل اختياره، بعد المشورة الطويلة والاستقصاء المضني لآراء المهاجرين والأنصار، وسائر المسلمين ليكون أبلغ في الحجة وأقصد للتي هي أقوم وأبعد عن التهمة(١).

٢- قال ابن حجر: قال ابن بطال: فيه دليل على جواز تولية المفضول على الأفضل منه لأن ذلك لو لم يجز لم يجعل الأمر شورى إلى ستة أنفس مع علمه أن بعضهم أفضل من بعض، قال: ويدل على ذلك أيضًا قول أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قد رضيت لكم أحد الرجلين عمر أو أبو عبيدة مع علمه بأنه أفضل منهما(٢)

٣- لقد ساق أبو مخنف لوط بن يحيى قصة الشورى وملأها بالكذب والتدليس، فمن ذلك: قول عمر لصهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «وقم على رؤوسهم - أي أهل الشورى - فإن اجتمع خمسة ورضوا رجلًا وأبى واحد فاشدخ رأسه بالسيف»، فهذا قول منكر، وكيف يقول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذا وهو يعلم أنهم هم الصفوة من أصحاب رسول الله ﷺ.

ومن الكذب أيضًا ماذكره من قول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للأنصار: أدخلوهم بيتًا ثلاثة أيام، فإن استقاموا وإلا فادخلوا عليهم فاضربوا أعناقهم(٣)

---

(١) من تعليق الدكتور فلاح بن ثاني على كتاب «منهاج القاصدين، «في فضل الخلفاء الراشدين» لابن قدامة، ص ٦٨٥ ط مؤسسة غراس.

(٢) فتح الباري (٨/ ٤١٧) ط دار طيبة.

(٣) مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري، يحيى بن ابراهيم اليحيي، ص ١٧٥ ط دار العاصمة.

وعثمان أفضل الصحابة بعد أبي بكر وعمر؛ لحديث ابن عمر قال: ما كنا نعدل بعد رسول الله ﷺ بأبي بكر أحدًا ثم عمر ثم عثمان ثم نترك بقية أصحاب رسول الله ﷺ لا نفاضل بينهم، والحديث في البخاري[(١)]، وفي رواية الطبراني، قال: «وكان رسول الله ﷺ يسمعنا ولا يُنكره»[(٢)].

لذلك من قدم عليًّا على عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار، كما قال أحمد وأيوب السختياني والدارقطني.

وقال أحمد: ما كان في القوم أوكد بيعة من عثمان كانت بإجماعهم.

وكان الولاة الذين أمَّرهم عثمان هم:

١- **والي مكة**: نافع بن عبد الحارث الخزاعي.

٢- **والي الطائف**: سفيان بن عبد الله الثقفي.

٣- **والي صنعاء**: يعلى بن منبه.

٤- **والي جَنَد**: عبد الله بن أبي ربيعة.

٥- **والي الكوفة**: المغيرة بن شعبة.

٦- **والي البصرة**: أبو موسى الأشعري.

٧- **والي الشام**: معاوية بن أبي سفيان الأموي.

٨- **والي حمص**: عمير بن سعد.

٩- **والي مصر**: عمرو بن العاص.

١٠- **والي البحرين**: عثمان بن أبي العاص[(٣)].

---

(١) كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب: فضل أبي بكر بعد النبي ﷺ.

(٢) السُنة لابن أبي عاصم، وقال الشيخ الألباني: إسناده صحيح برقم (٢/ ٣٥٣).

(٣) التاريخ الإسلامي، محمود شاكر (٣/ ٢٢٢).

حياته ومناقبه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، يلتقي مع النبي ﷺ في عبد مناف.

كان رَبْعَةً حسن الوجه، رقيق البشرة عظيم اللحية، بعيد ما بين المنكبين، أسلم على يدي أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]، كان يلي وضوء الليل بنفسه، فقيل له: لو أمرت بعض الخدم فكفوك، فقال: لا، الليل لهم يستريحون فيه، عن عبد الرحمن بن حاطب قال: ما رأيت أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ كان إذا حدَّث أتم حديثًا ولا أحسن من عثمان بن عفان، إلا أنه كان رجلًا يهاب الحديث[٢]. وعن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه ذكر عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: «ذاك امرؤ يُدعى في السماء ذا النورين»[٣].

كان أبوه عفان ثريًّا صاحب تجارة، مات وخلف مالًا كثيرًا لعثمان، فأجاد به على قومه فأحبوه وقدموه.

كان وجيهًا في قومه، وأحد أعيان قريش كلها.

بُعث النبي ﷺ وعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الرابعة والثلاثين، فما لبث أن أسلم على يد أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٤].

ولما أسلم عثمان تأثرت قريش بإسلامه تأثرًا كبيرًا، وحاول عمه الحكم ابن أبي العاص أن يثنيه فأوثقه رباطًا، وقال: أترغب عن ملة آبائك إلى دين محدث؟

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ص ٨٩٠.

(٢) طبقات ابن سعد (٣/ ٥٣) ط الخانجي - القاهرة.

(٣) فتح الباري (٨/ ٣٩٣)، وعزا الأثر إلى الدارقطنى.

(٤) التاريخ الإسلامي لمحمود شاكر (٣/ ١١١) بتصرف.

والله لا أحلـك أبدًا حتى تدع ما أنت عليه. فقال: «والله لا أدعه أبدًا»، فلما رأى الحكـمُ صلابته في دينه تركه، ثم هاجر إلى الحبشـة الهجرة الأولى والثانية لما أشتد أذى قريش له، ومعه فيهما جميعًا امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ[١].

وعندما هاجر المسـلمون إلى المدينة هاجر عثمـان مع زوجه رقية أيضًا، ثم جـاءت غـزوة بدر فلم يشـهدها إذ كان يُمرض رقيـة بإذن رسـول الله ﷺ وَعَدَّه رسـول الله ﷺ من البدريين، وأسـهم لـه مثلهم، وتُوفيت رقية، ثـم تزوج بعدها أختها أم كلثوم، وتُوفيت هي الأخرى، وعند الدارقطني عن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «هل تعلمون أن رسول الله ﷺ زوجني ابنتيه واحدة بعد أخرى رضي بي ورضي عني[٢]؟» فلم يجمع بين ابنتي نبي إلا عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهذه فضيلة أكرمه الله بها مع الكرامات الكثيرة والمناقب الحسـنة الجميلة وبشارة النبي ﷺ له بالشهادة وأنه يقتل مظلومًا، وأمره له بالصبر فصبر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حتى قتل وحقن دماء المسلمين[٣].

ثم شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وفي العام السادس للهجرة تحرك رسول الله ﷺ ليزور البيت ويعظمه فمنعته قريش، فأرسل عثمان ليخبرهم أنه مـا جاء لقتال لكن ليزور البيت ويعظم حرمته، فاحتبسـت قريش عثمان بمكة حتى ظن المسـلمون أن قريشًـا قد غدرت بهم، فبايع رسولُ الله ﷺ المسلمين على القتال، وبايع هو عن عثمان بإحدى يديه الأخرى.

ولما رأى رسولُ الله ﷺ السير إلى تبوك كان الناس في قحط، وكان الجيش ثلاثين ألف جندي، فحث رسـولُ الله ﷺ على الإنفاق، فجهز عثمان مائة بعير

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/ ٥٢).

(٢) ذكره الحافظ في الفتح (٧/ ٢٧).

(٣) التمهيد والبيان في مقتل الشـهيد عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمحمد بن يحيى الأندلسـي ص ١٦١ نشر دار الثقافة - قطر.

بأحلاسها وأقتابها، ثم حث رسولُ الله ﷺ ثانية، فجهز عثمان مائة أخرى، ثم حث رسولُ الله ﷺ ثالثة فجهز عثمان مائة ثالثة، فبرقت أسارير وجهه ﷺ ونزل من على المنبر يضرب كفًّا بكف، ويقول: «**ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم**»[١].

وعن عبد الرحمن بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى النبي ﷺ بألف دينار في ثوبه حين جهز جيش العسرة، فصبها في حجر النبي ﷺ، فجعل النبي ﷺ يقلبها بيده ويقول: **ما ضر ابنَ عفانَ ما عمل بعد اليوم**، يرددها مرارًا[٢].

وفي عهد أبي بكر كان نِعْمَ الوزير والمعين، وكذلك في عهد عمر، فكان الرجل الثاني في الدولة الإسلامية، ومن مناقبه أنه أصاب الناسَ قحطٌ زمان أبي بكر فشكوا إليه، فقال اذهبوا فإني أرجو الله ألا تُمْسوا حتى يفرج الله عنكم، فلما كان آخر النهار ورد الخبر بأن عيرًا لعثمان وردت الشام وتصبح في المدينة، فاجتمع التجار عند بيته، ثم قالوا: نريد الشراء، فقال: كم تربحوني على الشراء؟ قالوا: الدرهم درهمين.

قال: أُعطيت زيادة. قالوا: أربعة. قال: أُعطيت زيادة. قالوا خمسة. قال: أُعطيت زيادة. قالوا: ما بقي في المدينة تجار غيرنا، فمن ذا الذي أعطاك؟ قال: إن الله أعطاني بكل درهم عشرة أعندكم زيادة؟ قالوا: لا.

قال: فإني أشهدكم أني جعلت ما حملت هذه العير صدقة لله على المساكين والفقراء[٣].

---

(١) التاريخ الإسلامي، لمحمود شاكر (٣/ ١١١) بتصرف.

(٢) الترمذي، وحسنه الألباني برقم (٣٧٠١).

(٣) غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة، «ص ١٦٦ لبرهان الدين الكتبي (الوطواط) المطبعة الكلية بالسكة الجديدة - مصر.

وسُمي عثمان بذي النورين؛ لزواجه من ابنتي النبي ﷺ، وأخرج البخاري عن أنس قال: صعد النبي ﷺ جبل أُحد ومعه أبو بكر وعمر وعثمان، فَرجف الجبل، فقال ﷺ: **«اسكن أُحد، فليس عليك إلا نبي وصديق وشهيدان[(١)]»**، وقال ﷺ: **«ألا أستحيي من رجل تستحيي منه الملائكة»**[(٢)].

الفوائد والدروس والعبر

قال النووي: وفيه فضيلة ظاهرة لعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وجلالته عندالملائكة، وأن الحياء صفة جميلة من صفات الملائكة[(٣)].

وعن عمر أن رسول الله ﷺ قال: **«وُضِعتُ في كِفة ووُضِعت أمتي في كِفة فرجحتُ بهم، ثم جيء بأبي بكر فرجح بهم، ثم جيء بعمر فرجح بهم، ثم جيء بعثمان فرجح بهم»**. فقال له رجل: فأين نحن؟ قال: **«أنتم حيث جعلتم أنفسكم»**[(٤)]. وبشره النبي ﷺ بالجنة على بلوى تكون، فقال: اللهم صبرًا أو اللهُ المستعان[(٥)].

أولًا: الفتوحات في عهد عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

اتسعت الفتوحات في عهد عثمان، واستمرت عشرة أعوام، إلا أن ما حدث من فتنة في آخر عامين أنسى هذه الفتوحات.

فبمجرد موت عمر، نقضت مقاطعات من الفرس عهودها مع المسلمين.

وحاول الروم طرد المسلمين فهاجموهم بالشام، وكذا حاولوا استرداد مصر،

---

(١) كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب: قول النبي ﷺ «لو كنت متخذًا خليلاً».

(٢) مسلم، كتاب الفضائل برقم (٦١٥٩).

(٣) شرح النووي (١٥/ ١٦٥) ط المعرفة - بيروت.

(٤) صححه الألباني في «تخريج كتاب السنة» برقم (١١٣٨).

(٥) صحيح مسلم، كتاب الفضائل برقم (٦١٦٢).

فكانت محنة عظيمة كالتي حدثت في بدء عهد أبي بكر من حروب الردة[١].

وقد اتجهت الفتوحات في عهد عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نحو ثلاث مناطق:

الأولى: بلاد المشرق، **الثانية**: بلاد الشام، **الثالثة**: الشمال الإفريقي.

الفتوحات جهة المشرق

١- أذربيجان ٢٤ هـ

تولى فتح هذه المناطق جيش الكوفة، وذلك أنَّ تمرد أهل أذربيجان حدث أكثر من مرة، فكتب الأشعث بن قيس والي أذربيجان إلى الوليد بن عتبة، فأمده بجيش من أهل الكوفة، وتتبع الأشعث الثائرين وهزمهم هزيمة منكرة فسبى وغنم[٢] فطلبوا الصلح فصالحهم على صلحهم الأول، وخاف الأشعث أن يُعيدوا الكرة، فوضع حامية من العرب، وأَمْرُهم بدعوة الناس إلى الإسلام، ولما تولى سعيد بن العاص أمرها، عاد أهل أذربيجان وتمردوا على الوالي الجديد، فبعث إليهم جرير بن عبد الله، فهزمهم وقتل رئيسهم، فاستقرت الأمور بعد أن أسلم أكثر شعبها وتعلموا القرآن الكريم[٣].

٢- فرغانة وكابل ونهر السند

غزا عمير بن عثمان فرغانة، وسار أمير سجستان عبد الله بن عمير فوصل كابل، ووصل عبيد الله بن معمر إلى نهر السند، ووصل عبد الله بن عامر إلى خراسان وكانت قد انتفضت، ففتح طوس، وأبيورد، ونسا، وبلخ، وسرخس، وأعاد فتح خراسان، وفي عام ٣٢هـ سار سلمان بن ربيعة الباهلي للغزو في منطقة الباب[٤].

---

(١) الموسوعة المُيسرة في التاريخ الإسلامي (١/ ١٥٠).

(٢) تاريخ الإسلام، للذهبي (٢/ ١٧٢).

(٣) دراسات في تاريخ الخلفاء الراشدين، د/ عفاف صبرة، د/ مصطفى الحناوي ص ٢١٧ ط مكتبة الرشد.

(٤) التاريخ الإسلامي، لمحمود شاكر الشامي (٤/ ٢٢٧).

٣ـ فتح اصطخر

كان على اصطخر قتال عظيم، قتل فيه عبيد الله بن معمر، وكان من كبار الأمراء، افتتح سابور عنوة، وقلعة شيراز، وقُتل وهو شاب، فأقسم عبد الله بن عامر لئن ظفر بالبلد ليقتلن حتى يسيل الدم من باب المدينة، وكان بها يزدجرد بن شهريار بن كسرى فخرج منها في مئة ألف وسار فنزل مرو، وخلف على اصطخر أميرًا من أمرائه في جيش يحفظونها، فنقب المسلمون المدينة، فما دروا إلا والمسلمون معهم في المدينة، فأسرف ابن عامر في القتل، وجعل الدم لا يجرى من الباب، فقيل له: أفنيت الخلق. فأمر بالماء فصُب على الدم، حتى خرج الدم من الباب[1].

الفتوحات جهة الشام

١ـ عمورية ٢٥ هـ[2]

غزا معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الروم حتى وصل إلى عمورية، فوجد الحصون التي بين أنطاكية وطرسوس خالية، فجعل عندها جماعة كثيرة من أهل الشام والجزيرة، وكان مع معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في هذه الغزوات من الصحابة: عبادة بن الصامت، وأبو أيوب الأنصاري، وخالد بن زيد، وأبو ذر، وشداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جميعًا[3].

٢ـ غزو قبرص ٢٨ هـ

غزا معاوية قبرص، وتشاور مع أصحابه، وأرسلوا إلى أهل قبرص أنهم ما جاءوا للاستيلاء على جزيرتهم، ولكن أرادوا دعوتهم للإسلام ثم تأمين حدود الدولة الإسلامية بالشام، وذلك لأن البيزنطيين كانوا يتخذون من قبرص

---

(١) تاريخ الإسلام، للذهبي (٢/ ١٨٠).

(٢) منطقة قريبة من أنقرة بتركيا.

(٣) الكامل لابن الأثير (١/ ٤٩٥). بتصرف.

محطة يستريحون فيها إذا غزوا ويتزودون منها إذا قل زادهم، وصالح أهلها على سبعة آلاف يُؤدونها إلى المسلمين كل سنة، وكان معه من الصحابة عبادة بن الصامت والمقداد بن عمرو وشداد بن أوس وأبوذر الغفاري، وكانت أم حرام مع زوجها عبادة، روى البخاري في صحيحه عن أنس، أن النبي ﷺ نام عندها القيلولة، ثم استيقظ وهو يضحك، فسألته أم حرام عن سبب ضحكه، فقال لها: **رأيت أناسًا من أمتي غزاة في سبيل الله يركبون ثبج البحر (وسطه ومعظمه) ملوكًا على الأسِرَّة**، ثم وضع رأسه فنام ثانية، واستيقظ وقد رأى مثل الرؤيا الأولى، فقالت أم حرام: ادع الله أن يجعلني منهم. فقال لها: **أنت من الأولين.**

أي من الجيش الأول الذي سيغزو قبرص، وهو جيش معاوية، وماتت أم حرام وقبرها بقبرص إلى الآن، قال ابن كثير: كان أمير الجيش الثاني يزيد بن معاوية في غزو القسطنطينية، ثم قال: وهذا من أعظم دلائل النبوة.

وبهذا الصلح استطاع المسلمون تأمين حدود الدولة الإسلامية بالشام[1].

الفوائد والدروس والعبر

١ - صالح أهلُ قبرص المسلمين على:

أ - ألا يقوموا بغزو المسلمين.

ب - أن يؤذِنوا المسلمين بمسيرة عدوهم من الروم.

جـ - أن يختار المسلمون بطريرك قبرص.

د- مع جزية قدرها سبعة آلاف دينار سنويًا.

---

(١) البداية والنهاية (٧/ ٣٠٤). بتصرف.

فانظر إلى زمن العز، نحن الذين نولي رؤساءهم، ونتحكم في أمورهم لما تمسكنا بديننا، دانت لنا الدنيا، ولما تخلينا عنه انعكس الحال وصاروا يتحكمون في مصيرنا ويخططون مستقبلنا ويولون ويعزلون ويفعلون ما يشاءون، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

٢ - قال جبير بن نفير: ولما فُتحت قبرص وأُخذ منها السبي، نظرت إلى أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يبكي، فقلت: ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله وأذل الكفر وأهله؟! فضرب منكبي بيده، وقال: ثكلتك أمك يا جبير، ما أهونَ الخلق على الله إن تركوا أمره، بينما هي أمة ظاهرة قاهرة للناس لهم المُلك، إذ تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى فسلط الله عليهم السِّباء، وإذا سلط الله السِّباء على قوم فليس له فيهم حاجة.

٣ - الإعجاز الغيبي لسيد الخلق ﷺ وإخباره عن ركوب ظهر البحر في سبيل الله، وبأن السيدة أم حرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ستكون منهم وسوف تكون من الأولين، ووقع ما أخبر به ﷺ وتحقق وتأكد، فصلى الله وسلم على من لا ينطق عن الهوى.

الفتوحات جهة الشمال الإفريقي

١ـ فتح إفريقية ٢٧ هـ (تونس اليوم)

أمر عثمان عبد الله بن سعد بن أبي السرح أن يغزو بلاد إفريقية، فاجتاز طرابلس واستولى على سفنٍ للروم في عشرة آلاف مسلم، وأخذ الغنيمة وبعث إلى عثمان الخمس، وقسم أربعة أخماس بين الجيش فأصاب الفارس ثلاثة آلاف، ألف له، واثنان للفرس، وأصاب الراجل ألف دينار[١].

(١) البداية والنهاية (٧/ ٣٠٣). بتصرف.

ثـم استشـار عبد الله بن سـعد بن أبي السـرح عثمان بـن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في مواصلة غزو إفريقية، فوافق بعد استشارة كبار الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ودعا الناس للجهاد، فتقاطـروا من مختلف القبائل، وأعان هو الجيش بألف بعير من ماله الخـاص، فلمـا اكتمل النـاس بالجرف قام فيهـم خطيبًا ورغبهـم في الجهاد، وكان ذلك في المحرم ٢٧ هـ، وكان في هذا الجيش كثير من مشـاهير الصحابة أبرزهـم: عبد الله بـن عمر، عبد الله عباس، عبد الله بـن زيد بن الخطاب، عبد الله بن الزبير، عبد الله بن أبي بكر الصديق، عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وكانوا جميعًا في السـن الباكرة، فسُمِّي الجيش بجيش العبادلة، ثم انضموا إلى جيش عبد الله بن سعد بمصر، فصار له باتفاق المؤرخين ٢٠ ألفًا، وصل عبد الله بن سـعد إلى برقة ثم طرابلس وهو يريد الإسـراع إلى جرجير في مدينة سـبيطلة، وحـط رحله في إقليـم قمونية، وكانت الحصـون التي تحيط بسـبيطلة كثيرة، وعندها دارت المعركة، وصمد إليهم جُرجير في مائة وعشـرين ألفًا، فأحاطوا بالمسـلمين، فوقـف المسـلمون في موقـف لم ير أشـنع منه، قال ابـن الزبير: فنظـرت إلى جُرجير مـن وراء الصفوف، وهو راكب علـى برذونه (خيل غير عربي)، وجاريتان تظلانه بريش الطواويس، فسـألت ابن أبي السرح أن يرسل مـن يحمي ظهري، فأرسـل إليّ النـاس، فاخترت منهم ثلاثين فارسًـا وقلت لسـائرهم: البثوا علـى مصافكم. وحملت في الوجه الـذي رأيت فيه جرجير، وقلـت لأصحابي: احموا لـى ظهري. فوالله ما نشـبت أن خرقت الصف إليه فخرجـت صامدًا له، وما يحسـب هـو ولا أصحابه إلا أني رسـولٌ إليه، حتى دنوت منه فعرف الشـر، فوثب علـى برذونه وولى مدبـرًا، فأدركته ثم طعنته، فسـقط، ثم دففت عليه بالسـيف، ونصبت رأسـه على رمـح وكبرت، وحمل

المسلمون، فارْفَضَّ أصحابه من كل وجه وركبنا أكتافهم[١]. فاشتهر ابن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا من هذا الموطن، وكسر سلطان البيزنطيين كسرة لن يعودوا بعدها إلى ما كانوا عليه قبل الفتح الإسلامي.

٢ـ غزو بلاد النوبة ٣١هـ

استطاع المسلمون بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي السرح غزو بلاد النوبة (تشمل السودان)، وكانت من أصعب الفتوحات حيث إذ أنهم واجهوا طرقًا غريبة في الرمي لم يتدربوا على مواجهتها، وهي الرمي بالنبل في أعين المقاتلين، ففقد المسلمون ١٥٠ عينًا في أول المعركة، واستطاع المسلمون أن يبرموا معهم اتفاقية صلح ظلت مدة ستة قرون، ومما جاء فيها: «وعليكم حفظ المسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم، ولا تمنعوا منه مصليًّا؟ وعليكم كنسه وإسراجه وتكرمته[٢]».

٣ـ ذات الصواري ٣١ هـ

وقعت في البحر من ناحية الإسكندرية[٣]، وقد حشد قسطنطين بن هرقل الروم ومعهم البربر لقتال عبد الله بن سعد بن أبي السرح، وساروا في جمع لم ير مثله، وقد خرجوا في ألف مركب، وقيل في سبعمائة، والمسلمون في مائتي مركب، وسميت غزوة «ذات الصواري» لكثرة صواري المراكب واجتماعها[٤]، وكانت الريح على المسلمين، فأرسى المسلمون والروم،

---

(١) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام (٢/ ١٧٦)، والبداية والنهاية (٧/ ٣٠٤).

(٢) عثمان بن عفان، عبد الستار الشيخ ص ٣٩٧. بتصرف.

(٣) تاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ٢٢٨).

(٤) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جمال الدين أبي المحاسن، يوسف بن تغري بردي، ص ١٠٢ ط دار الكتب العلمية -بيروت.

وسكنت الريح، فقال المسلمون: الأمان بيننا وبينكم. فبات المسلمون ليلتهم يقرأون القرآن ويصلون ويدعون، والروم يضربون بالنواقيس، وقربوا من الغد سفنهم، وقرب المسلمون سفنهم(١).

وقد اتفق ابن أبي السرح مع أصحابه أن يجعلوا المعركة برية، وذلك بأن ينزل الفدائيون إلى الماء ويربطوا سفن العدو بسفن المسلمين، وقد تم لهم ذلك، فصار ١٢٠٠ سفينة في عرض البحر، كل عشرة أو عشرين منها متصلة مع بعضها، فكأنها قطعة أرض ستجري عليها المعركة، وبدأت المعركة واقتتل الجيشان بالسيوف والخناجر، وقُتل من المسلمين بشر كثير، وقُتل من الروم ما لا يُحصى، وصبروا يومئذ صبرًا لم يصبروا في موطن قط مثله، ثم أنزل الله نصره على المسلمين، فانهزم قسطنطين جريحًا، ولم ينج من الروم إلا الشريد، وأقام ابن أبي السرح أيامًا بذات الصواري ثم رجع، أما قسطنطين فإنه سار في مركبه إلى صقلية، فسأله أهلها عن حاله فأخبرهم، فقالوا له: أهلكت النصرانية وأفنيت رجالها، لو أتانا العرب لم يكن عندنا من يمنعهم. ثم أدخلوه الحمام وقتلوه، وتركوا من كان معه في المركب، وأذنوا لهم في المسير إلى القسطنطينية(٢).

الفوائد والدروس والعبر

١- يقول المؤرخون: «إن ذات الصواري» من أعظم المعارك البحرية على مر العصور، ويقول آخرون: إنها أقوى معركة شهدها البحر المتوسط منذ وقعة أكتيوم الشهيرة عام ٣١ ق.م(٣) أظهر فيها الجيش الإسلامي صورة مبهرة من البذل والشجاعة والتضحية.

---

(١) عثمان بن عفان، عبد الستار الشيخ، ص ٣٩٩. بتصرف.

(٢) الكامل لابن الأثير (١/ ٥٠٨).

(٣) ذات الصواري، عبد الحميد عبد المقصود، ص ٢ ط المؤسسة العربية الحديثة.

٢- أضاعت هذه المعركة آخر فرص البيزنطيين لاستعادة مواقعهم في بلاد الشام ومصر، حيث كان اعتمادهم على التفوق البحري[١].

٣- تخلى الروم عن فكرة طرد المسلمين من الأراضي التي فتحوها في شرق البحر المتوسط، واكتفوا بتأمين الدفاع عن الأراضي البيزنطية في الجبهة الجنوبية من آسيا الصغرى[٢].

٤- مهدت السبيل إلى فتح كثير من الجزر في البحار، مثل: كريت، وكورسيكا، وسردينيا، وصقلية، وجزر البليار، حتى وصل المسلمون إلى جندة ومرسيليا[٣].

٥- تحصيل المسلمين لأعظم أسباب النصر وهو الثقة بموعود الله، مع كثرة العبادة والتضرع له جَلَّ وَعَلَا، يظهر ذلك في بَياتهم طوال ليلة المعركة، يصلون ويتهجدون ويقرأون القرآن ويدعون ربهم، فكان لهم دوي كدوي النحل توافق مع نغمات تلاطم الأمواج بالمراكب، فما أعظمها من صورة مبهرة، ظهر فيها تمام الذل والخضوع، مع تعلق القلوب بالله علام الغيوب، فكانوا جديرين بالنصر والظفر الموعود.

٦- توسعت رقعة الدولة الإسلامية في عهد عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فتم فتح: الإسكندرية، أرمينية، القوقاز، خراسان، كرمان، سجستان، إفريقية، أذربيجان، الري، كابل، فرغانة، بلاد السند، النوبة، جزيرة رودس، وقبرص، وقلب فارس، حتى وصل المسلمون شرقًا إلى بحر قزوين، واصطخر[٤].

---

(١) تاريخ الخلفاء الراشدين، د/ محمد سهيل طقوش، ص ٣٨٤.

(٢) السابق ص ٣٨٤.

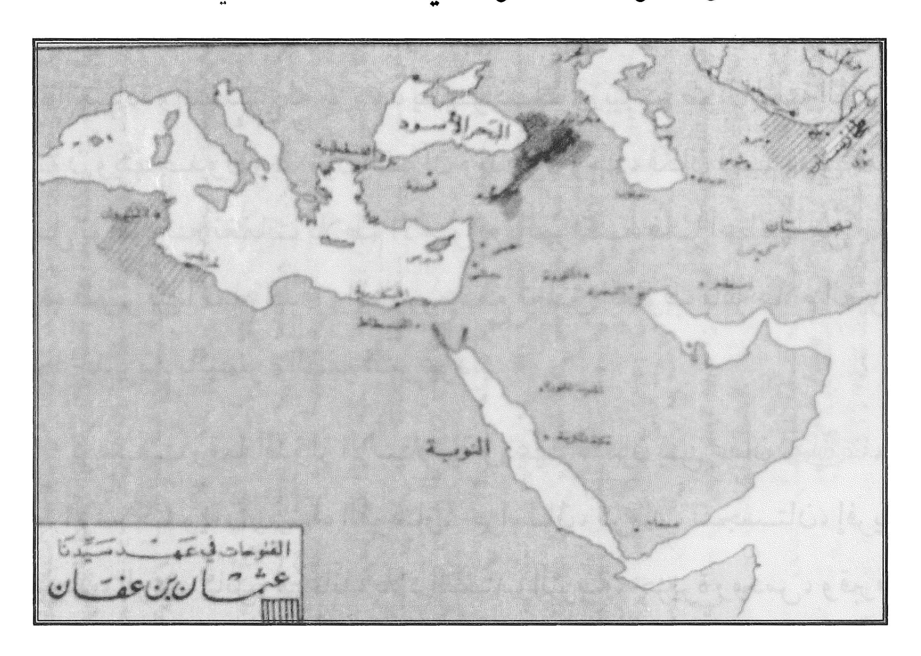
(٣) عثمان بن عفان، عبد الستار الشيخ، ص ٤٠٣.

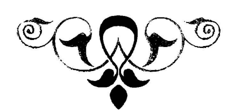
(٤) التاريخ الإسلامي، لمحمود شاكر، (٤/ ٢٢٣) وما بعدها.بتصرف.

ففتح الله على يديه كثيرًا من الأقاليم والأمصار وتوسعت المملكة الإسلامية، وامتدت الدولة المحمدية، وبلغت الرسالة المصطفوية في مشارق الأرض ومغاربها، وظهر للناس مصداق قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩]، وقوله ﷺ: **«إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله»**

وهذا كله تحقق، وقوله تأكد وتوطد في زمان عثمان رضي الله عنه[1].





(١) البداية والنهاية (٧ / ٣٥٧).

ثانيًا: جمع القرآن ٣٣ هـ

روى البخاري[١] عن أنس: أن حذيفة قدم على عثمان، وكان يغازي مع أهل الشام في فتح أرمينية وأَذْرَبَيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفةَ اختلافُهم في القراءة.

فقال لعثمان: أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى.

فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا الصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك. فأرسلت بها، فأمر زيدَ بن ثابت، وعبدَ الله بن الزبير، وسعيدَ بن العاص، وعبدَ الرحمن بنَ هشام فنسخوها في المصاحف.

وقال عثمان للقرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم. ففعلوا، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمانُ الصحفَ، فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يُحرَّق.

فكان ذلك من أعظم إنجازات عثمان، ولقي قبولًا عند جميع الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

قال ابن العربى رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن جمع عثمان للمصحف وإحراق بقية المصاحف: تلك حسنته العظمى وخصلته الكبرى، فإنه حسم الخلاف، وحفظ الله القرآن على يديه[٢].

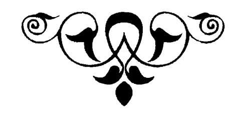
---

(١) كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن.

(٢) العواصم من القواصم ص ٦٧، بتصرف، ط مكتبة السنة.

الفوائد والدروس والعبر

هكذا توحدت الأمة الإسلامية على مصحف واحد عبر تاريخها الطويل، مصحف كُتِبَ في زمن النبي ﷺ وأجمع الصحابة رضي الله عنهم على دقته وسلامته من النقص والزيادة، إذ تم توثيق آياته من خلال عمل علمي موضوعي شفاف، قام على حفظه العدول الثقات، مع مطابقته بما كتبه كتبة الوحي في حياة النبي ﷺ، وهذا الجهد العلمي قد شهد له المنصفون من غير المسلمين؛ فهذا أحد المستشرقين يقول: إن القرآن - يقصد المصحف المعاصر - إذا جُرِّدَ من الشكل والتنقيط وبعض التعليقات عند أول سورة من كونها مكية أو مدنية ومن ذكر عدد آياتها، يكون تمامًا هو القرآن الذي أنزل على النبي ﷺ، وما تزال الأمة الإسلامية تتعاهد حفظه وجمعه في صدورها بالأسانيد المتصلة إلى النبي ﷺ، وبالصحف المكتوبة عن المصحف الأول مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[1] [الحجر: ٩].



(١) مقال بعنوان: «قصة جمع القرآن الكريم» أسامة شحادة.

ثالثًا: بدء الفتنة

بـدأت الفتنة سـنة ٣٤هـ عندما حـاول بعض الجهلة الخـروج على عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فاستشـار الصحابـة فـرأوا أن يُنفَـوا إلى الثغـور، ولا تُجـري عليهم الأعطيات، لكن عثمان رأى أن يرفق بهم، فوافق الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على ذلك.

ولكنهم عادوا مرة ثانية فحاصروا عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولم يكن هذا الأمر عشوائيًّا بلا تخطيط، بل إن كثيرًا من الروايات التاريخية تشـير إلى وجود جماعة منظمة كانت تتحرك في الأمصار، وتطعن في الخليفة، وتحرض الناس على الثورة عليه، وتتبادل الأخبار والرسائل فيما بينها لتحقيق أهدافها الخفية(١).

أسباب الفتنة

١ـ عبد الله بن سبأ ابن السوداء

رجـل يهـودي مـن صنعاء اليمـن، أظهر الإسـلام ثـم انتهج التشـيع لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، تُنسـب إليه «السـبئية» الذين ألّهوا عليًّـا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فجمع من قدر عليه وحرقه بالنار وهو القائل:

لمـا رأيـتُ الأمـر منكـرًا ... أججت نـارًا ودعـوتُ قنبرًا(٢)

فحرق من قدر عليه، وفر من فر، منهم عبد الله بن سبأ.

---

(١) بحوث حول الخلافة والفتنة الكبرى، ص ٧١، د/ خالد كبير علام.

(٢) قال الحافظ في "الفتح": وهذا سـند حسـن، ونقل عن الإسـفراييني أن الذيـن أحرقهم علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ طائفـة مـن الروافض اِدَّعَوا فيـه الإلهية وهم السـبئية، وكان كبيرهم عبد الله بن سـبأ يهوديًّا ثم أظهر الإسلام وابتدع هذه المقالة (الفتح١٦/ ١٤٣) ط طيبة .

وأظهر ابن سبأ بعض العقائد اليهودية ونشرها، فصدقه السذج من البدو والأعراب الذين دخلوا في الإسلام حديثًا من سكان الأمصار.

ثم استغلهم وأخذ يشيع عندهم أن عثمان فعل وفعل، وكتب كتبًا مزورة هو وابن ساعدة من أصحابه على الزبير وعلي وطلحة وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فيها الإنكار على عثمان والتحريض على الخروج عليه.

فاستجاب له أناس فهموا أغراضه الخبيثة ودعوا إليها، وبعضهم صدق قوله فصار يدعو إليه عن عِماية.

وكان من دعاته:

الغافقي بن حرب، كنانة بن بشر، سودان بن حمران، عبد الله بن زيد بن رقاء، عمرو بن الحمق الخزاعي، حرقوص بن زهير، حكيم بن جبلة.

قال مسروق: قالت عائشة: تركتموه (تعني: عثمان) كالثوب النقي من الدنس ثم قربتموه تذبحونه كذبح الكبش.

فقال لها: هذا عملكِ، كتبتِ إلى الناس تأمرينهم بالخروج عليه.

فقالت: والذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون ما كتبت لهم سوادًا في بياض حتى جلست مجلسي هذا.

قال الأعمش: فكانوا يرون أنه كُتب على لسانها[1]، وقالوا لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قم معنا. فقال: والله لا أقوم معكم. قالوا: فلم كتبت إلينا؟ قال: والله ما كتبت إليكم، فنظر بعضهم إلى بعض[2].

---

(١) قال ابن كثير في البداية والنهاية (٧/ ٣٥٢): إسناده صحيح.

(٢) تاريخ الإسلام، للذهبي، (٢/ ٢٤٢).

فكان ابن سبأ يُرسل إلى أتباعه في الأنحاء ويُراسلونه، يقولون: فعل ولاة عثمان كذا، وفعلوا بأمر عثمان كذا، وفعل عثمان بأصحاب رسول الله ﷺ كذا، جاءتنا رسالة من الزبير، ورسالة من طلحة، ومن عائشة. فصار الأعراب الذين ليس في قلوبهم كبيرُ تأثر بالإسلام يتأثرون بهذه الأمور، فغلت قلوبهم على عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولقد اتفق المشاهير من المؤرخين والعلماء من سلف الأمة وخلفها على أن ابن سبأ ظهر بين المسلمين بعقائدَ وأفكارٍ وخُططٍ سبئية ليلفت المسلمين عن دينهم وطاعة إمامهم، ويوقع بينهم الفرقة والخلاف[١].

٢ـ رأفة عثمان وحلمه

غير أنه ما كان ضعيفًا، لذا عندما حاصروه في البيت قال: ما جرأكم عليّ إلا حلمي. فكان يُسامح ويترك ويقول: بل نعفو ونقبل ونبصرهم بجهدنا.[٢] وذلك عن بصيرة وقدرة وحزم وحسن تدبير، وليس أدل على ذلك من كونه ضرب على أيدى المستهترين من أبناء الأغنياء حتى كرهوه واستطالوا عمره، وحمل الناس على التمسك بأحكام الإسلام، فلم تأخذه في الله لومة لائم حتى في أقرب الناس إليه، فعندما شرب الوليد بن عقبة الخمر - وهو أخوه من أمه - عزله، وأقام عليه الحد كما ثبت في الصحيح[٣]، وكان يشتد في متابعة عماله ويحدد سلطانهم بما يحقق مصالح المسلمين، ولم يكن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عاجزًا أن يتخذ لنفسه حجَّاجًا يسلطه على أبشار الناس، ويطلق يده في دمائهم حتى

(١) تحقيق مواقف الصحابة ص ٢٥١، د/ محمد أمحزون.

(٢) تاريخ الإسلام، للذهبي (٢/ ٢٣٨).

(٣) البخاري، كتاب أصحاب النبي ﷺ، ومسلم كتاب الحدود.

يخضعـوا، ولم يكن عاجـزًا أن ينكل بأولئك الخارجين والأمر في بدئه لا يزال محصورًا في نفر طلاب فتنة ومطايا شياطين الإنس من أضراب ابن سبأ، ولكنه كان خليفة راشدًا يحجزه عدل الخلافة الراشدة عن مآثم الملك العضوض[١].

٣ـ إستثقال رئاسة قريش من بعض القبائل

فهناك قبائل ارتدت ثم أرجعتها السيوف، فاستثقلوا رئاسة قريش؛ لذا يقول ابن خلدون: «وَجَدت بعض القبائل العربية الرئاسـة لقريش، فأنفت نفوسهم، فكانـوا يظهـرون الطعن في الـولاة والمؤاخذة لهـم باللحظـات والخطوات، والتجنـي بسـؤال الاسـتبدال منهم والعـزل، ويفيضون في النكيـر على عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفشـت المقالـة في ذلـك فى أتباعهم، وتنـادوا بالظلم مـن الأمراء في جهاتهم»[٢]، وكانت العصبية القبلية مادة تهيج النفوس وتحركها[٣].

٤ـ تعدد ثقافات المجتمع واتساعه

لمـا توسـعت الدولة الإسـلامية بعـد الفتوحـات واذدادت رقعتها، ورثت ثقافـاتٍ وعـاداتٍ وأفكارٍ هـذه الرقعة، وظهر على سـطح هذا النسـيج ألوان مضطربـة وخروقـات كثيرة، وفي نفـس الوقت كان الصحابـة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يقلون رويدًا رويدًا فنشـأ أفراد مسـلمون لم يتربوا التربية الكافية، فظهرت انحرافات فكرية وسـلوكية، كنشر الشـائعات من جهة وتصديقها قبل التثبت من صحتها من جهة أخرى، مما ساعد على وقوع الفتن المتنوعة[٤].

---

(١) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة ص ٢٩٢ د/ محمد أمحزون.

(٢) تاريخ ابن خلدون (١/ ٦٦٣). بتصرف يسير.

(٣) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة ص ٢٦٩.

(٤) أحداث الفتن السياسية في عصر الخلافة الراشدة والدولة الاموية، د/ زين العابدين كامل ص ١١٨ بتصرف يسير، ط الخلفاء الراشدين.

أهم المآخذ التي أخذها مثيرو الفتنة على عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

أولًا: توليته أقاربه

وهم: معاوية، وعبد الله بن سعد بن أبي السرح، والوليد بن عقبة، وسعيد بن العاص، وعبد الله بن عامر.

والجواب: إن هذا ليس بمطعن؛ فهؤلاء لا يمثلون شيئًا بجانب كثرة عدد الولاة الباقين الذين ليسوا من أقارب عثمان، مثل: أبي موسى، القعقاع، جابر المزني، حبيب بن مسلمة، عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، أبي الأعور السلمي، حكيم بن سلامة، الأشعث بن قيس، جرير بن عبد الله البجلي، عتبة بن النهاس، مالك بن حبيب، النسير العجلي، السائب بن الأقرع، سعيد بن قيس، سلمان بن ربيعة، خنيس بن خبيس، فهؤلاء ستة عشر رجلًا من غير أقاربه.

ثم إن رسول الله ﷺ كان كثيرًا ما يولي بني أمية -كما يقول ابن تيمية- لأنهم كانوا كثيرين، وفيهم شرف وسؤدد.

وقد ولّى النبي ﷺ من بني أمية:

عتاب بن أسيد، أبا سفيان، خالد بن سعيد، عثمان بن سعيد، أبان بن سعيد، فهؤلاء خمسة كعدد الذين عينهم عثمان.

ثم إن عليًّا ولّى أقاربه ولم ينقم عليه أحد، فقد ولى عبد الله بن عباس على البصرة، وعبيد الله بن عباس على البحرين واليمن، وقثم بن عباس على الطائف ومكة[1]، بل رد عليٌ بنفسه على هذه الشبهة فقال: وأما إيثاره قومه بنى أمية،

---

(١) بحوث حول الخلافة والفتنة الكبرى، ص ٣٧، د/ خالد كبير علام، ط دار كنوز الحكمة -الجزائر.

فقد كان رسول الله ﷺ يؤثر قريشًا على الناس، ووالله لو أن مفاتيح الجنة بيدي لأدخلت بني أمية إليها[١].

ثانيًا: نَفْيُهُ أبا ذر إلى الربذة

والجواب: هذا محض كذب وافتراء على عثمان، بل لما حدث خلاف فقهي بين معاوية بالشام وأبي ذر في مسألة الكنز، فأبو ذر يرى أن العبد لو كنز ذهبًا أو فضة حتى لو أخرج زكاتها فهوكانز ويعذب به، ومعاوية يرى غير ذلك، فكان أبو ذر يُحدث بذلك ويقول: فكتب معاوية إلى عثمان كتابًا يشكوني في ذلك، فكتب عثمان لي أن أقدم، فذكرت ذلك لعثمان، فقال: إن شئت تنحيت فكنت قريبًا، ففعلتُ، ولو أَمروا عليّ عبدًا حبشيًّا لأطعتُ[٢]. فعثمان لم يطرد أبا ذر، كما ادعى مثيرو الفتنة، فعن غالب القطان قال: قلت للحسن البصري: عثمان أخرج أبا ذر؟ قال: لا، معاذ الله[٣]. وكان ابن سيرين إذا ذُكر له أن عثمان سيّره أخذه أمر عظيم ويقول: هو خرج من قبل نفسه، ولم يسيره عثمان رضي الله عنه[٤].

أما مارُوي من إكراه عثمان لأبى ذر رضي الله عنهما وقوله له: (وارِعَنّى وجهك) فلا يثبت بسند صحيح، بل هو من رواية اليعقوبي والمسعودي المعروفين بالرفض والتشيع[٥]

(١) البداية والنهاية (٧/ ٣٢٤).

(٢) البخاري، كتاب الزكاة.

(٣) ابن شبة، تاريخ المدينة (٣/ ١٠٣٧) نقلاً عن تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة ص٣٣٢ د/ محمد أمحزون، ط دار السلام - مصر.

(٤) السابق، ص ٣٣٢.

(٥) بحوث حول الخلافة والفتنة الكبرى خلال العهد الراشدي، ص ٢٨ د خالد كبير علام.

ثالثًا: أحرق المصاحف

والجواب: أن المصاحف التي حرقها عثمان فيها أشياء منسوخة أبقاها بعض الصحابة، وفيها تفسيرات لبعض الصحابة، فخشي عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إن طال بالناس زمان أن يتوهم متوهم أن فيها ما يغاير المصحف الذي استقر عليه الأمر، ولم يتنازع أحد من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في ذلك. بل تركوا مصاحفهم الخاصة وأعدموها عندما أمر عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بذلك مما يدل على إجماعهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على ذلك، بل ثبت عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بإسناد صحيح أنه قال: «والله لو وليت لفعلت الذي فعل»[(١)]

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تُبدي المساويا

رابعًا: زاد في الحِمَى

والجواب: أن عمر حَمَى لإبل الصدقة، فلما جاء عثمان زادت إبل الصدقة فزاد في الحمى، فنقموا عليه وقالوا له:

أرأيت ما حميت من الحمى، آلله أذن لك أم على الله تفترون؟

فقال: إن عمر حمى قبلي لإبل الصدقة، فلما زادت الإبل زدت في الحمى، وقال علي مُدافعًا عنه: أما الحمى فإنما حمى لإبل الصدقة لتسمن، ولم يحمه لإبله ولا لغنمه[(٢)].

خامسًا: ضربه ابن مسعود حتى فتق أمعاءه، وعمارًا فكسر أضلاعه

والجواب: أن هذا كذب، إذ لو فتق أمعاء ابن مسعود ما عاش، فما فعل ذلك، وما كسر أضلاع عمار[(٣)]، وقد روى مؤرخوا الشيعة عن عمار أنه سب عثمان،

---

(١) شهيد الدار عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ص ٥١، أحمد الخروف، دار عمار - الأردن.

(٢) البداية والنهاية (٧/ ٣٢٤).

(٣) حوار مع الشيعة حول الخلفاء الراشدين وبني أمية، عبدالمتعال الجبري، ص١١٦ طـ دار الصحوة-

وهـي رواية مكذوبة وباطلة، وقـد روى قصةَ ضرب عمار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الطبريُّ من طريق سـيف بـن عمر، وهو متفق على ضعفه[١]، وقـد اعتذر العلماء عن ذلك بوجـوه منها: أنه لا ينبغي أن يُشْـتغل بها؛ لأنها مبنية علـى باطل، ولا يُبنى حق على باطل، ولا نُذْهِب الزمان في مماشاة الجهال، فإن ذلك لا آخر له[٢].

سادسًا: لم يحضر بدرًا، وفر يوم أحد، ولم يحضر بيعة الرضوان

والجواب: هل هذه الأمور تُبيح دمه؟

ثم إنه في البخاري أنهم سـألوا ابن عمر: هل تعلم أن عثمان تغيب يوم بدر؟ قال: نعم. قالوا: هل تعلم أنه فر يوم أُحد؟

قـال: نعم. قالوا: هل تعلم أنه تغيب عـن بيعة الرضوان؟ قال: نعم، فقالوا: الله أكبر.

فقال: أبين لكم، أما يوم بدر فكان يُمَرِّض رُقية بنت النبي ﷺ بإذن رسـول الله ﷺ، وجعل له رسول الله ﷺ سهمًا كمن حضر.

أمـا يـوم أُحـد فـإن الله عفـا عنـه ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [آل عمـران: ١٥٥]، أمـا يوم الرضوان فلو كان أحد أعـز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه، وكانت البيعة بعدما ذهب، فقال ﷺ بيده اليُمنى: «**هذه يد عثمان**»، فقال له ابن عمر: اذهب بها الآن معك[٣].

القاهرة.

(١) شهيد الدار عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ص ٥٧، أحمد الخروف.

(٢) العواصم من القواصم ص ٦٧، لابن العربي المالكي، ط مكتبة السنة.

(٣) البخاري، كتاب المناقب، باب مناقب عثمان رقم (٣٦٩٨).

قال ابن حجر: والسبب في ذلك أن النبي ﷺ بعث عثمان ليُعْلِم قريشًا أنه جاء مُعتمرًا لا مُحاربًا، ففي غيبة عثمان شاع عندهم أن المشركين تعرضوا لحرب المسلمين، فاستعد المسلمون للقتال، وبايعهم النبي ﷺ حينئذ تحت الشجرة على ألا يفروا وذلك في غيبة عثمان، وقيل: بل جاء الخبر بأن عثمان قُتل، فكان ذلك سبب البيعة(١).

سابعًا: لم يقتل عبيد الله بن عمر بالهرمزان

وهذه أعظم شبهة تمسك بها الغوغائيون وطاروا بها كل مطار، فعندما قَتل عبيدُ الله بن عمر الهرمزان، وجفينةَ النصراني وابنةَ أبي لؤلؤة، أمسك به الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وحبسوه حتى ينظر في شأنه الخليفة القادم.

فلما تولى عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دعا المهاجرين والأنصار، وقال: أشيروا عليَّ في هذا الذي فتق في الإسلام ما فتق. فقال علي: أرى أن تقتله. فقال بعضُ المهاجرين: قُتِل عمر بالأمس، ويُقتل ابنه اليوم؟ فقال عمرو بن العاص: ياأمير المؤمنين، إن الله أعفاك أن يكون هذا الحدث ولك على المسلمين سلطان، إنما كان هذا الحدث ولا سلطان لك. قال عثمان: أنا وليهم، وقد جعلتُها دية، واحتملتُها في مالي(٢).

قال ابن العربي: وقد قيل: إن الهرمزان سعى في قَتْل عمر، وحمل الخنجر وظهر تحت ثيابه، وكان قَتْلُ عبيد الله له وعثمان لم يلِ بعد، ولعل عثمان كان لا يرى على عبيد الله حقًا، لما ثبت عنده من حال الهرمزان وفعله(٣).

---

(١) فتح الباري (٨/ ٤٠٢)، ط طيبة.

(٢) طبقات ابن سعد (٣/ ٣٣٠). بتصرف يسير.

(٣) العواصم من القواصم ص ٩٥.

فعن ابن شهاب قال: أخبرني ابن المسيب أن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق قال حين قُتِلَ عمر: قد مررت على أبي لؤلؤة ومعه جفينة والهرمزان وهم نجيٌّ، فلما بغتهم ثاروا، فسقط من بينهم خنجر له رأسان ونصابه وسطه، فانظروا في الخنجر الذي قُتل به عمر. فوجدوه الخنجر الذى نعت عبد الرحمن بن أبي بكر، فانطلق عبيد الله بن عمر حين سمع ذلك من عبدالرحمن بن أبي بكر ومعه السيف، فقتل الثلاثة[1] وبناءً على ذلك، إذا كان عبيد الله بن عمر متأولاً يعتقد أن الهرمزان أعان على قتل أبيه وأنه يجوز قتله، صارت هذه شبهة يجوز أن يجعلها الإمام مانعًا من وجوب القصاص[2]، ولم يُقدم عبيد الله على ذلك إلا بعد أن شهد عبدالرحمن بن أبي بكر أنه رأى الخنجر بينهم.

قال ابن تيمية في منهاج السنة: وقد قال عبد الله بن عباس لما طُعن عمر، وقد قال له عمر: كنت أنت وأبوك تحبان أن تكثر العلوج في المدينة، فقال ابن عباس: إن شئت أن نقتلهم، فقال عمر: «كذبت، أفبعد أن تكلموا بلسانكم وصلوا إلى قبلتكم؟» قال ابن تيمية: فهذا ابن عباس، وهو أفقه من عبيد الله ابن عمر وأدين وأفضل بكثير، يستأذن عمر في قتل علوج الفُرس مُطلقًا الذين كانوا بالمدينة، لما اتهموهم بالفساد، اعتقد جواز مثل هذا وإذا كان الهرمزان ممن أعان على قتل عمر كان من المفسدين في الأرض المحاربين، فيجب قتله لذلك، ولو قُدِّرَ أن المقتول معصوم الدم يحرم قتله، لكن كان القاتل متأولًا ويعتقد حل قتله لشبهة ظاهرة، صار ذلك شبهة تدرأ القتل عن القاتل - يعني عبيد الله -[3].

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/ ٣٢٩).

(٢) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة ص ٣٢٨.

(٣) منهاج السنة (٦/ ١٥٢) ط دار الحديث القاهرة.

وأيضًا فالهرمزان لم يكن له أولياء يطلبون دمه، وإنما وليه ولي الأمر، ومثل هـذا إذا قتله قاتل كان للإمام قتلُ قاتله، لأنه وليه، وكان له العفو عنه إلى الدية لئلا تضيع حقوق المسـلمين، وبكل حال فكانت مسـألة اجتهادية، وإذا كانت مسألة اجتهادية، وقد رأى طائفة كثيرة من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أن لا يقتل، ورأى آخرون أنه يقتل، لم يُنْكَر على عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما فعله باجتهاده[١].

قـال محـب الديـن الخطيب: وإلـى هذا ذهـب عثمـان في اكتفائـه بالدية، واحتملها من ماله الخاص[٢].

وكذلـك لم يقتل النبي ﷺ أسـامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمـا تأول في عهده وقتل رجلًا بعد أن قال لا إله الا الله، فقال له النبي ﷺ: «**يا أسـامة أقتلتَه بعدما قال: لا إلـه الا الله؟!**» قـال: كان مُتعـوذًا؛ فمـا زال يُكررها حتى تمنيـت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم[٣].

فالنبـي ﷺ لـم يُقِـم الحـد عليه لأنـه كان مُتـأولًا، فكذلك الحال بالنسـبة لعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يقم الحد على عبيد الله بن عمر لأنه كان مُتأولا[٤].

أما ابنة أبي لؤلؤة، فكانت مجوسية، وجفينة كان نصرانيًّا، وقد قال النبي ﷺ، كما في البخاري: «**لا يُقتل مسلم بكافر**»، لذلك دفع عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ديتهما، كما دفع دية الهرمزان لشبهة التأويل كما مر[٥].

---

(١) منهاج السنة النبوية (٦/ ١٥٤).

(٢) حاشية العواصم من القواصم ص ٩٦.

(٣) البخاري، كتاب المغازي.

(٤) حقبة من التاريخ ص ١٠٦. عثمان الخميس.

(٥) حاشية محب الدين الخطيب ص ٩٦، بتصرف.

الفوائد والدروس والعبر[1]

١ - لقد ساد في مجتمع عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الأمن والاستقرار والرخاء، فكان العدو مُتقيًا والخيرات كثيرة، والناس في حب ووئام وألفة، كل ذلك من آثار العدل الذي اتبعه الخليفة الراشد وولاته الذين كانوا أهلًا لتحمل المسؤلية.

٢ - لم يغلق الخليفة الراشد بابه دون رعيته، فكان يستقبلهم ويسمع منهم ويزيل شكاواهم، كما فعل مع أهل الكوفة لما شكوا الوليد بن عقبة وشهدوا عليه بشرب الخمر حده وعزله، وعندما قدم عليه وفد من جند إفريقيا يشكون عبد الله بن سعد، عزله أيضًا وأزال شكاواهم، تطييبًا لخاطرهم وقطعًا لعللهم.

٣ - من مظاهر العدل السياسي كذلك: أن المعارضين والطاعنين في الخليفة وولاته كانوا يتحركون بحرية ويعترضون على ولاتهم، ويطعنون فيهم وفي الخليفة، ولم يتخذ عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وولاته إجراءات صارمة لردعهم، وفي نفس الوقت لم يكن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالخليفة الضعيف العاجز عن إدارة الدولة، بل كان قادرًا على الأمر أهلًا له بإجماع الصحابة الموجودين آنذاك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، إذ لو ظهر عجز الخليفة وعدم أهليته لم يسع الموجودين من أكابر أهل العلم والتقوى من الصحابة وغيرهم أن يسكتوا.

٤ - أن الثائرين كانوا طائفة قليلة من أهل مصر والبصرة والكوفة، ولم تكن الثورة عامة شاملة للأمصار الإسلامية أو لمعظمها على الأقل، وإنما كانت محدودة العدد والمكان، وهذا يدل على أن الثائرين قلة تأثروا بدعايات رؤوس الفتنة وخفيت عليهم نواياهم الخبيثة.

---

(١) بحوث حول الخلافة والفتنة الكبرى ص ٦٩، د/ خالد كبير علام.

٥ - ذكرت الروايات التاريخية أن الثائرين خرجوا من بلادهم لمقتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لكنهم أخفوا ذلك وتظاهروا بإرادة الحج، مما يدل على المكر والخداع والتخطيط المبيت، وإلا فالمشاكل التي ادعيت كانت بسيطة لا يخلو منها مجتمع.

٦ - ما كانت الأمور تصل إلى الثورة على الخليفة وقتله لولا وجود طائفة ماكرة كذبت على الخليفة وولاته، ولبَّست على بعض الناس أفكارهم وضخمت المشاكل في أعينهم، واستغلت تسامح عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الثورة عليه.



بعد أن أُثيرت هذه الشبهات التافهة خرج أناس من أهل مصر سنة ٣٥هـ، يظهرون إرادة العمرة، لكنهم يضمرون مناظرة الخليفة لإحداث بلبلة في الآراء، فناظرهم عثمان وأقنعهم، وحضروا خطبته فبكى وأبكاهم، وعادوا إلى مصر، لكنهم ما لبثوا أن رجعوا يُحرضون الناس، فاتفقوا على الخروج عام الحج يُظهرون الحج ويُضمرون الفتنة، وانطلقوا، وانطلق في نفس الوقت أهل الكوفة وأهل البصرة وكانوا لا يقلون عن ألفين ولا يزيدون عن الستة آلاف، خرجوا على شكل فرق أربع، على كل فرقة أمير، وعلى الجميع أمير، فالأمر مُنظم ومُرتب.

على أهل مصر الغافقي بن حرب ومعه ابن السوداء، وهم يريدون البيعة لعلي.

وعلى أهل الكوفة عمرو بن الأصم، وعلى أهل البصرة حرقوص بن زهير ومعه حكيم بن جبلة[1].

---

(١) حقبة من التاريخ ص ١٠٩، بإختصار.

فأرسل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجلين من بني مخزوم ومن بني زهرة يسألونهم: ماذا يصنعون ؟ قالوا: نريد أن نذكر له أشياءً قد زرعناها في قلوب الناس، ثم نرجع إليهم ونزعم لهم أنا قررناه بها، فلم يخرج منها ولم يتب، ثم نحيط به فنخلعه، فإن أبي قتلناه[١].

ولم يعلم الأمراء عدد الناقمين لخروجهم مع الحجيج؛ لذا لم يظنوا أن هذه الشرذمة ستقتل عثمان، فلم يُفكروا في إرسال قوة تحمي أمير المؤمنين.

وحاصر المتمردون دار الخلافة، لكن الحصار كان في أول الأمر يسيرًا، فكان يخرج يصلي بالناس، ويدخل إليه الصحابة ومن يُريده.

ثم اشتد الحصار شيئًا فشيئًا، إذ يبدو أن البغاة سمعوا بأنباء الأمراء في النواحي يحركون جيشًا لحماية أمير المؤمنين،[٢] فقد كتب عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى الأمصار يستمدهم، فساروا إليه على الصعب والذلول، فبعث معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إليه حبيب بن مسلمة، وبعث ابن أبي السرح معاوية بن حُديج، وسار إليه من الكوفة القعقاع بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣] فعلم الثوار بذلك فشددوا الحصار، ومنعوا الماء عن الخليفة، ووعظهم عليّ فلم ينتهوا، ودخل بعض أبناء الصحابة دار عثمان، منهم عبد الله بن عباس، وابن عمر، وابن الزبير، والحسين، ومحمد بن طلحة، وأقسم عليهم عثمان ألا يقاتلوا وأن يضعوا سيوفهم.

وجاء في بعض الروايات أن الذين جاءوا للدفاع عن عثمان كانوا أكثر من سبعمائة من أبناء الصحابة، لكنهم لا يصلون إلى عدد هؤلاء البغاة.

---

(١) تاريخ الإسلام، للذهبي (٢/ ٢٣٧).

(٢) حقبة من التاريخ ص ١٠٩. لعثمان الخميس.

(٣) تاريخ الإسلام، للذهبي (٢/ ٢٤٠).

عن عبد الله بن عامر بن ربيعة أنه قال: كنت مع عثمان في الدار، فقال: أعزم على كل من رأى أن عليه سمعًا وطاعة إلا كف يده وسلاحه(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت لعثمان: اليوم طاب الضرب معك. قال: أعزم عليك لتخرجن(٢).

وعن محمد بن سيرين قال: انطلق الحسن والحسين وابن عمر وابن الزبير ومروان وكلهم شاك في السلاح حتى دخلوا الدار، فقال عثمان: أعزم عليكم لما رجعتم، فوضعتم أسلحتكم ولزمتم بيوتكم. فخرج ابن عمر والحسن والحسين، فقال ابن الزبير ومروان: ونحن نعزم على أنفسنا ألا نبرح(٣).

بل أتى الأنصار في ثلاث مائة للدفاع عن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فعن ابن سيرين، قال: جاء زيد بن ثابت في ثلاث مائة من الأنصار، فقال لعثمان: هؤلاء الأنصار بالباب، يقولون لك: إن شئت كنا أنصار الله مرتين. فقال: لا حاجة لي في هذا، كُفوا(٤).

الفوائد والدروس والعبر

١- وهكذا تجمع حول عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كثير من أبطال الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأبنائهم ليدافعوا ويذودوا عنه، ولو أذن لهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حرب الخارجين وقتالهم لناصروه وآزروه، ولكن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أبى عليه إسلامه وإيثاره وإخلاصه أن يقذف بالناس في مغبة حرب طاحنة من أجل شخصه، فقد كره إن

(١) خليفة بن خياط ص ١٢٨ ط دار الفكر.

(٢) طبقات ابن سعد (٣/ ٦٦).

(٣) السير (٢٨/ ٢٠٤).

(٤) السابق (٢٨/ ٢٠٤).

أمـر بقتال أولئك الخوارج أن يُقتل أعلام الدين من الصحابة -رضي الله عنهم أجمعيـن- فربما لا يبقى أحدهم، فينبنى على مصلحة بقائه مفسـدة أكبر وهي قتـل عدد كثير من فضلاء الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ولهذا صبر واحتسـب وفَضَّل أن يفدي الأمة بنفسه[1].

٢- وإلى جانب صبره واحتسـابه حفظًا لكيان الأمـة من التمزق والضياع، وقف عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ موقفًا آخر أشـد صلابة، وهو عدم إجابته للخارجين إلى خلع نفسه، فكان بذلك يمثل الثبات واستمرار النظام، لأنه لو أجاب الخارجين إلـى خلع نفسـه لأصبح منصـب الإمامة العظمـى ألعوبة في أيـدي المفتونين الساعين في الأرض بالفساد، إذ كلما كره قوم أميرهم خلعوه، وذلك أقرب إلى ضعفها وانهيارها، فلم يجد سـوى نفسـه يفدي بها الأمة ويحفظ كيانها وبنيانها مـن التصدع[2]، ودعم هذا الموقف عبد الله بن سـلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في أن يكف عن القتـال ويصبر، فعندمـا قال له عثمـان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ماترى ؟ فقـال: الكف الكف، فإنـه أبلغ في الحجـة[3]. وكذلك قال له ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لا تخلع نفسـك[4]، فتوافق ذلك. مع وصية النبي ﷺ لعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بألا يخلع نفسه، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا عثمان، عسى الله أن يقمصك قميصًـا من بعدي فإن أرادك المبيتون- وفي رواية: المنافقون - على خلعه فلا تخلعه، يقول له ذلك ثلاثًا»[5].

---

(١) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة ص ٣٤٣، د/ محمد أمحزون.

(٢) السابق ص ٣٤٣.

(٣) تاريخ الإسلام، للذهبي (٢/ ٢٤٤).

(٤) السابق (٢/ ٢٤٥).

(٥) الترمذي، وصححه الألباني برقم (٢٩٢٣).

ثم اشتد الحصار، فتسور البغاة عليه البيت فقتلوه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقد وضع المصحف بين يديه.

وبلغ عليًّا وطلحةَ والزبيرَ الخبرُ، فخرجوا وقد ذهبت عقولهم، ودخلوا، فرأوه مذبوحًا، فقال علي: كيف قُتل وأنتم بالباب؟ فلطم الحسن وضرب صدر الحسين وشتم ابن الزبير وابن طلحة، وخرج غضبان إلى منزله(١).

قيل للحسن البصري وكان شهد تلك الفترة: أكان أحد فيمن قتل عثمان من المهاجرين أو الأنصار؟

فقال: كانوا أعلاجًا من مصر(٢).

ولكن الرؤوس معروفة، وهم:

كنانة بن بشر، ورومان اليماني، وجبلة، وسودان بن حمران، ورجل ملقب بالموت الأسود، ومالك بن الأشتر النخعي.

وثبت بإسناد صحيح عن عمرة بنت أرطأة، قالت: خرجتُ مع عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا سنة قُتِلَ عثمان إلى مكة، فمررنا بالمدينة فرأينا المصحف الذي قُتل عثمان وهو في حجره، فكانت أول قطرة قطرت من دمه على هذه الآية: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧]، قالت عمرة: فما مات منهم رجل سويًّا(٣).

(١) تاريخ الإسلام، للذهبي (٢/ ٢٥٣).

(٢) حقبة من التاريخ ص ١٠٩ .لعثمان الخميسي.

(٣) أحمد في «فضائل الصحابة» (١/ ٥٠١) وقال المحقق وصي الله بن محمد عباس: «إسناده صحيح»، جامعة أم القرى.

الفـوائد والـدروس والعبـر

١ - تحقق نبوءة النبي ﷺ في استشـهاد عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، في قوله ﷺ: «**اثْبُتْ أُحُدُ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ**».

٢- الموقف العظيم لعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكراهته أن يكون أول من خَلَّف رسول الله ﷺ في أمته بسـفك الدماء، قال ابـن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: ومن المعلوم بالتواتر أن عثمـان كان مـن أكف الناس عـن الدماء، وأصبر الناس عمـن نال من عرضه، وعلى من سـعى في دمه، فحاصروه وسـعوا في قتله؛ وقد عـرف إرادتهم لقتله، وقد جاء المسلمون ينصرونه، ويشيرون عليه بقتالهم، وهو يأمر الناس بالكف عن القتـال، ويأمر من يطيعه أن لا يُقاتلهم... وقيل له: تذهب إلى مكة. فقال: لا أكـون ممن ألحد في الحرم. فقيل له: تذهب إلى الشـام. فقال: لا أفارق دار هجـرتي. فقيل لـه: فقاتلهم. فقال: لا أكون أول من خلـف محمدًا ﷺ في أمته بالسيف؛ فكان صبر عثمان حتى قُتل من أعظم فضائله عند المسلمين[١].

٣- تجلـي صفـات عثمـان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في أبهـى صورهـا، فقد تحلـى بالحلم والأناة والشـجاعة ورباطـة الجأش، والحـرص على ما يجمع الأمـة ونبذ ما يفرقها، واستسـلامه راضيًا للقضاء والقدر، وقلـة كلامه إلا فيما ينفع من علم أو نصـح أو توجيه أو رد على باطل، وهدوئـه في التفكير في أحلك اللحظات، مما ينبىء عن تفتق بصيرته وقوة إيمانه، رضي الله عنه وأرضاه.

٤- وقـوف الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأبنائهم بجانـب عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ودخولهم عليه الدار، واسـتعدادهم للدفـاع عنه، يدحض افتراء الشـيعة الكذابين الذين شـوهوا موقـف الصحابـة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأكثروا مـن الروايات المُلفقـة التي تدين

---

(١) منهاج السنة (٦/ ١٥٦).

الصحابـة، وتتهم عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فأبـو مخنف لا يتورع عن اتهامه بأنه الخليفة الذي كثرت سقطاته، ولا تختلف روايات الواقدي عن رواياته، والتى تشعرك بـأن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هم سـبب الفتنـة، فقبح الله من افـترى على الله الكذب وطعن في الصحب الكرام.

٥- أتُّهم محمد بن أبي بكر بأنه شارك في قتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولم يثبت ذلك بالسـند الصحيح، بل هو كذب وافتراء، فقد أخـرج خليفة بن خياط والطبري بإسناد ورجالٍ ثقات عن الحسن البصري ـ وكان ممن حضر يوم الدار ـ أن ابن أبي بكر أخذ بلحيته، فقال عثمان: لقد أخذت مني مأخذًا أو قعدت مني مقعدًا مـا كان أبوك ليقعده، فخرج وتركه[1]، بـل كان من المدافعين عنه ولله الحمد، فقـد قال ابـن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: والصحيح أن الـذي فعل ذلك غيرُه ـ يعني مباشـرة القتـل، وأنه اسـتحيا ورجع حين قال لـه عثمان: لقد أخـذت بلحية كان أبوك يُكرمهـا، فتذمم من ذلك، وغطى وجهه، ورجع وجاحف دونه فلم يفد، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا[2].

٦-**أما كيف قتل عثمان** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مظلومًا ولم يدفع عنه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

فجوابـه من وجوه - كما قـال ابن كثيرًا، **أحدها**: أن كثيـرًا منهم بل أكثرهم أو كلهـم، لم يكن يظن أنه يبلغ الأمر إلى قتله، فإن أولئك الأحزاب لم يكونوا يحاولون قتله عينًا، بل طلبوا منه أحد أمور ثلاثة: إما أن يعزل نفسـه، أو يسـلم مـروان بن الحكم، أو يقتلوه، فكانوا يرجون أن يسـلم إلى الناس مروان أو أن يعزل نفسـه ويستريح من هذه الضائقة الشـديدة، وأما القتل فما كان أحد يظن أن يقع ولا أن هؤلاء يجرؤون إلى هذا الحد.

---

(١) مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري ص ٢٤٤، يحيى بن إبراهيم اليحيى، ط دار العاصمة - الرياض.

(٢) البداية والنهاية (٧/ ٣٣٩).

ثانيًا: أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ دافعوا عنه ومانعوا دونه، لكن لما وقع التضييق الشديد عزم عثمان على الناس أن يكفوا أيديهم لدماء المسلمين ففعلوا، فتمكن المحاصرون مما أرادوا.

ثالثًا: أن هؤلاء الخوارج اغتنموا غَيْبَة كثير من أهل المدينة في موسم الحج وفي الثغور والأمصار، وربما لم يكن في المتبقين من أهل المدينة ما يقابل عدد الخوارج الذين كانوا قريبًا من ألفي مقاتل.

رابعًا: أن كبار الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قد بعثوا أولادهم إلى الدار لحماية عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في انتظار قدوم الجيوش من الأمصار لنصرته(١).

ويقول المالقي: فإن قيل: لِما منعهم عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن نصرته وهو مظلوم، وقد علم أن قتالهم عنه نهي عن المنكر وإقامة للحق، **فالجواب**: إن منعه إياهم يحتمل وجوهًا كلها محمودة:

أحدها: علمه بأنه مقتول مظلومًا لا شك فيه، لأن النبي ﷺ قد أعلمه أنه يقتل مظلومًا وأمره بالصبر، فلما أحاطوا به تحقق أنه مقتول وأن الذي قاله النبي ﷺ حق لابد أن يكون، وكان عنده أن من طلب الانتصار لنفسه والذب عنها فليس هذا بصابر.

الوجه الثاني: أنه علم أن في الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قلةَ عدد، وأن الذين يريدون قتله كثير عددهم، فلو أذن لهم بالقتال لم يأمن أن يتلف من أصحاب النبي ﷺ بسببه كثير، فوقاهم بنفسه إشفاقًا منه عليهم، لأنه راعٍ عليهم، والراعي يجب عليه حفظ رعيته بكل ما أمكنه، ومع ذلك فقد علم أنه مقتول فصانهم بنفسه حقنًا لدماء المسلمين.

---

(١) البداية والنهاية (٧/ ٣٥٤)، بتصرف يسير.

الثالث: أنه لما علم أنها فتنة، وأن الفتنة إذا سُلَّ فيها السيف لم يؤمن أن يقتل فيها من لا يستحق القتل، فلم يختر لأصحابه أن يسلوا السيف في الفتنة إشفاقًا عليهم(١).

٧ - إن عهد الخليفة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ينبغي أن يُسمى "العصر الذهبي" للإسلام على الرغم من تشويهه من قِبل الحاقدين والمفترين والمضلين.

لقد تمت في عهد هذا الخليفة العظيم أمور تنظيمية، وكان من أَجَلها جمعُه الناس على مصحف واحد، ثم زاد في عطاء الناس مئة مثلها، بل رُوي ما يدل على ما كان من كثرة الخير في زمنه، والتوسع في العطاء وتنويعه، قال الحسن: شهدت مناديه يُنادي: أيها الناس اغدوا على أعطياتكم، فيغذون، ويأخذونها وافية، ثم يُنادي: يا أيها الناس اغدوا على أرزاقكم، فيغدون ويأخذونها وافية، حتى والله سَمِعَتْه أذناي يقول: اغدوا على كسوتكم، فيأخذون الحُلل، واغدوا على السمن والعسل، أرزاق دارة وخير كثير، وذات بينٍ حسنة، ما على الأرض مؤمن يخاف مؤمنًا، إلا يرده وينصره ويألفه، وقال ابن سيرين وكان معاصرًا لعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كثر المال في زمان عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حتى بيعت الجارية بوزنها، وفرس بمائة ألف درهم، ونخلة بألف درهم. وقال مبارك بن فضالة مولى زيد بن الخطاب: سمعت عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يخطب وهو يقول: ياأيها الناس ما تنقمون عليَّ؟ ومامن يوم إلا وأنتم تقسمون فيه خيرًا(٢).

٨-واستمرت حركة الفتح في مختلف الميادين في زمنه، فتم في عهده فتح

---

(١) التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان، أبو عبد الله محمد بن يحيى المالقي الأندلس ص ١٢٣ ط دار الثقافة - الدوحة.

(٢) مع الرعيل الأول، ص ١٦١، محب الدين الخطيب، المكتبة العلمية - بيروت.

شمال إفريقية، وفتح الإسكندرية مرة ثانية بعدما كر الروم عليها، وغزا بلاد النوبة وأخذ الجزية من أهلها على يد قائده عبد الله بن أبي السرح.

وفي خلافة عثمان أُنشئ أول أسطول بحري إسلامي، وأول من فكر في ذلك معاوية بن أبي سفيان، وكان واليًا على الشام، استعان بهذا الأسطول على غزو قبرص، وأخذ الجزية من أهلها.

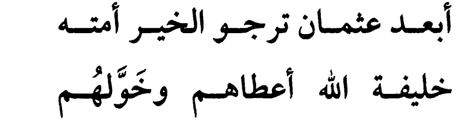
ولقد اقتدى عبد الله بن سعد والي مصر بمعاوية، فأنشأ هو الآخر أسطولًا لحماية سواحل مصر وشمال إفريقية.

وارتاع الروم من تقدم العرب البحري، فسيروا أسطولًا عظيمًا بلغ عدد مراكبه ٦٠٠ مركب؛ لعلهم يقضون به على القوة البحرية الإسلامية الناشئة التي أذهلتهم، وكان ذلك بقيادة الملك قسطنطين نفسه على ما رواه الطبري، وقد قابلت أساطيل المسلمين هذه الحملة البحرية بحماسة وشجاعة، واشتبكت معها في معركة "ذات الصواري"، وتم النصر فيها للمسلمين بعدما غطَّ القتلى من الطرفين سطح البحر، واحمرت مياهه بدمائهم.

وفي عهد الخليفة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تم فتح أرمينية وأذربيجان، كما تم فتح بقية بلاد فارس.

٩ - إنها جهود شاقة مضنية عجز المسلمون عن تكرارها طوال مدة لاحقة قاربت ألفًا وأربعمائة سنة تقريبًا، بل لا يزالون يخسرون تلك المكتسبات التي ورثوها عن هؤلاء الأكابر ليلقوا بها في سلة الإهمال والتخلي عن أسباب العز والرفعة في الدنيا والآخرة(١).

١٠ - وقد رثى أميرَ المؤمنين عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كثيرٌ من الشعراء، نذكر منهم ليلى الأخيلية في بعض أبيات لها، قالت:



أبعد عثمان ترجو الخير أمته ... قد كان أفضل من يمشي على ساق

خليفة الله أعطاهم وخَوَّلهم ... ما كان من ذهب حلو وأوراق(٢)



---

(١) محمد بن الحسن المبارك، الإنجازات التنموية الرائدة في عصر الخلافة الراشدة، بتصرف يسير.

(٢) محب الدين الخطيب في حاشيته على العواصم من القواصم، ص ٩٤.



خلافة
عليّ بن أبي طالب

رضي الله عنه

مـن:	إلى:
٣٥هـ	٤٠هـ

خمس سنوات

الخليفة الرابع: عليّ بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ

بيعته رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ

بعد مقتل عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ اجتمع الصحابة، المهاجرون والأنصار، واتفقوا على بيعة عليّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بالخلافة، وذهبوا إليه في بيته لتوليته أميرًا للمؤمنين.

ذكر الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ بسنده إلى محمد بن الحنفية، قال: كنتُ مع أبي حين قُتل عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فقام فدخل منزله، فأتاه أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا: إن هذا الرجل قد قُتل ولابُد للناس من إمام، ولا نجد اليوم أحدًا أحق بهذا الأمر منك، لا أَقْدَمَ سابقة ولا أقرب من رسول الله ﷺ، فقال: لا تفعلوا فإني أكون وزيرًا خيرٌ من أن أكون أميرًا. فقالوا: لا والله ما نحن بفاعلين حتى نُبايعك. قال: ففي المسجد، فإن بيعتي لا تكون خفيًا، ولا تكون إلا عن رضا المسلمين، فقال عبد الله بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: فلقد كرهت أن يأتي المسجد مخافة أن يُشغب عليه، وأبى هو إلا المسجد، فلما دخل دخل المهاجرون والأنصار فبايعوه وبايعه الناس[1]، أما ما أُشيع من أن المدينة بقيت بعد مقتل عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ دون أمير، وكان زعيم المنحرفين المصريين الغافقي بن حرب هو الذي يسير أمور البلاد، وأتباعه يسيطرون عليها، وأهل المدينة لا يقدرون على فعل شيء، والثوار يتحكمون في الأمور، واستمر الوضع على ذلك خمسة أيام؛ فيحتاج إلى تثبت وتتبع لتلك الروايات، وإلا فالصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ لم يتركوا المنحرفين يتصرفون في المدينة تصرفًا مطلقًا.

وفي بعض الروايات عرض أصحاب رسول الله ﷺ الأمر على عليّ بن أبي طالب، فقالوا: نبايعك، فقد ترى ما نزل بالإسلام، وما ابتلينا به. فقال لهم: دعوني والتمسوا غيري، فإنا مستقبلون أمرًا له وجوه وألوان لا تقوم له القلوب

---

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٧٩٦)، ط التوفيقية، والأثر رواه الإمام أحمد في «فضائل الصحابة» (٢/ ٥٧٣) وقال محققه وَصِيُّ الله بن محمد عباس: (إسناده صحيح)، جامعة أم القرى.

ولا تثبت عليه العقول. فقالوا: ننشدك الله، ألا ترى الإسلام؟ ألا ترى الفتنة؟ فقال: قد أجبتكم لما أرى(١).

وذكر **الطبري** رَحِمَهُ ٱللَّهُ بسنده عن أبي بشير العابدي قال: كنتُ بالمدينة حين قُتل عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، واجتمع المهاجرون والأنصار، فيهم طلحة والزبير، فأتوا عليًّا وقالوا: يا أبا الحسن، هلم نُبايعك(٢). فهذا يدل على عدم تخلف طلحة والزبير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا عن بيعة عليّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أما ما يُقال عن تخلفهما ثم بيعتهما مُكرهين فلا يصح بحال، وقد نص على ذلك إمام المحققين ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وبيَّن أنه لا يليق بهما ولا بعليّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ جميعًا(٣)، فكانت بيعة عليّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كبيعة إخوانه من قَبْلُ، مستمدة من رضا الأمة كلها.

الفوائد والدروس والعبر

١- زهد عليّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في الرئاسة؛ لعلمه بثقلها وأنها أمانة ويوم القيامة خزي وندامة لمن ضيعها ولم يقم بحق الله فيها، ففي الدخول فيها خطر عظيم، لذلك امتنع الأكابر منها(٤) ويُستثنَى من ذلك من تعينت عليه؛ كأن يموت الوالي ولا يوجد بعده من يقوم بالأمر غيره.

٢- إجماع الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ على أفضلية عليّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وأحقيته بالإمامة.

٣- أن طلحة والزبير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا كانا من أوائل المبايعين لعليّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ذكر ذلك من المؤرخين بالإضافة إلى الطبري بن الأثير في «أُسْد الغابة» والذهبي في

---

(١) العواصم من القواصم ص ١١، ط مكتبة السنة.

(٢) تاريخ الطبري (٢/ ٧٩٦)، ط التوفيقية.

(٣) العواصم من القواصم ص ١١.

(٤) فتح الباري (١٦/ ٦٣١). بتصرف.

«تاريخ الإسلام»، ومن المُحدثين: ابن أبي شيبة في «المصنف»، والحاكم في «المستدرك» وابن حبان في «الثقات»، وابن العربي في «العواصم»، والمحب الطبري في «الرياض النضرة»، وابن حزم في «الملل والنحل». وكانت بيعتهما من غير إكراه، بل عن طواعية واختيار، كما قال طارق بن شهاب: «إن طلحة والزبير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا بايعا طائعين غيرَ مكرهين»[1] وقال الأشتر: رأيت طلحة والزبير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا بايعا عليًّا طائعين غير مكرهين[2].

٤- إنه لابُد من التفرقة بين مبايعة الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ لعليّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وتخلف بعضهم عن نصرته؛ أما المبايعة فقد تمت بإجماعهم ولم يتخلف أحد إلا معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وأما النصرة فكانت مسألة اجتهادية خالفه فيها بعضهم، ورغم ذلك لم ينزعوا يدًا من يده.

٥- وجوب الخلافة ونصب الأمير وأنها فرض على الكفاية، لذلك سارع الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ إلى ذلك، ولم يتركوا عليًّا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حتى نزل على رأيهم، لأن بقاء الأمة بغير إمام يفضي إلى ظهور الظلم والفساد وتعطيل الحدود والجهاد، ووقوع الحروب والاختلاف بين المسلمين، وغلبة أهل الفسوق والفجور وظهور الكفار وتعطيل الثغور، وذهاب الدين، واستيلاء الملحدين، وسفك الدماء واستباحة الفروج المحرمة[3].

٦- أن المدينة لم تخرج عن قبضة الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، ولم يثبت أن هؤلاء الغوغائيين هم الذين سيروا الأمور وأمسكوا بزمامها، بل بادر الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ إلى تعيين الأمير، وإنما لم يبرز دورهم جيدًا أثناء الفتنة؛ لأن عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ

---

(١) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة، ص ٤١١ د/ محمد أمحزون. بتصرف.

(٢) فتح الباري (١٦/ ٥١٥)، وقال الحافظ: إسناده صحيح.

(٣) منهاج القاصدين في فضل الخلفاء الراشدين، للإمام ابن قدامة، ص ٧٠٩ ط غراس.

هو الذي طلب منهم الكف عن ذلك لعدم إحداث فتنة وإراقة دماء.

٧ - بويع علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالخلافة وإن الأمور لملتوية معتاصة، وإن كلمة الناس لمنتشرة، وإن أهواءهم لشتى، ولقد استقبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خلافته بفتن كقطع الليل المظلم، فاقتحم الغمرات وعقد العزم على أن يجلوها غمرة غمرة، وكان لله في ذلك قضاء سبق، فلم يجد علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بين يوم بيعته ويوم مقتله ساعة خلا فيها من فتنة تُثار، وخوارج تنتفض، ومشكلات تتوالد، وخصوم يتكاثرون، إن همومه ومتاعبه، وما حَمَّل نفسه من أعباء، أخذته حتى عن نفسه التي بين جنبيه(١)، فصار مثالًا عظيمًا لتحمل المسؤلية والتضحية لأجل الدين، حتى لو كان ذلك على حساب نفسه، كما فعل قبله عثمان بن عفان -رضي الله عنهم جميعًا-.

حياته ومناقبه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

هو عليّ بن أبي طالب أمير المؤمنين، ابن عم رسول الله ﷺ وزوج ابنته الزهراء فاطمة، أحد الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، ومن أوائل الذين أسلموا، قال شيخ الإسلام: وأول من أسلم من الرجال الأحرار البالغين أبو بكر، ومن الأحرار الصبيان علي، ومن الموالي زيد بن حارثة، ومن النساء خديجة -رضي الله عنهم جميعًا-، وهذا باتفاق أهل العلم(٢).

وُلد سنة ٢٣ قبل الهجرة، فهو أصغر من رسول الله ﷺ بثلاثين عامًا، كان أصلع الرأس عريض اللحية أخذت مابين منكبيه، فوق الربعة، ضخم المنكبين، عظيم العينين، ضخم عضلة الذراع والساق(٣).

أبوه عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم، ويُكنى بأبي طالب، مات كافرًا.

---

(١) عائشة والسياسة، سعيد الأفغاني، ص ٥٩ ط دار البشاير.

(٢) الفتاوى (٤/ ٤٦٢).

(٣) طبقات ابن سعد (٣/ ٢٤).

وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم، أسلمت وهاجرت.

تربى عليٌّ في بيت رسول الله ﷺ، فكان أول من أسلم من الغلمان، ولم يعرف وثنية[1].

روى الإمام مسلم في صحيحه، عن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما كان لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اسم أحب إليه من أبي تراب، وإن كان ليفرح إذا دعي بها، قال: جاء رسول الله ﷺ بيت فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فلم يجد عليًّا في البيت فقال: أين ابن عمك؟ فقالت: كان بيني وبينه شيء فغاضبني فخرج ولم يَقِلْ عندي، فقال ﷺ لرجل: **انظر أين هو؟** فجاء فقال يا رسول الله: هو في المسجد. فجاء رسول الله ﷺ وهو مضطجع، قد سقط رداؤه عن شقه فأصابه تراب، فجعل رسول الله ﷺ يمسحه ويقول: **قم يا أبا تراب.**

بات في فراش النبي ﷺ لما هاجر؛ يفديه ويُوزع الودائع والأمانات على أصحابها.

ثم هاجر، وكان في المعارك أحد الأبطال البارزين، بارز في غزوة بدر فقتل الوليد بن عتبة، وشارك عَمَّه حمزة في قتل عتبة بن ربيعة، وبعد الغزوة تزوج فاطمة الزهراء.

وفي أُحد لم يكن بأقل من بدر، وفي الخندق تصدى لعمرو بن عبد ود الذي وجلت الأبطال عن منازلته، فخرج يخطر بسيفه ويقول:

قد علمت خيبر أني مَرْحَبُ   شاكي السلاح بطل مُجَرَّبُ
إذا الحروب أقبلت تَلَهَّبُ

---

(١) التاريخ الإسلامي، لمحمود شاكر الحرستاني (٣/ ٢٤٥).

فقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

أنا الذي سمتني أمي حيدرة كليث غاباتٍ كريه المنظرة

أوفيهم بالصاع كَيْلَ السندرة

ففلق رأس مَرْحَبٍ بالسيف وكان الفتح على يديه(1).

وشهد بيعة الرضوان، وحمل لواء المسلمين يوم خيبر، وبقي أميرًا على المدينة يوم تبوك(2).

اختاره النبي ﷺ ليكون قاضيًا على اليمن وهو في عنفوان شبابه مع وفور عقله ورجاحة رأيه، ولا يختار الرسول ﷺ إلا القوي الأمين، وهذا من أعظم مناقبه، وشهد له رسول الله ﷺ بأنه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، فعن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ يوم خيبر «**لأعطين الراية غدًا لرجل يحبه الله ورسوله ويحب الله ورسوله، يفتح الله على يديه**، فبات الناس يدوكون ليلتهم كلهم يرجو أن يعطاها، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ، فقال: **أين علي؟**

وأعلى النبي ﷺ مكانته وقربه منه، حتى قال له: **أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي**.

تُوفي الرسول ﷺ وهو عنه راضٍ، وكان يتوكأ عليه يوم مرضه.

وكان من أول المبايعين لأبي بكر إلا أنه شُغل بتمريض زوجته، فكان يحضر الصلاة وينصرف لتمريضها سريعًا.

ثم لما اختار الصديقُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بايعه عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بل صرح: لا نقبل إلا أن يكون عمر. فكان بجانب عمر وقاضيه.

(1) رواه أحمد في «فضائل الصحابة» (٢/ ٦٠٧)، وقال محققه: «إسناده صحيح».

(2) التاريخ الإسلامي لمحمود شاكر (٣/ ٢٤٦).

وزوّج ابنته أم كلثوم لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكان أحد رجال الشورى الذين اختارهم عمر، ولما اختير عثمان كان أول من بايعه، وكان بجانبه يُدلي برأيه وعثمان يستشيره[١]

ولما حُوصر عثمان كان بجانبه، وخطب في الثوار، وحاول ردهم لكنهم رفضوا، فذهب إلى عثمان وأخبره أن معه خمسمائة دارع ويُريد الدفاع عنه، لكن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رفض ذلك؛ لئلا تُراق نقطة دماء بسببه، وكان أبناء عليّ من المدافعين عن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وبعد مقتل عثمان اختاره الصحابة أميرًا إلا أنه رفض أول الأمر، لكنه مع صعوبة الظروف التي يمر بها المسلمون والإسلام قَبِل مُرغَمًا، إذ كان زاهدًا في الدنيا والرئاسة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه[٢].

لقد كان متعينًا للخلافة بعد عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لفضله على سائر الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لكونه أقدمهم سلمًا، وأوفرهم علمًا، وأقربهم بالنبي ﷺ نسبًا، وأشجعهم نفسًا، وأكثرهم مناقب، وأفضلهم سوابق، وأرفعهم درجة، وأقربهم وسيلة، وأشرفهم منزلة، وأحبهم إلى الله تعالى ورسوله ﷺ، وأشبههم برسول الله ﷺ سمتًا وهديًا،[٣] وهو أفضل الخلق أجمعين بعد النبيين والمرسلين والأئمة الثلاثة المرضيين[٤]، وقد أجمع أهل السنة من السلف والخلف من أهل الفقه والأثر أن عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أفضل الناس بعد عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذا مما لم يختلف فيه[٥].

---

(١) البداية والنهاية (٧/ ٣٨٧).

(٢) التاريخ الإسلامي، (٣/ ٢٤٧) لمحمود شاكر، بتصرف واختصار.

(٣) منهاج القاصدين في فضائل الخلفاء الراشدين، لابن قدامة ص ٧٠٨.

(٤) السابق، ص ٧٠١.

(٥) الرياض النضرة في مناقب العشرة، للمحب الطبري ص ١٢٦ ط دار مكتبة فياض.

يقول ضرار بن ضَمرة الكناني في وصف عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كان بعيد المدى، شديد القُوى، يقول فصلًا ويحكم عدلًا، يستوحش من الدنيا زهرتها، ويأنس بالليل ووحشته، كان غزير الدمعة، طويل الفكرة، يُقلب كفيه ويُخاطب نفسه، يُعجبه من اللباس ما خَشُبَ، ومن الطعام ما جَشُبَ (غَلُظ)، لا يطمع القوي في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله، وأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه، وقد مثل في محرابه قابضًا على لحيته يتململ تململُ السليم (اللديغ)، ويبكي بكاء الحزين، فكأني أسمعه وهو يقول: يا دنيا يا دنيا، إليّ تعرضت أم إليّ تشوفت؟، هيهات هيهات غُري غيري، قد أبنتك ثلاثًا لا رجعة فيها، فعمرك قصير، وعيشك حقير، وخطرك كبير، أهٍ من قلة الزاد وبُعد السفر ووحشة الطريق[1].

الفوائد والدروس والعبر

١- ما كان عليه أمير المؤمنين عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من كثرة العبادة وإخلاصه فيها وصبره عليها، وكذلك ينبغي أن يكون كل قائد ورئيس ومسئول؛ كثير العبادة كثير الصلاة؛ لتستنير بصيرته، فيرى الأمور على حقيقتها.

٢- ما كان عليه أمير المؤمنين عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من زُهد في الدنيا وبُعد عن زخرفها وزينتها، قال الحسن بن صالح بن حي: تذاكروا الزهاد عند عمر بن عبد العزيز، فقال قائل: فلان، وقال قائل: فلان، فقال عمر بن عبد العزيز: أزهد الناس في الدنيا عليّ بن أبي طالب[2] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وذكر الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ أن عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ركب حمارًا ودلى برجليه إلى موضع واحد، ثم قال: أنا الذي أهنت الدنيا[3].

---

(١) ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، لمحب الدين الطبري، ص ٨٧ ط مكتبة القدس - القاهرة.

(٢) تاريخ دمشق، لابن عساكر (٤٢/ ٤٨٩) ط دار الفكر.

(٣) السير (٢٨/ ٢٤٥).

٣- شـدة خوفـه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الله تعالى ورقة قلبه وكثـرة بكائه، فلم تؤثر فيه الخلافة والإمارة رغم زينتها وفتنتها للنفوس، فهو خير قدوة للحكام والرؤساء؛ يُعَلِّمهم كيف يتعامل القائد والأمير في ظل فتنة المُلك وأبهة الرئاسة.

٤- أن عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان من المُدافعين عن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعرض عليه أن يأتيه بخمسـائة دارع للدفاع عنه، لكن عثمان رفـض ذلك لئلا تُراق نقطة دماء بسببه.

عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُباشر مهام الإمارة

في ظـل الأجـواء المُلتهبة والفتن المُتتابعة، رأى علـيّ أن يعمل على إعادة الأمن، ولن يتم الأمن إلا بإبعاد المشـاغبين عـن المدينة، وهذا لن يحدث إلا بأن يستشعر هؤلاء أن النظام قد سيطر على المدينة؛ لأجل ذلك أحب عليّ أن يُغير الولاة، حتى يُحْكِمَ قبضته على الأمصار.

فأرسل إلى البصرة عثمان بن حنيف، فدخلها، وارتحل عنها واليها السابق عبدُ الله بن عامر.

وأبقى على الكوفة أبا موسى الأشعري.

وأرسـل إلـى اليمن ابـن عَمه عُبيد الله بـن عباس، فلما وصلهـا رحل عنها واليها السابق يعلى بن أمية.

وأرسل إلى الشام سهل بن حنيف، لكن خيل معاوية ردته[١].

وولى على مصر قيس بن سعد بن عبادة[٢].

---

(١) التاريخ الإسلامي (٣/ ٢٥٥)، لمحمود شاكر الحرستاني، باختصار.

(٢) البداية والنهاية (٨/ ٣)، ط دار ابن رجب.

وبذلـك عُقدت البيعـة لأمير المؤمنين عليّ بن أبـي طالـب، وخضعت كل الأمصار لقيادته باسـتثناء الشـام التي كان يُسيّر أمورها معاوية، فتأخر في البيعة مُنتظرًا ما تؤول إليه الأمور ووضْع العصاة في المدينة[١].

المُطالبة بثأر عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

لما تمت البيعة لعليّ استأذنه طلحة والزبير في الذهاب إلى مكة فأذن لهما، فالتقيـا هنـاك بأم المؤمنيـن عائشـة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، واجتمع رأيهم علـى الأخذ بثأر عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وجـاء يعلى بن أمية من اليمن، وعبد الله بن عامر من البصرة، واجتمعوا في مكة، وعزموا على الأخذ بثأر عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم جميعًا.

ثـم خرجوا من مكة يُريـدون قتلة عثمان؛ وذلك أنهم يـرون أنهم قصروا في الدفاع عن عثمان.

فقصدوا البصرة، وكان واليها من قِبل عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عثمان بن حنيف، فلما وصلوا البصرة، قال لهم: ماذا تُريدون؟ قالوا: نريد قتلة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فقال لهم: حتى يأتي عليّ. ومنعهم من الدخول[٢].

فخرج إليهم حكيم بن جبلة، وهو أحد الذين شاركوا في قتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان علـى خيل البصرة، فاقتتلوا قتالًا شـديدًا، وقُتـل خلق كثير من أصحاب ابـن حنيف[٣]، فانقسـمت جماعة ابن حنيف، ومـال بعضهم إلى جيش طلحة والزبير وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم.

---

(١) التاريخ الإسلامي(٣/ ٢٥٥)، لمحمود شاكر باختصار.

(٢) السابق (٢ / ٢٥٨)، بتصرف واختصار.

(٣) البداية والنهاية (٣/ ٢٦٢).

وارتفعت وتيرة الأحداث وتقلبت الأمور، وغضبت القبائل لمقتل أبنائها ممن كانوا من الغوغائيين.

عند ذلك خرج عليّ من المدينة إلى الكوفة، لما سمع أنه وقع قتال بين واليه عثمان بن حنيف من جهة، وطلحة والزبير من جهة، وهنا يظهر جليًّا أن طلحة والزبير لم يخرجا على عليّ، ولم يقصدا إلى قتاله كما يدعي المبتدعة ومن تأثر بهم.

معركة الجمل سنة ٣٦ هـ

لم يكن قتال حكيم بن جبلة ومن معه ليحل المشكلة، بل زادها تعقيدًا؛ إذ إن بعض القبائل غضبت لمقتل أبنائها من هؤلاء الغوغائيين.

أما عليّ فلم يتكلم في مقتل هؤلاء؛ لأنه لا صلة بينه وبينهم، وإن كان يرى أن في العجلة الندامة، والقتل السريع يزيد الفرقة، ويؤجج الفتنة.

فأرسل عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ القعقاع بن عمرو إلى البصرة، فكلم عائشة وطلحة والزبير وبيَّن لهم تفرق القوم عنهم بسبب قتل الغوغائيين، وماذا يكون لو حدث هذا في كل مَصْرٍ؟

قالوا: فما رأيك؟

قال: إن هذا أمر دواؤه التسكين واجتماع الشمل، حتى إذا صلح الأمر وهدأت الثائرة وأمن الناس واطمأن بعضهم إلى بعض نظرنا في أمر الذين أحدثوا الفتنة.

فاستحسن القومُ رأيَه، وقالوا: إن رضي عليّ على هذا صالحناه عليه. فرجع القعقاع إلى عليّ راضيًا وأنبأه الخبر، فسُرّ به عليّ أشد السرور[1]، وعن

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٣٣). بتصرف.

ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: أرسلني علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى طلحة والزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يوم الجمل، فقلت لهما: إن أخاكما يقرئكما السلام، ويقول لكما: هل وجدتما عَلَيَّ في حيف في حكم أو في استئثار أو في كذا؟ فقال الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ولا في واحدة منها[١]. فالأمر إذن لا يعدو كونه خلافًا في وجهات النظر؛ فطلحة والزبير يريان أنه لا يجوز ترك القتلة، وعليّ يرى أنه ليس من المصلحة تتبع القتلة الآن، بل حتى تستتب الأمور، فقَتْلُ القتلة متفق عليه، والخلاف إنما هو في توقيت ذلك.

عليّ وإرادة الإصلاح

قصد عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ البصرة من أرض العراق، واستنفر أهل الكوفة ليلحقوا به، فاستجاب له كثير منهم، وعلى رأسهم الحسن بن عليّ وعمار بن ياسر، وقدموا على عليّ بذي قار وهي قريبة من الكوفة، وقال لهم: يا أهل الكوفة أنتم لقيتم ملوك العجم وفضضتم جموعهم، وقد دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة، فإن يرجعوا فذاك الذي نريده، وإن أبوا داويناهم بالرفق حتى يبدأونا بالظلم، ولن ندع أمرًا فيه صلاح إلا آثرناه على ما فيه الفساد إن شاء الله[٢]. وهذا يدل على أن عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان مقصده الأول والأخير: هو طلب الإصلاح، وأن القتال غير محبب إليه، لا سيما مع إخوانه البررة من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وكذلك كان مقصد أم المؤمنين وطلحة والزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فقد روى ابن حبان أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كتبت إلى أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو والي الكوفة من قِبَلِ علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنه قد كان من أمر عثمان ما قد سمعت، وقد خرجت مُصلحة بين الناس، فمُر مَن قِبلك بالقرار في منازلهم والرضا بالعافية حتى يأتيهم ما يحبون

---

(١) رواه أحمد في «فضائل الصحابة» (٢/ ٥٩٦)، وقال المحقق: «إسناده صحيح».

(٢) تاريخ الطبري (٣/ ٣٩).

من صلاح أمر الناس»[1]. ويقول ابن العربي: وأما خروجها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إلى حرب الجمل، فما خرجت لحرب ولكن تعلق الناس بها، وشكوا إليها ما صاروا إليه من عظيم الفتنة وتهارج الناس، ورجوا بركتها في الإصلاح، وطمعوا في الاستحياء منها إذا وقفت إلى الخلق، وظنت هي ذلك، فخرجت عاملة بقوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾، ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾[2] وقال طلحة والزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إن هذا الأمر لم يكن قبل اليوم فينزل فيه القرآن ويكون فيه سنة من رسول الله ﷺ، وقد زعم قوم أنه لا يجوز تحريكه - يعني القصاص - وهو عليّ ومن معه، وقلنا نحن: لا ينبغي لنا أن نتركه ولا نؤخره، وقد قال عليٌّ: ترك هؤلاء القوم شر وهو خير من شر منه، وقد كاد يتبين لنا، وقد جاءت الأحكام بين المسلمين بإيثار أهمها منفعة وأحوطها[3].

فقد ظن طلحة والزبير وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أن القضاء على قتلة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كفيل في الإصلاح بين معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومن معه في الشام، وبين عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومن معه في المدينة، والتئام حال المسلمين.

السبئية يُشعلون المعركة

بعدما كلم القعقاع عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بالصلح، ورضي الفريقان، وظهرت في الأفق بوادر الاجتماع والألفة، فلما نزل الناس واطمأنوا خرج علي وخرج طلحة والزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فتوافقوا وتكلموا فيما اختلفوا فيه، فلم يجدوا أمرًا هو أمثل من الصلح[4]، وبات المعسكران على أحسن حال من الرضا، فأزعج

---

(١) ابن حبان «الثقات» (٢/ ٢٨٢) نقلاً عن تحقيق مواقف الصحابة، ص ٤٣٦، د/ محمد أمحزون.

(٢) أحكام القرآن (٣/ ٥٦٩) ط دار الكتب العلمية.

(٣) تاريخ الطبري (٣/ ٢٣٨).

(٤) السابق (٣/ ٢٤٦).

ذلـك المنافقيـن من أتباع ابن سـبأ، فعملوا على إشـعال نـار الحرب؛ حتى لا يجتمع الصحابة فيسهل القضاء عليهم.

يقـول ابـن حـزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فقد صح ضـرورة لا إشـكال فيها أنهـم - يعني عائشـة وطلحـة والزبير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ- لـم يمضوا إلـى البصرة لحـرب عليّ، ولا خلافًـا عليه ولا نقضًـا لبيعته... فصح أنهم إنما نهضوا إلى البصرة لسـد الفتق الحادث في الإسلام من قتل أمير المؤمنين عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ظلمًا، وبرهان ذلك أنهـم اجتمعـوا ولم يقتتلوا ولا تحاربـوا، فلما كان الليل عـرف قتلة عثمان أن الإراغة (الطلب) والتدبير عليهم، فبيتوا عسـكر طلحة والزبير وبذلوا السـيف فيهم، فدفع القوم عن أنفسـهم في دعوى حتى خالطوا عسكر عليّ، فدفع أهلُهُ عن أنفسـهم، وكل طائفة تظن ولا شـك أن الأخرى بُديء بها القتال، واختلط الأمر اختلاطًا لم يقدر أحد على أكثر من الدفاع عن نفسـه، والفسـقة من قتلة عثمان لا يفترون من شن الحرب وإضرامه، فكلتا الطائفتين مُصيبة في غرضها ومقصدها، مُدافعة عن نفسها[(١)]».

ويؤكـد ذلـك الباقلاني بقوله: وقال جلة من أهل العلـم: إن الوقعة بالبصرة بينهم كانت على غير عزيمة على الحرب بل فجأة، وعلى سبيل دفع كل واحد مـن الفريقين عن أنفسـهم لظنه أن الفريق الآخر قد غـدر به، لأن الأمر كان قد انتظـم بينهم وتم الصلح والتفرق على الرضـا، فخاف قتلة عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ من التمكـن منهم والإحاطة بهم، فاتفقـوا على أن يفترقوا فرقتين ويبدأوا بالحرب سحرة في العسكرين، وتم لهم ذلك على ما دبروه، ونشبت الحرب، فكان كل فريق منهم دافعًا عن نفسه[(٢)].

---

(١) الفِصل في الملل والأهواء والنحل، (٤/ ١٢٣) ط مكتبة السلام العالمية.

(٢) التمهيد في الرد على الملاحدة ص ٥٥٣ ط مؤسسة الكتب الثقافية.

ويقول شيخ الإسلام: فإنهم قد اتفقوا على المصالحة وإقامة الحدود على قتلة عثمان، فتواطأت القتلة على إقامة الفتنة، فحملوا على طلحة والزبير وأصحابهما، فحملوا دفعًا عنهم، وأشعروا عليًّا أنهما حملا عليه، فحمل عليٌّ دفعًا عن نفسه، وكان كل منهما قصده دفع الصيال لا ابتداء القتال[١].

ويقول ابن كثير: وعندما أشرف عليٌّ من جهة، وطلحة والزبير وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من جهة أخرى على الصلح، وبعدما نادى علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأنه مرتحل فلا يرتحل معه أحد أعان على قتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، اجتمع رؤوس الخوارج كالأشتر النخعي، وابن سبأ، وانتهى أمرهم إلى الأخذ برأي ابن سبأ، وهو أن يثيروا الحرب بين المعسكرين في الغلس[٢].

الفوائد والدروس والعبر

١ - يتضح مما سبق أن خروج الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إلى البصرة لم يكن لقتال بعضهم بعضًا، سواء طلحة والزبير وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، أم علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وإنما كان خروجهم بقصد الإصلاح وجمع الكلمة بعدما وقعت الفتنة واختلف الناس.

٢ - أن أثر السبئية في معركة الجمل وإشعال فتيل الحرب مما يكاد يجمع عليه المؤرخون والعلماء، سواء أطلقوا عليهم اسم «الغوغاء» أو «المفسدين» أو «الأوباش» أو «أصحاب الأهواء» أو أسماهم البعض «قتلة عثمان»أو أطلقوا عليهم صراحة «السبئيين»[٣]

بدأت المعركة من الظهيرة وحتى مغيب الشمس، وقُتل في هذا اليوم عدد من المسلمين.

---

(١) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة، ص ٤٤٤. محمد أمحزون

(٢) منهاج السنة (٧/ ١٩٤).

(٣) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة، ص ٤٤٤. محمد أمحزون.

وقُتل طلحة والزبير ومحمد بن طلحة؛ أما الزبير فلم يشارك في هذه المعركة، وقُتل غدرًا على يد رجل يقال له ابن جرموز،[١] وقد ذُكر أن عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خلا بالزبير يوم الجمل، فقال له: أَنْشُدُكَ الله هل سمعت رسول الله ﷺ يقول وأنت لاوي يدي: **لتقاتلنه وأنت ظالم له، ثم لينصرن عليك**؟ قال: قد سمعت، لا جرم، لا أقاتلك[٢]. فانصرف، فلما كان في مكان يقال له «وادي السباع» قتله ابن جرموز غدرًا، فقبحه الله تعالى[٣].

وأما طلحة فقُتل بسهم غَرِب (غير مقصود) في قدمه مكان إصابة قديمة، فمات رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولما انتهت المعركة وقد قُتل بعض المسلمين في الدفاع عن جمل أم المؤمنين عائشة؛ لأنه يعتبر رمزًا، لذا لما سقط انتهت المعركة، وانتصر عليّ، وإن كان الصحيح أنه لم ينتصر أحد، ولكن خسر الإسلام والمسلمون في تلك المعركة.

فلما انتهت المعركة صار عليّ بين القتلى، فبعد أن وجد طلحة بين القتلى، أجلسه ومسح عنه التراب، وقال له: عزيزٌ علَيَّ أن أراك مجدّلًا تحت نجوم السماء أبا محمد. وبكى كثيرًا، وقال: وددت أني مت قبل هذا بعشرين سنة[٤].

وكذلك بكى لما رأى محمد بن طلحة الملقب بالسجاد لكثرة صلاته، رآه بين القتلى، فرحم الله الجميع ورضي عنهم.

ثم دخل ابن جرموز على عليّ، وقال: قتلتُ الزبير، ومعه سيف الزبير. فقال عليّ: إن هذا السيف لطالما فرج عن رسول الله ﷺ الكرب، ثم قال: بشر قاتل

---

(١) التاريخ الإسلامي (٣/ ٢٦٤)، باختصار، لمحمود شاكر.

(٢) فتح الباري (١٦/ ٥١٧) ط دار طيبة.

(٣) تاريخ خليفة ص ١٣٥.

(٤) تاريخ الإسلام للذهبي، عهد الخلفاء الراشدين ص ٥٢٨.

ابن صفية بالنار[١]. ولم يأذن له بالدخول عليه.

ولما انتهت المعركة أخذ عليّ أم المؤمنين وأرسلها معززة إلى مدينة رسول الله ﷺ كما أمره ﷺ، فعن عليّ قال: قال رسول الله ﷺ: **«سيكون بينك وبين عائشة أمر»**، قال فأنا أشقاهم يا رسول الله؟، قال: **«لا، ولكن إذا كان ذلك فارددها إلى مأمنها»**[٢]، وقد أخرج الطبري بسند صحيح عن أبي يزيد المديني قال: قال عمار بن ياسر لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم لما فرغوا من الجمل: «ما أبعد هذا المسير من العهد الذي عُهد إليكم - يشير إلى قوله تعالى ﴿ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ ﴾ قالت: أبو اليقظان؟ قال: نعم. قالت: والله إنك ما علمتُ لقوال بالحق. قال: الحمد لله الذي قضى لي على لسانك»[٣]، وقد وقع في رواية إسحاق بن راهوية في مسنده عن يحيى بن آدم بسند حديث الباب: «ولكن الله ابتلانا بها ليعلم أنطيعه أم إياها»[٤]، وقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هذا يدل على ندمها على خروجها، لذلك كانت تبكي كلما تذكرت ذلك.

ثم دخل عليّ البصرة فعفا عن المسيء، وواسى المنكوب، ووزع الأموال على الغالب والمغلوب، ثم ولّى عليها عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم جميعًا.

الفوائد والدروس والعبر

١- رغم ما حدث من اقتتال بين الطرفين إلا أن الحب والألفة والأخوة الإيمانية لا زالت تجمع بين الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم، فالأمر لا يعدو كونه اختلافًا في وجهات النظر بين المجتهدين.

---

(١) الترمذي، وقال الألباني: «حسن صحيح» برقم (٣٧٤٤) بلفظ مقارب، موقوفًا على عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه أحمد، وقال الحافظ في الفتح: سنده حسن (١٦/ ٥١٦) ط دار طيبة.

(٣) قال الحافظ : فى (الفتح ١٦/ ٥٢٢) : سنده صحيح.

(٤) البخاري، كتاب الفتن.

فقد روى البخاري في الصحيح، عن أبي وائل، قال: دخل أبو موسى الأشعري وأبو مسعود عقبة بن عمرو الأنصاري على عمار حين بعثه عليّ إلى أهل الكوفة يستنفرهم، فقالا: ما رأيناك أتيت أمرًا أكره عندنا من إسراعك في هذا الأمر مذ أسلمت. فقال عمار: ما رأيت منكما منذ أسلمتما أمرًا أكره عندي من إبطائكما في هذا الأمر. وكساهما حلة، ثم راحوا إلى المسجد، وفي رواية: فقال أبو مسعود -وكان موسرًا-: يا غلام هاتِ حلتين فأعط إحداهما أبا موسى، والأخرى عمارًا، وقال: روحا فيها إلى الجمعة[١].

أ- قال الحافظ: قال ابن بطال: فيما دار بينهم دلالة على أن كلًّا من الطائفتين كان مجتهدًا ويرى أن الصواب معه، قال: وكان أبو مسعود موسرًا جوادًا، وكان اجتماعهم عند أبي مسعود في يوم الجمعة، فكسا عمارًا حلة ليشهد بها الجمعة، لأنه كان في ثياب السفر وهيئة الحرب، وكره أن يكسوه في حضرة أبي موسى ولا يكسو أبا موسى، فكسا أبا موسى أيضًا، رضي الله عنهم جميعًا[٢].

ب- جعل كل منهم الإبطاء والإسراع عيبًا بالنسبة لما يعتقده، فعمار لما في الإبطاء من مخالفة الإمام وترك امتثال ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي﴾ والآخران لما ظهر لهما من ترك مباشرة القتال في الفتنة، وكان أبو مسعود على رأي أبى موسى رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا في الكف عن القتال تمسكًا بالأحاديث الواردة في ذلك[٣].

٣- أعرضتُ عن ذكر تفاصيل كثيرة لعدم ثبوتها، ولكن أشير إلى بعض ما اشتهر منها بين الناس وفي كتب التاريخ، فمن ذلك:

---

(١) البخاري، كتاب الفتن.

(٢) فتح الباري (١٦/ ٥٢٣).

(٣) السابق (١٦/ ٥٢٣).

أ- ما قيل من أن عدد القتلى في معركة الجمل بلغ عشرين ألفًا، وقد بالغ أبو مخنف الرافضي الشيعي وجعلهم من أهل البصرة، وليس ذلك إلا لإيهام الأجيال بأن دائرة الخلاف والشقاق بلغت الذروة بين الصحب الكرام، وليس كذلك ولله الحمد؛ فإن جيش علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يصل إلى عشرة آلاف، فقد روى الطبري عن محمد بن الحنفية قال: أقبلنا من المدينة بسبعمائة رجل، ورحل إلينا من الكوفة سبعة آلاف وانضم إلينا من حولنا ألفان أكثرهم من بكر بن وائل،[١] أما زمن المعركة فكان قصيرًا، فقد بدأت بعد الظهر وانتهت قبل غروب الشمس، فقد روى ابن أبي شيبة في مصنفه (١٥/ ٢٨٦) عن زيد بن وهب، قال: فكف عليّ يده حتى بدأوه بالقتال، فقاتلهم بعد الظهر حتى غربت الشمس وماحول الجمل أحد[٢]، مع ما أورده خليفة بن خياط من أسماء مَن قُتل فكانوا قريبًا من مائة،[٣] يضاف إلى ذلك أن كل فريق كان متحرجًا من قتال الآخر، بل واستقر الأمر على الصلح قبل أن يشعل السبئيون الحرب، كل ذلك يدل على أن أعداد القتلى قليلة وليسوا كما يصورهم المبغضون.

ب - ما قيل من تحريض طلحة والزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا على القتال مما لا يصح أيضًا؛ إذ إنهما ومعهما عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ما خرجوا لأجل القتال، بل أرادوا الصلح، ثم إن الزبير اعتزل المعركة وقتله ابن جرموز بعيدًا عن أرض الميدان، أما طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فجاءه سهم غَرْبٌ فقتله، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جميعًا.

جـ- ما قيل من قتل مروان بن الحكم لطلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضًا مما لا يصح، فقد قال ابن العربي رَحِمَهُ اللَّهُ: ومن يعلم هذا إلا علام الغيوب، ولم ينقله ثبت[٤]،

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ١٠، ٣٣). بتصرف.

(٢) فتح الباري (١٦/ ٥٢٠)، وقال الحافظ: «سنده صحيح».

(٣) تاريخ خليفة بن خياط، ص ١٤٠.

(٤) العواصم من القواصم ص ١٢٦، ط مكتبة السنة.

وقال محب الدين الخطيب: وهذا الخبر عن طلحة ومروان «لقيط» لا يُعرف أبوه ولا صاحبه.

٤ - ما ظهر من فقه علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعلمه في قتال أهل القبلة من استدعائهم ومناظرتهم وترك مبادأتهم والنبذ إليهم قبل نصب الحرب معهم وندائه: «لا تبدؤوهم بالحرب حتى يبدؤوكم، ولا يُتَّبَع مدبر، ولا يجهز على جريح، ولا يكبس بيت، ولا تُهَجْ امرأة» ورده رحالات القوم إليهم، وترك اغتنام أموالهم وكثرة تعريفه وندائه على ما حصل في قبضته من أموالهم، وكثرة الأمر لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وغيره بقبول شهادة أهل البصرة وصفين إذا اختلطوا ووضعت الحرب أوزارها والصلاة خلفهم، وقوله لمن سأل عن ذلك: «ليس في الصلاة والعدالة اختلفنا، وإنما اختلفنا في إقامة حد من حدود الله، فصلوا خلفهم واقبلوا شهادة العدول منهم» إلى غير ذلك مما سَنَّهُ من حرب المسلمين حتى قال جلة أهل العلم: لولا حرب عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمن خالفه لما عرفت السنة في قتال أهل القبلة[1].

لماذا لم يقتل عليَ قتلة عثمان؟

١ - يبدو من أول وهلة أن الموقف الذي بنى عليه عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سياسته تجاه قتلة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو الأناة والتريث والكياسة، إذ كان يفهم أبعاد الموقف تمامًا، ويعرف ما يجب أن يفعل وما يجب أن يترك في مثل هذه الظروف، فقام يبين للمطالبين بدم عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وجهة نظره في تأجيل ذلك الأمر، قائلًا في حوار هادئٍ «يا إخوتاه، إني لست أجهل ما تعلمون، ولكن كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم؟!» وأوضح أنه لا يخالفهم في شناعة ما فعله

---

(١) الباقلاني، «تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل» ص ٥٤٧، ط مؤسسة الكتب الثقافية.

هؤلاء، فقال: «والله لا أرى إلا رأيًا ترونه، إن هذا الأمر أمر جاهلية وإن لهؤلاء القوم مادة، وذلك أن الشيطان لم يشرع شريعة قط فيبرح الأرض من أخذ بها أبدًا»، وزاد في التوضيح فأخبرهم أن الناس مختلفون وليسوا على رأي واحد، فقال: «إن الناس في هذا الأمر فرقة ترى ما ترونه، وفرقة ترى ما لا ترون، وفرقة لا ترى هذا ولا ذاك» يعني محايدون، ثم بين موقفه النهائي بقوله: «حتى يهدأ الناس، وتقع القلوب مواقعها، وتؤخذ الحقوق، فأهدأوا عني»[١].

٢ - ويوضح الهيتمي موقف علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقوله: «فامتنع عليّ ظنًّا منه أن تسليمهم قتلة عثمان - يعنى إلي معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومن معه- على الفور مع كثرة عشائرهم واختلاطهم بعسكر عليّ يؤدي إلى اضطراب وتزلزل في أمر الخلافة التي بها انتظام كلمة أهل الإسلام، سيما وهي في ابتدائها لم يستحكم الأمر فيها، فرأى عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن تأخير تسليمهم أصوب إلى أن يرسخ قدمه في الخلافة، ويتحقق التمكن في الأمور فيها على وجهها ويتم له انتظام شملها واتفاق كلمة المسلمين،[٢] ويقول الإمام الباقلاني: وعَلَى أنه إذا ثبت أن عليًّا ممن يرى قتل الجماعة بالواحد فلم يجز أن يقتل جميع قتلة عثمان إلا بأن تقوم البينة على القتلة بأعيانهم، وبأن يحضر أولياء الدم مجلسه، ويطلبوا بدم أبيهم ووليهم، وبأن يؤدي الإمامَ اجتهادُه إلى أن قتل قتلة عثمان لا يؤدي إلى هرج عظيم وفساد شديد، وإن تأخير إقامة الحد إلى وقت إمكانه وتقصي الحق فيه أولى وأصح للأمة، وألم لشعثهم وأنفى للفساد والتهمة عنهم»[٣]، وقد ترك النبي ﷺ جلد ابن سلول في حادث الإفك درءً للمفسدة الكبرى، كذلك فعل علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

---

(١) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة ص ٤٢٩ وقد نقل عن الطبري.

(٢) ابن حجر الهيتمي «الصواعق المحرقة» ص ٥٨٥ ط فياض - المنصورة.

(٣) الباقلاني «تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل» ص ٥٥١، ط مؤسسة الكتب الثقافية.

معركة صفين عام ٣٧ هـ

لما أنتهى عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من وقعة «الجمل» انصرف من البصرة، وحين عسكر في «صفين» سلك مع أهل الشام نفس الأسلوب الذي سلكه مع أهل «الجمل»، فأرسل وفدًا إلى معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيهم بشير بن أبي مسعود الأنصاري، فقال لمعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أدعوك إلى تقوى ربك وإجابة ابن عمك إلى ما يدعوك إليه من الحق، فإنه أسلم في دينك وخير لك في عاقبة أمرك. فقال معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ويطلّ دم عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؟ لا والله، لا أفعل ذلك أبدًا»(١)، ثم أرسل علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جرير بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثانية إلى معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فكلم معاوية، وعَظَّم أمر علي ومبايعته، واجتماع الناس عليه، فأبى أن يبايعه، وجرى بينه وبين جرير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كلام كثير، فانصرف جرير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فأجمع على المسير إلى الشام، وبعث معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أبا مسلم الخَوْلاني إلى عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأشياء يطلبها، منها أن يدفع إليه قتلة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأبى عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثم سار كل منهما يريد الآخر، فالتقوا بصفين،(٢) وأقام الفريقان عدة أيام يلتقون على الماء، ويسعى بعضهم إلى بعض، وربما يسمرون معًا دون قتال، ولكنها مناقشات تحدث، فليس هناك خصومة عنيفة كما يحلو لأصحاب القلوب المريضة أن يصوروا، لكنه خلاف في وجهات النظر، وأخوة غير ظاهرة بسبب ذلك التباين في الاجتهاد(٣).

(١) الطبري (٣/ ٨٩).
(٢) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، للحافظ الذهبي (٣/ ٥٨٣)، دار الكتاب العربي.
(٣) التاريخ الإسلامي، لمحمود شاكر (٣/ ٢٦٩) باختصار.

ولـم يكن القتال بالشـكل الكاسـح، لكن كانـت تتقدم فرقة إلـى فرقة لعل الله يصلح بينهم، واسـتمر ذلك لمدة شـهر ذي الحجة، وأهلّ المحرم فتوقف القتال، وتصافوا لعلهم يصطلحون، وكثر السفراء لكن دون جدوى[١].

وكانـوا إذا تحاجـزوا دخـل هـؤلاء في عسـكر هـؤلاء، وهؤلاء في عسـكر هؤلاء[٢].

من ذلك يتضح أنه لو كان هناك حقد بينهم فهل يترك مجالًا للصلح والتضامن وتأخير القتال كل هذه المدة؟ كلا، فالنفوس طيبة والقلوب منعقدة على المحبة الصادقـة، لذا تسـتغل أية فرصة لإتمام الصلح، ولكن بقـي كل فريق على رأيه، فنشب القتال في أول صفر واستمر عدة أيام، ولم يمنع معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومن معه المـاء عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومـن معه ولم يقتتلـوا عليه كما ادعى الشـيعة وغيرهم ذلـك، بل أورد عبد الله بن الإمام أحمد رواية تنسـف هـذه المزاعم من أصلها، فقـد روى عـن أبي الصلت سـليم الحضرمي، قال: حُلْنا بين أهـل العراق وبين الماء، فأتانا فارس، ثم حسـر، فإذا هو الأشعث بن قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: اللهَ اللهَ يا معاوية في أمة محمد ﷺ هبوا أنكم قتلتم أهل العراق، فمن للبعوث والذراري؟ أم هبـوا أنا قتلناكم، فمن للبعوث والذراري؟ إن الله تعالى يقول: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ﴾ قال معاويـة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فما تريد؟ قال: خلوا بيننا وبين الماء. فقال لأبي الأعور: خل بين إخواننا وبين الماء.[٣] ثم اشـتعلت الحرب، وقُتل عدد من الفريقين؛ قُتل عمار وهاشـم بن عتبة بن أبي وقاص من أصحاب عليّ، وعبيد الله بن عمر من أصحاب معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جميعًا.

---

(١) التاريخ الإسلامي(٤/ ٢٦٩)، لمحمود شاكر بتصرف واختصار.

(٢) البداية والنهاية (٨/ ٥٨).

(٣) السير (٢/ ٤١).

وكان خزيمة بن ثابت مع علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وكان مع ذلك لا يقاتل، فلما قُتل عمار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قاتل حينئذ، وَحدَّث بحديث: «يقتل عمارًا الفئةُ الباغية»أخرجه أحمد وغيره[1].

ثم رفعت المصاحف على أسنة الرماح، وتوقف القتال وقد بالغت الروايات الضعيفة والمنكرة في عدد القتلى في «صفين» كما بالغت في عددهم في «الجمل» وقد أورد بعض المؤرخين أنهم ثلاثة وستون[2] وحتى لو تضاعف هذا العدد فليس بكثير، ويؤيده أن الطرفين تحرجا من الدماء، ولم تكن حربًا كاسحة.

ورجع عليّ إلى الكوفة، ومعاوية إلى الشام، على أن يكون التحكيم في شهر رمضان، وأرسل عليّ أبا موسى الأشعري، ومعاويةُ عمرو بن العاص، رضي الله عن الجميع.

لكن عليًّا لم يرجع بجيشه كله إلى الكوفة، بل اعتزله قوم لم يرضوا بقضية التحكيم إلى حروراء، وصاحوا: «لا حَكَم إلا الله»، فقال عليّ: «كلمة حق أريد بها باطل».

فأرسل إليهم ابن عباس فناظرهم، فرجع منهم عدد كبير، وبقي آخرون فكانوا رأس الخوارج.

أما قضية التحكيم المشهورة فلا تخلو من روايات ضعيفة وموضوعة، فورد أن عمرو بن العاص اتفق مع أبي موسى على عزل عليًّا ومعاوية، فصعد أبو موسى المنبر، وقال: إني أنزع عليًّا من الخلافة كما أنزع خاتمي هذا، ثم نزع خاتمه.

(١) الخلافة الراشدة والدولة الأموية من فتح الباري، ص ٥٢٨.
(٢) أورد ذلك خليفة بن خياط ص ١٤٨.

وقام عمرو فقال: وأنا أنزع عليًّا كذلك، وأُثَبِّتُ معاوية كما أثبت خاتمي هذا، فصار اللغط وخرجا ولم يتفقا.

لا شك في كذب هذه القصة؛ فهي من رواية أبي مِخْنف الكذاب الوضاع الرافضي الحاقد.

أما القصة الصحيحة فقد رواها البخاري بسند صحيح في تاريخه أن عمرو بن العاص قال لأبي موسى: ما ترى في هذا الأمر؟ فقال أبو موسى: أرى أنهم من النفر الذين تُوفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ.

فقال عمرو: فأين تجعلني أنا ومعاوية؟ قال أبو موسى: أن يُستعن بكما ففيكما المعونة، وإن يستغن عنكما فطالما استغنى أمر الله عنكما. ثم انتهى الأمر،[1] على أن يُجعل الأمر شورى بين من بقي من أكابر الصحابة من أهل بدر ونحوهم[2].

ولا شك في كذب الرواية الأولى لعدة أمور:

أولا: ضعف السند، ففيه أبو مخنف الكذاب.

ثانيًا: أن معاوية لم يكن ينازع عليًّا الخلافة حتى يقوم عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بنزعه وعزله، فعن أبي مسلم الخولاني أنه دخل على معاوية فقال له: أأنت تُنازع عليًّا، أأنت مثله؟

فقال معاوية: لا والله، إني لأعلم أن عليًّا أفضل وأحق بالأمر، ولكن ألستم تعلمون أن عثمان قُتل مظلومًا؟ وأنا ابن عمه وأنا أطلب بدمه، فأْتوا عليًّا فقولوا له فليدفع لنا قتلة عثمان، وأنا أُسلم له الأمر[3].

---

(١) حقبة من التاريخ ص ١٢٢ لعثمان الخميس.

(٢) فتح الباري (٩/ ٤٧٩)، وقد نقل ذلك عن ابن العربي رَحِمَهُمَا اللَّهُ.

(٣) السابق (١٦/ ٥٦٦) وقال الحافظ: سنده جيد.

الفوائد والدروس والعبر

١-لـم يقع في قضية التحكيم خداع ولا مكر من عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولم تقع غفلة وعدم فطنة من أبي موسـى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأن في اختيارهما مـن قبل علـي ومعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فضيلة ظاهرة، وإشـارة إلى قدرتهما على حل المعضلات وحقن الدماء.

قـال ابن كثير: والحكمـان كانا من خير الصحابة، وإنمـا نُصبا ليصلحا بين الناس ويتفقا على أمر فيه رفق بالمسلمين وحقن دمائهم وكذلك وقع[1].

وقـد ولى النبي ﷺ أبا موسـى ومعاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا على اليمـن كل واحد على مخـلاف، وأوصاهما أن ييسـرا ولا يعسـرا، وأن يبشـرا ولا ينفـرا،[2] قال ابن حجر: واستُدِل به علي أن أبا موسى كان عالمًا فطنًا حاذقًا، ولولا ذلك لم يوله النبـي ﷺ الإمـارة، ولذلك اعتمد عليه عمر ثـم عثمان ثم علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وأما الخوارج والروافض فقد طعنوا فيه ونسبوه إلى الغفلة وعدم الفطنة[3].

٢-إنّ وقعـة صفين كانت مـن أعجب الوقائع بين المسـلمين لقد كانت معركة فريدة في بواعثها وفي طريقة أدائها؛ فكان المتقاتلون إخوة يذهبون معًا إلى مكان ما فيستقون جميعًا ويزدحمون وهم يغترفون الماء وما يؤذي إنسان إنسانًا، وهم إخوة يتعايشون معًا عندما يتوقف القتال، فكان الرجلان يقتتلان حتى يثخنا، ثم يجلسان يستريحان ويدور بينهما الكلام الكثير، فإذا حان وقت الصلاة توقفوا لأدائها[4].

---

(١) البداية والنهاية (٦/ ٢٤٥).

(٢) البخاري، كتاب الجهاد والسِّيَر.

(٣) فتح الباري (٩/ ٤٧٩).

(٤) أحداث الفتن السياسية في عصر الخلافة الراشدة والدولة الأموية د/ زين العابدين كامل ص ٢٤٨ باختصار.

يقول محب الدين الخطيب: ومع ذلك فإن هذه الحرب المثالية هي الحرب الإنسانية الأولى في التاريخ التي جرى فيها المتحاربان معًا على مباديء الفضائل التي يتمنى حكماء الغرب لو عُمل بها في حروبهم، وإن كثيرًا من قواعد الحرب في الإسلام لم تكن لتُعلم لولا وقوع هذه الحرب، ولله في كل أمر حكمة[١]

الذين شهدوا هذه المعارك من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

شهد مع علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من البدريين: عمار، وسهل بن حُنيف، خوات بن جبير، أبو سعد الساعدي، أبو اليسر، رفاعة بن رافع، أبو أيوب، وممن لم يشهد بدرًا: خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين، قيس بن سعد بن عبادة، أبو قتادة، سهل بن سعد، قَرَظة بن كعب، جابر بن عبد الله، ابن عباس، الحسن، الحسين، عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، أبو مسعود عقبة بن عمرو، أبو عياش الزرقي، عدي بن حاتم، الأشعث بن قيس، سليمان بن صُرَد، جندب بن عبد الله، جارية بن قدامة السعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ[٢].

وكذلك حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقد قال الحافظ: بايع لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وحرض على المبايعة له والقيام في نصره، ومات في أوائل خلافته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣]، وشهد صفين مع معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عمرو بن العاص، ابنه عبد الله، فضالة بن عبيد الأنصاري، مسلمة بن مخلد، النعمان بن بشير، معاوية بن حُدَيْج، أبو غادية الجهني، حبيب بن مسلمة الفهري، أبو الأعور السلمي، بسر بن أرطأة العامري[٤].

---

(١) «العواصم من القواصم» ص ١٣٢.

(٢) سير أعلام النبلاء (٢٨/ ٢٦٨).

(٣) فتح الباري (١٦/ ٤٩٢).

(٤) سير أعلام النبلاء (٢٨/ ٢٦٨).

يتبين بذلك أن عدد الصحابة الذين حضروا المعركتين قليل بحمد الله، وهم مع حضورهم هذا لم يقاتل أحد منهم إلا باجتهاد، وبذلك يتبين كذب تلك الدعاوى التي تُظهر الحرب بأنها قد جرت بين جمهور الصحابة، وقد ذكر ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في منهاج السنة ما يدل على قلة عددهم، فذكر عن عبدالله بن أحمد، قال: حدثنا أبي، حدثنا اسماعيل (يعني ابن عُلَيَّة) حدثنا أيوب السختياني عن محمد بن سيرين قال: «هاجت الفتنة وأصحاب رسول الله ﷺ عشرة آلاف، فما حضرها منهم مائة، بل لم يبلغوا ثلاثين». قال ابن تيمية وهذا إسناد من أصح الأسانيد على وجه الأرض، وقال الشعبي: «لم يشهد الجمل من أصحاب رسول الله ﷺ غير عليّ وعمار وطلحة والزبير، فإن جاءوا بخامس فأنا كذاب». قال ابن تيمية: أما جمهور الصحابة وجمهور أفاضلهم فلم يدخلوا في فتنة[1].

وقول الشعبي هذا على سبيل المبالغة في تقليل العدد، وإلا فالمشاركون أكثر من ذلك بلا شك.

الذين امتنعوا عن المشاركة

سعد بن أبي وقاص، سعيد بن زيد، ابن عمر، محمد بن مسلمة، أسامة بن زيد، أبو هريرة، زيد بن ثابت، عمران بن حصين، أنس، أبو بكرة، الأحنف بن قيس، أبو أيوب، أبو مسعود الأنصاري، الوليد بن عقبة، سعيد بن العاص، عبد الله بن عامر، ابن عمرو، أبو برزة، سلمة بن الأكوع، بل معظم الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ[2].

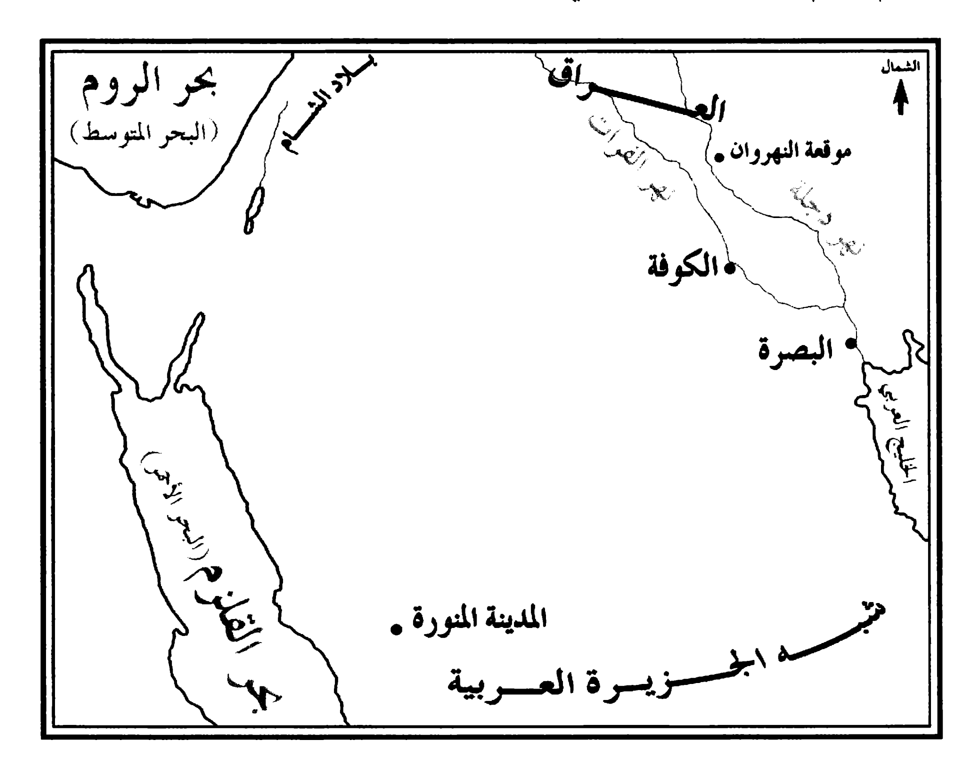
---

(١) منهاج السنة (٦/ ١٢٩).

(٢) حقبة من التاريخ، ص ١٢٢ لعثمان الخميس.

معركة النهروان عام ٣٨ هـ

لما رجع عليّ إلى الكوفة خرج عليه الخوارج قائلين: «لا حَكَم إلا الله»، وبدأوا يشغبون على عليٍّ حتى في المسجد، واجتمع هؤلاء بمكان يُسمى «النهروان»، وبدأوا يراسلون الناس الذين هم على مذهبهم في مختلف الأماكن، فأرسل إليهم أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عبدَالله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُناظرهم، فرجع معه عدد كبير، وأصر الباقي على موقفه، فخرج إليهم عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في عشرة آلاف، والتقوا بالنهروان، وكانوا ألفًا، فقتلهم، ولم يُقتل من جيش عليّ إلا سبعة كما ذكرت بعض الروايات[1].



موقعة النهروان

(١) البداية والنهاية (٨/ ٧١)، بتصرف يسير.

وقد أخبر النبي ﷺ أنه تقتلهم أولى الطائفتين بالحق، وأن فيهم ذا الثُّدَيَّة[١]، فلما رآه عليّ كبر وخر ساجدًا شكرًا لله تعالى[٢]، ولم يقتلهم عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلا بعد أن قطعوا السبيل، وسفكوا الدماء، واستحلوا أهل الذمة.

خلاصة موقف الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من هذه المعارك

انقسم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ حيال هذه المعارك إلى ثلاث فرق:

أما الأولى: فكانت ترى تعجيل القتال والأخذ بثأر عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعلى رأس هؤلاء طلحة والزبير وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وأما الثانية: فكانت ترى التريث لحين عودة الأجواء إلى سابق عهدها من الهدوء ثم التشاور في شأن القتلة، وعلى رأس هؤلاء عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأما الثالثة: فكانت ترى اعتزال هذه المعارك؛ لأن الحق فيها لم يتبين مع أحد الطرفين، وعلى رأس هؤلاء سعد بن أبي وقاص وابن عُمر وأبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ[٣].

ذكر ابن حجر أن الطبري أخرج بسند صحيح عن الأحنف بن قيس قال: لقيت طلحة والزبير بعد حصر عثمان، فقلت: ما تأمراني فإني أراه مقتولًا؟ قالا: عليك بعليّ.

ولقيت عائشة بعد مقتل عثمان في مكة، فقلت: ما تأمريني؟ قالت: عليك بعليّ.

---

(١) مسلم، كتاب الزكاة (٤٠٦٤).

(٢) أحمد في المسند (٦٥٦)، وقال الشيخ شاكر: إسناده صحيح، وانظر: حقبة من التاريخ ص ١٢٧، فتح الباري (١٦/ ٤٨٤) ط طيبة.

(٣) حقبة من التاريخ ص ١٢٩.

فيظهر جليًّا أنهم ما كانوا ينقمون على عليٍّ الخلافة، بل هم أول من بايعوه، لكنهم اجتهدوا في أولوية الأمور، فوقع الخلاف.

ولما خرج هؤلاء الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إلى الجمل لقيهم الأحنف، فقال لهم: والله لا أقاتلكم ومنكم أم المؤمنين، ولا أقاتل رجلًا أمرتموني ببيعته.[١]

مع مَن كان الحق؟

مما لا شك فيه أن عليًّا كان على الحق دون غيره من طلحة والزبير وعائشة ومعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في الجمل وصفين، فقد صح عنه ﷺ أنه قال عن عمار: «**تقتله الفئة الباغية**»، وقال عن الخوارج: «**يخرجون على حين اختلاف بين المسلمين، تقتلهم أَوْلى الطائفتين بالحق**»، يقول النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: وكان عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو المحق المصيب في تلك الحروب، هذا مذهب أهل السنة[٢]. وقال في تعليقه على حديث «**عمار تقتله الفئة الباغية**»: قال العلماء: هذا الحديث حجة ظاهرة في أن عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان محقًّا مصيبًا، لكن الطائفة الأخرى بغاة لكنهم مجتهدون، فلا إثم عليهم لذلك[٣].

ويقول ابن قدامة رَحِمَهُ اللَّهُ معلقًا على حديث النهروان: وهذه شهادة من النبي ﷺ لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأصحابه بأنهم على الحق والإصابة.[٤] وقال ابن حزم: فبهذا قطعنا عَلَي صواب عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأنه صاحب الحق، وأن له أجرين، أجر الاجتهاد، وأجر الإصابة[٥]. وقال ابن أبي العز الحنفي: والحق مع علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٦].

---

(١) قال الحافظ في الفتح : أخرجه الطبري بسند صحيح، (الفتح ١٦/ ٤٨٤).

(٢) شرح مسلم للنووي (١٨/ ٢٢٠) ط المعرفة - بيروت.

(٣) السابق (١٨/ ٢٤٧) ط المعرفة - بيروت.

(٤) منهاج القاصدين في فضل الخلفاء الراشدين ص ٧٠٨.

(٥) الفصَل في الملل والأهواء والنحل، (٣/ ٨٦) ط دار الكتب العلمية.

(٦) شرح الطحاوية ـ ٧٢٣ ط مؤسسة الرسالة.

وروى البزار من طريق زيد بن وهب قال: بينما نحن حول حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذ قال: «كيف أنتم وقد خرج أهل بيت نبيكم ﷺ فرقتين يضرب بعضكم وجوه بعض بالسيف؟ قلنا: يا أبا عبد الله، فكيف نصنع إذا أدركنا ذلك؟ قال: انظروا إلى الفرقة التي تدعو إلى أمر علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فإنها على الهدى»(١).

ويقول أبو الوليد بن رشد المالكي: والذي يقول أئمة أهل السنة والحق: إن عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومن معه كانوا على الصواب والحق.(٢)

وقال الطبري في تقوية مذهب من ناصر عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ولو كان الواجب في كل اختلاف يقع بين المسلمين الهروب منه بلزوم المنازل لما أقيم حد ولا أُبطل باطل، ولوجد أهل الفسوق سبيلًا إلى ارتكاب المحرمات(٣).

ومما يدل على أن عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على الحق أنه لو تُرك الأمر على ماكان عليه من الانقسام، لصار الناس أوزاعًا، على كل قطر إمام يرأسه، وهذا يؤدي إلى افتراق الكلمة واختلاف الأمة، أما من تخَلف واعتزل القتال فلأن الأمر اشتبه عليهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وكان في اعتقادهم أنه قتال فتنة، وكذلك لا يلزم أن يقاتل الجميعُ الفئةَ الباغية، قال الإمام القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩]: أمر بالقتال، وهو فرض على الكفاية، إذا قام به البعض سقط عن الباقين، ولذلك تخلف قوم من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عن هذه المقامات، كسعد وابن عمر ومحمد بن مسلمة وغيرهم، وصَوَّبَ ذلك عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لهم، واعتذر إليه كل واحد منهم بعذر قبله منه(٤)، وندم بعضهم

---

(١) أورده الحافظ في الفتح (١٦/ ٥٦٦) وقال: «سنده جيد».

(٢) البيان والتحصيل (١٦/ ٣٦٠).

(٣) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٢٤٦).

(٤) السابق (١٦/ ٢٤٨).

على عدم القتال مع علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كما ورد عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: ما آسى عَلَى شيء، كما آسى أني لم أقاتل الفئة الباغية مع علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١].

الفوائد والدروس والعبر

١ - لماذا خرج قتلة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في جيش علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأبقاهم معه؟

الجواب: قال الطحاوي رَحِمَهُ اللَّهُ: وكان في عسكر علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أولئك الطغاة الخوارج الذين قتلوا عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من لم يُعرف بعينه، ومن تنتصر له قبيلته، ومن لم تقم عليه حجة بما فعله، ومن في قلبه نفاق لم يتمكن من إظهاره كله[٢]، وحال الدولة كان مضطربًا، وهؤلاء لهم شوكة، وقبائل وعشائر، فلم يأمن عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لو عاقبهم بشدة أن يمتد حبل الفتنة في الأمة، وتفترق أكثر من ذلك ويتشتت أمرها، كما حصل ذلك لطلحة والزبير وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بالبصرة حين قتلوا بعضًا منهم، فغضبت لهم قبائلهم واعتزلوهم، والمعتزلون من ربيعة عبد القيس بأكملها، وأكثر بكر بن وائل، ومن مضر بنو سعد بن تميم وهم ستة آلاف، وغيرهم أوزاع من خندف، وانضم الربيعيون من أهل البصرة إلى علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣] فخاف أن تصير حربًا ثالثة، وكان ينتظر أن يمسك بزمام الأمر ليقع الطلب من هؤلاء الجناة، ويجري القضاء فيهم بالحق[٤]، فأعمل عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ميزان المصالح والمفاسد، فاحتمل مفسدة وجودهم في الجيش لدفع مفسدة أكبر وهي انشقاق هؤلاء فيصيروا حزبًا ثالثًا، يُعرّض الدولة الإسلامية برمتها

---

(١) السير (٣/ ٢٣١).

(٢) شرح الطحاوية ص ٧٢٣ طبع مؤسسة الرسالة.

(٣) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة ص ٤٧١ بتصرف يسير.

(٤) ابن العربي، الجامع لأحكام القرآن (٤/ ١٥٠) ط دار الكتب العلمية.

إلـى خطر الحرب الأهليـة، وبالتالي ضعفها ثم انهيارهـا، فرضي الله عن علي صاحب النظر الثاقب.

٢ - هل يصح أن يطلق على معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومن معه (الفئة الباغية)؟

الجـواب: لابـد أن ننبه أولًا أن خـلاف معاوية - لعلـي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -لم يكن منازعة في الخلافة، ولا إنكارًا لفضله ومكانته، واسـتحقاقه إياها، وإنما حصل الخلاف في تقديم الاقتصاص من قتلة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أو تأخيره.

قـال ابـن حجر الهيتمي: مـن اعتقاد أهل السـنة والجماعـة أن ماجرى بين معاويـة وعلـي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا من الحروب لـم يكن لمنازعـة معاوية لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في الخلافة، للإجماع على أحقيتها لعلي كما مر، فلم تهج الفتنة بسـببها، وإنما هاجت بسبب أن معاوية ومن معه طلبوا من علي تسليم قتلة عثمان[(١)].

ثانيـا: **قال ابن تيميـة**: كل من كان باغيًا أو ظالمـًا أو معتديًا أو مرتكبًا ما هو ذنب، فهو قسـمان: متأول وغير متأول؛ فالمتـأول المجتهد: إن لـم يتبين له أنه باغ، بل اعتقد أنه على الحق، وإن كان مخطئًا في اعتقاده لم تكن تسـميته باغيًا موجبًا لإثمه، فضلًا عن أن توجب فسقه.

وقـال أيضًا: ثبـت بالنصوص الصحيحـة أن عثمان وعليًـا وطلحة والزبير وعائشـة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من أهل الجنة، وأبو موسـى الأشـعري وعمـرو بن العاص ومعاويـة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هم من الصحابة ولهم فضائل ومحاسـن، وما يحكى عنهم كثير منه كـذب، والصدق منه إن كانوا فيه مجتهدين، فالمجتهد إذا أصاب فله أجران، وإذا أخطأ فله أجر، وخطؤه يغفر له[(٢)].

---

(١) الصواعق المحرقة (ص ٥٨٥) ط فياض - المنصورة.

(٢) الفتاوى (٣٥/ ٧٦).

وقال ابن عساكر: روى سفيان عن جعفر بن محمد عن أبيه الباقر قال: سمع عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوم الجمل أو يوم صفين رجلًا يغلو في القول، فقال: لا تقولوا إلا خيرًا، إنما هم قوم زعموا أنا بغينا عليهم، وزعمنا أنهم بغوا علينا، فقاتلناهم على ذلك، وَرَدَّ عَلَى من وقع في رجل قُتِل من أهل الشام بقوله: مهلًا كان أمس مؤمنًا وهو اليوم مؤمن. وذكر عن مكحول أن أصحاب عليٍّ سألوه عمن قُتِلوا من أصحاب معاوية، فقال: هم المؤمنون. وخرج في بعض تلك الليالي فنظر إلى أهل الشام، فقال: اللهم اغفر لي ولهم[1].

موقفنا من المعارك

بين علماء السلف موقفهم من تلك الحروب التي وقعت بين الصحابة الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فمن ذلك:

١ - أن عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ سئل عن القتال الذي وقع بين الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فقال: تلك دماء طهر الله يدي منها أفلا أطهر منها لساني؟! مثل أصحاب رسول الله ﷺ مثل العيون، ودواء العيون ترك مسها[2].

٢ - قال عامر بن شراحبيل الشعبي: هم أهل الجنة، لقي بعضهم بعضًا فلم يفر أحد من أحد[3].

٣ - وسئل الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ عن هذا القتال: فقال: قتال شهده أصحاب محمد ﷺ وغبنا، وعلموا وجهلنا، واجتمعوا فاتبعنا، واختلفوا فوقفنا[4].

---

(١) تاريخ دمشق، لابن عساكر (١/ ٢٣٣) ط دار الكتب العلمية.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٦/ ٢٥٠).

(٣) تاريخ دمشق (١١/ ٤٨٨) نقلاً عن «صحيح أخبار صفين والنهروان» (١/ ٤٠٥) فواز بن فرحان، ط دار الكتب العلمية.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٦/ ٢٥٠).

قال القرطبي: ومعنى كلام الحسن: أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا أعلم بما دخلوا فيه منا، وماعلينا إلا أن نتبعهم فيما اجتمعوا عليه ونقف عندما اختلفوا، ولا نبتدع رأيًا منا، ونعلم أنهم اجتهدوا وأرادوا الله عَزَّوَجَلَّ، إذ كانوا غير متهمين في الدين[١].

٤ - وقال الإمام أحمد عندما سئل: ما تقول فيما كان بين علي ومعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؟ قال: ما أقول فيهم إلا الحسنى، ومعاوية وعمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري والمغيرة وكلهم وصفهم الله تعالى في كتابه فقال: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾[٢].

٥ - وقال أبو الحسن الأشعري: فأما ما جرى بين علي والزبير وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فإنما كان عن تأويل واجتهاد، وعليٌّ الإمام، وكلهم من أهل الاجتهاد، وقد شهد لهم النبي ﷺ بالجنة والشهادة، فدل على أنهم كلهم على حق في اجتهادهم، وكذلك ما جرى بين علي ومعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كان على تأويل واجتهاد، وكل الصحابة أئمة مأمونون غير متهمين في الدين، وقد أثنى الله ورسوله - صلى الله عليه وسلم- على جميعهم وتُعبدنا بتوقيرهم وتعظيمهم وموالاتهم والتبري ممن ينتقص أحدًا منهم -رضي الله عنهم جميعًا-[٣].

٦ - وقال أبو عثمان **الصابوني** عند ذكره لعقيدة السلفية: ويرون الكف عما شجر بين أصحاب رسول الله ﷺ وتطهير الألسنة عن ذكر ما يتضمن عيبًا لهم ونقصًا فيهم، ويرون الترحم على جميعهم والموالاة لكافتهم[٤].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٢٥١).

(٢) مناقب الإمام أحمد، لابن الجوزي ص ٢٢١ ط هجر بتحقيق د/ عبدالله التركي.

(٣) الإبانة عن أصول الديانة ص ٢٦٠، ط دار الأنصار - القاهرة.

(٤) عقيدة السلف وأصحاب الحديث، ضمن الرسائل المنيرية ص ٢٩٤ ط العاصمة - السعودية.

٧ - وقال أبو الوليد بن رشـد المالكي: كلهم محمود على ما فعله، القاتل منهم والمقتول في الجنة، فهذا الذي يجب على المسـلم أن يعتقده فيما شـجر بينهـم، لأن الله تعالـى قـد أثنى عليهـم في كتابه وعلى لسـان رسـول الله ﷺ، فقـال عز مـن قائـل: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ وقـال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ وقال ﷺ: **«عشـرة من قريش في الجنة»** فسـمى فيهم عليًّا وطلحة والزبيـر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، والذي يقول أئمة أهل السـنة والحـق: إن عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومن اتبعه كانوا على الصواب والحق، وإن طلحة والزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كانا على الخطأ، إلا أنهمـا رأيـا ذلـك باجتهادهما، فـكان غرضهما مـا فعلاه، إذ همـا من أهل الاجتهـاد، فلعلـي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أجران لموافقتـه الحق باجتهـاده، ولطلحة والزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أجر لاجتهادهما[1].

٨ - وقـال القرطبي: لايجوز أن يُنسـب إلى أحد الصحابـة خطأٌ مقطوع به إذ كانـوا كلهـم اجتهـدوا فيما فعلـوه، وأرادوا الله عَزَّ وَجَلَّ، وهم كلهـم لنا أئمة، وقـد تُعُبدنا بالكف عما شـجر بينهم، وألا نذكرهم إلا بأحسـن الذكر، لحرمة الصحبة، ولنهي النبي ﷺ عن سـبهم، وأنه غُفر لهم وأخبر بالرضا عنهم، هذا مع ما قد ورد من الأخبار من طرق مختلفة عن النبي ﷺ **«أن طلحة شهيد يمشي علـى الأرض»**[2]، فلو كان ما خرج إليه مـن الحرب عصيانًا لم يكن بالقتل فيه شـهيدا وكذلك لو كان ما خرج إليه خطأً في التأويل وتقصيرًا في الواجب عليه، لأن الشـهادة لا تكون إلا بالقتل، فوجب حمل أمرهم على ما بيناه، ومما يدل علـى ذلك ما قد صح وانتشـر من إخبار علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بـأن قاتل الزبير في النار،

(١) البيان والتحصيل (١٦/ ٣٦٠) ط دار الغرب الإسلامي - بيروت.

(٢) الترمذي، وصححه الألباني برقم (٣٧٣٩).

وقوله: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**بشر قاتل ابن صفية بالنار**»[(١)] وإذا كان كذلك فقد ثبت أن طلحة والزبير رضي الله عنهما غير عاصيين ولا آثمين بالقتال، لأن ذلك لو كان كذلك لم يقل النبي ﷺ في طلحة (شهيدًا) ولم يخبر أن قاتل الزبير في النار، وكذلك من قعد غير مخطئ في التأويل، بل صواب أراهم الله الاجتهاد، وإذا كان كذلك لم يوجب ذلك لعنهم والبراءة منهم وتفسيقهم، وإبطال فضائلهم وجهادهم وعظيم عنائهم في الدين رضي الله عنهم[(٢)].

٩ - وقال النووي عند قوله ﷺ: «**إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار**»[(٣)]: واعلم أن الدماء التي جرت بين الصحابة رضي الله عنهم ليست بداخلة في هذا الوعيد، ومذهب أهل السنة والحق إحسان الظن بهم والإمساك عما شجر بينهم وتأويل قتالهم، وأنهم مجتهدون متأولون، لم يقصدوا معصية ولا محض الدنيا، بل اعتقد كل فريق أنه المحق ومخالفه باغ، فوجب عليه قتاله ليرجع إلى أمر الله، وكان بعضهم مصيبًا وبعضهم مخطئًا معذورًا في الخطأ، لأنه اجتهاد، والمجتهد إذا أخطأ لا إثم عليه، وكان علي رضي الله عنه هو المحق المصيب في تلك الحروب، هذا مذهب أهل السنة، وكانت القضايا مشتبهة، حتى إن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم تحيروا فيها فاعتزلوا الطائفتين ولم يقاتلوا، ولم يتيقنوا الصواب[(٤)]. وقال: واعلم أن سبب تلك الحروب أن القضايا كانت مشتبهة، فلشدة اشتباهها اختلف اجتهادهم وصاروا ثلاثة

---

(١) الترمذي، وقال الألباني: حسن صحيح» برقم (٣٧٤٤) ولفظه: عن زر بن حبيش قال: استأذن ابن جرموز على عليّ رضي الله عنه فقال: من هذا؟ قالوا: ابن جرموز يستأذن، قال: ائذنوا له، ليدخُلْ قاتل الزبير النار، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن لكل نبي حواريًّا، وحواريَّ الزبير**».

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٦/ ٢٥٠) ط التوفيقية.

(٣) البخاري كتاب الفتن، مسلم كتاب الفتن وأشراط الساعة.

(٤) شرح النووي (١٨/ ٢١٩) ط المعرفة - بيروت.

أقسام: قسم ظهر لهم بالاجتهاد أنه الحق في هذا الطرف، وأن مخالفه باغ، فوجب عليهم نصرته، وقتال الباغي عليه فيما اعتقدوه ففعلوا ذلك، ولم يكن يحل لمن هذه صفته التأخر عن مساعدة إمام العدل في قتال البغاة في اعتقاده.

وقسم عكس هؤلاء، ظهر لهم بالاجتهاد أن الحق في الطرف الآخر، فوجب عليهم مساعدته وقتال الباغي عليه.

وقسم ثالث اشتبهت عليهم القضية، وتحيروا فيها فلم يظهر لهم ترجيح أحد الطرفين، فاعتزلوا الفريقين، وكان هذا الاعتزال هو الواجب في حقهم لأنه لا يحل الإقدام على قتال مسلم حتى يظهر أنه مستحق لذلك، فكلهم معذورون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ[1].

١٠ - وقال شيخ الإسلام ابن تيمية عندما بيّن عقيدة أهل السنة والجماعة فيما شجر بين الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: ويمسكون عما شجر بين الصحابة، ويقولون: إن هذه الآثار المروية في مساويهم منها ما هو كذب ومنها ما قد زيد فيه ونقص، وغُير عن وجهه، والصحيح منه هم فيه معذورون، إما مجتهدون مصيبون أو مجتهدون مخطئون[2].

١١ - وقال الذهبي: تقرر الكف عن كثير مما شجر بين الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وقتالهم، ومازال يمر بنا ذلك في الدواوين والكتب والأجزاء ولكن أكثر ذلك منقطع وضعيف، وبعضه كذب، وهذا فيما بين أيدينا وبين علمائنا فينبغي طيه وإخفاؤه، بل إعدامه لتصفو القلوب، وتتوفر على حب الصحابة والترضي

(١) «شرح النووي» (١٥/ ١٤٥) ولا يقال: إن الواجب عليهم أن يروموا الإصلاح بينهم، فإن لم يقدروا عليه كانوا مع من رأوْا أنه على الحق منهم على ما تقتضيه الآية، لأن من أمسك لم يبن له من كان على الحق منهم، فكان فرضه ما فعله من الإمساك، إذ لايحل قتال مسلم بشك كما كان فرض كل من قاتل منهم ما فعلوه من القتال لاعتقاده أنه مصيب باجتهاده (من البيان والتحصيل ١٦/ ٣٦٠) بتصرف.

(٢) العقيدة الواسطية (٢/ ٢١٥) دار ابن الجوزي.

عنهـم، وكتمان ذلك متعين عن العامة وآحـاد العلماء، وقد يرخص في مطالعة ذلك خلوة للعالم المنصف العري عن الهوى، بشرط أن يستغفر لهم كما علمنا الله تعالى بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

فالقوم لهم سـوابقُ وأعمـالٌ مكفِّرةٌ لما وقـع بينهم، وجهاد مَحَّـاءٌ، وعبادة مُمَحِّصة، ولسنا ممن يغلوا في أحد منهم، ولا ندعي فيهم العصمة[١].

١٢ - وقال ابن حجر: واتفق أهل السـنة على وجوب منع الطعن على أحد مـن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بسـبب ما وقـع لهم من ذلك، ولو عـرف المحق منهم، لأنهم لم يقاتلوا في تلك الحروب إلا عن اجتهاد، بل ثبت أنه يؤجر أجرًا واحدًا، وأن المصيب له أجران.[٢]

فهذه طائفة من كلام علماء السلف، يتبين منها الآتي:

أولًا: معرفة حقهم ومنزلتهم والتماس أحسن المخارج لما صدر منهم، واعتقاد أنهم دخلوا هذه الحروب عن اجتهاد، والمجتهد مغفور له خطؤه إن أخطأ.

ثانيًا: الإمسـاك عما شـجر بينهم، ومعنى الإمسـاك هو عـدم الخوض فيما وقع بينهم على سـبيل التوسـع، وتتبع جزئيات الخلاف وتفاصيله ونشـر ذلك بيـن النـاس، أو التعرض لبعضهـم بالتنقيص والانتصار لبعضهـم الآخر، وقد قـرر الذهبي ذلك بأنه «ينبغي طي ذلك وإخفـاؤه، بل وإعدامه»، إذ لا مصلحة شرعية ولا علمية من وراء تتبع تفصيلات المعارك.

---

(١) السير (١٠/ ٩٢).

(٢) فتح الباري (١٦/ ٤٨٢) ط طيبة.

ثالثًا: لا مانع من تتبع ما وقع بينهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بطريقة علمية منضبطة بقواعد الشريعة لبيان الموقف الصحيح، والرد على الأغاليط التاريخية، مع اعتقاد أنهم كلهم مجتهدون، إما مصيبون لهم أجران، أو مخطئون لهم أجر واحد، هذا لا بأس به.

مقتل أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

اجتمع ثلاثة من الخوارج بمكة، وتعاقدوا ليقتلن هؤلاء الثلاثة؛ عليًّا ومعاوية وعمرو بن العاص، قالوا: نتقرب إلى الله بقتلهم، ليريحوا العباد -بزعمهم الكاذب- منهم.

فقال عبد الرحمن بن مُلجِم: أنا لعلي. وقال البُرَك التيمي: أنا لمعاوية. وقال عمرو بن بكر: أنا لعمرو. واتفقوا أن يكون ذلك بعد سبع عشرة ليلة من رمضان.

وكان عمرو في مصر، ومعاوية في الشام، وعلي في الكوفة، وقد نجح ابن ملجم في طعن عليّ بن أبي طالب وهو خارج إلى صلاة الفجر بخنجر سَمَّهُ شهرًا.

قال عليّ: إن أنا شفيت فأنا حجيجه، وإن مت فاقتلوه بي. قال: لا والله، لقد سممته شهرًا[١].

فلما مات عليّ، قطعوا يدي ابن ملجم، وسملوا عينيه، وهو ثابت لم يجزع، فلما أرادوا قطع لسانه جزع، قالوا: الآن؟ قال: ما ذاك مني من جزع إلا أني أكره أن أكون في الدنيا فواقًا لا أذكر الله[٢].

أما البُرَكُ فخرج لمعاوية في صلاة الفجر أيضًا وضربه، ولكنه أصابه ولم يقتله.

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/ ٣٣) بتصرف واختصار.

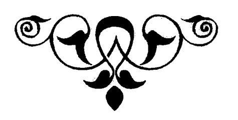
(٢) السابق (٣/ ٣٨).

والـذي أراد عمـرو خرج إلى الصـلاة، وكان عمرو قد مـرض فلم يخرج، وصلـى مكانه خارجة بن أبي حبيب، فجـاءه وقتله ظانًّا أنه عمرو، فقالوا: ماذا فعلت؟ قال: قتلت عمرًا. قالوا: بل قتلت خارجة. فقال: أردت عمرًا وأراد الله خارجة. فصارت مثلًا، فقتل، وقتل البرك وابن ملجم[١].

الفـوائد والـدروس والعبـر

١ - **قـال ابن كثير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **عن الخوارج**: وهذا الضرب من الناس من أغرب أشـكال بني آدم، فسـبحان مـن نوّع خلقه كما أراد وسـبق في قـدره ذلك، وما أحسـن مـا قال بعض السـلف في الخوارج: إنهـم المذكـورون في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾[٢] [الكهف].

٢ - الإيمـان بالقضاء والقدر، والرضا به، ومعرفـة العبد أن أفعال الله كلها خير، ولا تقع إلا بحكمة، وما على العبد إلا الرضا والتسليم، فقد كان المرض سببًا لنجاة عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ من القتل، فـ«**عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير**».



(١) البداية والنهاية (٨/ ١٢٠).

(٢) السابق (٨/ ٦٧).



خلافة

الحسن بن عليّ

رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ

إلى:	مــن:
٤٠هـ	٤٠هـ

ستة أشهر

الخليفة الخامس: أمير المؤمنين الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

بعدما طُعن عليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دخل جندب بن عبد الله عليه، وقال: يا أمير المؤمنين، إنْ فقدناك، ولا نفقدك، أنُبايع الحسن؟

فقال: ما آمركم ولا أنهاكم، أنتم أبصر.

فلما تُوفي عليّ غسَّله الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر، ودُفن وأُخفي قبره، لكثرة ما يقال عنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثم اتجه الناس إلى الحسن وبايعوه، وكان أول من بايعه قيس بن سعد بن عبادة[١]: قال له: أبسط يدك أبايعك على كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ وسنة نبيه ﷺ وقتال المحلين، فقال له الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، فإن ذلك يأتي من وراء كل شرط، فبايعه وسكت، وبايعه الناس[٢]. أخرج الطبري بسند صحيح عن يونس بن يزيد عن الزهري قال: جعل عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى مقدمة أهل العراق قيس بن سعد بن عبادة، وكانوا أربعين ألفًا بايعوه علي الموت، فقُتل علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فبايعوا الحسن بن عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بالخلافة، وكان لا يحب القتال، ولكن يريد أن يشترط على معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لنفسه، فعرف أن قيس بن سعد لا يطاوعه على الصلح، فنزعه وأمّر عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فاشترط لنفسه كما اشترط الحسن[٣].

أما أهل الشام، فبايعوا معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فعند ذلك أقام أهل العراق الحسن بن عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليمانعوا به أهل الشام، فلم يتم لهم ما أرادوا وما

(١) التاريخ الإسلامي (٣/ ٢٧٦)، باختصار، لمحمود شاكر.

(٢) تاريخ الطبري (٣/ ١٨٥).

(٣) فتح الباري (١٦/ ٥٢٨).

حاولوا، وإنما كان خِذلانُهم من قِبل تدبيرهم السيء وآرائهم المختلفة المخالفة لأمرائهم، ولو كانوا يعلمون لعظَّموا ما أنعم الله به عليهم من مبايعتهم ابن بنت رسول الله ﷺ وسيد المسلمين، وأحد علماء الصحابة وحلمائهم وذوي آرائهم، والدليل على أنه أحد الخلفاء الراشدين ما رواه سَفِينَة أن رسول الله ﷺ قال: «**الخلافة بعدي ثلاثون سنة، ثم تكون مُلكًا**»(١)، وإنما كملت الثلاثون بخلافة الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإنه نزل عن الخلافة لمعاوية في ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين وذلك كمال ثلاثين سنة من موت رسول الله ﷺ، فإنه تُوفي في ربيع الأول سنة إحدى عشر من الهجرة(٢)، وكانت خلافة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سنتين وثلاثة أشهر، وخلافة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عشر سنين ونصف، وخلافة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اثنتي عشرة سنة، وخلافة على رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أربع سنين وتسعة أشهر، وخلافة الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ستة أشهر(٣).

ورأى الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فى مدة خلافته تخاذل أهل الكوفة، وقد كان يبغضهم ديانة(٤)، ورأى ضرورة اتفاق الأمة، فآثر الصلح.

عن الزهري أن معاوية بعث إلى الحسن سجلًا ختم أسفله بقوله: اكتب فيه ما تُريد فهو لك(٥).

فالتقى معاوية والحسن فتنازل الحسن. أخرج البخاري عن أبي موسى قال: سمعت الحسن البصري يقول: استقبل الحسن بن علي معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

---

(١) الترمذي، وصححه الألباني برقم (٢٢٢٦).

(٢) البداية والنهاية (٨/ ١٧٧).

(٣) شرح الطحاوية ص, ٥٤٥.

(٤) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٨٧).

(٥) فتح الباري (١٦/ ٥٣٢) وقال: «سنده صحيح».

بكتائب أمثال الجبال، فقال عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إني لأرى كتائب لا تولِّي حتى تقتل أقرانها. فقال له معاوية - وكان والله خير الرجلين -: أي عمرو، إن قَتَلَ هؤلاء هؤلاء، وهؤلاء هؤلاء مَنْ لي بأمور الناس، من لي بنسائهم؟ من لي بضيعتهم؟ فبعث إليه رجلين من قريش من بني عبد شمس؛ عبد الله بن سمرة، وعبد الله بن عامر بن كريز - فقال: اذهبا إلى هذا الرجل فاعرضا عليه، وقولا له، واطلبا إليه. فأتياه، فدخلا عليه، فتكلما وقالا له، وطلبا إليه، فقال لهما الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنا بنو عبد المطلب قد أصبنا من هذا المال، وإن هذه الأمة قد عاثت في دمائها. قالا: فإنه يعرض عليك كذا وكذا، ويطلب إليك ويسألك.

قال: فمن لي بهذا؟ قالا: نحن لك به. فما سألهما شيئًا إلا قالا: نحن لك به. فصالحه[1].

الفوائد والدروس والعبر

١ - الحديث يدل على أن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان هو الراغب في الصلح، وأنه عرض على الحسن المال، ورَغَّبَه فيه، وحثه على رفع السيف[2].

٢ - قوله: إنا بنو عبد المطلب أصبنا من هذا المال، أي: إنا جُبلنا على الكرم والتوسعة على أتباعنا من الأهل والموالي، وكنا نتمكن من ذلك بالخلافة حتى صار لنا ذلك عادة، وأراد الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بذلك كله تسكين الفتنة وتفرقة المال على من لا يرضيه إلا المال،[3] ولما تسلم معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ البلاد ودخل

---

(١) البخاري، كتاب الفتن.

(٢) فتح الباري (١٦/ ٥٣١).

(٣) السابق (١٦/ ٥٣١).

الكوفة وخطب بها، واجتمعت عليه الكلمة في سائر الأقاليم والآفاق، ترحل الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومن معه إلى المدينة المنورة، وجعل كلما مرّ بحي من شيعته يبكتونه على ما صنع، وهو في ذلك مصيب بار، راشد ممدوح، وليس يجد في صدره حرجًا ولا تلومًا ولا ندمًا، بل هو راض بذلك مستبشر به(١).

نسبه وصفته ومناقبه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

الحسن بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي، وأمه فاطمة بنت النبي ﷺ، وأمها خديجة بنت خويلد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

ولد في النصف من شهر رمضان سنة ثلاثة من الهجرة(٢)، وكان سيدًا وسيمًا، جميلا، عاقلا، رزينًا، جوادًا، خيِّرا دينًا، ورعًا، محتشمًا، كبير الشأن(٣).

وكان شبيهًا بالنبي ﷺ، عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لم يكن أحد أشبه بالنبي ﷺ من الحسن بن علي(٤). وعن عقبة بن الحارث قال: رأيت أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وحمل الحسن وهو يقول:

بأبي شبيه بالنبي.. ليس شبيهٌ بعلي

وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يضحك(٥).

وكان ﷺ يحبه، عن البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: رأيت النبي ﷺ والحسن بن علي عَلَىَ عاتقه، يقول: **اللهم إني أحبه، فأحبه**(٦). وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال

---

(١) البداية والنهاية (٨/ ١٨٠).

(٢) طبقات ابن سعد (٦/ ٣٥٣) ط الخانجي - مصر.

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٥٣).

(٤) البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ.

(٥) السابق.

(٦) نفسه.

رسول الله ﷺ: «**هما ريحنتاي من الدنيا**»[١]، وعن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت النبي ﷺ على المنبر، والحسن إلى جنبه ينظر إلى الناس مرة، وإليه مرة، ويقول: «**إن ابني هذا سيد، ولعل الله يصلح به بين فئتين من المسلمين**»[٢].

فنزل عن الخلافة ابتغاء وجه الله تعالى، وتحققت نبوءة النبي ﷺ بذلك، وسُمي هذا العام بعام «الجماعة».

عن جبير بن نفير قال: قلت للحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن الناس يزعمون أنك تريد الخلافة، فقال: كانت جماجم العرب بين يدي، يسالمون من سالمت ويحاربون من حاربت، فتركتها ابتغاء وجه الله، ثم أثيرها بأَتْيَاس أهل العراق؟![٣].

وبذلك فقد انتهت مدة الخلافة الراشدة التي سارت على نهج رسول الله ﷺ، واجتمع المسلمون بعد الفرقة، وتفرغوا للحروب الخارجية والفتوحات ونشر دعوة الإسلام بعد أن عطل قتلة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المسلمين عن هذه المهمة نحو خمس سنوات.

الفوائد والدروس والعبر

١ - فضيلة الإصلاح بين الناس ولا سيما في حقن دماء المسلمين[٤].

٢ - أن الحسن بن عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أحد الخلفاء الراشدين، لقول النبي ﷺ: «**الخلافة بعدي ثلاثون سنة**»، وقد اكتملت بخلافة الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

---

(١) البخاري كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ.

(٢) السابق.

(٣) البداية والنهاية (٨/ ٢٠٨).

(٤) فتح الباري (١٦/ ٥٣٥).

٣ - أن ذلك من أكبر دلائل النبوة؛ فقد حدث ذلك كما أخبر النبي ﷺ.

٤ - فضيلة معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وتعظيمه لآل بيت النبي ﷺ، ورأفته بالرعية وشفقته على المسلمين، وقوة نظره في تدبير الملك، ونظره في العواقب(١).

٥ - كان معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على مستوى المسئولية في هذا الظرف الدقيق من تاريخ أمتنا، فلم يؤثر عنه أنه انتهج سياسة معادية ضد أنصار الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بل كان حليمًا عادلًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم ينتقم من مخالفيه، وبهذه السياسة الرائعة استطاع أن يمتص غضب الكثيرين، وأن يجعل من الرافضين له أنصارًا ومؤيدين(٢).

٦ - فضيلة الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وتحقق نبوءة النبي ﷺ فيه من كونه سيدًا، ومن كونه أصلح الله به بين المسلمين، ووحد الأمة على يديه الطاهرتين، يقول شيخ الإسلام: وهذا الحديث -**إن ابنى هذا سيد**- يبين أن الإصلاح بين الطائفتين كان ممدوحًا يحبه الله ورسوله ﷺ وأن مافعله الحسن كان من أعظم فضائله ومناقبه التي أثنى بها عليه النبي ﷺ.(٣)

٧ - الفتنة التي عصفت بالدولة الإسلامية في أواخر عهد عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كانت فتنة خطيرة ومؤامرة حيكت بدهاء حول الإسلام والمسلمين، فوقع كثير من المسلمين في دائرة المؤامرة، واتسعت شُقة الاختلاف، لكن الدولة سرعان ما ارتفعت على فتنتها ومسحت جراحها، وواصلت مسيرتها نحو الصعود، ولو حدث ذلك لدولة غير الدولة الإسلامية لما وقفت آثارها السلبية

---

(١) فتح الباري (١٦/ ٥٣٥).

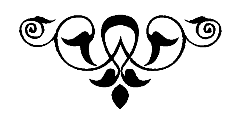
(٢) الدولة الأموية ص ١٨ د/ حامد غنيم أبو سعيد، ط دار الثقافة، بتصرف يسير.

(٣) منهاج السنة (٢/ ٢٠٢).

عند حد، والسر في ذلك يرجع إلى التطبيق العملي لقواعد الإسلام: كتقديم المصلحة العامة لجماعة المسلمين، والحرص على نبذ الفرقة والخلاف، ومنع كل سبب يؤدي إلى إراقة الدماء المعصومة، والموازنة بين المصالح والمفاسد، وارتكاب أخف الضررين، والنظر الثاقب إلى مآلات الأمور.

٨ - يقول ابن القيم بعد سرده لحديث خروج المهدي في آخر الزمان، وأنه من نسل الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وفي كونه من نسل الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سر لطيف، وهو أن الحسن ترك الخلافة لله، فجعل الله من ولده من يقوم بالخلافة الحق، المتضمن للعدل الذي يملأ الأرض، وهذه سنة الله في عباده، أنه من ترك لأجله شيئًا، أعطاه الله أو أعطى ذريته أفضل منه[١]».

٩ - ولاية المفضول الخلافة مع وجود الأفضل، لأن الحسن ومعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ولي كل منهما الخلافة، وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد في الحياة، وهما بدريان، قاله ابن التين[٢].



(١) المنار المنيف في الصحيح والضعيف. ص ١٥١، ط مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب.

(٢) فتح الباري (١٦/ ٥٣٥).


الدولة الأموية
مـن:
إلى:
٤١ هـ
١٣٢ هـ
واحد وتسعون سنة

دولة بني أمية

سببُ تشويه حُقْبَةِ بني أمية

لقد أصاب تاريخَ بني أمية الكثيرُ من التشويه، حتى أصبح وكأنه حدث انفصال مباشر بين العهد الراشدي والعهد الأموي؛ وذلك لعدة أسباب نجملها فيما يلي:

أولًا: شُوهت هذه الفترة من جهة خصوم بني أمية وهم بنو العباس، حيث إن التاريخ لم يُدون إلا في عصرهم، فذكروا معايبهم وستروا محاسنهم، فأظهروهم في ثوب الناقص الطامع الذي ليس له هم إلا المنصب والمال والجاه.

ثانيًا: شُوهت هذه الفترة من جهة أصحاب العواطف من المسلمين الطيبين الذين هالهم انتقال الحكم من (شورى) أيام الراشدين إلى (ملكي) أيام الأمويين[1].

ثالثًا: تأثير الاستشراق على الكتاب المسلمين الذي واكب حالة الضعف الحضاري التي مرت بها أمتنا، وقد تسلل تأثير المستشرقين إلى بعض كُتَّابنا نتيجة دراسة نتاجهم التاريخي، أو التلمذة المباشرة لهم في البعثات العلمية إلى أوروبا، أو تدريس بعض هؤلاء المستشرقين في بعض الجامعات العربية والإسلامية، أو اشتراكهم في المجامع العلمية[2]

رابعًا: ما وقع فيه بعض خلفاء بني أمية من أخطاء جسيمة، مثل غزو المدينتين المقدستين مكة والمدينة، مما هز مشاعر المسلمين، وتردد صداه في نفوسهم وكتاباتهم[3].

---

(١) التاريخ الإسلامي، لمحمود شاكر (٤/ ٣) باختصار.

(٢) الدولة الأموية المفترى عليها، د/ حمدي شاهين، ص ٩٤.

(٣) العالم الإسلامي في العصر الأموي، د/ عبد الشافي محمد عبد اللطيف، ص٥، ط دار السلام.

خامسًا: تلك النكبات التي حلت بآل البيت، كاستشهاد الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سنة ٦١ هـ، فقد سجل التاريخ على جيش يزيد بن معاوية أنه شن ضد الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حربًا غير متكافئة، فكانت النتيجة المباشرة استشهاد الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أما النتيجة البعيدة فهي إثارة الحقد والكراهية في نفوس الأغلبية الساحقة ضد الأمويين[١].

سادسًا: أن معظم الأمويين وقفوا من الرسالة المحمدية موقف العداء المطلق، وحملوا لواء معارضتها وشن الحرب ضدها أكثر من عشرين عامًا، ولم يدخلوا الإسلام إلا عند فتح مكة سنة (٨هـ)، ومع أنهم أسلموا وحسن إسلامهم، إلا أن بعض خصومهم استغلوا هذا الموقف، واتخذوا منه ذريعة للنيل منهم والتشهير بهم[٢].

سابعًا: راحت تُبَثُّ هذه الشائعات في جوانب العالم الإسلامي وتضخم الأخطاء الصغيرة وتلفق الروايات، حتى بدأ عصر التدوين، فدون المؤرخون كل ماوصل إلى سمعهم، سواء أكان حقًّا أم باطلا[٣].

والحق

أن عهد بني أمية ليس عهدًا سليمًا مائة بالمائة كما كان عهد رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده، ولا هو في ذات الوقت عهد جاهلي، ولكننا نُنصف فنقول:

إن الوضع الإسلامي قد تدهور قليلًا منذ انتهاء العهد الراشدي، وبدأت زاوية الانحراف تزداد في انفراجها تدريجيًّا مع الزمن، لكنها لم تتسع كثيرًا في زمان الأمويين، أو على الأقل في صدر دولتهم.

---

(١) هشام بن عبد الملك والدولة الأموية د/ علي عبد الرحمن العمرو، ص ١٠.

(٢) العالم الإسلامي في العصر الأموي، د/ عبد الشافي محمد، ص ٥.

(٣) السابق ص ٥.

فالخلفاء كانوا على درجة من الإيمان والخوف من الله سبحانه، بحيث إنهم إذا وعِظوا اتعظوا وعدّلوا من أوضاعهم.

أما المجتمع فكان يعيش حياة الشبه بحياة المجتمع أيام الخلفاء الراشدين[١]، حتى بلغ الحال في زمنهم ألا يجدوا محتاجًا يأخذ زكاة أموالهم، لغنى المسلمين وكفايتهم، على الرغم من اتساع الرقعة وكثرة المسلمين، أما ماحدث من بعض الخلفاء من الانجراف والميل عن الجادة فقد كان انحرافًا شخصيًّا لم يتعد الخليفة وبعض أتباعه، وأما بقية الأمة وسائر العلماء والأئمة، إنما كانوا يسلكون السبيل القديم، ويواجهون هذه الانجرافات بتقديم النصيحة والتحذير من عاقبتها[٢].

أما الفتوحات فقد بلغت مبلغًا لم تبلغه في عهدٍ قبله، فوصلت إلى بلاد الهند والسند، وإلى بلاد الصين شرقًا، والمغرب العربي، بل وجاوزته إلى أوروبا، حتى فتحت الأندلس، ووصلت جنوب فرنسا، حتى دان لهم أكثر من نصف الأرض المعروفة في تلك الفترة من الزمان[٣]، فأظهروا الإسلام، ونشروا السنة والعقيدة الصحيحة، وحاربوا البدعة وأهلها.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن الإسلام وشرائعه في بني أمية أظهر وأوسع مما كان بعدهم[٤]، وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «**لايزال الأمر عزيزًا إلى اثني عشر خليفة كلهم من قريش**»، ولفظ البخاري: «**اثني عشر أميرًا**» وهكذا كان، فكان الخلفاء أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ثم

---

(١) التاريخ الإسلامي (٤/ ٤٠)، لمحمود شاكر، بتصرف واختصار.

(٢) الأمويون بين الشرق والغرب، د/ محمد السيد الوكيل (١/ ٨).

(٣) السابق (١/ ٨).

(٤) منهاج السنة (٨/ ٢٣٧).

تولـى من اجتمع الناس عليه وصار له عـزة ومنعة؛ معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وابنه يزيد، ثـم عبد الملك وأولاده الأربعـة وبينهم عمر بن عبد العزيز، وبعد ذلك حصل في دولـة الإسـلام النقص ما هو بـاق إلى الآن، فإن بني أميـة تولوا على جميع أرض الإسـلام، وكانت الدولة في زمنهم عزيزة، ومع ما نالها من ثورات وفتن ومصائـب، إلا أنها ظهـرت بمظهر القوة القاهرة أمام الأمـم التي تجاورها من الشرق والشمال والغرب في جميع أدوارها[1].

ولقد أن الآوان لنقض الصورة القاتمة، وطرح الفكرة المعتمة التي تشربتها الأجيال بفعل أعداء الأمة من الداخل والخارج، فكم من كتب سُـطِّرت، وكم من دراسـة أُجريت لتشـويه التاريخ بصفة عامة، وتاريخ بني أمية بصفة خاصة في أذهان المسـلمين عامة وطلاب المدارس خاصة، فخرجت أجيال متعاقبة، تشربت فكرة واحدة وهي أن تاريخنا غير مشرف، ولا يصلح نبراسًا نسير عليه ونحـن في طريقنا إلى إعـادة مجد الأمة المفقود، فهيا بنـا نتهيأ من جديد لنقرأ التاريـخ قراءة واعية، ونسـتخرج منه الـدروس والفوائد والعـبر، فنتربى عليه ونُربي الأجيال القادمة عليه.

بداية الدولة

بدأت منذ تنازل الحسـن لمعاويـة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ٢٥ ربيع الأول ٤١هـ، وانتهت بمعركـة الـزاب بينهـم وبين العباسـيين، حيث هُـزم مروان بـن محمد في ١١ جمادى الأولى ١٣٢هـ.

وتوالى عليها أسرتان؛ الأسرة السفيانية، والأسرة المروانية، وكان خلفاؤهم ثلاث عشرة خليفة.

---

(١) الدولة الأموية، للخضري بك ص ٥٦٤ ط دار القلم - بيروت.

أولًا: الأسرة السفيانية: من ٤١ هـ: ٦٤ هـ = ٢٤ سنة

وتوالى عليها ثلاثة خلفاء:

١ - معاوية بن أبي سفيان ٤١: ٦٠ = ١٩ سنة

٢ - يزيد بن معاوية ٦٠: ٦٤ = ٤ سنوات

٣ - معاوية بن يزيد ٦٤: ٦٤ = ٣ أشهر

ثانيًا: الأسرة المروانية: من ٧٣ هـ إلى ١٣٢ هـ = ٥٩ سنة

وتوالى عليها عشرة خلفاء[١]:

١- عبد الملك بن مروان ٧٣: ٨٦ = ١٣ سنة

٢- الوليد بن عبد الملك ٨٦: ٩٦ = ١٠ سنوات

٣- سليمان بن عبد الملك ٩٦: ٩٩ = ٣ سنوات

٤- عمر بن عبد العزيز بن مروان ٩٩: ١٠١ = سنتان

٥- يزيد بن عبد الملك ١٠١: ١٠٥ = ٤ سنوات

٦- هشام بن عبد الملك ١٠٥: ١٢٥ = ٢٠ سنة

٧- الوليد بن يزيد بن عبد الملك ١٢٥: ١٢٦ = سنة واحدة

٨- يزيد بن الوليد بن عبد الملك ١٢٦: ١٢٧ = سنة واحدة

٩- مروان بن محمد بن مروان ١٢٧: ١٣٢ = ٥ سنوات[٢]

---

(١) أما مروان بن الحكم فلم يبايع بطريقة شرعية لذا لم نضعه ضمن خلفاء بني أمية.

(٢) الدولة الأموية، الخضري بك ص ٤٢٣ ط دار القلم.

أمية

حرب

أبو سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

١- معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

٢- يزيد

٣- معاوية الثاني

أبو العاص

الحكم

عفان

٤- مروان الأول

عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

عبد العزيز

٥- عبد الملك

محمد

١٠- هشام

٩- يزيد

٧- سليمان

٦- الوليد

١٤- مروان

٨- عمر بن عبد العزيز

١١- الوليد الثاني

١٣- إبراهيم

١٢- يزيد

وتخلـل ذلـك أن ابن الزبير بقي أميرًا للمؤمنين تسع سـنوات على الحجاز واليمـن والعراق وخراسـان، فلا يُعد مُلك مروان بـن الحكم وجزء من خلافة عبد الملك خلافة، إنما هو اغتصاب لجزء من أرض الإسلام.

وسـنتناول إن شـاء الله هذه الحقبة بشـيء من الاختصار، مُعرِّجين على أهم الأعمـال والفتوحات، ومواطن الضعف والقوة في عصر كل خليفة، وذلك حتى نرسم صورة مبسطة لهذه الحقبة فتلتئم فترات التاريخ في أذهاننا حيث أنه حدث انفصال رهيب بيننا وبين تاريخ أمتنا خاصة من أول عهد الأمويين وإلى وقتنا هذا.

أولًا: الأسرة السفيانية

من:	إلى:
٤١ هـ	٦٤ هـ

٢٣ سنة

(١)

معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا

من:	إلى:
٤١ هـ	٦٠ هـ

تسع عشرة سنة

معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

نسبه

هو معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب خال المؤمنين، أسلم هو وأبوه يوم فتح مكة، وشهد حنينًا، وكان من المؤلفة قلوبهم، ثم حسن إسلامه وكان أحد الكُتَّاب لرسول الله ﷺ[١].

وأبوه أحد سادات قريش، أسلم يوم فتح مكة، وحسن إسلامه، وشهد مع رسول الله ﷺ حنينًا والطائف، وأرسله ﷺ عاملًا على نجران، وأرسله أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع الفاتحين تحت راية ابنه يزيد، وخاض معركة اليرموك، وفقد فيها عينه الثانية، وقد كان فقد الأولى يوم الطائف.

وأمه هند بنت عتبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أسلمت يوم الفتح، وحسن إسلامها[٢].

حياته ومناقبه

وُلد في السنة الثامنة عشرة قبل الهجرة، وكانت أمه تعده للإمارة منذ صغره، فعن أبان بن عثمان: كان معاوية وهو غلام يمشي مع أمه هند، فعثر، فقالت: قم لا رفعك الله وأعرابي ينظر فقال: لما تقولين له؟ فوالله إني لأظنه سيسود قومه، قالت: لا رفعه إن لم يسد إلا قومه[٣]. وكانت تحمله وهو صغير، وتقول:

إن بُنَيَّ مُعْرِقٌ كريم ... مُحَبَّب في أهله حليم
ليس بفحَّاش ولا لئيم ... ولا بطخرور ولا سؤوم
صخرُ بني فهر به زعيم ... لا يُخلِفُ الظن ولا يَخِيم[٤]

(١) تاريخ الخلفاء، للسيوطي ص ٣٢٣ ط وزارة الأوقاف - قطر.

(٢) التاريخ الإسلامي، لمحمود شاكر (٤/ ٦٠).

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٢١)، ط الرسالة.

(٤) طبقات ابن سعد (٦/ ٢٣).

وكان معاوية رجلًا طويلًا أبيضَ، جميلًا، مهيبًا[1].

وعن أبي الدرداء قال: ما رأيت أشبه صلاة برسول الله ﷺ من أميركم هذا، يعنى معاوية[2].

وكان يُضرب بحلمه المثل، فعن قبيصة بن جابر قال: صحبت معاوية، فما رأيت رجلًا أثقل حلمًا، ولا أبطأ جهلًا، ولا أبعد أناة منه[3].

تُوفي رسول الله ﷺ وهو عنه راضٍ.

وسَيَّره أبو بكر على رجال، وأمره باللحاق بيزيد إلى الشام.

وفي عهد عمر أرسله يزيد بن أبي سفيان إلى الشام فافتتحها، وأَمَّره عمر على دمشق، ثم أضاف له الأردن وفلسطين وحِمص.

وتوفي عمر وهو عنه راضٍ، وأتى عثمان فأقره على إمارته[4].

من أعظم مناقبه أنه أول من غزا البحر، روى البخاري عن أم حِرام بنت ملحان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: سمعت النبي ﷺ يقول: «**أول جيش من أمتي يغزون البحر قد أوجبوا**» وفي الصحيحين: «**أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم**». قال الحافظ: قال المهلب: في هذا الحديث منقبة لمعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لأنه أول من غزا البحر، ومنقبة لولده يزيد أنه أول من غزا مدينة قيصر[5].

ومن المتفق عليه بين المؤرخين أن غزو البحر وفتح جزيرة قبرص كان في سنة (٢٧هـ) في إمارة معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على الشام أثناء خلافة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

---

(١) أورده الذهبي في السير (٣/ ١٣٤).

(٢) السابق (٣/ ١٣٥)، وقال الشيخ شعيب: رجاله ثقات.

(٣) نفسه (٣/ ١٥٣).

(٤) التاريخ الإسلامي (٤/ ٧١)، بتصرف واختصار.

(٥) فتح الباري (٧/ ١٩٦).

وكذلك غزو القسطنطينية كان في منتصف عهده[١] قال ابن كثير: وقد كان يزيد أول من غزا مدينة القسطنطينية في سنة تسع وأربعين وهو الجيش الثاني الذي رآه رسول الله ﷺ في المنام عند أم حِرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فقالت: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «**أنتِ من الأولين**»، يعني جيش معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين غزا قبرص ففتحها سنة سبع وعشرين، وكان معهم أم حرام فماتت هناك بقبرص، ثم كان أميرُ الجيش الثاني ابنه يزيد، ولم تدرك أم حرام، جيش يزيد هذا، وهذا من أعظم دلائل النبوة[٢].

وعندما بُويع بالخلافة لعلي بن أبي طالب، بَايع كلُ الأمراء إلا معاوية أمير الشام، وحدث خلاف في وجهات النظر كما يحدث لأفراد الأسرة الواحدة، ووقع قتال في الجمل وصفين بسبب ابن السوداء، وكانوا كلهم مُتحابين مُتآلفين، لم يُرد أحد منهم القتال، وهم في الجنة كما وصفهم مولاهم تبارك وتعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

ثم قُتل علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فبُويع الحسن بالخلافة، لكنه تنازل عنها لمعاوية؛ حقنًا لدماء المسلمين.

ومن مناقبه ما أخرجه مسلم[٣] عن ابن عباس، قال: كنت ألعب مع الغلمان فإذا برسول الله ﷺ قد جاء، فقلت: ما جاء إلا إليّ. فقال: «**اذهب، فادع لي معاوية**»، وكان يكتب الوحي، فذهبت فدعوته، فقيل: إنه يأكل، فجئت رسول الله ﷺ فقلت: هو يأكل فقال: «**اذهب فادعه**» فأتيته الثانية، فقيل: إنه يأكل. فأخبرته، فقال في الثالثة: «**لا أشبع اللهُ بطنه**»، قال: فما شبع بعدها.

---

(١) الأحاديث النبوية في فضائل معاوية بن أبي سفيان، محمد الأمين الشنقيطي ص ٤١ ط دار الضياء.

(٢) البداية والنهاية (٨/ ٢٢٦).

(٣) كتاب البر والصلة والآداب برقم (٣٨٤٢).

وقد انتفع معاوية بهذه الدعوة، فقد أتبع مسلم هذا الحديث بالحديث الذي رواه البخاري: «**اللهم إنما أنا بشر، وأيما عبد سببتُه أو جلدتُه، أو دعوتُ عليه وليس لذلك أهلًا، فاجعل ذلك كفارة وقربة تقربه بها عندك يوم القيامة**».

فركَّب مسلم من هذا الحديث والذي قبله فضيلة لمعاوية، ولم يورد له غير ذلك.

ولقد دعا له رسول الله ﷺ بالهداية، فعن عبد الرحمن بن أبي عميرة المزني قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في معاوية: «**اللهم اجعله هاديًا مهديًّا، واهده واهد به**»[١].

فلا شك أنها منقبة عظيمة أن يدعو له النبي ﷺ بالهداية وهو الذي لا ترد دعوته، وأي فضيلة أعظم من هداية الغير؟

وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاوية؟!»[٢].

وقال عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ما رأيت أحدًا أخلق للملك من معاوية، إن كان ليَرِدُ الناس منه على أرجاء وادٍ رَحْب»[٣].

وقال قبيصة بن جابر الأسدي: صحبت عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فما رأيت رجلًا أفقه فقهًا ولا أحسن مدارسة منه، ثم صحبت معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فما رأيت رجلًا أحب رفيقًا ولا أشبه سريرة بعلانية منه[٤].

---

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذي، وصححه الألباني ـ رحمة الله عليه ـ.

(٢) تاريخ الطبري (٦/ ١٨٤).

(٣) طبقات ابن سعد (٦/ ٢٠) ط الخانجي.

(٤) تاريخ الطبري (٦/ ١٨٨).

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لله در ابن هند، وَلِيَنا عشرين سنة فما آذانا على ظهر منبر ولا بساطٍ صيانة منه لعرضه وأعراضنا، ولقد كان يحسن صلتنا ويقضي حوائجنا[١].

عن الزهري أنه سأل ابن المسيب عن أصحاب رسول الله ﷺ، فقال لي: اسمع يا زهري، من مات مُحبًّا لأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وشهد للعشرة بالجنة، وترحم على معاوية، كان حقًّا على الله ألا يُناقشه الحساب.

وبالسند الصحيح عن ابن المبارك قال: تراب في أنف معاوية أفضل من عمر بن عبد العزيز.

وقال: معاوية عندنا محنة دين، فمن رأيناه ينظر إليه شزرًا اتهمناه على القوم، يعني الصحابة.

وسُئل المعافى بن عمران: أيهما أفضل معاوية أم عمر بن عبد العزير؟ فغضب، وقال للسائل: أتجعل رجلًا من الصحابة مثل رجل من التابعين؟ معاوية صاحبه، وصهره، وكاتبه، وأمينه على وحي الله[٢].

وعن الربيع بن نافع قال: معاوية بن أبي سفيان سترُ أصحاب النبي ﷺ، فإذا كشف الرجل الستر اجترأ على ما وراءه.

وروى البخاري عن ابن عباس أن ابن أبي مليكه قال له: إن معاوية يُوتر بعد العشاء بركعة. فقال: «إنه فقيه».

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكان حليمًا وقورًا، رئيسًا سيدًا في الناس، كريمًا، عدلًا، شهمًا»[٣].

---

(١) أنساب الأشراف، للبلاذري، (٥/ ٩١) ط دار الفكر.

(٢) البداية والنهاية (٨/ ٣١٥). بتصرف.

(٣) السابق (٨/ ٢٩١).

ومن فضائله شهادة علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ له أنه أهل للإمارة، فقال بعدما رجع من صفين وقد تغير كلامه: «لا تكرهوا إمارة معاوية، فلو قد فقدتموه، لرأيتم الرؤوس تتطاير عن كواهلها». وقد روي هذا عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من وجهين أو ثلاثة[١].

- وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قال: كان معاوية أحلم الناس. قالوا يا أبا عبد الرحمن: أبو بكر؟ قال: أبو بكر خير من معاوية، ومعاوية أحلم الناس. قالوا يا أبا عبد الرحمن: عمر؟ قال: عمر خير من معاوية، ومعاوية أحلم الناس[٢].

وعن الزهري قال: عمل معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بسيرة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سنين لا يخرم منها شيئًا.[٣]

خلافته

كانت خلافة معاوية حقنًا لدماء المسلمين، وتوحيدًا لكلمتهم.

واستتب الأمر له، وعاد الأمن لدولة الإسلام، وبايع له المعارضون وأجمعت الأمة عليه.

قال ابن خلدون في تاريخه: إن دولة معاوية وأخباره كان ينبغي أن تلحق بدولة الخلفاء الراشدين وأخبارهم؛ فهو تاليهم في الفضل والعدالة والصُّحبة[٤].

و **قال ابن تيمية**: لم يكن من ملوك الإسلام ملك خيرًا من معاوية، وكانت سيرته مع رعيته من خيار سيرة الولاة، وقد كانت رعيته يحبونه، وثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ قال: «**خيار أئمتكم الذين تُحبونهم ويُحبونكم**،

---

(١) منهاج السنة، لابن تيمية (٦/ ١١٤).

(٢) السنة للخلال (١/ ٤٤٣) وقال محققه: «إسناده صحيح»، ط دار الراية.

(٣) السابق (١/ ٤٤٤).

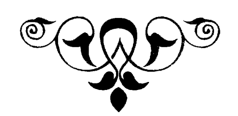
(٤) نقلاً عن: الموسوعة المُيسرة في التاريخ الإسلامي (١/ ١٧٤).

وتُصلون عليهم ويُصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم»[١].

ولـم يبـق في أيام معاويـة معارض له، بـل كل دخل في طاعتـه، وانخرط في صفـوف المقاتليـن، فعـادت الفتوحـات إلى أيامهـا الأولـى، وكان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في طليعـة المجاهديـن مثل: عبادة بـن الصامت، وأبـي أيوب، وابن الزبير، وابن عباس، وابن عمر، وابن عمرو، وشداد بن أوس، وغيرهم[٢].

وتولى كثير من الصحابة الولايات لمعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ جميعًا؛ فتولى المغيرة إمرة الكوفة، ومن بعده النعمان بن بشـير، وعمرو بن العاص إمرة مصر، ومن بعده عقبة بن عامر، ثم معاوية بن خديج، وتولى سمرة بن جندب إمرة البصرة.

لقـد كان معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مجتهدًا، أدرك ما يتطلبه بناء الدولة، فكان أول من وضع أسـاس الإدارة المتقدمة للدولة الإسـلامية الموحدة، وكانت اجتهاداته كثيـرة وشـاملة، ومنها أنه أول من نظم الشـرطة، وعين لها قائدًا مسـئولًا يدبر لها أمورها ويحدد لها واجباتها ومسـئولياتها، وكان له حرس خاص وحُجَّاب خاصون، وكان له قضاة يقضون بين الناس، وكان أول من اتخذ ديوان الخاتم وحَـزَم الكتـب، ولـم تكن تحـزم من قبـل، وكان ولاتـه يقتدون بـه وينفذون تعليماته بدقة، فظهر التنظيم الشامل للدولة[٣].



(١) منهاج السنة (٦/ ٣٥٩).

(٢) التاريخ الإسلامي، لمحمود شاكر (٤/ ٧٦).

(٣) قادة فتح بلاد الشام والعراق، بسام العسيلي، ص ٤٥٣.

الفتوحات في عهد معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ

عادت ولله الحمد الفتوحات في عهد معاوية، وعاد المسلمون يمارسون مهام وظيفتهم التي ورثوها من سيد الخلق ﷺ، ألا وهي الدعوة إلى الله والجهاد في سبيل الله، لتعبيد الناس لربهم جل في علاه.

وامتدت الفتوحات من المحيط الأطلسي في غربي إفريقية، إلى البحر الأبيض المتوسط كله، وتساير ذرا جبال طوروس، وبلاد القفقاس، وبلاد ما وراء النهر، وطخارستان، والأفغان، لتصل إلى بلاد السند، فسواحل المحيط الهندي على بلاد الهند[1].

قال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «دانت له الأمم، وحكم على العرب والعجم، وكان مُلكه على الحرمين ومصر والشام والعراق وخرسان وفارس والجزيرة واليمن والمغرب وغير ذلك»[2].

وهي مع هذا الامتداد العظيم تشمل جبهتين رئيسيتين:

١- الجهة الغربية: التي تضم مناطق الروم.

٢- الجهة الشرقية: التي تضم مجموعات وثنية تعيش في شمال وشرقي دولة الإسلام.

١- الجهة الغربية

وتشمل بلاد الروم، والمناطق التي يُسيطرون عليها، سواء أكانت في البر مثل إفريقية ومنطقة الأناضول، أم في البحر -أي البحر المتوسط المعروف

---

(١) التاريخ الإسلامي، لمحمود شاكر (٤/ ٨٧).

(٢) السير (٣/ ١٣٣).

ببحـر الروم آنذاك، وأراد معاوية أن يسيطر على عاصمتهـم، فوجه إلى قلبها قوة ليركز الروم جيوشـهم هنـاك، وبالتالي تضعف المناطق الأخرى فيسـهل على المسلمين فتحها.

وكانت الجبهة الغربية ثلاث جهات:

أـ بلاد الروم

المعروفـة اليوم باسـم الأناضول أو تركيا، وقد وصل المسـلمون إلى هذه الجهـات وتوقفوا عند جبال طوروس، وأقامـوا الثغور والقلاع هناك، وكانت الغـارات لا تنقطـع، وقد يحدث تقدم في بـلاد الروم ثم يعود المسـلمون إلى قلاعهـم وثغورهم، وقـد رتب معاوية في هـذه المنطقة الصوائـف التي كانت تغـزو في فصل الصيف، والشـواتي التـي كانت تغزو في فصل الشـتاء، ووصل عدد الغزوات ست عشرة غزوة[١].

وقـد برز في هذه الحملات المسـتمرة عدد من كبار قادة المسـلمين الذين أتقنـوا فـن الحرب، مثل: عبد الله بن كرز البجلي، ويزيد بن شـجرة الرهاوي، ومالك بن هبيرة السكوني، وجنادة بن أمية الأزدي، وسفيان بن عوف، وفضالة ابـن عبيـد، ومالك بن عبـد الله الخثعمي، الذي أطلقوا عليـه ملك الصوائف، لعلو كعبه في ميدان الحرب في آسيا الوسطى[٢].

معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يخطط لفتح القسطنطينية

واصل معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اسـتعداداته لإسقاط القسطنطينية لأنها هي التي تمد جزر شرق البحر المتوسط بالقوات والعتاد، وتشجع أهلها على شن الغارات

---

(١) التاريخ الإسلامي، لمحمود شاكر (٤/ ٨٨).بتصرف يسير.

(٢) العالم الإسلامي في العصر الأموي، د/ عبد الشافي محمد عبد اللطيف، ص ـ٢١٨ ط دار السلام.

على ساحل مصر والشام، فقام معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعدة خطوات:

الأولى: اهتم بدور صناعة السفن في مصر والشام، فبرز الأسطول الإسلامي قوة ضاربة في البحر المتوسط في وقت قياسي.

الثانية: قام بتقوية الثغور البحرية في مصر والشام وشحنها بالسفن والجند، كصور وعكا والإسكندرية، لتكون قادرة على صد أي هجوم بحري بيزنطي.

الثالثة: استولى على الجزر الواقعة في شرقي المتوسط، فبدأ بقبرص، ورودس، وأرواد وأسكنها المسلمين، وكريت، تمهيدًا للوصول إلى القسطنطينية(١).

أولى الحملات على القسطنطينية

في عام ٤٨هـ جهز معاوية حملة كبيرة من البر والبحر لتغزو القسطنطينية، وأعطى قيادة البر لسفيان بن عوف الأزدي، وخرج معه عبد الله بن عباس، وابن عمر، وابن الزبير، وأبو أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وأَمَّرَ معاوية ابنه يزيد على الحملة، فساروا حتى بلغوا القسطنطينية، فاقتتل المسلمون والروم، ولم يستطع جيش العرب فتح القسطنطينية لمتانة أسوارها ومنعة موقعها، وفتكت النار الإغريقية بسفن المسلمين، وفي أثناء الحصار قُتل أبو أيوب الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فدفن خارج أسوار القسطنطينية، واضطر المسلمون للعودة إلى الشام بعد أن فقدوا كثيرًا من جندهم وسفنهم(٢).

---

(١) العالم الإسلامي في العصر الأموي، د/ عبد الشافي محمد عبد اللطيف، ص ٢١٥.

(٢) تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، د/ حسن إبراهيم حسن (١/ ٢٢٩) ط دار الجيل - بيروت.

قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فيُقال إن الروم صاروا بعد ذلك يستسقون به[١].

روى البخاري عن أم حرام بنت ملحان أن رسول الله ﷺ قال: «**أول جيش من أمتي يركبون البحر قد أوجبوا، وأول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور له**»[٢]، ومدينة قيصر هي القسطنطينية.

المحاولة الثانية

أعد معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أسطولًا ضخمًا، وأرسله ثانية لحصار القسطنطينية وظل مرابطًا أمام أسوارها من سنة ٥٤ هـ حتى سنة ٦٠ هـ، فكانت الأساطيل تنقل الجنود إلى البر لمحاصرة أسوار القسطنطينية، وتخلل هذا الحصار مناوشات بين الأسطولين، وتراشق بين القوات البرية الإسلامية والبيزنطية، ورغم جلد المسلمين وتحملهم المشاق إلا أن المدينة صمدت أمامهم لمناعتها وقوة دفاعاتها وحشدها بالمؤن والمتاع لتقاوم الحصار الذي كان يتوقعه الإمبراطور قسطنطين الرابع، وانتهى الحصار بعقد صلح عاد بمقتضاه الجيش الإسلامي إلى الشام[٣].

فتح جزيرة جربا

نزل المسلمون بجزيرة صقلية عام ٤٨هـ، واستطاع فضالة بن عبيد فتح جزيرة جربا عام ٤٩هـ.

فتح جزيرة رودوس

فتح جنادة بن أمية جزيرة رودوس عام ٥٢هـ، ونقل معاوية جماعة إليها لحمايتها، وهي من أخصب الجزائر، فيها الزيتون والكرم والثمار والمياه العذبة[٤].

---

(١) فتح الباري (٧/ ١٩٦)، طبعة طَيِّبة. (٢) البخاري، كتاب الجهاد والسير.

(٣) العالم الإسلامي في العصر الأموي، د/ عبد الشافي محمد عبد اللطيف ص٢٢٠.

(٤) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٣٣٠.

فتح جزيرة كريت

في عـام ٥٥هـ تم فتح جزيرة كريت، وبعدهـا بعامين تم فتح جزر بحر إيجه القريبة من القسطنطينية تمهيدًا لحصارها من جديد،[١] وفتح جنادة بن أبي أمية (أرواد) سـنة ٥٤ هــ وأسـكنها معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المسـلمين، وهـي بالقرب من القسطنطينية، وغزا جنادة (إقريطش)[٢].

بد البحر

منذ أن تسـلم معاوية إمرة الشـام كان يطمع في منازلة الروم بحريًّا، فأسـس معاويـة دارًا للصناعـة البحرية في عـكا، ورمم ميناء صـور وطرابلس، وكانت تُصنع فيها السـفن التي كانت تمتاز بكبر حجمها واستيعابها لكميات كبيرة من العـدة والعتاد، وبلغ عدد الأسـاطيل البحرية (١٧٠٠) ألف وسـبعمائة كاملة العدد والعدة[٣].

يقول ابن خلدون واصفًا هذه النقلة الحضارية: «فلما استقر الملك للعرب، وشمخ سـلطانهم، وصارت أمم العجم خولًا لهم، تحت أيديهم، وتقرب كل ذي صنعـة إليهم بمبلـغ صناعته، واسـتخدموا النواتيـة[٤] في حاجاتهم البحرية أممًا، وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته، واستخدموا بصراء أمْطَوها العساكر والمُقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر»[٥].

---

(١) التاريخ الإسلامي، لمحمود شاكر الشامي (٤/ ٩٢).

(٢) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٣٣٠.

(٣) التاريخ الإسلامي، لمحمود شاكر (٤/ ٨٩).

(٤) والنواتية: الملاحون.

(٥) مقدمة بن خلدون ص٢٥٣، نقلاً عن: تاريخ الخلافة الأموية، د/ أحمد أبو الأشبال.

جـ- إفريقية

تولى أمر المغرب معاوية بن خديج، ففتح بنزرت ٤١هـ، كما دخل موضع القيروان ٤٥هـ.

وأرسل معاويةُ ابنَ الزبير، ففتح سوسة ٤٥هـ.

وفي سنة (٥٠هـ) أرسل معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عقبة بن نافع وكان يقيم ببرقة وزويلة بعشرة آلاف جندي، فدخل إفريقية وتمكن من فتحها، وأسلم على يديه كثير من البربر، وقد عمل العرب على إدخالهم في جيوشهم، وبذلك تسنى لهم أن يجذبوهم إلى الإسلام حتى وصل إلى بلاد السودان، وكَوَّن البربر نواة الجيوش التي أتمت فتح بلاد المغرب، وأصبح عقبة بن نافع واليًا على إفريقية بعدما كانت تابعة لوالي مصر، واتخذ القيروان مدينة يقيم بها عسكر المسلمين وأهلوهم[1].

٢- الجبهة الشرقية

معظمها وثنية بعكس الغربية التي كان يدين معظم سكانها بالنصرانية، فتجد في الشمال شعوب القفقاس، وفي الشمال الشرقي نجد الأتراك في بلاد ما وراء النهر[2]، وفي الشرق نجد طخارستان وسجستان، وفي الجنوب الشرقي بلاد السند[3].

---

(١) تاريخ الإسلام، د/ حسن إبراهيم حسن، (١/ ٢٢٩). بتصرف يسير.

(٢) أي: نهر جيحون بخراسان، وهي منطقة تمتد من تركيا غربًا إلى حدود الصين شرقًا، وقد باتت مقسمة إلى تركستان الشرقية التي تخضع للاحتلال الصيني، وتركستان الغربية التي تضم خمس دول: طاجيكستان، تركمانستان، وقيزغيزستان، وأوزبكستان، وكازاخستان، بالإضافة إلى أذربيجان، وتعتبر سمرقند وبخارى من أعظم بلاد ما وراء النهر.

(٣) انقسمت شبه القارة الهندية في القديم إلى قسمين كبيرين هما: بلاد «السند والبنجاب» وبلاد «الهند»، وبلاد السند هي البلاد المحيطة بنهر السند الذي يصب في المحيط الهندي، وتمتد هذه البلاد غربًا من إيران إلى جبال «الهمالايا» وتكَوِّن الآن جزءًا كبيرًا من دولة باكستان الحالية.

غـزا المسـلمون بلاد الـلان ٤١هـ، وفتحـوا (الرُّخَّـج) وغيرهـا من بلاد سجستان ٤٣هـ.

وفتحـوا القيقان في طخارسـتان، كما فتحوا قوهسـتان، وفي عام ٥٥هـ قطع عبيد الله بن زياد نهر جيحون(١) ووصل إلى تلال بخارى(٢).

وفي عام ٤٤هـ غزا المسلمون بلاد الهند بإمرة المهلب بن أبي صفرة، وسار إلى قندابيل وهي بلدة في السند، وكسر العدو كسرة وسلم وغنم(٣).

البريد السريع وديوان الخاتم

استحدث معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فكرة البريد السريع، فابتكر في الوصول إلى ذلك أن جُعل خيل مضمرات في عدة أماكن متفاوتة وعلى مسـافات ليسـت ببعيدة، فـإذا وصـل صاحب الخبر على دابته، حمل عنه الرسـالة من ينتظره على دابته المستريحة، وهكذا يتناوبون الطريق حتى يصل الخبر بسرعة.

أمـا فكرة ديوان الخاتم: فتدور على أنه إذا حدث وصدر توقيع من الخليفة -وهـو معاويـة آنذاك- بأي أمر مـن الأمور، أُحضر التوقيع إلـى هذا الديوان، وأُثبت نسخته فيه وحُزم بخيط، وخُتم بشمع، وكان على ديوان الخاتم عبد الله بن مِحْصن الحِمْيري(٤).

---

(١) نهرا سـيحون وجيحون من الأنهار الرئيسية في آسيا الوسـطى، وهما من أطول أنهارها، ويطلق على المنطقة الواقعة بين هذين النهرين: بلاد ماوراء النهر، التي عرفت فيما بعد باسم بلاد «القوقاز».

(٢) التاريخ الإسلامي، لمحمود شاكر (٤/ ٩٤).

(٣) تاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ١٢) ط دار الكتاب العربي.

(٤) تاريخ الإسـلام والمسـلمين في العصر الأموي ص ٦٧، للشـيخ/ مجدي فتحي السيد، ط الصحابة بطنطا.

الخوارج في عهد معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

كانت بداية ظهورهم في عهد علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فأرغموه على وقف القتال في صفين، ثم عادوا ورفضوا التحكيم، ولما عاد الجيش إلى الكوفة انحاز عنه اثنا عشر ألفًا ولحقوا بقرية «حروراء»، ثم ناظرهم علي فردهم، لكنهم اجتمعوا ثانية وتوجهوا نحو المدائن، فتوجه إليهم علي لكنهم كانوا يقتلون رسله ويرمونه بالكفر؛ لأنه لم يُحكِّم كتاب الله -في زعمهم- وحكَّم الرجال.

فقاتلهم في النهروان، وكان مقتل عليٍّ عَلَى أيديهم؛ حيث قتله ابن ملجم، وأصابوا معاوية، وقتلوا من حضر الصلاة مكان عمرو بن العاص، ثم في خلافة معاوية خرجوا لقتاله، ونزلوا الكوفة، وكان واليها المغيرة بن شعبة يُخْبَرُ عنهم؛ فيقال له: هذا فلان يرى رأي الشيعة، وفلان يرى رأي الخوارج.

واجتمع الخوارج في منزل أحدهم استعدادًا للخروج، فعلم المغيرة، فأرسل إليهم معقل بن قيس في ثلاثة آلاف، فلم يثبتوا أمام الخوارج، فجاءهم مدد آخر حصر الخوارج، فلم ينج منهم إلا خمسة أو ستة، وخف بعد ذلك أثرهم[1].

واشتد والي البصرة عبيد الله بن زياد على الخوارج فقتل وحبس منهم الكثير، لكنهم اجتمعوا بالأهواز حول مرداس أبي بلال، حيث اجتمع حوله أربعون، فأرسل إليهم ابن زياد جيشًا قوامه ألفا رجل، فانتصر الخوارج في معركة آسك، فقال قائلهم:

ألفا مؤمن منكم زعمتم ... ويقتلهم بآسك أربعونا

كذبتم ليس ذاك ما زعمتم ... ولكن الخوارج مؤمنونا

هي الفئة القليلة كما علمتم ... على الفئة الكثيرة يُنصرونا[2]

---

(١) الدولة الأموية، للخضري بك، ص ٤٣٥ .بتصرف.

(٢) التاريخ الإسلامي (٤/ ٩٨)، لمحمود شاكر.

طلب البيعة ليزيد

لمـا أحس معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقرب أجله قرر استـخلاف ابنـه يزيد، ثم طلب البيعة له من جميع الأمصار، فبايعت كافة الأمصار عدا أربعة رجال من المدينة وهم: عبد الله بن عمرو، والحسين بن عليّ، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن ابن أبي بكر؛ وحجتهم أنه لا تصح البيعة لأكثر من رجل في آن واحد، وكذلك لوجود مَن هو أفضل من يزيد وأحق بالإمامة منه، وهذا مما لا ينازع فيه أحد.

حـث معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ واليه على المدينة مروان بن الحكم على طلب البيعة ليزيد، لكنه لم يستطع الحصول على البيعة من هؤلاء الأربعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، عندئذ لـم يجد معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من بد في الذهاب إلى المدينة لطلب البيعة بنفسـه من هؤلاء الأربعة الكرام.

وممـا لا شـك فيه أنـه حدثت مُحـاورات ومُناظرات بيـن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهؤلاء النفـر كما ذكر الطبري في تاريخه وابن كثير في البداية والنهاية، ولكنها انتهت دون جدوى، ولم يستطع معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إقناعهم، أما ما دار بينهم على وجه الدقة فلم يُنْقَل إلينا بالسند الصحيح الذي يطمئن له القلب، وحينئذ لابُد من الرجوع إلى القواعد العامة عند أهل السنة والجماعة، ومنها:

١- القاعدة التي أجمع عليها السلف في هؤلاء الصحب الكرام، وهي عدم التنقير والتنقيب عما حدث بينهم، وعدم تنقصهم أوذكرهم بسوء.

٢- والقاعـدة التـي أجمـع عليها علماء الأمـة، وهي عدم قبـول الروايات المكذوبـة، والتـى يرويهـا الكذابـون والوضاعـون، كأبـي مخنـف الرافضي المحترق، والكلبي وغيرهما.

٣- والقاعدة الكبرى عند أهل السنة والجماعة، وهي الاعتذار عن المخطئ من هؤلاء الصحب الكرام، خاصة في مسائل الاجتهاد وأنه مأجور على جهده في تحري الحق، ثم إنَّ من رفض البيعة منهم كان غرضه مصلحة الإسلام والمسلمين، ولا شك أن هؤلاء الأربعة أُوتوا من العلم والفقه والبصيرة ما يؤهلهم لاتخاذ مثل هذا الموقف، -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ- جميعًا.

ثم رجع معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إلى الشام، فما لبث أن عاجلته المنية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فبايع يزيدَ بن معاوية كلٌّ من ابن عمرو وابن أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وبقي الحسين وابن الزبير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ على موقفهما السابق، وهذا مما لا يُشك فيه من جهة النقل، أما ابن الزبير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا فعاذ ببيت الله ولم يبايع، ولا دعا لنفسه، وأما الحسين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا فسار من مكة لما جاءته كتب كثيرة من عامة الأشراف بالكوفة فسار إليها، فجرى ما جرى «وكان أمر الله قدرًا مقدورًا»[1].

ما وُجِّه لمعاوية من انتقادات

وجه خصوم بني أمية لمعاوية خاصة ولبني أمية عامة كثيرًا من الانتقادات، لكنها كلها جوفاء، لم تنل من شخصية هذا الصحابي الجليل كاتب الوحي وخال المؤمنين، والذي دعا له رسول الله ﷺ وزكى جيشه، ذاك الجيش الذي غزا البحر وغزا مدينة قيصر، فمن ذلك:

١- أنهم ادعوا أن معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قتل حُجر بن عدي ظلمًا، وحجر بن عدي تابعي في قول الأكثر وليس صحابيًا، قال ابن حجر: أما البخاري وابن أبي حاتم عن أبيه، وخليفة بن خياط، وابن حبان، فذكروه في التابعين، وكذا ذكره ابن سعد في الطبقة الأولى من أهل الكوفة[2].

---

(١) تاريخ الإسلام، للذهبي، خلافة معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ص١٧٠.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة، ص ٢٥٩ ط بيت الأفكار الدولية.

قال البلاذري: كان حُجر وطائفة من أصحابه يجتمعون في المسجد - في الكوفة - ويجتمع الناس إليهم، فيذمون معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ويشتمونه، حتى تعلو أصواتهم بذلك، فأتي عمرو بن حريث المسجد - وكان زياد قد استخلفه على الكوفة وذهب إلى البصرة - فصعد المنبر، فوثب إليه عنق من أصحاب حجر، فضجوا وشتموا، ودنوا منه فحصبوه حتى دخل القصر[1].

وعند ابن سعد: وكانت الشيعة يختلفون إليه ويقولون: إنك شيخنا وأحق الناس بإنكار هذا الأمر، وكان إذا جاء المسجد مشوا معه، فأرسل زيادٌ عديَّ ابن حاتم وجرير بن عبد الله البجلي وخالد بن عرفطة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وعدة من أشراف أهل الكوفة إلى حجر بن عدي ليعذر إليه، وينهاه عن هذه الجماعة، وأن يكف لسانه عما يتكلم به، فأتوه فلم يجبهم بشيء ولم يكلم أحدًا منهم، وجعل يقول: يا غلام اعلف البكر - وكان في ناحية الدار-. فقال له عدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أمجنون أنت؟ أكلمك بما أكلمك به، وأنت تقول: يا غلام اعلف البكر؟! فأتوا زيادًا وأخبروه، فأرسل إليه الشرطة، فقاتلهم بمن معه، ثم انفضوا عنه، وأُتي به زياد وبأصحابه، فجمع زياد سبعين من وجوه أهل الكوفة، فقال: اكتبوا شهادتكم على حجر وأصحابه، ثم وفدهم على معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2].

فيظهر من هذا السياق:

١- أنه كان ينازع خليفة المسلمين أمر الناس، وكان يحرض عليه.

٢- أنه روجع في ذلك، وكان ممن راجعه بعض الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ولكنه أصر ولم يرجع.

---

(١) أنساب الأشراف (٥/ ٢٧٣).

(٢) طبقات ابن سعد (٨/ ٣٣٧)، ط الخانجي.

٣- أنه شهد عليه الشهود بما فعله من التأليب على خليفة المسلمين معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فأمر بقتله، امتثالًا لأمره ﷺ حين قال في صحيح مسلم: «**فمن أراد أن يُفرِّق هذه الأمة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائنًا من كان**».

قال النووي: فيه الأمر بقتال من خرج على الإمام، أو أراد تفريق كلمة المسلمين ونحو ذلك، ويُنهى عن ذلك، فإن لم ينته قوتل، وإن لم يندفع شره إلا بقتله فقتل كان هدرًا[١].

وماعند ابن سعد يدل على أن الشيعة غرروا به، وألبوه على معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأنه صدر منه ما يقتضي تفريق كلمة المسلمين، واستحقاق القتل، كما في الحديث السابق، لا سيما وقد نُهي عن ذلك من بعض الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم[٢].

وقال ابن العربي: رأى حُجر من زياد بن أبيه أمورًا منكرة، فحصبه، وخلعه، وأراد أن يقيم الخلق للفتنة، فجعله معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ممن سعى في الأرض فسادًا[٣].

وقال محب الدين الخطيب: كان زياد في خلافة علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من ولاته، وكان حجر من أولياء زياد وأنصاره، ولم ينكر عليه شيئًا، فلما صار من ولاة معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صار ينكر عليه مدفوعًا بعاطفة التشيع، وكان حجر يفعل مثل ذلك مع من تولى الكوفة لمعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قبل زياد، فلمعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عذر إذ رأى أن حُجرًا ممن سعى في الأرض فسادًا.

---

(١) كتاب الإمارة مع شرح النووي (١٢/ ٤٤٤) ط المعرفة - بيروت.

(٢) الأحاديث النبوية في فضل معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، ص ٦٣ ط دار الضياء.

(٣) العواصم من القواصم، ص ٢٢٠ مكتبة السنة.

وقـال أيضًـا: والمعارضـون يذكـرون فضائل حجـر ويقولـون: كان ينبغي لمعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ألا يخرج عن حِلمه وسعة صدره لمخالفيه.

ويجيبهـم الآخرون: بأن معاوية يملك الحِلم وسـعة الصـدر عند البغي على شـخصه، فأما البغي على الجماعة في شـخص حاكمها وهو علـى المنبر فهو ما لايملك معاوية أن يتسامح فيه، ولاسيما في مثل الكوفة التي أخرجت العدد الأكبر من أهل الفتنة الذين بغوا على عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بسـبب هذا التسامح، فكبدوا الأمة من دمائها وسمعتها وسلامة قلوبها تضحيات غالية كانت في غنىً عنها لو أن هيبة الدولة حُفظت بتأديب عدد قليل من أهل الرعونة والطيش في الوقت المناسب[1].

فكان لمعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وجهة نظر في قتل حجر، وأنه رأى فيه خطرًا على كيان الدولـة، ورأى أنـه بتجنيب الدولة هذا الخطر إنما يقـوم بواجب من الواجبات الملقاة على عاتقه بوصفه المسئول الأول في الدولة الإسلامية[2].

وهذا ما احتج به معاوية عندما ذكرت له عائشـة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ذلك، فعن ابن أبي مليكة أن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما حج أتى عائشـة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فذكرت أمر حجر، فقال: خشـيت فتنة، فكان قتلـه خيرًا من حرب تهراق فيها الدماء وتسـتحل المحارم، فدعيني يفعل الله بي ما يشاء. فقالت: ندعك والله، ندعك والله[3].

٢ـ أن معاوية أخذ البيعة ليزيد ابنه

فعـدل عن طريـق من مضـى؛ لذا قـال ابـن العربـي رَحِمَهُ اللَّهُ: إن معاوية ترك الأفضل في أن يجعلها شورى وألا يخص بها أحدًا من قرابته، فكيف ولدًا؟![4].

---

(١) حاشية العواصم من القواصم ص ٢١٩.

(٢) الدولة الأموية، د/ حامد غنيم ص ٧٣ ط دار الثقافة.

(٣) أنساب الأشراف، للبلاذري (٥/ ٢٧٣) دار الفكر.

(٤) العواصم من القواصم ص ٢٢٨.

وقال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وليته لم يعهد بالأمر إلى ابنه يزيد، وترك الأمة من اختيار لهم»[١].

ولكن الشيء المقطوع به أنه اجتهد في ذلك لمصلحة الأمة، وأنه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وأرضاه - بعيد كل البعد عن أخذ البيعة لابنه مُتبعًا لهواه، حاشا وكلا، **وبالنظر إلى أحوال الأمة آن ذاك نجد الآتي:**

أولًا: أن الأمة مازال دمها لم يرقأ بعدُ من جراء الهزات العنيفة التي حدثت بين الصحب الكرام بسبب ابن السوداء، فهي لم تعد تحتمل أي شقاق وخلاف مرة ثانية.

ثانيًا: أن شيعة عليّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مازالوا يرون أحقيتهم في هذا الأمر دون معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ثالثًا: أن الخوارج مازالوا يرون قضية التحكيم ضلالة، وأنهم لا يرون البيعة إلا لرجل على مذهبهم ومعتقدهم.

رابعًا: أن الدولة الإسلامية بدأت في الصعود نحو القمة، والدعوة الإسلامية تتقدم بسرعة كبيرة لتفتح ميادين جديدة لتشرق عليها شمس الرسالة المحمدية، فلابد إذًا من حمايتها والحفاظ على تقدمها.

خامسًا: أن رأي معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ تقديم الفاضل في القوة والرأي والمعرفة على الفاضل في السبق إلى الإسلام والدين والعبادة[٢].

لهذا وغيره رأى معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن الصواب أخذ البيعة لابنه يزيد.

---

(١) السير (٣/ ١٥٨)، ط الرسالة.

(٢) ومذهب معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ذكره الحافظ في الفتح (٩/ ٢٠٠)، ط طيبة.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فلما مات الحسن قَوِيَ أمر يزيد عند معاوية، ورأى أنه لذلك أهلٌ، ولِما كان يتوسم فيه من النجابة الدنيوية، وسيما أولاد الملوك ومعرفتهم بالحروب وترتيب المُلك والقيام بأبهته، وكان ظنه أنه لايقوم أحد من أبناء الصحابة في هذا المعنى، ولهذا قال لعبد الله بن عمر فيما خاطبه به: إني خفت أن أذر الرعية من بعدي كالغنم المطيرة ليس لها راع»[١].

قال ابن خلدون: والذي دعا معاوية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لإيثار ابنه إنما هو **مراعاة المصلحة في اجتماع الناس واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذ من بني أمية**، إذ بنو أمية يومئذ لا يرضون سواهم، وهم عصابة قريش وأهل الملة أجمع، فآثره بذلك دون غيره ممن يظن أنه أولى بها، وعدل عن الفاضل إلى المفضول حرصًا على الاتفاق واجتماع الأهواء الذي شأنه أهم عند الشارع، وإن كان لا يُظن بمعاوية غير ذلك؛ فعدالته وصحبته مانعة من سوى ذلك وحضور أكابر الصحابة لذلك، وسكوتهم عنه دليل على انتفاء الريب فيه، فليسوا ممن يأخذهم في الحق هوادة، وليس معاوية ممن تأخذه العزة في قبول الحق، فإنهم كلهم أجلّ من ذلك وعدالتهم مانعة منه[٢].

ثم قال ابن خلدون: أفلا ترى إلى المأمون لما عهد إلى علي بن موسى بن جعفر الصادق وسماه الرضا، كيف أنكرت العباسية ذلك ونقضوا بيعته وبايعوا عمه إبراهيم بن المهدي، وظهر الهرج والخلاف وانقطاع السبل وتعدد الثوار والخوارج، ما كاد أن يصطلم الأمر حتى بادر المأمون من خراسان إلى بغداد، ورد أمرهم لمعاهِدِهِ[٣].

---

(١) البداية والنهاية، نقلاً عن: تاريخ الخلافة الأموية، د/ أبو الأشبال.

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٦٩، ط المكتبة الثقافية الدينية.

(٣) السابق ص ١٦٩.

وقال حميد بن عبد الرحمن: دخلنا على بشير وكان صحابيًّا، حين استخلف يزيـد فقال: يقولون إنما يزيد ليس بخير أمـة محمد ﷺ وأنا أقول ذلك، ولكن لأن يجمع الله أمة محمد ﷺ أحب إليَّ من أن تفترق[1].

وقـال محـب الديـن الخطيب: عـدل معاوية عـن الوجه الأفضـل لما كان يتوجس من الفتن والمجازر إذا جعلها شورى، وقد رأى القوة والطاعة والنظام والاستقرار في الجانب الذي فيه ابنه[2]، وفعلاً صدق حس معاوية وظنه، فبعد هـلاك يزيد بن معاوية مـاذا كان الأمر؟ العـراق والحجـاز لعبد الله بن الزبير، والشـام لعبـد الملـك بن مـروان، ووقعـت دماء وسـالت أنهار، حتـى انتصر عبد الملك بن مروان على خصمه عبد الله بن الزبير[3].

الفوائد والدروس والعبر

١ - جمهـور العلماء على جواز تولية المفضول مع وجود الفاضل إذا كان لعذر، قال الإمام أبو يعلى الفراء: لو عدلوا عن الأفضل لغير عذر لم يجز، وإن كان لعذر من كون الفاضل غائبًا أو مريضًا أو كان المفضول أطوع جاز.

وقـال الإمام الجويني: والذي صار إليه معظم أهل السـنة أنه يتعين للإمامة أفضـل أهـل العصر إلا أن يكـون في نصبه هرج وهيجان وفتـن، فيجوز نصب المفضول إذ ذاك، إذا كان مستحقًّا للإمامة.

ومن الأدلة على ذلـك أنه كما قال الباقلاني: الإمام إنما يُنَصب لدفع العدو وحماية البيضة، وسد الخلل، وإقامة الحدود، واستخراج الحقوق، فإذا خِيف

---

(١) تاريخ الإسلام، للذهبي، خلافة معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ص ١٦٩.

(٢) حاشية العواصم من القواصم ص ١٦٩.

(٣) إباحة المدينة، محمد العريان، نقلاً عن: تاريخ الخلافة الأموية، د/ أبو الأشبال.

بإقامة أفضلهم الهرج والفساد والتغالب، وترك الطاعة واختلاف السيوف، وتعطيل الأحكام والحقوق وطمع عدو المسلمين في اهتضامهم وتوهين أمرهم، صار ذلك عذرًا واضحًا في العدول عن الفاضل إلى المفضول[١].

٢ - على أية حال، فإننا نقول كما قال شيخ الإسلام: وعلى كل تقدير فهذا لايقدح فيما عليه أهل السنة، فإنهم لا ينزهون معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ولا من هو أفضل منه من الذنوب فضلًا عن تنزيههم عن الخطأ في الاجتهاد، بل يقولون: إن الذنوب لها أسباب تدفع عقوبتها، من التوبة والاستغفار والحسنات الماحية والمصائب المكفرة وغير ذلك، وهذا أمر يعم الصحابة وغيرهم[٢]، وأخرج ابن سعد عن ابن شهاب عن عروة أن المسور بن مخرمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أخبره أنه وفد على معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال يا مسور: ما فعل طعنك على الأئمة؟ قال: دعنا من هذا وأحسِن. قال لا والله، لتكلّمني بالذي تعيب عليَّ. قال مسور: فلم أترك شيئًا أعيبه عليه إلا بينت له.

فقال: لا أبرأ من الذنب! فهل تَعُدُّ لنا يا مسور مانَلِي من الإصلاح في أمر العامة؟ أم تَعُدُّ الذنوب وتترك الإحسان؟ قال: ما نذكر إلا الذنوب. فقال: نعترف لله بكل ذنب أذنبناه.

فهل لك يا مسور ذنوب في خاصتك تخشى أن تهلكك إن لم تُغْفر؟

قال: نعم. قال: فما جعلك أرجى لرحمة الله مني؟ فوالله ما ألي من الإصلاح أكثر مما تلي، ولكني والله لا أخير بين أمرين: بين الله وغيره إلا اخترت الله

---

(١) نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي، الكتاب الأول الحياة الدستورية، ص ٣٢٧ ظافر القاسمي، ط دار النفائس.

(٢) منهاج السنة (٤/ ٣٨٥).

على ما سواه، وإني لَعَلَى دين يُقبل فيه العمل، ويُجْزَى فيه بالحسنات، ويجزى فيه بالذنوب إلا أن يعفو الله عنها، وإني لألي أمورًا عظامًا لا أحصيها: إقامة الصلوات للمسلمين، والجهاد في سبيل الله، والحكم بما أنزل الله.

قال المسور: فعرفت أن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد خصمني حين ذكر ما قال. قال عروة: فلم أسمع المسور بعدُ يذكر معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلا صلى عليه[١].

وفاة معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

وبعد هذا التاريخ الحافل بالأحداث الجسام والأمور العظام، وبعد حياة امتلأت بالحسنات وبزغ فيها فجر الفتوحات من جديد، بعد هذا كان لابُد لكل بداية من نهاية.

ذكر الذهبي عن عبادة بن نُسَيّ قال: خطب معاوية، فقال: «إن من زرع قد استحصد، وقد طالت إمرتي عليكم حتى مللتكم ومللتموني، ولا يأتيكم بعدي خير مني، كما أنه من كان قبلي خير مني، اللهم قد أحببت لقاءك فأحِبَّ لقائي»[٢].

وفي آخر لحظاته كان يدعو ويقول: **«اللهم أقل العثرة، واعف عن الزلة، وتجاوز بحلمك عن جهل من لم يرج غيرك، فما وراءك مذهب»**.

وقال: قد علم الله أني لم آلُ، ولو أراد الله أن يغيّر غيّر.

تُوفي معاوية كاتب الوحي في شهر رجب ٦٠هـ، قال سعيد بن حريث: لما مات معاوية فزع الناس إلى المسجد، وظلوا يبكون في الخضراء[٣].

---

(١) ابن سعد في الطبقات (٦/ ٢١)، وقال ابن عبد البر في الاستيعاب (٣/ ١٤٢٢): وهذا الخبر من أصح ما يروى من حديث ابن شهاب.

(٢) السير (٣/ ١٦٢)، وطبقات ابن سعد (٦/ ٢٨).

(٣) تاريخ الإسلام للذهبي، عهد معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ص ١٦٨.

وكان يزيد ابنه غائبًا، فصلى عليه الضحاك بن قيس، ودُفن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه بدمشق، فرحمة الله عليه وعلى جميع الصحابة.

وبذلك انتهت رحلة أول خليفة من خلفاء بني أمية، لتبدأ رحلة الخليفة الثاني يزيد بن معاوية.

الفوائد والدروس والعبر

١- فضل معاوية بن أبي سفيان أمير المؤمنين وخالهم، وكاتب الوحي للنبي الكريم ﷺ، وأنه من أذكى أذكياء العالم، وأن دولته وأخباره ينبغي أن تُلحق بدولة الخلفاء الراشدين، وأنه مغفورله بنص حديث النبي ﷺ في أول جيش يغزو القسطنطينية، وأن حبه عبادة وقربة، وسبه نفاق وهلكة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه.

٢- الأثر الكبير لهند بنت عتبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في تربية هذه الشخصية الفذة العملاقة التي دانت لها جميع الممالك، فينبغي أن يتفطن الآباء لأهمية غرس مثل هذه القيم والسجايا في نفوس الأطفال منذ الصغر، وتربيتهم على معالي الأمور؛ لإخراج أمثال هؤلاء القادة، لتعود دولة الإسلام من جديد.

٣- التقدم العلمي والحضاري الكبير الذي بدأ في زمان معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بصناعة الأساطيل البحرية، مما يدل على سبق هذه الأمة لغيرها من الأمم الكافرة، وما تخلفنا عن هذا السبق إلا بسبب بُعدنا عن ديننا ومصدر عزنا، مما نتج عنه تسلط الأمم الكافرة علينا، فأبقوا علينا في خنادق الجهل والتخلف؛ ليضمنوا تبعيتنا لهم.

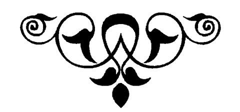
٤- عودة الأمة من جديد لممارسة مهام وظيفتها التي خُلقت لأجلها، وهي

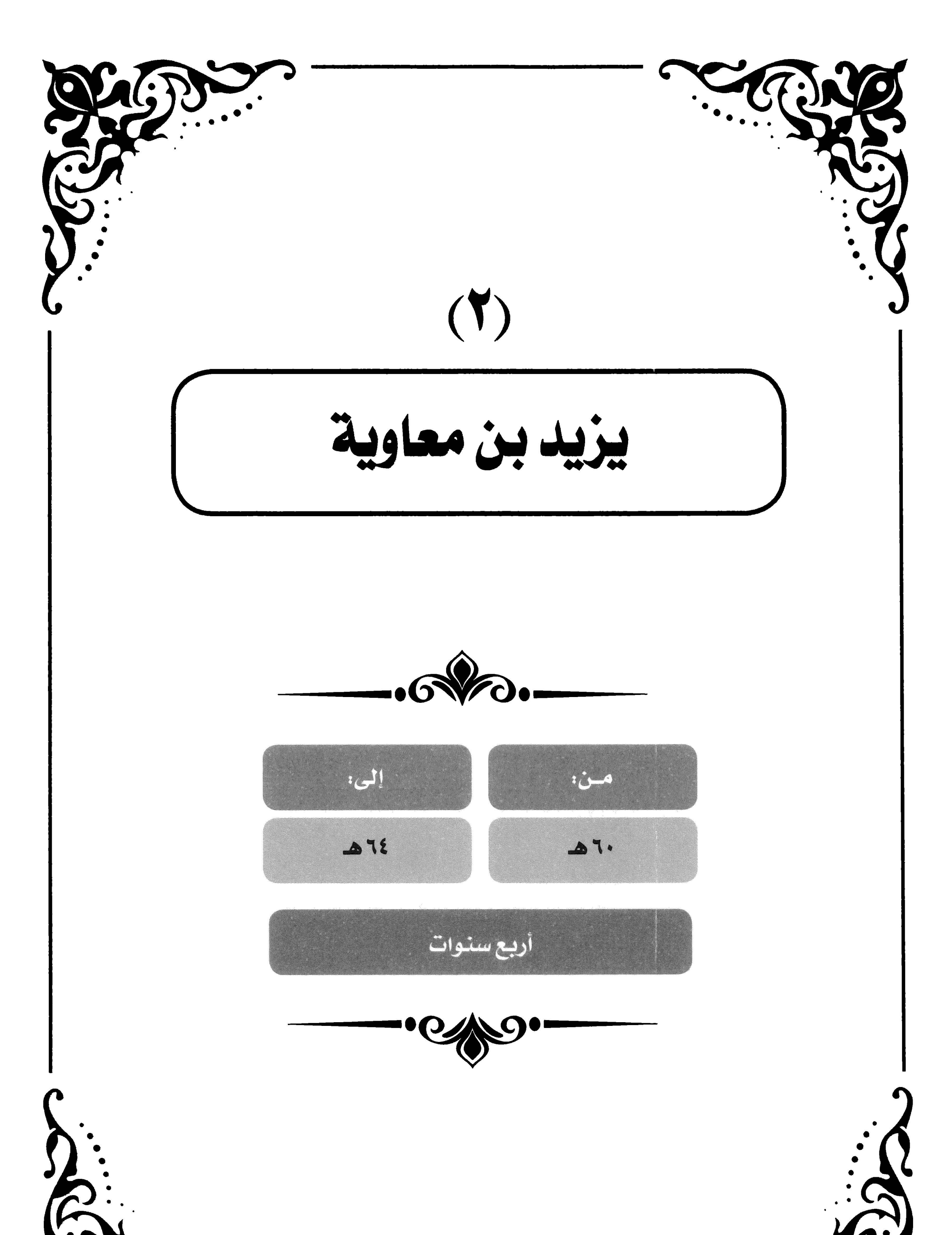
الدعوة إلى الله سبحانه، فعندما رُفعت راية الجهاد لتحقيق هذا الغرض العظيم انتشرت الدعوة، وفتحت الأقاليم، وقطعت الدولة الإسلامية شوطًا كبيرًا نحو تبليغ الدعوة لمعظم بقاع الأرض، وصارت الأمة منيعة الجانب يرهبها القاصي والداني، ويعمل لها الفرس والروم ألف حساب.

٥- هذه الفتوحات التي بدأت في عهد معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كانت البداية لفتوحات أعظم، خاصة فتح القسطنطينية الذي كان أملًا يتوق إلى تحقيقه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فمن بعدهم، حتى تم تحقيقه بالفعل على يد محمد الفاتح رَحِمَهُ اللَّهُ.

٦- أن الألفة والاجتماع من أسباب النصر والتمكين، وأن الفُرقة والاختلاف من أسباب تأخر النصر والتمكين، وأن هذه سنة الله في خلقه التي لا تُحابي أحدًا، حتى ولو كان أفضل الخلق جميعًا.

٧- استبدال الله عَزَّ وَجَلَّ من أطاعه بمن عصاه، فزالت دولة الفرس والروم بسبب كفرها ومعاصيها، وحلت محلها دولة الإسلام الناشئة، وهذه أيضًا سنة جارية في الخلق لا تتخلف إلى يوم القيامة.





(٢)

يزيد بن معاوية

مــن:	إلى:
٦٠هـ	٦٤هـ

أربع سنوات

خلافة يزيد بن معاوية

صفته ومناقبه

قال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كان ضخمًا كثير الشعر، شديد الأُدْمة، بوجهه أثر جدري[١].

وقال محمد بن الحنفية: وقد أقمتُ عنده، فرأيتُه مواظبًا للصلاة، متحريًّا للخير، يسأل عن الفقه[٢]، وقد كان يزيد أول من غزا القسطنطينية في خلافة أبيه عام ٤٩ هـ، وكان في جيشه من أفاضل الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وقد قال النبي ﷺ كما في البخاري عن ابن عمر: «**أول جيش يغزو القسطنطينية مغفورٌ له**»، قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد كان يزيد فيه خصال محموده من الكرم والحلم والفصاحة والشعر والشجاعة وحُسن الرأي في الملك، وكان ذا جمال، حَسِن المعاشرة»[٣].

ويذكر ليزيد في عهده القصير ثلاثة أحداث مؤلمة هي: مقتل الحسين بن علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ٦١ هـ، ووقعة الحرة في المدينة المنورة ٦٣هـ، وضرب مكة المكرمة بالمنجنيق أواخر المحرم سنة ٦٤هـ[٤].

خلافته

بعد أن أخذ معاوية البيعة لابنه يزيد، ووافقت جميع الأمصار عدا رجالات من المدينة على رأسهم الحسين وابن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر وابن عمر، متعللين بأنه لا يمكن أخذ البيعة لاثنين في وقت واحد؛ الخليفة وابنه، وقالوا: إذا

---

(١) السير (٤/ ٣٦).

(٢) السابق (٤/ ٤٠).

(٣) البداية والنهاية، نقلاً عن: تاريخ الخلافة الأموية، د/ أبو الأشبال.

(٤) الدولة الأموية ص ٥، د/ حامد غنيم أبو سعيد، ط دار الثقافة.

مات الخليفة أُخذت البيعة من جديد لمن رشحه الخليفة، أو رُفضت تلك البيعة ورُشِّح آخر وأُخذت له البيعة؛ لذا لم يبايع هؤلاء الصحب الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وكان هَمّ يزيد وشغله الشاغل هو الحصول على البيعة من المدينة، ولو تركهم لكان خيرًا له خاصة أن البيعة قد تمت وهي صحيحة[١]، وقد أوصاه أبوه معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بهؤلاء الأفاضل، فقال له حين حُضِر بعدما أوصاه بتقوى الله: إني قد أحكمت هذا الأمر فعليك بالجد في أمرك وارفق بالناس، فإنك إذا رفقت بهم أخذت ثمرة قلوبهم، مالم يكن رفقك ضعفًا، تَركب فيجترئ عليك، وقد خلفت بعدي ثلاثة: حسن بن علي ابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ أحب الناس إلى الناس، فصِل رحمه وارفق به، يصلح لك أمره، وعبد الله بن الزبير لا هو رطب فتعصره ولا يابس فتكسره، فارفق به وصل رحمه يصلح لك أمره، وعمرو بن سعيد بن العاص هو أطوع الناس عند أهل الشام، فارفق به وأكرمه يصلح لك أمره، الزم عهدي ووصيتي ولا تلقي هذا الكلام منك بظهر.[٢] ولكن سولت ليزيد نفسه أن يأخذ البيعة بأي شكل من الأشكال.

فأرسل إلى واليه على المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان لأخذ البيعة من هؤلاء الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

ولكن ابن الزبير والحسين رحلا إلى مكة بصفتها بلدًا آمنًا ولم يعطيا بيعة، أما ابن أبي بكر وابن عمر فبايعا بعد أن بايعت الأمصار[٣]، بل وظل ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا على بيعته ليزيد عندما خلعه أهل المدينة.

---

(١) البداية والنهاية (٨/ ٣٢٢). بتصرف.

(٢) طبقات ابن سعد (٦/ ٢٩).

(٣) تاريخ ابن الوردي (١/ ٢٣٠)، المطبعة الحيدرية. بتصرف.

الولايات في عهد يزيد(١)

كانت ولايات الحجاز والعراق مسرح الأحداث في عهد يزيد، أما باقي الولايات فلم يحدث فيها شيء يُذكر.

١- المدينة: كان أهلها غير راضين عن بيعة يزيد، وما أعطوها إلا تجنبًا للفتن، وتولى أمرها منذ زمن معاوية ابنُ أخيه الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، ولما لم يستطع أخذ البيعة من الحسين وابن الزبير عزله يزيد وولى مكانه عمرو بن سعيد بن العاص والي مكة.

٢- مكة: كان أهلها مثل أهل المدينة، ينظرون إلى أبناء الصحابة بأنهم أحق، لكنهم سكتوا بعد بيعة ابن عمر وابن عباس وعبد الرحمن بن أبي بكر؛ ولكون مدينتهم بلدًا آمنًا لا يُريدون إحداث فتنة فيها.

٣- الكوفة: كان أهلها أيضًا غير راضين على يزيد وهواهم مع أبناء علي بن أبي طالب، ولكنهم يحبون الفتنة ويسعون إليها، فإذا جاءتهم تفرقوا، وخذلوا من كانوا يَدْعون له ويَدَعُونه.

وكان عليها النعمان بن بشير منذ زمن معاوية، حتى نزل مسلم بن عقيل من قِبل الحسين، وبدأ الناس يبايعونه، فعزل يزيد النعمان لسكوته عن ذلك، وأسندها إلى عبيد الله بن زياد بن أبيه مع البصرة؛ لقسوته وبطشه، وبقي عليها حتى وفاة يزيد.

٤- البصرة: تشبه الكوفة لكنها أقل رغبة في الفتنة، تولاها عبيد الله بن زياد من زمان معاوية خلفًا لأبيه زياد بن أبيه وحتى وفاة يزيد.

٥- مصر: وهي هادئة تخضع لكل أمير، كان عليها منذ سنة ٥٥ هـ مسلمة ابن مخلد.

---

(١) التاريخ الإسلامي (٤/ ١١٨) لمحمود شاكر، باختصار وتصرف.

الفتوحات الإسلامية

في السنة الثانية والستين توجه عقبة بن نافع إلى الشمال الإفريقي في عملية اختراق عسكري لم يسبق لها مثيل في التاريخ، حيث إنها تجاوزت في روعتها كل الإمكانيات المتاحة آنذاك، وأظهرت مقدرة تكاد تكون خارقة بمقاييس العصر الذي وقعت فيه.

بدأ الاختراق من مدينة القيروان القاعدة الجهادية التي تنطلق منها الجيوش المسلمة، فتوجه إلى "باغاية" وتقابل مع البيزنطية فألحق بهم هزيمة منكرة، ثم توجه إلى مدينة "تلمسان" ثم إلى مدينة "أربة" وظل عقبة طوال الليل وجيشه متأهبين لم يناموا، وبعد صلاة الفجر تقابلوا مع العدو وكانت معركة شديدة الضراوة، وبعد أيام من القتال انتصر المسلمون انتصارًا مُؤَزَّرًا ثم توجهوا إلى مدينة "تاهرت" وفتحوها، ثم توجهوا إلى مدينة "طنجة" فعقد حاكم المدينة اتفاقًا سلميًّا مع عقبة بن نافع، وبهذه الفتوحات أكد عقبة بن نافع سيادة الدولة الإسلامية على المناطق البربرية، ثم توقف عقبة عند المحيط الأطلسي وأقحم فرسه في الماء، ورفع يديه مناجيًا ربه: "اللهم اشهد أني قد بلغت المجهود، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يُعْبَدَ أحدٌ من دونك"[1]

الأحداث الداخلية في عهد يزيد

لما تولى الحسين وابن الزبير إلى مكة رافضين بيعة يزيد، بدأت كتب أهل الكوفة تصل إلى الحسين يستدعونه للحضور، ويقولون له: إنا قد حبسنا أنفسنا عليك، و لسنا نحضر الجمعة مع الوالي فاقدم علينا[2].

---

(١) الدولة الأموية، د/ حامد غنيم ص ١٢٣ بتصرف.

(٢) تاريخ الطبري (٣/ ٢٩٧)، والبداية والنهاية (٨/ ٣٣٤).

واشتكوا إليه تغير الشريعة وظهور الظلم، وطلبوا منه أن يقدم ليبايعوه ويعاونوه على إقامة الشرع والعدل[١].

فأرسل الحسينُ مسلمَ بن عقيل بن أبي طالب ابن عمه إلى الكوفة؛ ليتحسس له جدية أهل الكوفة في طلبهم للحسين.

فنزل مسلم على أهل الكوفة، فالتفوا حوله وبايعه قرابة اثني عشر ألفًا[٢]، وشاع الخبر، وعُزِل النعمان بن بشير وأُسْنِد الأمر إلى عبيد الله بن زياد؛ لشدته وبطشه، وكتب مسلم إلى الحسين يدعوه إلى السير إلى الكوفة.

علم عبيد الله بن زياد بالخبر، وأراد إحضار مسلم بن عقيل، فخرج مسلم ونادى القومَ، فتجمع عليه أربعة آلاف من أهل الكوفة، فجاء وجوه أهل الكوفة وكلموا هؤلاء، فتفرقوا عن مسلم ولم يبق معه إلا خمسمائة، فلما أرخى الليل سدوله ذهب هؤلاء أيضًا وبقي وحده، فأرسل إليه عبيد الله بن زياد شرطته، فأحضروه إلى عبيد الله بن زياد فأمر بقتله[٣].

وفي هذا الوقت قرر الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الخروج إلى الكوفة، وقد نصحه كثيرون بعدم الخروج.

ذكر ابن كثيرعن ابن عباس قال: استشارني الحسين في الخروج، فقلت: لولا أن يُزْرى بي وبك لشبثت يدي في رأسك[٤].

ولَحِق به ابن عمر بعد أن خرج فقال له: أين تريد؟ قال الحسين: العراق.

---

(١) ابن تيمية، جامع المسائل (٦/ ٢٦٠).

(٢) تاريخ الطبري (٣/ ٢٩٧)، بتصرف.

(٣) السابق (٣/ ٢٩٧)، والبداية والنهاية (٨/ ٣٣٤).

(٤) تاريخ الإسلام، للذهبي (٢/ ٥٧٣).

فقال: لا تأتهم، إن الله خَيَّر نبيه بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة، وإنك بضعة منه، ولا تنالها، ثم اعتنقه وبكى، فكان ابن عمر يقول: غلبنا بخروجه، ولعمري لقد رأى في أبيه وأخيه عبرة، ورأى في الفتنة وخذلان الناس لهم ما كان ينبغي له أن لا يتحرك[١].

وجاءه أبو سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: «أبا عبد الله، إني لك ناصح، وإني عليك مُشفق، وقد بلغني أنه كاتبَك قوم من شيعتك بالكوفة يدعونك إلى الخروج إليهم، فلا تخرج؛ فإني سمعت أباك يقول بالكوفة: والله لقد مللتهم وأبغضتهم، وملوني وأبغضوني، وما بلوت منهم وفاءًا»[٢]. وكَلَّمه جابر وأبو واقد الليثي، وقال ابن المسيب: لو أنه لم يخرج لكان خيرًا له[٣]. وقال له ابن الزبير: إلى أين تذهب؟ إلى قوم قتلوا أباك وطعنوا أخاك. فقال: لأن أُقتل أحب إلي من أن تُستحل -يعني مكة-»[٤].

وقال له محمد بن الحنفية وهو أخو الحسين: يا أخي، أنت أحب الناس إليّ، وأعزهم عليّ، ولست أدخر النصيحة لأحد من الخلق له حق بها منك، تنح بتبعتك عن يزيد وعن الأنصار ما استطعت، ثم ابعث رسلك إلى الناس، فادعهم إلى نفسك، فإن بايعوا لك حمدت الله على ذلك، وإن أجمع الناس على غير ذلك لم ينقص الله بذلك دينك ولا عقلك ولا تذهب مروءتك ولا عقلك ولا فضلك، إني أخاف أن تدخل مصرًا من الأمصار وتأتي جماعة من الناس فيختلفون بينهم فيقتتلون... قال له الحسين: فإني ذاهب يا أخي. قال: فانزل مكة حتى تستقبل الأمور استقبالا[٥].

---

(١) البداية والنهاية (٨/ ٣٣٤). (٢) السابق (٨/ ٣٣٦).
(٣) السير (٣/ ٢٩٦). (٤) السابق (٣/ ٢٩٣).
(٥) بنو أمية بين السقوط والانتحار، عبد الحليم عويس، ط مكتبة الإسكندرية.

هـذه أقوال أهل زمانـه الذين هم ثقة عند الأمة كلها، قـد نصحوا له، وبينوا مغبة سيره إلى أهل العراق، ولكنه كان سائرًا إلى أمر الله الذي لابُد منه.

بـل نصحه كثيـرون بأن يدخل فيمـا دخل فيـه الناس، فحين بلـغ ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا خروجـه مـع ابن الزبيـر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إلى مكة رافضين بيعـة يزيد لقيهما وقال: أذكركما الله إلا رجعتما فدخلتما في صالح ما يدخل فيه الناس وتنظران، فإن اجتمع عليه الناس لم تشذا، وإن افترقا عليه كان الذي تريدان[1].

وقـال جابـر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كلمت حسـينًا فقلت لـه: اتق الله ولا تضـرب الناس بعضهـم ببعـض[2]. وقال أبو سـعيد الخـدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: غلبني الحسـين على الخروج، وقد قلت له: اتق الله في نفسك والزم بيتك، ولا تخرج على إمامك[3].

فهـذه النصـوص تـدل على مكانة الحسـين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عنـد أهل السـنة، ولكن لـم يمنعهـم ذلك من الاعتراف بأن الحسـين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اجتهـد فأخطأ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فله أجـر واحد[4]، أفـاد ذلك ابن خلدون فقال: أما غير الحسـين من الصحابة الذين كانـوا بالحجاز ومع يزيد بالشـام والعراق ومن التابعين لهم، فـرأوا أن الخروج علـى يزيـد وإن كان فاسـقًا لا يجوز لما ينشـأ عنه مـن الهرج والدمـاء فأقصروا عـن ذلك، ولم يتابعوا الحسـين ولا أنكـروا عليه، ولا أثموه، لأنـه مجتهد وهو أسوة المجتهدين[5].

سـار الحسـين نحو الكوفـة، فلقيـه أوائل خيل عبيـد الله بن زيـاد فعدل إلى

---

(١) طبقات ابن سعد (٦/ ٤٢٥)، ط مكتبة الخانجي.

(٢) السابق (٦/ ٤٢٥).

(٣) تهذيب الكمال للحافظ المزي (٦/ ٤١٧)، ط مؤسسة الرسالة.

(٤) النظرات الوقادة في خروج الحسين واستشهاده، ص ٣٣، د/ مرزوق الزهراني، مطابع بهادر – مكة.

(٥) مقدمة ابن خلدون نقلاً عن «النظرات الوقادة »ص ٣٥.

كربلاء، وكان على رأس جند عبيد الله بن زياد عمر بن سعد بن أبي وقاص، ولم يمكن التفاهم بين الطرفين؛ إذ إن الغوغائيين أنشبوا القتال، وقد طلب منهم الحسين أن يدعوه يرجع إلى الثغر مرابطًا أو يصل إلى ابن عمه يزيد بن معاوية أو يرجع إلى مكة، فأبوا عليه إلا أن يستأسر، لكنه قاتل قتال الأبطال الذي يندر أن يكون مثله، لكنهم اجتمعوا عليه فقتلوه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحزوا رأسه وحملوه إلى عبيد الله بن زياد[١].

أخرج البخاري عن أنس قال: أُتي عبيد الله بن زياد برأس الحسين، فَجُعل في طست، فجعل ينكت، وقال في حُسْنه شيئًا.

قال أنس: كان أشبههم برسول الله ﷺ[٢].

وللطبراني من حديث زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «فجعل قضيبًا في يده، في عينه وأنفه، فقلت: ارفع قضيبك، فقد رأيت فم رسول الله ﷺ في موضعه»[٣].

وعن البزار عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فقلت إني رأيت رسول الله ﷺ يلثم حيث تضع قضيبك. قال: فانقبض»[٤]

وقوله: فجعل ينكت، أي: يَقْرَع بطرف القضيب الأرض فعل المُنكِر.

واختلفت الأقوال في تحديد قاتل الحسين، وهو على الأرجح شِمْر بن ذي الجوشن، وأمير الجيوش هو عمر بن سعد، وأجهز عليه خولى بن زياد الأصبحي، وهو الذي حز رأسه، وذكر ابن كثير أن الذي حز رأسه سنان بن أنس بن عمرو النخعي[٥].

---

(١) تاريخ الإسلام، للذهبي (٢/ ٥٧٧).
(٢) البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ.
(٣) فتح الباري (٨/ ٤٥٩).
(٤) السابق (٨/ ٤٥٩).
(٥) البداية والنهاية (٨/ ٣٥٧).

وقد كان الجزاء من جنس العمل، فعن الشعبي قال: دخلت على عبيد الله ابن زياد وإذا رأس الحسين قدامه على ترس، فوالله ما لبث إلا قليلًا حتى دخلت على المختار الثقفي فإذا رأس عبيد الله بن زياد قدامه على ترس.

موقف يزيد من قتل الحسين

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: لم يأمر بقتل الحسين ولا أظهر الفرح بقتله، ولا نكت بالقضيب على ثناياه، ولا حَمَل رأس الحسين إلى الشام، لكنه أمر بمنع الحسين وبدفعه عن الأمر، فزاد النواب على أمره، وحض الشمر بن ذي الجوشن على قتله لعبيد الله بن زياد، فاعتدى عليه عبيد الله بن زياد، فطلب منهم الحسين أن يجيء إلى يزيد، أو يذهب إلى الثغر مُرابطًا أو يعود إلى مكة، فمنعوه إلا أن يستأسر لهم، وأمر عمر بن سعد بقتاله، فقتلوه مظلومًا هو وطائفة من أهل بيته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

ويُروى أنه لما قدم على يزيد بن معاوية قتْلُ الحسين ظهر في داره البكاء والصراخ، وأنه أكرم أهله وأنزلهم منزلًا حسنًا، وسيرهم إلى المدينة.

ويُروى عنه أنه لعن ابن زياد على قتله، وقال: كنت أرضى من طاعة أهل العراق بدون قتل الحسين. لكنه مع هذا لم يظهر منه إنكار قتله والانتصار له والأخذ بثأره، كان هو الواجب عليه، فصار أهل الحق يلومونه على تركه للواجب مضافًا إلى أمورٍ أخرى[1].

وعن علي بن الحسين قال: ادخلنا دمشق، بعد أن شخصنا من الكوفة، فإذا الناس مجتمعون بباب يزيد، فأدخلت عليه، وهو جالس على سرير، فقال: أيكم علي بن الحسين؟ فقلت: أنا. فقال: ادنُ، فدنوت، ثم قال: أما أنه لو أتاني

---

(١) الفتاوى (٣/ ٤١٠).

أبـوك لو صلت رحمه، وقضيت مـا يلزمني من عنقه، ولكـن عجل عليهم ابن زيـاد قتله الله. فقلـت يا أمير المؤمنين: أصابتنا جفـوة. فقال: يذهب الله عنكم الجفوة. فقلت يا أمير المؤمنين: أموالنا قبضت، فكتب لنا بردها، وقال: أقيموا عندي، فإني أقضي حوائجكم وأفعل بكم وأفعل. فقلت: بل المدينة أحب إليّ. فَجَهَّزَنا وأعطانا أكثر مما ذهب منا من الكسوة والجهاز، وسرح معنا رسلًا إلى المدينة، وأمرنا أن ننزل حيث شئنا، وقالت فاطمة بنت الحسـين: دخلنا على نسائه فما بقيت امرأة من آل معاوية إلا تلقتنا تبكي وتنوح على الحسين[١].

وكان مقتل الحسين في عاشوراء ٦١هـ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه.

اشتعال المدينة ووقعة الحرة

اشتعلت المدينة وكثر الكلام عن يزيد وقتله للحسين، فأرسل يزيدُ النعمانَ ابن بشـير يحذرهـم الفتنة والفرقة، فأبوا عليه، وأعلنـوا خلعه، وأخرجوا نوابه وعشـيرته، فأرسـل إليهم مرة بعد مرة يطلـب الطاعة، فامتنعـوا[٢] وولوا على قريـش عبـد الله بن مطيـع، وعلى الأنصـار عبد الله بـن حنظلة، وعلـى قبائل المهاجرين معقل بن سنان[٣]، وحاصروا بني أمية في دار مروان بن الحكم.

فأرسـل يزيد جيشًا بقيادة مسلم بن عقبة المري وذلك سنة (٦٣هـ)، فأمهل أهل المدينة ثلاثة أيام، فأبوا إلا القتال، فدخل من جهة الحرة الشرقية، وكانت الوقعة الشنيعة وقعة «**الحرة**»، واستباح مسلم بن عقبة المدينة ثلاثة أيام، وهذا الذي عظم إنكار الناس له من فعل يزيد[٤].

---

(١) قيـد الشـريد من أخبار يزيد، لشـمس الدين بن طولون، ص ٥١، ط دار العلـوم للطباعة – القاهرة، وعلـق قائـلًا: هذا ما نقله الثقـات من أهل الحديث، وأما ما رواه أبـو مخنف وغيره من الروافض، فلا اعتبار برواياتهم.

(٢) منهاج السنة (٤/ ٢٦٤).

(٣) البداية والنهاية (٩/ ٨).

(٤) منهاج السنة (٤/ ٢٦٤).

وفي البخاري ومسلم عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أراد أهل المدينة بسوء أذابه الله كما يذوب الملح في الماء**».

وبالفعل هلك هذا الطاغية مسلم بن عقبة عند منصرفه إلى مكة لقتال ابن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الفوائد والدروس والعبر

١ - لاشك أن يزيد أخطأ خطأ فاحشًا في تعامله مع أهل المدينة، لكنه كان يرى أنهم خرجوا عن طاعته وأَمَّروا عليهم غيره فله قتالهم حتى يرجعوا إلى الطاعة ولزوم الجماعة، وما كان ينبغي لأهل المدينة أن يفعلوا ذلك، حتى لو قيل بفسق يزيد، فإن الإمام إذا فسق لا يعزل لمجرد فسقه في أصح قولي العلماء، بل لا يجوز الخروج عليه، لما في ذلك من إثارة الفتنة، ووقوع الهرج وسفك الدماء الحرام ونهب الأموال، وفعل الفواحش مع النساء وغيرهم[(١)]، **وقال ابن كثير**: ولما خرج أهل المدينة عن طاعته وخلعوه، وولوا عليهم ابن مطيع وابن حنظلة، لم يذكروا عن يزيد - وهم أشد الناس عداوة له - إلا ما ذكروه عنه من شربه الخمر، وإتيانه بعض القاذورات، لم يتهموه بزندقة كما يقذفه بعض الروافض، بل قد كان فاسقًا[(٢)]، والفاسق لا يجوز خلعه، لما يؤدي ذلك إلى الفتنة ووقوع الهرج، كما وقع في زمن الحرة[(٣)]، لهذا كان بعض أهل المدينة من أفاضل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ غير موافقين على خلع يزيد عن

---

(١) قيد الشريد من أخبار يزيد، لشمس الدين بن طولان، ص ٤٥.

(٢) كذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهذا يحتاج إلى دليل وإلا فقد شهد له محمد بن الحنفية كما سبق من أنه كان محافظًا على الصلوات متحريًا للخير يسأل عن أمور الدين، وكفى بها شهادة، بل جزم ابن تيمية أنه لم يكن مظهرًا للفواحش، وسيأتي كلامه.

(٣) البداية والنهاية (١١/ ٦٥٢).

الخلافة، بل نهوهم عن فعل ذلك ومن أشهرهم: عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فقد روى البخاري عن نافع قال: لما خلع أهل المدينة يزيد جمع ابن عمر حشمه وولده، فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ينصب لكل غادر لواءٌ يوم القيامة**» وإنا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله ﷺ، وإني لا أعلم غدرًا أعظم من أن يُبَايَعَ رجلٌ على بيع الله ورسوله ﷺ ثم يُنْصَبُ له القتالُ، وإني لا أعلم أحدًا منكم خلعه ولا بايع في هذا الأمر إلا كانت الفيصل بيني وبينه[١].

قال الحافظ: وفي هذا الحديث: وجوب طاعة الإمام الذي انعقدت له البيعة، والمنع من الخروج عليه ولو جار في حكمه، وأنه لا ينخلع بالفسق.[٢] ولما سمع ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بذلك أنكر الأمر، فعن عكرمة أن ابن عباس سأل عنهم وهو بالطائف فقيل له: استعملوا عبد الله بن مطيع على قريش، وعبد الله بن حنظلة على الأنصار. فقال: أميران؟ هلك القوم[٣].

٢ - ساعد في اشتعال الفتنة وتحريض أهل المدينة على خلع يزيد عبدُ الله بن مطيع وجماعته، وقد حذره ابنه عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ومحمد بن الحنفية من التمادي في ذلك والتحريض على الخروج على الإمام المبايَع، فقد روى البغوي عن زيد بن أسلم عن أبيه عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه دخل وهو معه عَلَىَ ابن مطيع، فلما دخل عليه، قال: مرحبًا بأبي عبد الرحمن، ضعوا له وسادة، فقال: إنما جئتك. لأحدثك حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ يقول: «**من نزع يدًا من طاعة، فإنه يأتي يوم القيامة لا حجة له، ومن مات مفارق الجماعة، فإنه يموت ميتة جاهلية**»، وهكذا رواه مسلم.

---

(١) البخاري، كتاب الفتن.

(٢) فتح الباري (١٦/ ٥٤٢).

(٣) خليفة بن خياط، ص ١٨١.

ومشى ابن مطيع هو وجماعته إلى محمد بن الحنيفة فأرادوه على خلع يزيد، فأبى عليهم، فقال ابن مطيع: إنه يشرب الخمر، ويترك الصلاة، ويتعدى حكم الكتاب. فقال لهم: ما رأيت منه ما تذكرون، وقد حضرته، وأقمت عنده، فرأيته مواظبًا على الصلاة، متحريًّا للخير، يسأل عن الفقه، ملازمًا للسنة. قالوا: فإن ذلك كان منه تصنعًا لك. فقال: وما الذي خاف مني أو رجا، حتى يظهر لي الخشوع؟ أفأطلعكم على ما تذكرون من شرب الخمر؟ فلئن كان أطلعكم على ذلك إنكم لشركاؤه؟ وإن لم يكن أطلعكم على ما تذكرون فما يحل لكم أن تشهدوا بما لم تعلموا.

قالوا: إنه عندنا لحق، وإن لم نكن رأيناه، فقال: أبى الله ذلك على أهل الشهادة، فقال: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، ولست من أمركم في شيء. قالوا: فلعلك تكره أن يتولى الأمر؟ فقال: ما أستحل القتال على ما تريدون مني عليه، تابعًا ومتبوعًا. قالوا: فقد قاتلت مع أبيك. فقال: جيئوني بمثل أبي، أقاتل على مثل ما قاتل عليه، فقالوا: فأْمُر ابنيك أبا القاسم، والقاسم بالقتال معنا. فقال: لو أمرتهما، قاتلت. قالوا: فقم معنا مقامًا تحض الناس فيه على القتال. قال: سبحان الله، آمر الناس بما لا أفعله، ولا أرضاه؟! قالوا: إذًا نكرهك. قال: إذًا آمر الناس بتقوى الله، ولا يرضون المخلوق بسخط الخالق، وخرج إلى مكة[1].

٣ - لا يصح القول بأن أهل المدينة - بهذا الإطلاق - قد خلعوا بيعة يزيد، بل الثابت أن جماعات كاملة من أهل المدينة من أبناء المهاجرين والأنصار

---

(١) قيد الشريد من أخبار يزيد، لشمس الدين بن طولان، ص ٣٩، السير (٤/ ٤٠)، و البداية والنهاية (٩/ ٢٤).

على السـواء قد احتفظـوا ببيعتهم ليزيد[١]، **قال ابن تيميـة**: والفتنة التي وقعت بيـن يزيـد وأهل المدينة - فتنة الحرة - فإنما كانـت من بعض أهل المدينة[٢]، وكان أفاضل المسلمين ينهون عن الخروج والقتال في الفتنة، كما كان ابن عمر وسعيد بن المسيب وعلي بن الحسين وغيرهم - كمحمد بن الحنفية - ينهون عام الحرة عن الخروج على يزيد، ولهذا استقر أمر أهل السنة على ترك القتال في الفتنة، وصاروا يذكرون ذلك في عقائدهم، ويأمرون بالصبر على جور الأئمة وترك قتالهـم[٣]. وقال ابن كثير: وقد كان عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وجماعات أهل بيت النبوة ممن لم ينقض العهد، ولا بايع أحدًا بعد بيعته ليزيد[٤].

٤ - ما ذكر في وقعة الحرة من انتهاك أعراض نساء أهل المدينة لا يستند إلى خبر صحيح، فكل من أورد ذلك اعتمد على رواية اليعقوبي أو رواية المدائني فقط، وكلتاهمـا لا تصح ولا تثبت، ثم إن القرائن المصاحبة للمعركة لا تُثبت وجـود أي نـوع من الاغتصاب، ومن المعلوم أن الاغتصاب أعظم وأشـد من النهـب، فلو كانت واقعة مع حالات النهب لذكرهـا الرواة الذين ذكروا وقوع النهـب[٥]، فـلا يعقل أن يرتكب جند الشـام هذه الشـناعات مـن قتل الآلاف وانتهاك الأعراض، وهم من المسـلمين المجاهدين والفاتحين، وربما وقعت بعـض أحداث النهب مـن بعض الجنـود المغتاظين، ولكنهـا كانت محدودة الوقـوع والأثـر، وربما ظنوا أن في ذلك عقوبة ونـكالًا للثائرين، لكن لا يمكن

(١) الدولة الأموية المفترى عليها، د/ حمدي شاهين، ص ٣٤٢ دار القاهرة للكتاب.

(٢) منهاج السنة (٦/ ١٨٣).

(٣) السابق (٤/ ٢٤٠).

(٤) البداية والنهاية (٩/ ٦٥٢).

(٥) أحداث الفتن السياسية د/ زين العابدين كامل، ص ٣٧٠ باختصار.

أن نصدق أن يقوم المسلمون من جند الشام بهتك أعراض نساء إخوانهم في الدين في ذلك الوقت المبكر من عمر الإسلام[١]

٥ - كذلك يبدو الإسراف واضحًا في تقدير عدد القتلى، فأوصلتهم بعض الروايات إلى عشرة آلاف، فإن جيش الشام لم يكن يعدو اثني عشر ألف رجل، ويبدو أن أعداد جيش أهل المدينة كانت أقل من ذلك[٢]، فأصح روايتين في تقدير أعداد القتلى ما ذُكر عن مالك أنه قال: قُتل سبعمائة من حملة القرآن. وقال الراوي عنه: أحسبه قال: وكان معهم ثلاثة أو أربعة من أصحاب رسول الله ﷺ[٣]. وماذكره خليفة بن خياط أن أعداد القتلى ثلاثمائة رجل، وستة رجال[٤]، فهم يتراوحون ما بين الثلاثمائة والسبعمائة، وليسوا بالآلاف كما تزعم بعض الروايات، وهذ ما يؤكده شيخ الإسلام حيث قال: لكن لم يُقتل جميع الأشراف، ولا بلغ عدد القتلى عشرة آلاف، ولا وصلت الدماء إلى قبر النبي ﷺ ولا إلى الروضة الشريفة، ولا كان القتل في المسجد[٥].

توجه الجيش إلى مكة أواخر محرم ٦٤هـ

لما انتهى مسلم بن عقبة من قتال أهل المدينة توجه إلى مكة لقتال ابن الزبير، لكنه هلك في الطريق، فتولى أمر الجند بعده الحصينُ بن نمير السكوني، فقاتله ابن الزبير فقتل من أصحابه المسور بن مخرمة، ومصعب بن عبد الرحمن بن عوف، والمنذر بن الزبير، وحاصر الحصين مكة، وضرب البيت بالمنجنيق، وفي هذا الوقت جاء نعي يزيد، فتوقف القتال وبعث الحصين إلى ابن الزبير، وقال له: إن

---

(١) الدولة الأموية المفترى عليها، د/ حمدي شاهين، ص ٣٤٤.

(٢) السابق.

(٣) كتاب المحن، لمحمد بن أحمد التميمي، ص ١٥١، ط دار الغرب العربي.

(٤) خليفة بن خياط، ص ١٩٢.

(٥) منهاج السنة (٤/ ٢٦٤).

يـك هذا الرجل قد هلك فأنت أحق الناس بهذا الأمر. فبايعه، ونصحه بالذهاب إلى الشـام؛ لأن بها من يطالـب بالبيعة، لكن ابن الزبير تخـوف من الذهاب إلى الشام، ولـم يرغب في مغادرة مكة التي احتمى بها[١].

موقف أهل السنة من خروج الحسين وقتله

أولًا: لابُد أن ننبه على عدة أمور منها:

١ - أن الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يُبايع يزيد أصلًا.

٢- أن الحسـين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان مُعترضًا على نظام توريث الحكم، وكان رأيه أن يعود شورى كما كان زمن الخلفاء الراشدين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

٣- أن الحسـين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خرج إلى مكة مع ابن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ؛ لأجل جمع شمل الأمة للوقوف في وجه هذا التحول الخطير في نظام الحكم.

٤ - لـم يكن حين قتل طالبًا للولاية ولا كان معه جيش يقاتل به، وإنما كان قد رجع منصرفًا، وقُتل وهو يطلب الدفع عن نفسه لئلا يؤسر ويُظلم[٢].

ثانيًا: بعض أقوال أهل العلم:

يقول ابن تيمية: ولـم يكن في خروجه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مصلحة لا في دين ولا في دنيا، وكان قصده من خروجه تحصيل الخير ودفع الشـر، ولـم يحصل منه شـيء بل زاد الشر بخروجه وقتله.

ويقـول أيضًا: «وأحاديث النبـي ﷺ التي أمر فيها بقتـل المفارق للجماعة لـم تتناوله، فإنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يُفارق الجماعة ولـم يُقتل إلا وهو طالب للرجوع إلـى بلده أو إلى ثغر أو إلى يزيد داخـلًا في الجماعة، معرضًا عن تفريق الأمة،

---

(١) تاريخ الإسلام، للذهبي (٢/ ٥٩٣) دار الغرب الإسلامي. بتصرف.

(٢) منهاج السنة لابن تيمية (٦/ ١٨٣) ط دار الحديث - القاهرة.

ولو كان طالبُ ذلك أقل الناس لوجب إجابته إلى ذلك، فكيف لا تجب إجابة الحسين؟ ولم يُقاتل وهو طالب للولاية، بل قُتل بعد أن عرض الانصراف بإحدى ثلاث... فقُتل وهو يدفع الأسر عن نفسه فقُتل مظلومًا»[1].

وقال ابن كثير: وأكثر الأمة قديمًا وحديثًا كاره ما وقع من قتله وقتل أصحابه سوى شرذمة قليلة من أهل الكوفة قبحهم الله، وليس كل ذلك الجيش كان راضيًا بما وقع من قتله، بل ولا يزيد بن معاوية رضي بذلك ولا كرهه، والذي يغلب على الظن أن يزيد لو قَدَر عليه قبل أن يُقتل لعفا عنه كما صرح به مخبرًا عن نفسه[2].

فأهل السنة والجماعة يرون أنه قتل مظلومًا ولم يكن متوليًا لأمر، أي لم يكن إمامًا، ولا قتل خارجيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بل قتل مظلومًا شهيدًا، كما قال ﷺ: «**الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة**»، وذلك أن الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أراد الرجوع أو الذهاب إلى يزيد في الشام ولكنهم منعوه حتى يستأسر لابن زياد قبحه الله[3].

موقف أهل السنة من يزيد بن معاوية

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «يزيد بن معاوية لم يدرك النبي ﷺ، ولا كان من الصحابة باتفاق العلماء، ولا كان من المشهورين بالدين والصلاح، وكان من شباب المسلمين، ولا كان كافرًا، ولا زنديقًا، وتولى بعد أبيه على كراهة من بعض المسلمين ورضا من بعضهم، وكان فيه شجاعة وكرم، ولم يكن مُظهرًا للفواحش كما يحكي عنه خصومه».

---

(١) السابق (٤/ ٢٦٩).

(٢) البداية والنهاية (٨/ ٣٦٩)، بتصرف.

(٣) منهاج السنة (٤/ ٢٥٣).

ثم قال: ولهذا كان الذي عليه مُعتقَد أهل السنة وأئمة الأمة أنه لا يُسب ولا يُحب[١].

ويقول الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يزيد بن معاوية الخليفة الثاني على هناته له حسنة وهي غزو القسطنطينية، وكان أمير ذلك الجيش، وثبت عنه ﷺ كما في البخاري: «**أول جيش يغزون مدينة قيصر مغفور لهم**»، وكان معه ابن عمر وابن الزبير وابن عباس وأبو أيوب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

ويزيد ممن لا نسُبُّه ولا نُحبُّه، وإنما عظم الخطب لكونه وُلِّيَ بعد وفاة النبي ﷺ بتسع وأربعين سنة، والعهد قريب، والصحابة موجودون كابن عمر الذي كان أولى بالأمر منه ومن أبيه، فرضي الله عن الجميع[٢].

وهذا هو المنصوص عن أحمد، وعليه المقتصدون من أصحابه وغيرهم من جميع المسلمين، قال صالح بن أحمد: «قلت لأبي: إن قومًا يقولون: إنهم يُحبون يزيد، فقال يا بُني: وهل يُحب يزيد أحد يُؤمن بالله واليوم الآخر؟» فقلت: يا أبت، فلماذا لا تلعنه؟ فقال يا بُني: ومتى رأيت أباك يلعن أحدًا، وقال أبو محمد[٣] لما سُئل عن يزيد: فيما بلغني لا يُسب ولا يُحب[٤].

قال شيخ الإسلام ما ملخصه: والذين لعنوه من العلماء كأبي الفرج ابن الجوزي والكيا الهراس، فلِما صدر عنه من الأفعال التي تبيح لعنه كما لعن رسول الله ﷺ أنواعًا من أهل المعاصي وأشخاصًا من العصاة، وأما الذين سوغوا محبته أو أحبوه كالغزالي والدستي فلهم مأخذان:

---

(١) الفتاوى (٣/ ٤١٢).

(٢) السير (٤/ ٣٦)، بتصرف.

(٣) هو ابن قدامة صاحب المغني رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٤) الفتاوى (٤/ ٤٨٥).

أحدهما: أنه مسلم ولي أمر الأمة على عهد الصحابة رضي الله عنهم وتابعه بقاياهم، وكان فيه خصال محمودة، وكان متأولًا فيما ينكر عليه من أمر الحرة وغيرها، فيقولون: هو مجتهد مخطيء. ويقولون: إن أهل الحرة هم نقضوا بيعته أولًا، وأنكر ذلك عليهم ابن عمر رضي الله عنهما وغيره، وأما قتل الحسين رضي الله عنه فلم يأمر به ولم يرض به، بل ظهر منه التألم لقتله وذم من قتله.

والمأخذ الثاني: أنه ثبت في البخاري «**أول جيش يغزون القسطنطينية مغفور له**» وكان أميره يزيد.

والتحقيق أن هذين القولين يسوغ فيهما الاجتهاد، لكن الحال الأول أوسط وأعدل وهو أننا لا نحبه ولا نسبه، فإنه لم يكن رجلًا صالحًا فنحبه ونحن لانسب أحدًا من المسلمين بعينه[1]، وقال عبد الغني المقدسي: فمن أحبه فلا ينكر عليه، ومن لم يحبه فلا يلزمه ذلك، لأنه ليس صحابيًّا فيلزم محبته إكرامًا لصحبته، وليس ثم أمر يمتاز به عن غيره من خلفاء التابعين كعبد الملك وبنيه، وإنما يمنع من التعرض للوقوع فيه خوفًا من التسلق إلى أبيه، وسدًّا لباب الفتنة[2]. وقال ابن الصلاح: وأما سب يزيد ولعنه فليس من شأن المؤمنين[3].

الفوائد والدروس والعبر

١- ذكر بعض المُؤرخين عن يزيد أنه كان يُكثر من الفواحش، وشُرْب الخمر وسماع الغناء، وكان تاركًا للصلاة، والحق أن هذا كله لم يثبت ولم يُنقل إلينا بالسند الصحيح، بل هو من كذب وافتراء أعداء بني أمية من مؤرخي الشيعة كاليعقوبي في تاريخه (٢/ ١٦٠)، والمسعودي في «مروج الذهب ٢/ ٧٧».

---

(١) الفتاوى (٤/ ٤٨٥).

(٢) قيد الشريد من أخبار يزيد، لشمس الدين بن طولان، ص ٥٣.

(٣) السابق، ص ٤٨.

والمُحققون من أهل الاسلام يُكَذِّبون ذلك، وقد مر علينا قول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه لم يكن مُظهرًا للفواحش كما يحكي عنه خصومه، وهذا ليس دفاعًا عن يزيد، ولكن لأجل إظهار الحقائق، ورد الافتراءات عن أصحابها، وتنقية الوقائع التاريخية مما ألصقه الأعداء بها.

وقد ذهب ابن مطيع إلى محمد بن الحنفية حاملًا هذه التهم ليزيد، فرد عليها ابن الحنفية بما رآه من يزيد من مُواظبته على الصلاة، وتحريه للخير، وسؤاله عن الفقه، ومُلازمته للسُّنة(١)

٢- ما ذُكِر عن ابن الزبير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ من تحريضه للحسين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ليخرج إلى الكوفة ليخلو له الجو، قائلًا له: «لو كان لي بها مثل شيعتك ما عدلت عنها. فلما خرج قال الحسين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ودّ أني خرجت لتخلو له»، كل هذا لم يثبت، ويكفي أن نعرف أنه من رواية أبي مخنف الكذاب الوضاع الرافضي الحاقد المحترق، الذي أراد تلطيخ سُمعة الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وتصويرهم على أنهم أهل غدر وخيانة، فقبحه الله على ما بث من أخبار كاذبة مُلفقة امتلأت بها مصادر التاريخ وانتشرت بين المسلمين.

والثابت عن ابن الزبير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا بل الذي لا يليق به غيره ما ذكره ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن بشر بن غالب قال: قال ابن الزبير للحسين: أين تذهب؟ إلى قوم قتلوا أباك وطعنوا أخاك؟ قال: لأن أُقتل بمكان كذا وكذا أحبُّ إليّ من أن تُسْتحَلَّ بي -يعني مكة-»(٢).

(١) البداية والنهاية (٩/ ٢٤).

(٢) السابق (٨/ ٣٣٥).

٣- خروج الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان عن غير رغبة من الصحابة الموجودين آنذاك، وقد أكثر الناس من الكتابة عن هذا الموضوع، ولم يريدوا إلا إحداث الفرقة بين الأمة، وتأجيج الخلاف فيما بينها، وغاية ما في الأمر أن الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خرج إلى قدَره، وأن القتلة الحقيقيين هم أهل العراق الذين دعوه وكاتبوه يشتكون إليه تغير الشريعة وظهور الظلم، وطلبوا منه أن يقدم ليبايعوه، ويعاونوه على إقامة الشرع والعدل[1]، ثم غدروا به وخذلوه، فكأني برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول لهم: «قتلتم عترتي وانتهكتم حرمتي فلستم من أمتي».

٤- زعم النواصب أن الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قُتِلَ بحق؛ لأنه أراد أنه يفرق الأمة فوجب قتله، قال شيخ الإسلام: وهذا كذب وجهل، فإن الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يُقتل حتى أقام الحجة على من قتله، وطلب أن يذهب إلى يزيد أو يرجع إلى المدينة أو يذهب إلى الثغور، وهذا لو طلبه آحاد الناس لوجب إجابته، فكيف لا يجب إجابة الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى ذلك وهو يطلب الكف والإمساك[2]؟!.

٥- اتفق أهل النقل - كما يقول ابن تيمية - على أن يزيد لم يأمر بقتل الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وغاية ما فعله وأمر به أنه كتب إلى ابن زياد أن يمنعه من ولاية العراق، ولم يرض بقتله، بل بكى عندما علم بذلك[3]، ويقول شيخ الإسلام أيضًا: «فيزيد لم يأمر بقتل الحسين ولا أظهر الفرح بقتله، ولا حُمل رأسه إلى بين يديه، ولا نكت بالقضيب على ثناياه، بل الذي جرى هذا منه هو عبيد الله بن زياد، كما ثبت في صحيح البخاري، ولا طيف برأسه في الدنيا

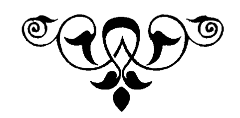
(١) جامع المسائل (٦/ ٢٦٠) تحقيق محمد عزيز شمس، دار عالم الفوائد.

(٢) السابق (٦/ ٢٥٩).

(٣) منهاج السنة (٤/ ٤٧).

ولا سُبي أحد من أهل الحسين، بل الشيعة كتبوا إليه وغروه، فأشار عليه أهل العلم والنصح بألا يقبل منهم، فأرسل ابن عمه مسلم بن عقيل، فرجع أكثرهم عن كتبهم، حتى قُتل ابن عمه ثم خرج منهم عسكر مع عمر بن سعد، حتى قتلوا الحسين مظلومًا شهيدًا، أكرمه الله بالشهادة كما أكرم أباه وغيره من سلف سادات المسلمين»[(١)].

٦- **قال الخضري بك** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والتاريخ يأخذ من ذلك عبرة، وهي أنه لا ينبغي لمن يريد عظائم الأمور أن يسير إليها بغير عدتها الطبيعية، فلا يرفع سيفه إلا إذا كان معه من القوة ما يكفل له النجاح أو يقرب من ذلك[(٢)].



(١) جامع المسائل (٥/ ١٤٩).

(٢) الدولة الأموية، للخضري بك، ص ١٨٣ ط الإيمان - المنصورة.



(٣)

معاوية الثاني

من:	إلى:
٦٤هـ	٦٤هـ

ثلاثة أشهر

خلافة معاوية الثاني

صفته ومناقبه

كان معاوية بن يزيد شابًّا دينًا خيرًا من أبيه[١]، صالحًا ناسكًا[٢]، قال أبو زرعة الدمشقي: معاوية وعبد الرحمن وخالد أخوةٌ، وكانوا من صالحي القوم، وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا شديد البياض، كثير الشعر، كبير العينين، جعد الشعر، أقنى الأنف، مدور الرأس، جميل الوجه دقيقه، حسن الجسم[٣].

في سنة ٦٤هـ عَهِدَ يزيد بن معاوية لابنه معاوية بالخلافة من بعده، لكنه لم يلبث سوى ثلاثة أشهر حتى مات، وكان قد نادى بالصلاة جامعة ثم خطب الناس قائلًا لهم: أما بعد، فإني نظرت في أمركم فضعفت فيه، فابتغيت لكم رجلًا مثل عمر حين فزع إليه أبو بكر فلم أجده، فابتغيت لكم ستة في الشورى مثل ستة عمر فلم أجدهم، فأنتم أولى بأمركم، ودخل منزله ولم يخرج حتى مات[٤].

وكان يُصلي بالناس ويسد الأمور في هذه المدة الضحاك بن قيس[٥]، ثم بعد وفاة معاوية الثاني توجه مروان بن الحكم لمبايعة ابن الزبير، ولكنه التقى بعبيد الله بن زياد صاحب مذبحة الحسين في كربلاء، فصرفه عن المبايعة لابن الزبير ومَنّاه بالخلافة، فرجع مروان، ويبدو أن عبيد الله خاف القصاص منه إذا تولى الأمر[٦].

---

(١) السير (٤/ ١٣٩).

(٢) البداية والنهاية (٩/ ٢٩).

(٣) السابق (٩/ ٢٩).

(٤) الكامل في التاريخ (١/ ٧١٨) ط المكتبة العصرية.

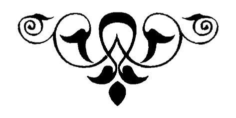
(٥) البداية والنهاية (٩/ ٢٩).

(٦) التاريخ الإسلامي(٤/ ١٤٥)، لمحمود شاكر، باختصار.

الفـوائد والـدروس والعبـر

١ - الاسـتعفاء الاختيـاري من رئاسـة الدولة نادر جـدًّا، ومعظم حوادث الاستعفاء التي نعرفها ليست في الحقيقة إلا إعفاءًا لبس مظهر الاستعفاء، وهو نادر أيضًا في تاريخنا، لم نعرفه إلا مرة واحدة على طول تاريخنا وامتداده أربعة عشر قرنًا، غير أن هذه المرة الوحيدة لم تكن فريدة في تاريخنا ليس غير، وإنما كانت فريدة في التاريخ الإنساني كله، تلك هي استقالة معاوية الثاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ التي بنيـت على الورع والتقوى والخوف مـن الله[١]، وكان رجلاً صالحًا، فتبرأ عن الأمر لما رأى صعوبته، وانخلع ولزم بيته إلى أن مات[٢].

٢ - إذا كان معاويـة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أول الخلفـاء الأمويـين قد حـول الخلافة من الشـورى إلى الوراثة لمصلحة الأمة وخوف تفرقها، فإن حفيده معاوية الثاني، ثالـث الخلفـاء الأمويين قـد أعاد الخلافـة إلى الشـورى الكاملة، وإنـه لَمِمَّا يسـتوجب الإنصـاف أن تصاغ القضية علـى هذا النحو بدلًا مـن التركيز على الشق الأول الخاص بالتوريث فقط[٣].



(١) نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي، ظافر القاسم ص ٣٨٥ ط دار النفائس.

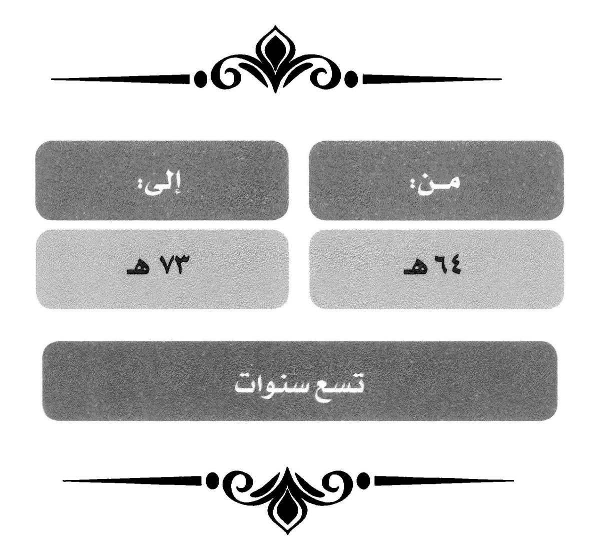
(٢) رسائل ابن حزم الأندلسي (٢/ ١٤١) ط المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

(٣) الدولة الأموية المفترى عليها، د/ حمدي شاهين، ص ٢٩٣، ط دار القاهرة للكتاب.



(٤)

أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا





أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا

هو عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبدالعزى بن قصي بن كلاب بن مرة أمير المؤمنين(١).

أبوه الزبير، أسلم ولم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره، وهو ابن عمة رسول الله ﷺ صفية بنت عبد المطلب، لم يتخلف عن غزوة غزاها رسول الله ﷺ.

وأمه أسماء بنت أبي بكر الصديق، ذات النطاقين، أسلمت قديمًا بمكة.

وُلد ابن الزبير في قباء أول مقدم المسلمين المدينة، فارتجت المدينة بالتكبير؛ لأن اليهود زعموا أنهم سحروا المسلمين فلن يُولد لهم، فهو أول مولود بالمدينة للمسلمين(٢).

وهو صحابي جليل، روى عن رسول الله ﷺ ثلاثة وثلاثين حديثًا.

كانت عائشة تُحبه حُبًّا شديدًا، وكان عزيزًا عليها(٣)، فعن عُروة قال: لم يكن أحد أحب إلى عائشة بعد رسول الله ﷺ من أبي بكر وبعده ابن الزبير(٤).

شهد اليرموك مع أبيه وهو صغير، ودافع عن عثمان يوم الدار، وجُرح يومئذ بضع عشرة جراحة.

وفي البخاري عن عروة: أن الزبير أركب ولده عبد الله يوم اليرموك فرسًا وهو ابن عشر سنين، ووكَّل به رجلا(٥).

---

(١) السير (٣/ ٣٦٣).

(٢) طبقات ابن سعد (٦/ ٤٧٣).

(٣) التاريخ الإسلامي(٤/ ١٣٢)، لمحمود شاكر.

(٤) السير (٣/ ٣٧١).

(٥) المغازي، باب: قتل أبي جهل.

قاتلَ البربر مع عبد الله بن سعد بن أبي السرح، وقَتل القائد البيزنطي جُرْجِير في موقعة «سبيطلة» ٢٧هـ، وخرج أيام معاوية لغزو القسطنطينية.

لا يُنَازَع في ثلاثة: العبادة، والشجاعة، والبلاغة(١).

فكان يُصلي خلف المقام كأنه خشبة منصوبة، وإذا سجد وقعت العصافير على ظهره تصعد وتهبط لا تراه إلا جذم حائط، وقيل: كان يقوم ليلة حتى يُصبح، ويركع ليلة حتى يُصبح، ويسجد ليلة حتى يُصبح؛ يُقسم ليالي الدهر على ذلك(٢).

وعن ابن أبي مليكة قال: كان ابن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يواصل سبعة أيام، فيصبح اليوم الثامن وهو أَلْيَثُنَا(٣)، ثم يؤتي بإناء سمن فيشربه، ثم بثريدة في صحفة عليها عرقان، أي: عظم أخذ أكثر لحمه، ويؤتي الناس بالجفان فتوضع بين أيديهم، فيقول: أيها الناس هذا من خالص مالي، وهذا من بيت مالكم(٤).

وعن عمرو بن دينار قال: كان ابن الزبير يُصلي في الحجر والمنجنيق يصب ثَوبَه فما يلتفت- يعني لما حاصروه-، وهذا من فرط شجاعته، قال الذهبي: كان يُضرب بشجاعته المثل(٥). عن ابن أبي مليكة قال: ذُكر ابن الزبير عند ابن عباس، فقال: «قارئ لكتاب الله، عفيف في الإسلام، أبوه الزبير، وأمه أسماء، وجده أبو بكر، وعمته خديجة، وخالته عائشة، وجدته صفية، والله إني لأُحاسب له نفسي محاسبةً لم أُحاسب بها لأبي بكر وعمر(٦).

---

(١) السير (٣/ ٣٦٨).
(٢) السابق (٣/ ٣٦٩).
(٣) طبقات ابن سعد (٦/ ٤٨٤)، أليثنا أي: كأنه ليث.
(٤) السابق (٦/ ٤٨٤).
(٥) السير (٣/ ٣٧٧).
(٦) البخاري: التفسير، باب قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣].

بعثه عبد الله بن سعد بن أبي السرح بالبشارة بانتصار المسلمين على البربر وقَتْل ملكِهم إلى عثمان، فقص على عثمان ما جرى، فأمره عثمان أن يصعد المنبر ويقص ما جرى، قال ابن الزبير: فالتفتُّ فإذا أبي الزبير في جملة من حضر، فلما تبينت وجهه كاد أن يرتجّ عَليَّ في الكلام من هيبته في قلبي، فغمزني بعينه وأشار إليّ ليحضني، فمضيت في الخطبة كما كنت، فلما نزلت قال: والله لكأني أسمع خطبة أبي بكر حين سمعت خطبتك يا بني[1]!!

بُويع بالخلافة بعد موت يزيد بن معاوية ٦٤هـ، وبقي بمكة حتى قتل ٧٣هـ، وحج بالناس عشر سنين أولها سنة اثنتين وستين وآخرها سنة إحدى وسبعين[2] وبنى الكعبة أيام خلافته وكساها الحرير.

بيعته رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

بعد وفاة يزيد بن معاوية دعا ابن الزبير الناس لبيعته فبايعوه على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وسيرة الخلفاء الصالحين[3]، ولم يكن دعا لذلك حتى مات يزيد في ربيع الأول سنة ٦٤هـ[4]، فأرسل إلى المدينة أخاه عبيدة واليًا عليها، فتركها بنو أمية إلى الشام، وكان فيهم مروان بن الحكم وابنه عبد الملك.

وأرسل إلى أهل مصر فبايعوه، واستناب عليها عبد الله بن جحدم، وأطاعت له الجزيرة.

أما أهل البصرة فكتب ابن الزبير إلى أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ليُصلي بهم،

---

(١) التاريخ الإسلامي (٤/ ١٣٥)، لمحمود شاكر، باختصار.

(٢) طبقات ابن سعد (٦/ ٤٨١).

(٣) أنساب الأشراف، للبلاذري (٦/ ٣٤١) ط دار الفكر.

(٤) فتح الباري (١٧/ ٣٩) ط طيبة.

وجعل عليهم الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة[1]، وأرسل إلى الكوفة عبد الله بن يزيد الخطمي بعد هرب ابن زياد[2]، وهكذا اجتمعت البصرة والكوفة لابن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأرسل إلى أهل اليمن فبايعوه، وبعث إلى خراسان فأعلنوا البيعة.

وأما الشام فبايعه فيها الضحاك بن قيس وهو على دمشق، والنعمان بن بشير وهو على حِمْص، وزفر بن عبد الله الكلابي وهو على قنسرين (جنوب حلب)، ودخل ناتل بن قيس فلسطين، ولم يبق من الشام إلا بعض جهات الأردن، وبعض رجالات الشام الذين تجمعوا في دمشق، منهم عبيد الله بن زياد -قبحه الله- الذي فر من البصرة.

وبذلك انعقدت البيعة لابن الزبير، فبايعه أكثرُ الأمصار وأهلُ الحل والعقد فيها، والصحابة وأبناؤهم وكبار التابعين[3].

وبذلك شملت دولة ابن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا الحجاز واليمن ومصر والعراق وخراسان ومعظم الشام[4].

اندلاع الأحداث بالشام

كانت مدة خلافة ابن الزبير مدة عدم استقرار، فالأحداث في الشام ساخنة، استقر الأمر فيها أخيرًا لبني أمية، وكانت مصر وإفريقية مع ابن الزبير ثم انتقل فيها الأمر للأمويين بهدوء، أما الحجاز فالأوضاع فيها مستقرة لابن الزبير.

---

(١) البداية والنهاية (٩/ ٣١) والتاريخ الإسلامي لمحمود شاكر (٤/ ١٤٠).

(٢) أنساب الأشراف (٦/ ٣٤٤).

(٣) البداية والنهاية (٩/ ٣١)، والتاريخ الإسلامي (٤/ ١٤٠)، لمحمود شاكر.

(٤) الدولة الأموية، د/ حامد غنيم، ط الثقافة ص ١٥٨. بتصرف.

فالشام إذن مسرح الأحداث، ففي الوقت الذي أراد فيه مروان بن الحكم مبايعة ابن الزبير التقى بعبيد الله بن زياد -قبحه الله- فزين له ولاية الأمر[(١)]، فاستجاب له مروان بسرعة فائقة، واجتمع بنو أمية بالجابية[(٢)]، واختلفوا حول الأجدر من بني أمية فذهب البعض إلى خالد بن يزيد بن معاوية رغم كونه حدثًا في تلك الفترة، ومال البعض لاختيار مروان بن الحكم وبالفعل تم له ذلك لكبر سنه ومن بعده خالد بن يزيد ومن بعده عمرو بن سعيد الأشدق[(٣)]، ثم التقوا مع جيش الضحاك بن قيس بمرج راهط، واستمرت المعركة عشرين يومًا، انتصر فيها جيش مروان وقُتل الضحاك بن قيس[(٤)]، وطاردوا النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والي حمص فقتلوه، وأصبحت كلُّ بلاد الشام في أيدي مروان بن الحكم وذلك مطلع ٦٥هـ[(٥)].

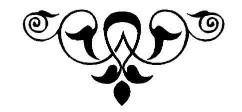
ثم جهز مروان جيشًا بإمرة عُبيد الله بن زياد إلى العراق ليأخذها من نواب ابن الزبير.

وفي هلال شهر ربيع الآخر ٦٥هـ دخل مصر وولى عليها ابنه عبد العزيز، وبالاستيلاء على مصر والتي تتميز بالقوة الاقتصادية والموقع المميز تقاربت موازين القوى بين دولة ابن الزبير الخليفة الشرعي ودولة مروان الخارج عليه وهذا يدل على أن مروان بن الحكم كان يتمتع بعقلية قوية في التخطيط والتنفيذ[(٦)].

(١) البداية والنهاية (٩/ ٣٢).
(٢) السابق (٣/ ٣٦).
(٣) تاريخ الطبري (٣/ ٤١٣).
(٤) أنساب الأشراف، للبلاذري (٦/ ٢٦٩).
(٥) الكامل في التاريخ (١/ ٧٢٥).
(٦) الدولة الأموية، د/ حامد غنيم ص ١٦٤ ط دار الثقافة.

ثــم خــرج من مصر في جمــادى الآخرة وتوجــه إلى الشــام، ولكنه عاجلته المنية فمات في مســتهل رمضان ٦٥هـ، وكانت مدة سيطرته على الشام ومصر تسعة أشهر، وكان قد أخذ العهد من بعده لابنيه عبد الملك وعبد العزيز.

وبذلـك صار للمسـلمين خليفتان، فقـد بويع بالخلافة لعبـد الله ابن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في شــهر رجــب ٦٤ هـ، وبعــد قرابة أربعة أشــهر وتحديدًا في منتصف ذي القعدة ســنة ٦٤هــ بويع لمروان بن الحكم بالخلافــة[١]، لكنه كان خارجًا ومتعديًا على الخليفة المُبايَع، قال ابن حزم: وهو أول من شق عصا المسلمين بلا تأويل ولا شبهة وخرج على ابن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[٢].



(١) خليفة بن خياط (١/ ٢٥٢).

(٢) رسائل ابن حزم (٢/ ١٤١).



ثانيًا: الأسرة المروانية

من:	إلى:
٧٣ هـ	١٣٢ هـ

تسع وخمسون سنة

(١)

عبد الملك بن مروان

من:	إلى:
٧٣ هـ	٨٦ هـ

ثلاث عشرة سنة

عبد الملك بن مروان

صفته ومناقبه

كان قبـل الخلافـة من العُبـاد الزُّهاد الفُقهـاء، المُلازمين للمسـجد التالين للقـرآن، وكان ربعة من الرجال أقرب إلـى القِصر، وكان أبيَض ليس بالنحيف ولا البادن، مقرون الحاجبين، كبير العينين، دقيق الأنف، مشرق الوجه، أبيض الرأس واللحية[1]. قال نافع: لقد رأيتُ المدينة وما فيها شاب أشد تشميرًا ولا أفقه ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك بن مروان[2]. يُلقب بأبي الملوك لتولي أربعـة من ولده الخلافة وهم: الوليد وسـليمان ويزيد وهشـام، فبعد وفاة أبيه وأَخْذ البيعة له صفا الجو له تمامًا بالشام.

ثورة المختار الثقفي

بعـد وفاة مـروان بن الحكم وأخـذه البيعة لابنيه عبد الملـك وعبد العزيز، وتولى عبد الملك شـئون مصر والشـام، ظهر المختـار الثقفي بالعراق وذلك في سـنة ٦٦هـ مطالبًا بدم الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فتعاطف أهلها معه، واجتمع حوله ألفان من أهل العراق، وانضم إليه إبراهيم بن الأشـتر النخعي، فقويت حركته جـدًّا، فتوجهـوا إلى عبد الله بـن مطيع أمير الكوفة من قِبَـل ابن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فأخرجوه منها[3]، وأحكموا سيطرتهم على الكوفة، ثم توجه إلى قتلة الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهـم بالكوفـة، فقتـل معظمهـم، وتوجه إلى قتـال عبيد الله بـن زياد، والتقى الجيشـان عند نهر **الخازر** بالقرب من الموصل، فانهزم جيش ابن زياد

---

(١) البداية والنهاية (١٠/ ٢١٣).

(٢) أنساب الأشراف، للبلاذري (٧/ ٢٠٣).

(٣) السابق (٦/ ٣٧٥).

وقتله إبراهيم بن الأشتر النخعي، فقطعه نصفين، فاحتزوا رأسه وبعثوه إلى المختار الثقفي بالكوفة سنة ٦٧هـ[١].

تعاظم أمر المختار بذلك، وبدأ في بعث الأمراء إلى النواحي والبلدان والأقاليم من أرض العراق وخراسان[٢]، ونجح في القضاء على عمر بن سعد أمير الجيش الذي قتل الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وشمر بن ذي الجوشن أمير الألف الذين تولوا قتْل الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وسنان بن أبي أنس وغيرهم كثير، ولكن مُلكه لم يدم طويلًا؛ فقد أرسل عبد الله بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أخاه مصعب ابن الزبير على رأس جيش فالتقى بالمختار الثقفي قرب الكوفة، فالتقت الكتائب المختارية فحملت عليهم الفرسان الزبيرية، فما لبثت المختارية إلا يسيرًا حتى هربوا على حِمْية، وقد قُتل منهم جماعة من الأمراء وخلق من القراء وطائفة كثيرة من الشيعة الأغبياء، ثم انتهت الهزيمة إلى المختار[٣]، وتقدم إليه رجلان شقيقان واحتزا رأسه، وأتيا به مصعب بن الزبير، فوُضِع بين يديه كما وُضِع رأس ابن زياد بين يدي المختار، وكما وُضِع رأس الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بين يدي ابن زياد، وبعث مصعب برأسه إلى عبد الله بن الزبير، وفرق عماله في الكور والسواد[٤]، وبذلك زالت دولة المختار كأن لم تكن، وكذلك سائر الدول، وفرح المسلمون بزوالها؛ ذلك بأن الرجل لم يكن في نفسه صادقًا، بل كان كاذبًا وكاهنًا، وكان يزعم أن الوحي ينزل عليه على يد جبريل يأتي إليه[٥]، ولا شك أنه كان ضالًّا مضلًّا أراح اللهُ المسلمين منه بعد ما انتقم به من قوم

---

(١) العالم الإسلامي في العصر الأموي، د/ عبد الشافي محمد عبد اللطيف ص ٤١٦. بتصرف.

(٢) السابق (٩/ ٥٩).

(٣) البداية والنهاية (٩/ ٧٩).

(٤) طبقات ابن سعد (٧/ ١٨٢).

(٥) البداية والنهاية (٩/ ٨٣).

آخرين من الظالمين[١]، وهذه سنة من سنن الله في كونه، يُسلط الظالمين على الظالمين، وكذلك يُزيل دولة الظلم ولو بقيت لحين.

عبد الملك وقتال مصعب بن الزبير

عندما علم عبد الملك بن مروان بقضاء مصعب بن الزبير على حركة المختار الثقفي قرر التوجه من الشام إلى العراق لملاقاة مصعب بن الزبير، وحدث ذلك عام ٧١هـ، وراسل عبد الملك أمراء مصعب ومنَّاهم بالولايات، فعلم مصعب بذلك، فقال: رحم الله أبا بحر -يعني الأحنف بن قيس- أن كان ليُحذرني غدر أهل العراق، وكأنه ينظر إلى ما نحن فيه الآن.

وانهزم جيش مصعب بن الزبير، وقدمت رأسه لعبد الملك بن مروان، ثم دعا عبد الملك أهل العراق إلى البيعة له، فبايعوه وانصرف إلى الشام[٢].

وهكذا توسع مُلك عبد الملك حتى ضم الشام والعراق ومصر، ولم يبق بيد عبد الله بن الزبير سوى الحجاز[٣].

الحجاج واليًا على العراق

ولَّى عبدُ الملك بن مروان على العراق الحجاجَ بن يوسف الثقفي،[٤] فقال عندما وصلها وهو على المنبر:

أنا ابن جلا[٥] وطلاع الثنايا   متى أضع العمامة تعرفوني[٦]

---

(١) البداية والنهاية (٩/ ٨٤). (٢) طبقات ابن سعد (٧/ ٢٢٥).

(٣) العالم الإسلامي في العصر الأموي، د/ عبد الشافي محمد عبد اللطيف ص ٤٢٩.

(٤) البداية والنهاية (٩/ ١٥٦٩)، والتاريخ الإسلامي (٤/ ١٧٧) لمحمود شاكر.

(٥) «ابن جلا» : المشهور الذي يجلي الأمور، "طلاع الثنايا" : كاشف الأمور، والثنايا : جمع ثنية، وهي الطريق في الجبل .

(٦) أضع العمامة: أي عمامة الحرب، وقيل : العمامة تلبس في الحرب وتخلع في السلم، والمعنى : أضع العمامة فوق رأسي فتظهر شجاعتي وإقدامي.

أما إني والله لأحمل الشر بحمله وأحذوه بنعله، وأجزيه بمثله، وإني لأرى رؤوسًا قد أينعت وحان قطافها، وإني لأنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى.

قد شمّرتْ عن ساقها فشدوا والقوس فيها وتر عَردُّ
مثل ذراع البَكر أو أشدُّ لا بُد مما ليس منه بُدُّ
هذا أوان الشد فاشتدي زِيَمْ قد لفها الليل بِسَوَّاقٍ حُطَمّ
ليس براعي إبلٍ ولا غنمْ ولا بجزار على ظهرِ وَضَمّ (١)
قد لفها الليل بعُصْلَبِيِّ(٢) أروَعَ خَرّاج من الدَويِّ(٣)
مهاجرٍ ليس بأعرابيِّ

إن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان نثر كنانته، ثم عجم عيدانها، فوجدني أمرَّها عودًا، فوجهني إليكم، فإنكم طالما أوضعتم في الفتن، وسننتم سنن الغي، أما إني والله لأضربنكم ضرب غرائب الإبل، إني والله لا أعِد إلا وفيت، فإياي وهذه الجماعات وقيلًا وقالا، وما يقول، وفيم أنتم وذاك؟! والله لتستقيمن على سبيل الحق أو لأدعن لكل رجل منكم شغلًا في جسده.

وقال: فوالله لأذيقنكم الهوان حتى تدرّوا، ولأعصبنكم عصب السّلمةَ حتى تنقادوا، وأقسم بالله لتُقبِلُنَّ على الإنصاف، ولتدعن الإرجاف وكان وكان، وأخبرني فلان عن فلان، أو لأهبرنكم بالسيف هبرًا يدع النساء أيامى، والأولاد يتامى، حتى تمشوا السُّمَّهىَ وتقلعوا عن ها وها.

استقر الوضع في العراق لبني أمية بهذه الشدة التي ساس بها الحجاج الناس، فلما كان في اليوم الثالث سمع تكبيرًا في السوق، فخرج حتى جلس على المنبر،

(١) الوضم: كل ما يقطع اللحم.
(٢) العصلبي: الشديد القادر على العمل والمشي.
(٣) الأرض الفضاء التي يُسمع خف الإبل فيها كالدوي.

فقال: يا أهل العراق، يا أهل الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق، إني سمعت تكبيرًا في السوق ليس بالتكبير الذي يُراد به الترغيب، ولكنه تكبير يُراد به الترهيب، وقد عصفت عجاجة تحتها قصف، يا بني اللكعية وعبيد العصا وأبناء الإماء والأيامى ألا يربَعُ كل رجل منكم على ظَلْعه، ويُحسن حقن دمه، ويُبصر موضع قدمه، وأقسم بالله لأوشك أن أوقع بكم وقعة تكون نكالًا لما قبلها وأدبًا لما بعدها[1]. فضج الناس من هذا الظلم، ففي البخاري عن الزبير ابن عدي قال: أتينا أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فشكونا إليه ما نلقاه من الحجاج، فقال: اصبروا، فإنه لا يأتي زمان إلا والذي بعده أشر منه حتى تلقوا ربكم، سمعته من نبيكم ﷺ[2]. وقد ذكر الزبير بن بكار من طريق مجالد عن الشعبي قال: كان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فمن بعده إذا أخذوا العاصي أقاموه للناس ونزعوا عمامته، فلما كان زياد ضرب في الجنايات بالسياط، ثم زاد مصعب بن الزبير حلق اللحية، فلما كان بشر بن مروان سَمَّر كف الجاني بمسمار، فلما قدم الحجاج، قال: هذا كله لعب، فقتل بالسيف[3]. وكان غليظًا جلفًا حتى مع أصحاب رسول الله ﷺ فعن يزيد بن أبي عبيد عن سلمة بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه دخل مع الحجاج، فقال: يا ابن الأكوع ارتددت على عقبيك، تعربت؟ قال: لا، ولكن رسول الله ﷺ أذن لي في البدو[4]. وسيأتي جفاؤه مع أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وإغلاظ القول له.

وهكذا وبهذه الشدة والعنف الذي لم يُعرف له مثيل في مَن قبله من ولاة العراق استطاع الحجاج أن يقودهم طيلة مدة حكمه.

---

(١) البداية والنهاية (٩/ ١٥٧).

(٢) البخاري، كتاب الفتن.

(٣) فتح الباري (١٦/ ٤٦٠).

(٤) البخاري، كتاب الفتن.

عبد الملك ينتدب جيشًا لقتال ابن الزبير

انتدب عبد الملك بن مروان جيشًا كثيفًا بقيادة الحجاج، فبعثه في جمادى الأولى ٧٢هـ إلى مكة لملاقاة عبد الله بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فحاصر أهل مكة بقيادة ابن الزبير، وضرب مكة بالمنجنيق، ومنع الماء والغذاء عن ابن الزبير وجيشه، وأظهر ابن الزبير شجاعة منقطعة النظير، فكان يشد على أهل الشام فيخرجهم من أي باب دخلوا منه، إلا أن الناس قد خذلوه وصاروا يخرجون إلى أهل الشام.

فذهب ابن الزبير لأمه أسماء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وقال لها: إن الناس قد خذلوني، والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا، فماذا ترين؟

قالت: أنت والله يا بني أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على الحق وإليه تدعو، فامض له، ولا تُمكن من رقبتك غلمان بني أمية فيلعبون بها، وإن كنتَ إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت، أهلكتَ نفسك، وأهلكتَ مَن قُتل معك، وكم خلودك في الدنيا؟ القتل أحسن.

قال: أخاف أن يُمَثِّل بي أهل الشام.

قالت: إن الكبش لا يُؤلمه سلخه بعد ذبحه.

فدنا منها، وقبّل رأسها وقال: هذا والله رأيي، ما ركنت إلى الدنيا، ولا أحببت الحياة فيها، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب له أن تُستحل محارمه، ولكني أحببت أن أعلم رأيك فزدتني بصيرة مع بصيرتي، فانظري يا أماه فإني مقتول من يومي هذا، فلا يشتد حزنك وسلمي لأمر الله.

فدعت له مودعة: اللهم ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل، وذلك الظمأ في هواجر المدينة ومكة، وبره بأبيه وبي.

فقاتل قتال الشجعان، وهو ينشد:

أسـماء يـا أسـمـاء لا تبكيني لـم يـبـق إلا حـسـبـي وديـنـي

وصـــارم لانـــت مـــنـــه يـمـيـنـي

وقُتل ابن الزبير، وحزوا رأسه، وصلبوه مُنكَّسًا -قبحهم الله.

ومـر به ابن عمر فقـال: «**أما وَالله أن كُنْتَ مَـا عَلِمْتُ صَوَّامًـا قَوَّامًا وَصُولًا لِلرَّحِـمِ، وَاللهِ لَأُمَّةٌ أَنْتَ أَشَـرُّهَا لَأُمَّـةٌ خَيْرٍ**» فبلغ قولُ ابن عمـر الحجاجَ، فأمر بجسـد ابن الزبيـر فأُنزل عن جذعـه، فأُلقي في قبور اليهود، وأرسـل الحجاج إلى أسـماء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فلم تأته، فأرسـل ثانية فلم تأته، فأرسل إليها متهددًا قائلًا: إمـا أن تأتيني، أو لأبعثن إليكِ من يسـحبكِ من قرنك. فقالـت: والله لا آتيك. فانطلـق إليها الحجاج ووقـف عندها، وقال: كيف رأيتنـي صنعت بعدو الله؟ قالـت: رأيتك أفسـدت عليـه دنياه، وأفسـد عليك آخرتك، بلغنـي أنك تقول لـه: يا ابن ذات النطاقين[1]، أنـا والله ذات النطاقين، أما أحدهما فكنت أرفع به طعام رسـول الله ﷺ وطعام أبي بكر، وأما الآخر فنطاق المرأة التي لا تستغني عنـه، أما إن رسـول الله ﷺ حدثنا: «**أن في ثقيف كذابًـا ومُبيرًا**»[2]، أمَّا الكذاب فرأيناه[3]، وأما المُبير فلا إخالك إلا إياه، فقام عنها ولم يُراجعها[4].

يقـول الذهبي فيـه: كان ظلومًا جبـارًا ناصبيًّا خبيثًا سـفاكًا للدماء، وكان ذا شـجاعة وإقـدام ومكر ودهاء وفصاحـة وبلاغة وتعظيم للقـرآن، لا نُحبه، بل

---

(١) النطاق: أن تلبس المرأة ثوبها ثم تشـد وسـطها بشـيء، وترفع وسـط ثوبها، وترسـله على الأسفل، وتفعل ذلك عند معاناة الأشغال لئلا تعثر في ثوبها.

(٢) المُبير: الظالم، وهو الحجاج.

(٣) الكذاب: المختار الثقفي الذي ادعى النبوة.

(٤) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ باب: ذكر كذاب ثقيف ومبيرها.

نبغضه في الله، فإن ذلك من أوثق عُرى الإيمان، وله حسنات مغمورة في بحر ذنوبه، وأمره إلى الله، وله توحيد في الجملة، ونظراء من ظلمة الجبابرة والأمراء[(١)].

وهكذا وبمقتل ابن الزبير غدت الأمصار كلها في قبضة عبد الملك بن مروان، وبايعته جميعها، فأصبح بعدئذ الخليفة الشرعي، وكان قبلها خارجًا على أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وكتب إليه ابن عمر بن الخطاب وأبو سعيد الخدري وسلمة بن الأكوع رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا بالبيعة،[(٢)] ولم يبايعوا أحدًا قبل ذلك لأنهم يرون عدم البيعة وقت الفرقة والاختلاف، وكذا محمد بن الحنفية[(٣)].

الفوائد والدروس والعبر

١ - على الرغم من هذه الخلافات الكبيرة التي حدثت بين ابن الزبير رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وبني أمية إلا أنها كانت خلافات في الاجتهاد والرأي، فكل طرف يشعر أن خدمة المسلمين إنما تكون على الطريقة التي يراها والخط الذي ينهجه، ويعيب على الآخر سلوكه، وتعصب كلٌّ لرأيه حتى أدى الأمر إلى الاقتتال وسفك الدماء، ولكن لم يطعن أحدهما في دين الآخر، ولم ينكر كل منهما فضل الثاني[(٤)].

٢ - كان عبد الملك بن مروان يحب مصعب بن الزبير حبًّا شديدًا، وكان لا يفارقه ولا يقدر على ذلك، فقال لروْح بن زِنباع وهو يتجهز لقتال مصعب:

---

(١) السير (٤/ ٣٤٣)، والكامل (١/ ٨٠٣)، و(تاريخ الإسلام للذهبي ٢/ ٧٥٩)، و(التاريخ الإسلامي، لمحمود شاكر (٤/ ١٦٠).

(٢) طبقات ابن سعد (٧/ ٢٢٦).

(٣) السابق (٧/ ١١٢).

(٤) التاريخ الإسلامي، لمحمود شاكر (٤/ ١٦٤).

والله إن في أمر الدنيا لعجبًا، لقد رأيتني ومصعب بن الزبير أفقده الليلة الواحدة في الموضع الذي نجتمع فيه، فكأني والهٌ، ويفقدني، فيفعل مثل ذلك، ولقد كنت أوتى باللّطف - الهدية - فما أراه يجوز لي أكله حتى أبعث به إلى مصعب أو ببعضه، ثم صرنا إلى السيف، ولكن هذا الملك عقيم[1]. ولما قُدم إليه رأس مصعب بكى، ثم أمر بدفنه ومواراته[2].

٣ - كان مروان بن الحكم يبكي بعد معركة «مرج راهط» التي انتصر فيها على جيش الضحاك بن قيس[3]، وجيء له برأسه، وكان يقول: أبعد ما كبرت وضعفت أقبلت أضرب الكتائب بالكتائب[4]!!.

٤ - **قال الإمام النووي**: ومذهب أهل الحق: أن ابن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كان مظلومًا، وأن الحجاج ورفقته كانوا خوارج عليه[5].

فتنة ابن الأشعث

كان عبد الرحمن بن الأشعث ذا همة عالية يتطلع إلى أعلى، وكان يبغض الحجاج، وكان الحجاج ينتظر الفرصة حتى يبعده عن العراق، وفعلًا أرسله سنة ٨٠هـ على رأس جيش قوامه أربعون ألفًا من أهل البصرة والكوفة لقتال الترك، فانتهز ابن الأشعث هذه الفرصة حيث أصبح أميرًا على أربعين ألفًا، فغزا بهم الترك وانتصر، لكنه لم يتوغل، ورأى الانتظار وليصلح المسلمون ما استولوا عليه، وحتى يذهب الشتاء القارص، لكن الحجاج أمره بالتوغل

---

(١) طبقات ابن سعد (٧/ ٢٢٤).

(٢) التاريخ الإسلامي، لمحمود شاكر (٤/ ١٦٤).

(٣) السابق (٤/ ١٦٤).

(٤) أنساب الأشراف، للبلاذري (٦/ ٢٦٩).

(٥) شرح مسلم (١٦/ ٣١٥).

وشدد عليه واتهمه بالجبن، لكن ابن الأشعث أصر على رأيه وكلم جنده، وقرروا خلع الحجاج، واتجهوا نحو الحجاج لقتاله والتخلص من ظلمه وبطشه واستبداده، فخاطب الحجاجُ عبدَ الملك بن مروان، والتقى الجيشان، وانهزمت مقدمة الحجاج وفر إلى البصرة، ودخلها ابن الأشعث وخطب الناس فبايعوه على خلع الحجاج وعبد الملك، ووافقه كثير من علماء البصرة وفقهائها وقراءها وشيوخها لما يُقاسون من الحجاج.

والتقوا ثانية في معركة **الزاوية** ٨٢هـ، فانتصر ابن الأشعث في اليوم الأول، ولكنه هُزم في اليوم الثاني وانحاز إلى الكوفة، فدخلها وبايعه أهلها على خلع الحجاج وعبد الملك، والتقى الجيشان وكانت الحرب يوميًّا، واستمر ذلك حتى انتهى عام ٨٢هـ، وفي نهاية القتال انتصر الحجاج بعد صبر مرير، وهرب ابن الأشعث ودخل بلاد الترك.

وقَتل الحجاجُ من العلماء الكثيرَ، منهم سعيد بن جبير، وعفا عن الشعبي.

ومِن أبرز مَن شارك في هذه المعارك من العلماء: مُسلم بن يسار، مالك بن دينار، سعيد بن أبي الحسن شقيق الحسن البصري، وسعيد بن جبير، والشعبي، وطلحة بن مصرف، وابن أبي ليلى وقد كان يحض الناس في المعارك، ومجاهد وعطاء، وعمرو بن دينار.

ولكن الحسن البصري رفض الدخول في هذه الفتنة، وقال: إن الحجاج عقوبة سلطه الله عليكم، فلا تستقبلوا عقوبة الله بالسيف، ولكن استقبلوها بالدعاء والتضرع[1].

---

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٦٧٨)، الكامل (١/ ٨٤٧)، تاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ٧٧٧)، أنساب الأشراف للبلاذري (٧/ ٣٠٣)، التاريخ الإسلامي لمحمود شاكر (٤/ ١٧٨).

الفوائد والدروس والعبر

١ - جمع ابن الأشعث ثلاثة وثلاثين ألف فارس، ومائة وعشرين ألف راجل لخلع الحجاج، وقام شعراء العراق وخطباؤهم يعلنون خلع الحجاج، وعاهدوا ابن الأشعث على ذلك، وكوّن الفقهاء كتيبة كاملة، وحذر المهلب ابن أبي صفرة ابن الأشعث قائلًا له: «لقد وضعت قدميك في ركاب طويل، ابق على أمة محمد ﷺ وانظر إلى نفسك فلا تهلكها، ودماء المسلمين فلا تسفكها، والجماعة فلا تفرقها، والبيعة فلا تنكثها[1]»، فلم يستجب فحدث كل ما حذره منه.

٢ - عَرَض الخليفة عبد الملك بن مروان على أهل العراق عزل الحجاج وأن يعطيهم عطايا مثل أهل الشام، وأن يختار ابنُ الأشعث أيَّ بلدٍ يكون حاكمًا لها، فوافق ابن الأشعث، لكن من معه وثبوا وقالوا: لا والله لا نقبل. فاغتروا بقوتهم فأضاعوا كل شيء[2]، وأصروا على عزل الخليفة نفسه والتخلص من حكم بني أمية، فاستعد الجيشان للحرب وتقاتلا في (٨٠) معركة، كان أشهرها معركة «دير الجماجم» التي استمرت مائة يوم.

٣ - استهدف الحجاج بخبرته وحنكته وذكائه كتيبة العلماء غير المحترفين في القتال، فقتل آلاف العلماء والفقهاء والدعاة وحفظة القرآن، وعندما شعر ابن الأشعث بالهزيمة فر إلى «رتبيل» عدوه السابق الذي يحكم بلاد الترك، لكن الحجاج راسله لتسليم ابن الأشعث وتعهد له ألا يغزو بلاده عشر سنين، وأن يؤدي له كل سنة تسعمائة ألف درهم، وأمام هذا العرض السخي سلم رتبيل ابن الأشعث، لكنه ألقى بنفسه من فوق قصر فمات، وذلك

(١) تاريخ الإسلام للذهبي (٦/ ٨).

(٢) نهاية الأرب في فنون الأدب (١١/ ١٤٧) لشهاب الدين النويري، ط دار الكتب العلمية.

سنة ٨٤هـ[١]، وهكذا تكون نهاية الفتنة والثورات ونهاية أصحابها.

٤ - قبض الحجاج على مئات العلماء، وسامهم سوء العذاب وقتل أكثرهم، وقبض على إمامهم سعيد بن جبير وقتله في قصة مشهورة، فدعا الله تعالى قائلًا: «اللهم لا تسلطه على أحد بعدي »، فاستجاب الله دعاءه، كان الحجاج لا يوقر عالمًا لعلمه، ولا شيخًا لسنه، ولا صحابيًّا لصحبته، انتهت الثورة وبقي الحجاج وازداد ظلمه، وبقي عبد الملك وقويت سلطته.

٥ - الجدوى لاتقل أهمية عن الفتوى، ومآلات الأمور لاتقل أهمية عن أسبابها ودوافعها، فقه النتائج والمآلات فقه عظيم يلحقه مباشرة «فقه المصالح والمفاسد» فكل أمور السياسة والحكم والثورات وغيرها من الأمور الحياتية يضبطها هذان الفقهان[٢].

٦ - الحكام يتشابهون كثيرًا؛ يغلب عليهم غياب العدل السياسي والاجتماعي، ولكن بدرجات، والثورات ومآلاتها تتشابه في أنها لا تنصف مظلومًا ولا ترفع ظلمًا، ولاتقيم عدلا[٣].

٧ - الخروج على الحكام دائمًا وأبدًا وعلى مر الدهور والعصور يجر من المفاسد على البلاد والعباد ما لا تقاومه أي مصلحة، لذا وصف ابن كثير فعل من خرج في فتنة ابن الأشعث بقوله: «ولهذا لما كانت زلة وفلتة نشأ بسببها شر كثير، هلك فيها خلق كثير[٤] »، لذا فقد ندم أكثرهم.

---

(١) ثقيف ودورها في التاريخ العربي الإسلامي حتى العصر الأموي ص ١٨٠، د/ عاطف القيسي، ط دار الكتب العلمية.

(٢) مستفاد من مقال للدكتور ناجح إبراهيم - حفظه الله - بعنوان: «فقه المآلات وثورة ابن الأشعث».

(٣) السابق.

(٤) البداية والنهاية (١٢/ ٣٥٥).

عن حماد بن زيد قال: لا أعلم أحدًا منهم قتل إلا رغب عن مصرعه، ولا نجا أحد منهم إلا حمد الله الذي سلمه، وندم على ما كان منه[١]. وقال ابن عون: لما وقعت الفتنة زمن ابن الأشعث خَفَّ مسلم فيها - يعني ابن يسار شيخ القراء وكان يلي الحسن البصري في المنزلة عند الناس - وأبطأ الحسن، فارتفع الحسن واتضع مسلم[٢]. وقال أبو قلابة: قال لي مسلم بن يسار: إني أحمد الله إليك أني لم أرم بسهم، ولم أضرب فيها بسيف. قلت له: فكيف بمن رآك بين الصفين فقال: هذا مسلم بن يسار لن يقاتل إلا على الحق، فقاتل حتى قُتِل؟ فبكى، والله حتى وددت أن الأرض انشقت، فدخلتُ فيها[٣]. وقال الشعبي للحجاج لما دخل عليه: أيها الأمير، إن الناس قد أمروني أن اعتذر إليك بغير ما يعلم الله أنه الحق، وايم الله لا أقول في هذا المقام إلا الحق، قد والله تمردنا عليك، وحرضنا وجهدنا كل الجهد، فما كنا بالأقوياء الفجرة ولا بالأتقياء البررة، ولقد نصرك الله علينا، فإن سطوت فبذنوبنا، وإن عفوت عنا فبحلمك. فعفا عنه الحجاج ثم قال له: كيف وجدت الناس بعدنا يا شعبي؟ قال: أصلح الله الأمير، قد اكتحلت بعدك بالسهر، واستوعرت السهولة، واستحلست الخوف، واستحليت الهم، وفقدت صالح الإخوان، ولم أجد من الأمير خلفًا[٤].

٨-**من اللافت للنظر** أن العلماء الذين عاصروا هذه الفتنة وقد اختلفوا في حكم المشاركة فيها لم يطعن بعضهم في بعض، أو يُخَوِّن بعضُهم بعضًا لان

(١) ابن سعد في الطبقات (٧/ ١٨٧).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٦/ ١٨٧).

(٣) مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، لسبط ابن الجوزي (٦/ ٤٧٠) ط دار الكتب العلمية.

(٤) تاريخ الطبري (٣/ ٦٤٤).

هـذه المسـألة من مسـائل الاجتهاد ليس فيهـا مخالفة للنصـوص أو الإجماع أو القياس الجلي؛ حيث أن مسـائل السياسـية الشـرعية مبناها على الاجتهاد، فالعلماء لا تحركم العواطف بل الضوابط الشرعية(١)

قتال الخوارج

لقـد قام الخوارج بثـورات هائلة فتت في عضد الدولـة الأموية، وتولى أمر قتالهم المهلب بن أبي صفرة.

التقى الخوارج بقيادة شـبيب بن يزيد الشـيباني، وهو أحد أبطال العالم، في مائة رجل مع جيش لمحمد بن مروان في ألف رجل، فقتلوا جميعًا.

ثـم زحف تجاه الموصل، فأرسـل إليه الحجاج جيشًـا قوامـه ثلاثة آلاف، فانهزموا أيضًا.

وأراد شـبيب حصار الكوفة، وتقابل مع الجيش هناك فهزمه، وفر الحجاج نحـو البصـرة، ودخل شـبيب الكوفة ومعه زوجـه غزالة الحروريـة، فدخلت المسجد وجلست على المنبر، وجعلت تذم الحجاج وآل مروان.

وكانت من أشجع النساء، وقد خشي الحجاج منها يوم دخلت الكوفة فاختبأ وتحصن، وقال في ذلك عمران بن حطان شاعر الخوارج مخاطبًا الحجاج:

أسـد عليَّ وفي الحـروب نعامـة ... ربـداء تجفـل مـن صفيـر الصافر

هـلا بـرزت إلـى غزالـة في الوغى ... بـل كان قلبـك في جناحـي طائـر

ثم أرسـل الحجاجُ عثمان بن قطن لقتال شـبيب، فقُتل عثمان ومعه ستمائة من جماعته، واشتد أمر شبيب وخافه جميع الأمراء.

---

(١) أحداث الفتن السياسية د/ زين العابدين كامل، ص ٤٢٨.

ثم أرسل عبد الملك جيشًا قوامه أربعون ألفًا، فهزمهم شبيب في ألف رجل.

ثـم التقى معـه الحجاج في معركـة رهيبة، ثبـت فيها كلا الطرفيـن، وقُتلت غزالة، لكنَّ شـبيبًا انتصر، واتجه نحـو الأهواز، فكلف الحجاج جيش البصرة بقتاله، فاجتمعوا على شبيب وهزموه وغرق شبيب، وانهزم جيشه[1].

أهم أعمال عبد الملك بن مروان

١ـ أصدر العملة سنة ٧٦هـ

هو أول من أحدث ضربها في الإسلام، إذ إن الدولة الإسلامية كانت تتعامل بالعملات الأجنبية بالدنانير الرومية والدراهم الفارسـية في الأكثر، واليمنية في الأقل، فرأى عبد الملك بن مروان أن يعمل للدولة عملة مستقلة[2].

وسـبب ذلـك أن القراطيـس (ورق الكتابـة) كانـت تدخل بـلاد الروم من أرض مصر، وكان الأقباط يكتبون في رؤوس الطوامير عبارات تنسب المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الربوبية كما ترسم في صدرها الصليب، فأمر عبد الملك أن يكتب في مكانهـا «قل هـو الله أحد»، فكره ذلك ملك الروم، وكتـب إلى عبد الملك: إنكم أحدثتم في قراطيسكم كتابًا نكرهه، فإن تركتموه وإلا أتاكم في الدنانير من ذكر نبيكم ﷺ ماتكرهونه. فكره ذلك عبد الملك واستشار من حوله[3].

فأشار عليه خالد بن يزيد بن معاوية أن يُحرِّم الدنانير الرومية، ويضرب للناس سَكَّة فيها ذكر الله تعالى، ففعل، وبذلك صار للمسلمين استقلال مالي[4].

(١) الطبري (٦/ ٦٢٩)، وأنساب الأشراف (٦/ ٤٢٣)، والتاريخ الإسلامي، لمحمود شاكر (٤/ ١٨٨).

(٢) الدولة الأموية، د/ حامد غنيم ص ٣١٦.

(٣) البلاذري، فتوح البلدان ص ٢٤٩.

(٤) تاريخ الخلافة الأموية ص ١٩٣، د/ أحمد أبو الأشبال.

٢- تعريب الدواوين

الديوان موضع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطة من الأعمال والأموال، وكانت بعض المقاطعات تستعمل في ديوان الخراج لغات فارسية ويونانية وقبطية، فعربها كلها عبد الملك بن مروان[١].

٣- اتساع دولة الخلافة

ففي عهد عبد الملك أصبحت تشمل: مكة، المدينة، اليمن، البصرة، الكوفة، خراسان[٢]، سجستان، عُمَان، مصر، البحرين، إفريقية، الجزيرة، أرمينية، أذريبجان، اليمامة، فلسطين، حِمص، الأردن، البلقاء.

٤- الفتوحات في عهده

بعد أن استتبت الأمور لأمير المؤمنين عبد الملك بن مروان واجتمعت عليه جميع الأقاليم وجه همته إلى الأقاليم والبلدان التي لا تدين بالإسلام؛ فنقض صلحه مع الروم وعاود منازلتهم، فردهم في الأناضول وأرمينيا واستعاد بعض ما أخذوه أثناء انشغاله بالداخل، وعاود الصوائف مرة أخرى بعد توقف طويل بسبب أحداث الفتن، ولم تتوقف لمدة سبع سنوات متتالية، وهذا يدل على مدى تأثير البيئة الداخلية على استعادة الجيوش لقدراتها الهجومية مرة أخرى[٣]، ثم

---

(١) العالم الإسلامي في العصر الأموي، د/ عبد الشافي محمد، ص ١٤١.

(٢) خراسان: بلاد واسعة، أول حدودها مما يلي العراق، وآخر حدودها مما يلي الهند وطخارستان وغزنة وسجستان وكرمان، وليس ذلك منها إنما هو أطراف حدودها، وتشمل على أمهات من البلاد منها: نيسابور وهرات ومرو وبلخ وطالقان وسرخس ومايتخلل ذلك من المدن التي دون نهر جيحون، وقد فتحت أكثر هذه البلاد عنوة وصلحًا، معجم البلدان (٢/ ٣٥٠).

(٣) الدولة الأموية دولة الفتوحات، نادية محمود مصطفى، ص ٢٧ ط المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

اتجه عبد الملك بن مروان إلى أماكن أخرى لفتحها وضمها إلى بلاد الإسلام، وكانت أهم المناطق التي ارتفعت عليها راية الجهاد، وتم ضمها إلى رقعة الدولة في الجهة الشرقية، وفي الجنوب نحو إقليم السند، وفي الشمال حيث إقليم ما وراء النهر:

١- **هِرْقَلة**: وهي إحدى مدن الروم، تم فتحها سنة ٧٧هـ(١).

٢- **طُرَنْدة**: وهي أيضًا إحدى مدن الروم، افتتحها عبد الله بن عبد الملك وذلك سنة ٨٣هـ(٢).

٣- **المصِّيصة**: وهي على شاطئ جيحان من ثغور الشام، بين أنطاكية وبلاد الروم، افتتحها عبد الله بن عبد الملك، وبنى حصنها ووضع بها ثلاثمائة مقاتل من ذوي البأس، وذلك سنة ٨٤هـ(٣).

٤- **نَيْزك**: افتتحها يزيد بن المهلب، وكانت من أحصن القلاع وأمنعها، وكان (نيزك) إذا رأها سجد لها تعظيمًا لها(٤)، وهي إحدى مدن بلاد ما وراء النهر.

٥- **باذَغيس**: غزاها المفضل بن المهلب، فافتتحها وأصاب مغنمًا فقسمه لكل رجل ثمانمائة درهم(٥)، وهي إحدى مدن بلاد ما وراء النهر أيضًا.

---

(١) تاريخ الطبري، والبداية والنهاية، نقلاً عن: معارك حاسمة في تاريخ الإسلام، للشيخ/ رياض عبد الله ليلا، ط دار مجد الإسلام.

(٢) تاريخ الخلافة الأموية ص ١٩٣ وما بعدها، د/ أحمد أبو الأشبال.

(٣) الكامل لابن الأثير (١/ ٨٦٢)، المكتبة العصرية.

(٤) تاريخ الطبري (٣/ ٧١٢).

(٥) السابق (٣/ ٧١٨).

هذه الفتوحات كانت جهة الروم وبلاد ما وراء النهر، **أما جهة إفريقيا:**

١- التقى زهير بن قيس البلوي بالبربر والروم الذين بسطوا نفوذهم على إفريقيا، التقى بهم في موقعة «حمش»، وقد جمع قائدهم (كسيلة) جموعه، وكانت موقعة شديدة، انتصر فيها المسلمون وقُتل كسيلة، وعاد زهير إلى القيروان، وقد كانت انطلاقته منها، وكان ذلك سنة ٧٩هـ[1].

٢- جهز عبد الملك بن مروان حسان بن النعمان الغساني بجيش، فدخل القيروان وسار منها إلى قرطاجنة، والتقى مع البربر والروم، فحاصرهم وقتل الكثير منهم وفر الباقون، وذلك سنة ٧٤هـ، ودانت لحسان بن النعمان إفريقيا كلها، بعد ذلك اتجه حسان بن النعمان لتنظيم البلاد إداريًّا بعد الفتوحات، فدون الدواوين ونظم الخراج وبعث العمال على سائر بلاد المغرب، وعمل على نشر الإسلام؛ فأرسل الفقهاء إلى جميع النواحي لتعليم البربر أمور الدين، فأقبل البربر على الإسلام في حماس منقطع النظير وأخلصوا له، وجند حسان منهم أجناده، حتى أصبح معه جيش منهم[2].

الفوائد والدروس والعبر

١ - تجمع المصادر التي ترجمت لعبد الملك بن مروان أنه كان من عقلاء الرجال ودهاتهم ومن أكثرهم حزمًا وشجاعة وعدالة، حتى قال ابن خلدون: وعبد الملك أعظم الناس عدالة، وناهيك بعدالته احتجاج مالك بفقهه، واستطاع بعد جهود جبارة أن يعيد الوحدة، ويجمع شمل الأمة من جديد، فاستحق عن جدارة لقب «موحد الدولة الإسلامية، أو المؤسس الثاني للدولة

---

(١) تاريخ الخلافة الأموية ص ١٩٥ وما بعدها، د/ أحمد أبو الأشبال.

(٢) العالم الإسلامي في العصر الأموي، د/ عبد الشافي محمد عبد اللطيف ص ١٣٦ ومابعدها باختصار.

الأموية بعد معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مؤسسها الأول»[1].

٢ - أظهر كذلك براعة في إدارة الدولة وتنظيمها، فاستعان بأمهر الرجال لتوطيد أركان دولته، وباشر أعمال دولته بنفسه، فكان دائم المراقبة لعماله، ولم يكن يرضى عن الظلم والتعدي، وفي سبيل إرساء دعائم الوحدة والاستقرار أصدر عملة عربية إسلامية لأول مرة وتوحيد أوزانها ضمانًا للعدالة، فكان أثرًا حضاريًّا رائعًا، وكان نتاج ذلك أن ترك دولة قوية غنية مرهوبة الجانب[2]

وفاة عبد الملك بن مروان

لما احتضر عبد الملك بن مروان سمع غسالًا يغسل الثياب، فقال: ما هذا؟ فقالوا: غسال. فقال: ياليتني كنت غسالًا أكسب ما أعيش به يومًا بيوم، ولم آلِ الخلافة، ثم تمثل قائلًا:

لعمرى لقد عَمَّرتُ في الملك برهة	ودانت ليَ الدنيا بوقع البواتر
وأُعطيت جم المال والحكم والنهى	ودان قماقيم الملوك الجبابر
فأضحى الذي قد كان مما يسرني	كحُلم مضى في المزمنات الغوابر
فياليتني لم أُعْنَ بالملك ليلةً	ولم أسع في لذات عيش نواضر
وكنت كذا طمرين عاش ببلغة	من العيش حتى زار ضيق المقابر

وقيل له في مرضه: كيف تجدك؟ فقال: أجدني كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤] وجعل يندم، ويضرب بيده على رأسه ويقول: وددت أني كنت أكسب قوتي يومًا بيوم واشتغلت بطاعة الله.

---

(١) العالم الإسلامي في العصر الأموي د/ عبد الشافي محمد عبد اللطيف، ص ١٣٦ وما بعدها باختصار.

(٢) السابق ص ١٣٦.

وقــال لهم: ارفعوني فرفعوه حتى شــم الهــواء، وقال: يا دنيا مــا أطيبك، إن طويلك لقصير وإن كثيرك لحقير، وإن كنا منك لفي غرور[١]. ولما اشتد مرضه قال الأطباء: إن شــرب الماء مات. فاشــتد عطشــه، فقال ياوليد: اسقني الماء. فقــال: لا أعين عليك. فقال لابنته فاطمة: اســقيني. فســقته، فمــات[٢]، وكان يقول عند الاحتضار:

إن تـنـاقـش يـكـن نـقـاشـك يـارب　　　عـذابًـا لا طـوق لـي بـالـعـذاب

أو تـجـاوز فـأنـت رب صفوح　　　عـن مُـسـيء ذنـوبُـه كـالـتـراب

ويحــق لعبــد الملك أن يحذر هــذا الحذر ويخاف؛ فإنه مــن يكن الحجاج بعض سيئاته يعلم على أي شيء يقدم عليه[٣].

قال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كان من رجال الدهر ودهاة الرجال، وكان الحجاج من ذنوبه.

وتُوفي في شــوال ســنة ســت وثمانين عن نيِّف وستين ســنة[٤]، وصلى عليه الوليد الذي أُخذت له البيعة ولأخيه سليمان من بعده[٥].

المجتمع في عهد عبد الملك بن مروان

أولًا: كانــت المدة التي تولــى فيها عبد الملك بن مروان والتي بلغت ثلاث عشــرة ســنة مليئة بالاضطرابات والفتن والمحن التي مرت بها أمتنا، وهذا مما لا يُمكــن دفعــه أو إنــكاره، فأُصيبت الأمة في أميرهــا الفقيه العابــد الزاهد ابن

---

(١) البداية والنهاية (٩/ ٢١٩)، بتصرف.

(٢) الكامل، لابن الأثير (١/ ٨٦٩).

(٣) السابق (١/ ٨٧٠).

(٤) السير (٤/ ٢٤٩).

(٥) التاريخ الإسلامي (٤/ ١٧٣)، لمحمود شاكر.

حواري رسـول الله ﷺ، وابتليت الأمة كذلك بـذاك الطاغية المتجبر الحجاج ابن يوسـف، فسـفك الدماء وأخاف الناس، حتى انعقدت القلوب على بغضه وكرهه، وقامت الحركات الانقلابية التي أرادت التخلص منه لكنها لم تنجح، فسالت الدماء أكثر، وازداد الرعب والخوف أكثر وأكثر.

ثانيًا: اسـتقر الأمر لعبد الملك بن مروان بعد هذه الفتن والمحن، فاستطاع أن يُثَبِّت أركان دولة بني أمية ويُهيئ أسباب بقائها، فعانى من جراء ذلك وبذل الجهـد وواصـل الليل بالنهار، فـكان له مـا أراد، حتى أصبحت مـدة خلافته تمهيدًا وتوطئةً لانطلاق الفتوحات في عهد ابنه الوليد.

ثالثًا: أن المجتمع في عهد عبد الملك لم يكن مثاليًّا كما كان في عهد الراشدين، لكنه لم يكن في ذات الوقت بالسـوء الذي صوره لنا الشـانئون الحاقدون على خلفـاء بني أمية؛ **ففي جانب مناصحة الرعية للخليفة** نجد صورًا مشـرقة تصور لنا مجتمعًا تشيع فيه روح النصيحة، وإليك مثالان على ذلك:

الأول: مـا كتبـه عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى عبـد الملك بن مروان ينصحه ويعظه في رسالة جاء فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله بن عمر إلى عبد الله عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو..

أما بعد...

فإنك راعٍ وكل راعٍ مسئول عن رعيته، لا أحد، والسلام[1].

(١) البداية والنهاية (٩/ ٢١٤).

الثـاني: مـا كتبه زِرُّ بن حبيش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى عبد الملـك قائلًا: ولا يُطمعك يا أميـر المؤمنيـن في طول البقاء مـا يظهر لك من صحتك، فأنت أعلم بنفسـك، واذكر ما تكلم به الأولون:

إذا الـرجـالُ ولـدتْ أولادهـا ... وبـليـتْ مـن كـبرٍ أجسـادُهـا

وجعلـت أسقـامُـها تعتـادُهـا ... تـلـك زروع قـد دنـا حـصـادُهـا

فلما قرأه عبد الملك بكى حتى بل طرف ثوبه، ثم قال: صدق زر[1].

وفي جانـب العدل، نجد أن الخليفة يجلس للمظالم مُحدِّدًا لها يومًا يتصفح فيه تظلمات المتظلمين، فيجتهد في قضائها بنفسه، فإذا وقف فيها على مُشكل رده إلى قاضيه أبي إدريس الخولاني، وكان يجتهد في الحُكم بين المتخاصمين حتى يردَّ الحق إلى نصابه[2].

أما جانب تطبيق الشـريعة واحترامها حتـى مِن أطغى الطغاة فقد كان مَعْلمًا بـارزًا مـن معالم المجتمع آنذاك؛ فقد جاء رجل إلـى الحجاج، فقال: إن أخي خـرج مع ابن الأشـعث، فضُـرب على اسـمي في الديـوان، ومُنِعْـتُ العطاء، وهدمت داري. فقال الحجاج: أما سمعت قول الشاعر:

جـانـيـك مــن يـجـنـي عـلـيـك ... وقد تُعْدِي الصحاحَ مباركُ الجرب

ولـــرب مـــأخـوذ بـذنـب قـريـبـه ... ونجـا المقـارف صاحـب الذنـب

فقال الرجل: أيها الأمير ولكني سـمعت الله تعالى يقول غير هذا، وقول الله أصدق من هـذا. قال: وماقال؟ قـال: ﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [يوسف] قال يا غلام: أعِد اسمه،

(١) البداية والنهاية (٩/ ٢١٨).

(٢) السابق (١٢/ ٥١٩).

وابـن داره، وأعطـه عطاءه، ومـر مناديًا ينـادي: صدق الله وكذب الشاعر[1].

وكتب عبد الملك إلى الحجاج أن ابعث لي برأس أسـلم بن عبد البكري، لما بلغني عنه. فأحضره الحجاج، فقال: أيها الأمير: أنت الشـاهد وأمير المؤمنين الغائـب، وقـد قـال الله تعالـى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾، ومـا بلغـه عنـي فباطـل، وإني أعـول أربعًـا وعشـرين امرأة مالهن كاسـب غيـري، وهن بالبـاب. فأمر الحجـاج بإحضارهن، فلمـا حضرن، جعلت هذه تقول: أنـا خالته، وهذه: أنا عمتـه، وهذه: أنا أخته، وهـذه: أنا ابنته، وهذه: أنا زوجته، وتقدمت إليه جارية فوق الثماني ودون العشـرة، فقـال لها الحجاج: من أنت؟ قالـت: أنا ابنته، ثم قالت: أصلح الله الأمير، وجثت على ركبتيها وقالت:

أحـجـاج لـم تـشـهـد مـقـام بناته ... وعـمـاتـه يـنـدبـنـهُ الـلـيـل أجمعا

أحـجـاج كـم تَـقْـتـل بـه إن قتلته ... ثـمـانًـا وعـشـرًا واثـنـتـيـن وأربـعـا

أحـجـاج مـن هــذا يـقـوم مقامه ... علينا فمهلًا أن تـزدنـا تضعضعا

أحـجـاج إمـا أن تـجـود بنعمة ... عـلـيـنـا وإمــا أن تُـقَـتِّـلَـنَـا معا

فبكى الحجاج، وقال: والله لا أَعَنْتُ عليكن، ولا زدتكن تضعضعًا. ثم كتب إلـى عبـد الملك بما قال الرجل وبما قالت ابنته، فكتـب إليه عبد الملك يأمره بإطلاقه وحسن صلته، وبالإحسان إلى هذه الجارية، وتفقدها في كل وقت[2].

وفي جانـب إكـرام أهل العلم والفضل من الصحابـة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ **وغيرهم نجد** صـورًا رائعة تدل على تعظيم الولاة لأهل العلـم والفضل، من ذلك ما حدث بين الحجاج وأنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وعبد الملك بن مروان.

---

(١) البداية والنهاية (١٢/ ٥٢٢). (٢) السابق (١٢/ ٥٢٢).

دخل أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنهُ على الحجاج، فلما سلم عليه قال له الحجاج: إيـهِ إيهِ يـا أُنيس، يوم لك مع علـيّ، ويوم لك مع ابن الزبيـر، ويوم لك مع ابن الأشـعث، والله لاسـتأصلنك كما تُستأصل الشـأفة -وهي قرحة تخرج أسفل القـدم-، فقال أنس رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: إنا لله وإنـا إليه راجعون، ثم كتب إلى عبد الملك بن مروان كتابًا جاء فيه: من أنس بن مالك أما بعد..

فإن الحجاج قال لي هُجْرًا وأسـمعني نُكـرًا، ولـم أكن لذلك أهلًا، فخذ لي على يديه، فإني أمُتُّ بخدمتي رسول الله ﷺ وصحبتي إياه.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

فقرأ عبد الملك الكتاب وهو يبكي، واشتاط غيظًا، ثم كتب كتابين إلى أنس رَضِيَٱللَّهُعَنهُ، وإلى الحجاج، أما ما جاء في كتابه لأنس رَضِيَٱللَّهُعَنهُ:

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الملك بن مروان إلى أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ

أما بعد...

فقـد قـرأتُ كتابك، وفهمتُ ما ذكرتَ من شـكايتك الحجاج، وما سَـلَّطتُه عليـك، ولا أمرتُه بالإسـاءة إليك، فإن عاد لمثلها، فاكتـب إليَّ بذلك؛ أُنزل به عقوبتي، وتحسن لك معونتي.

والسلام

فلمـا قـرأ أنس رَضِيَٱللَّهُعَنهُ الكتاب قـال: جـزى الله أمير المؤمنين عنـي خيرًا، وعافاه، وكفاه، وكافأه بالجنة.

أما كتاب عبد الملك إلى الحجاج فجاء فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين إلى الحجاج بن يوسف

أما بعد....

فإنك عبد طَمتْ (ارتفعت) بك الأمور فسموت فيها، وعدوت طورك، وجاوزت قدرك، وركبت داهية، فلعنك الله عبدًا أخفش العينين، أنسيت مكاسب آبائك بالطائف، وحفرهم الآبار ونقلهم الصخور، والله لأغمزنك غمز الليث الثعلب والصقر الأرنب، وَثَبْتَ على رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بين أظهرنا فلم تقبل له إحسانه، ولم تجاوز له إساءته، جرأة منك على الرب جَلَّ وَعَلَا، والله لو أن اليهود والنصارى رأت رجلًا خدم عزيرًا وعيسى لَعَظَّمَتْه وشَرَّفَتْه وأكرمته، فكيف وهذا أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ ثماني سنين، يُطلعه على سره ويُشاوره في أمره، ثم هو مع هذا بقية أصحابه، فإذا قرأتَ كتابي هذا فكن أطوع له من خفه ونعله، وإلا أتاك مني سهم مثكّل بحتف قاض، ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون.

والسلام

فلما قرأ الحجاج الكتاب استوى جالسًا مرعوبًا، واعتذر لأنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال له: يا أبا حمزة عجلت يرحمك الله باللائمة والشكية إلى أمير المؤمنين، إن الذي فرط مني إليك عن غير نية ولا رضا بما قلتُ، فقال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما شكوتُ حتى بلغ مني الجهد، وحتى زعمتَ أننا الأشرار وقد سمانا الله عَزَّوَجَلَّ الأنصار، وقد زعمت أننا أهل النفاق ونحن الذين تبوأوا الدار والإيمان، وسيحكم الله بيننا وبينك[1].

---

(١) أنساب الأشراف، للبلاذري (٧/ ٢٩٥).

وكذلك قال عبد الملك لمحمد بن الحنفية: إنك عندنا محمود، فلك العهد والميثاق ألا تُهاج ولا أحد من أصحابك بشيء تكرهه، ولست أدع صلتك وعونك ما حييت، وكتب إلى الحجاج يأمره بحسن جواره وإكرامه[١]، ويأمر الحجاج أن يأتم بابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في الحج، أخرج البخاري عن ابن شهاب عن سالم بن عبد الله، أن عبد الملك بن مروان كتب إلى الحجاج، أن يأتم بابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في الحج، فلما كان يوم عرفة جاء ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وأنا معه حين زاغت الشمس، فصاح عند فسطاطه: أين هذا؟ فخرج إليه، فقال ابن عمر: الرواح. فقال: الآن؟ قال: نعم. قال: أنظرني أفيض عليّ الماء. فنزل ابن عمر حتى خرج، فسار بيني وبين أبي، فقلت: إن كنت تريد أن تصيب السنة اليوم فاقصر الخطبة وعجل الوقوف. فقال ابن عمر: صدق[٢].

وعند البخاري أيضًا أن ذلك كان عام نزل بابن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[٣].

الفوائد والدروس والعبر

١ - قال المهلب: فيه جواز تأمير الأدون على الأفضل، وتعقبه ابن المنير بأن صاحب الأمر في ذلك هو عبد الملك، وليس بحجة ولا سيما في تأمير الحجاج، وأما ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فإنما أطاع لذلك فرارًا من الفتنة[٤].

٢ - مداخلة العلماء السلاطين، وأنه لا نقيصه عليهم في ذلك، واحتمال المفسدة الخفيفة لتحصيل المصلحة الكبيرة، يؤخذ ذلك من مضي ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إلى الحجاج وتعليمه[٥]، وعدم اعتزال الحياة السياسية لما يترتب على ذلك من ضياع السنة ومعالم الدين وظهور الفساد وانتشار الجهل، لذلك

(١) طبقات ابن سعد (٧/ ١١٢).
(٢) البخاري، كتاب الحج.
(٣) السابق.
(٤) فتح الباري (٤/ ٥٩٩).
(٥) فتح الباري (٤/ ٥٩٩).

يعتبر ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا نموذجًا فريدًا يُحتذَى به وقت الملمات، فعن سفيان الثوري أنه قال: يُقتدى بعمر في الجماعة وبابنه في الفرقة، فقد كان داعية للسلام والطاعة والتزام الجماعة فما اشترك في فتنة وما حمل السلاح في وجه مسلم(١).

٣- ليس في فعل ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ركون للظالمين، وحاشاه من ذلك، ولا أنه رضي بسفك الدماء أو انتهاك حرمة الكعبة، بل خرج مع الحجاج وهو محاصر لابن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لتقليل الشر والفساد والحفاظ على الدعوة إلى الله، ونشر العلم والسنة، ولم يُحَكِّم العاطفة ولم يهتم بالجهلة والمغرضين ممن لا يُقيمون لقواعد الشريعة وزنًا، ولم ينكر عليه أحد من أهل العلم كابن عباس وأبي سعيد ولا ابن الزبير نفسه، لعلم الجميع أن المواقف السياسية مبناها على الاجتهاد ولا ينكر فيها على المخالف.

٤- عن عمير بن هانئ قال: شهدت مع ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا والحجاج محاصرٌ ابن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فكان منزل ابن عمر بينهما، فكان ربما حضر الصلاة مع هؤلاء وربما حضر الصلاة مع هؤلاء(٢). فكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لا يرى مانعًا من التعاون مع جميع الأطراف فيما ليس فيه مخالفة شرعية، وكان ينهى عن إثارة الفتنة وتفريق الكلمة وإضعاف الأمة.

المعاصرون من علماء السلف لهذه الحقيقة

كان المجتمع آنذاك مليئًا بعلماء السلف البارزين الذين أثَّروا في جنبات المجتمع، وصبغوه بالصبغة العلمية، وربوه التربية الإيمانية، فمن هؤلاء بالإضافة إلى عبد الله بن عمر وأنس بن مالك وجابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وغيرهم من الصحابة الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ:

---

(١) عبد الله بن عمر، محيى الدين مستو، ص ٢١٢ ط دار القلم - دمشق.

(٢) قال الألباني في «الإرواء» برقم (٢/ ٣٥٣): وهذا سند صحيح على شرط الستة.

- **الحسن البصري**: كان سيد أهل زمانه علمًا وعملًا، قال معتمر بن سليمان: كان أبي يقول: الحسن شيخ أهل البصرة، رأى عثمان وطلحة والكبار، وروى عن عمران والمغيرة، والنعمان، وجابر، وابن عباس، وأنس، وغيرهم.

قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سلوا الحسن، فإنه حفظ ونسينا.

وقال أيوب: كان الحسن يتكلم بكلام كأنه الدر، فتكلم قوم من بعده فخرج من أفواههم كأنه القيء[1].

وعن علي بن زيد قال: أدركت عروة بن الزبير ويحيى بن جعدة والقاسم فلم أر فيهم مثل الحسن، ولو أن الحسن أدرك أصحاب النبي ﷺ وهو رجل لاحتاجوا إلى رأيه[2].

وعن شعيب: رأيت الحسن يقرأ القرآن فيبكي حتى يتحدر الدمع على لحيته، وعن عمارة: ما رأيت أحدًا وافق قوله عملهُ غير الحسن[3].

ومن أعظم مواقفه أنه لم يخرج مع ثورة مسلحة قط، ولو كانت باسم الإسلام، وكان يرى أن الخروج يؤدي إلى الفوضى والاضطراب، وفوضى ساعة يرتكب فيها من المظالم ما لم يرتكب في استبداد سنين، ولأن الناس يخرجون من يد ظالم إلى ظالم.

- **محمد بن سيرين**: الإمام شيخ الإسلام، مولى أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، سمع أبا هريرة وعمران، وابن عباس، وابن عمر وغيرهم.

قال هشام بن حسان: أدرك ثلاثين صحابيًّا.

قال مورِّق العجلي: ما رأيت أحدًا أفقه في ورعه ولا أورع في فقهه من محمد بن سيرين[4]. وقال سوَّار بن عبد الله: كان محمد والحسن سيدي هذا

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٦٣) وما بعدها.

(٢) طبقات ابن سعد (٩/ ١٦٢).

(٣) السابق (٩/ ١٧٥).

(٤) سير أعلام النبلاء (٤/ ٦٠٦) وما بعدها.

المصر عربيها ومولاها، وكان إذا حدث كأنه يتقي شيئًا كأنه يحذر شيئًا، كان ثقة مأمونًا، عاليًا رفيعًا فقيهًا، إمامًا كثير العلم ورعًا(١).

- **سعيد بن جبير**: الإمام الحافظ المُفسر الشهيد أحد الأعلام، روى عن ابن عباس فأكثر وجود، وعن عبد الله بن المغفل، وعائشة، وعدي بن حاتم، وأبي موسي الأشعري، وأبي هريرة، وابن عمر وغيرهم.

عن عبد الملك بن أبي سليمان: أن ابن جبير كان يختم القرآن في كل ليلتين.

عن عمرو بن ميمون عن أبيه قال: مات ابن جبير وما على ظهر الأرض أحد إلا وهو محتاج إلى علمه(٢).

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وقد أتاه أهل الكوفة يسألونه: أليس فيكم سعيد بن جبير، وكان يقال له: جهبذ العلماء، وقال النخعي: ما خلف سعيد بن جبير بعده مثله. وروي أن الحجاج لما احتضر كان يغوص ثم يفيق، ويقول: مالي ومالك يا سعيد، ورؤي في المنام فقيل له: مافعل الله بك؟ فقال: قتلني بكل قتيل قتلة، وقتلني بسعيد سبعين قتلة.(٣)

- **سعيد بن المسيب**: الإمام العلم، عالم أهل المدينة، وسيد التابعين في زمانه.

رأى عمر، وسمع عثمان وعليًّا وزيد بن ثابت، وأبا موسى، وسعدًا وعائشة، وأبا هريرة، وابن عباس وغيرهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

قال ابن المديني: لا أعلم في التابعين أحدًا أوسع علمًا من ابن المسيب، هو عندي أجل التابعين(٤).

قال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: سعيد بن المسيب هو والله أحد المفتين، وكان يرسل

---

(١) طبقات ابن سعد (٩/ ١٩٢).
(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٢١).
(٣) تاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ١١٠٠).
(٤) السير (٤/ ٢١٧).

إليه يسـأله، وعن القاسم بن محمد أن رجًلا ساله، فقال: أسألت أحدًا غيري؟ قـال: نعم، عروة، وفلانًا وسـعيد بن المسـيب. فقال: أطع ابن المسـيب، فإنه سـيدنا وعالمنا. وقال مكحول: طفـت الأرض كلها في طلب العلم، فما لقيت أحدًا أعلم من سعيد بن المسيب. وقال ابن المسيب: ما فاتتني التكبيرة الأولى منذ أربعين سنة[1].

ومنهم: عطاء بن أبي رباح، والشـعبي، وغيرهم من سـادات العلماء وكبار السلف الأجلاء.

لقد أحدث هؤلاء نهضة علمية عظيمة، وخلَّفوا للأمة علمًا غزيرًا، كان سببًا في اهتداء الأمة من بعدهم إلى الصراط المستقيم والطريق القويم، فكان طلاب العلم يأتون إليهم من كل مكان ليتلقوا على أيديهم وينهلوا من علومهم، وكانت حلقات هؤلاء العظماء تمتلئ بالآلاف من طلاب العلم، فنشـأ المجتمع على ذلك، وتخرج الأبناء من مدرسة الأباء، فعُظِّم العلم والعلماء، وشهدت الدولة الأموية أوج عظمتها وعزها.

لذلك من الخطأ البيّن أن يتم التركيز على الجانب السياسـي فقط دون هذه الجوانـب المضيئـة في حياة الأمة، فيتم تصوير الأمة أيـام عهدها الأول وكأنها تعيـش في غابـة يأكل القـوي فيها الضعيف، ولا تكاد تسـمع إلا عـن ثورة هنا أو قتال هناك، مما يُشـعر القارئ بعدم صلاح هـذا النوع من الخلافة والإمارة للتطبيـق مـرة ثانية، فترضى الشـعوب بما ضُـرب على رقابها مـن ذل القانون الوضعي الأثيم الذي يُناهض شريعة رب العالمين.

---

(١) تاريخ الإسلام، للذهبي (٢/ ١١٠٣).



(٢)

الوليد بن عبد الملك

إلى:	مـن:
٩٦ هـ	٨٦ هـ

عشر سنوات

خلافة الوليد بن عبد الملك

بُويع بالخلافة أيام أبيه، ثم جُددت له البيعة بعد عودة الناس من دفن أبيه منتصف شوال ٨٦هـ[١].

صفاته ومناقبه

كان الوليد صَيِّنًا في نفسه، حازمًا في رأيه، وقيل: إنه لا تُعرف له صبوةٌ[٢]، وكان طويلًا أسمر، به أثر جدري، أفطس الأنف سائله، وكان إذا مشى يتوكف(يتبختر) في مشيته، وكان جميلًا قد شاب في مقدمة لحيته، وقد رأى سهل بن سعد، وسمع من أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وسمع سعيد بن المسيب وحكى عن الزهري[٣]، قال إبراهيم بن عَبَلة: قال لي الوليد: في كم تختم القرآن؟ قلت: في كذا وكذا. فقال: أمير المؤمنين على شغله يختمه في كل ثلاث، وكان يقرأ في رمضان سبع عشرة ختمة.

قال إبراهيم: الوليد ما رأيتُ مثله، افتتح الهند والأندلس، و بنى مسجد دمشق، وكان يُعطيني قِصاع الفضة فأقسمها على قراء بيت المقدس[٤].

قالوا: وكانت همة الوليد في البناء، وكان الناس كذلك؛ يلقى الرجلُ الرجل، فيقول: ماذا بنيت؟ ماذا عَمَّرْت؟ وكانت همة أخيه سليمان في النساء، فكان الناس كذلك؛ يلقى الرجل الرجل، فيقول كم تزوجت؟ ماذا عندك من السراري؟ وكانت همة عمر بن عبد العزيز في قراءة القرآن والصلاة والعبادة

---

(١) تاريخ ابن خلدون (١/ ٧٣٤). بتصرف.

(٢) البداية والنهاية (٩/ ٢٢٣).

(٣) السابق (٩/ ٣١٠).

(٤) تاريخ الإسلام، للذهبي (٢/ ١١٨٤).

وكان الناس كذلك؛ يلقى الرجل الرجل فيقول كم وردك؟ كم تقرأ من القرآن؟ ماذا صليت البارحة؟[١].

يعده أهل الشام من أفضل خلفائهم[٢]، وأكثرهم فتوحًا، وأعظمهم نفقة في سبيل الله.

بعد شهر من توليه الخلافة بنى مسجد دمشق وزينه فلم يُر مثله، ولما قال الناس: أنفق الوليد أموال بيت المال في غير حقها، نُودي في الناس: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس، فصعد الوليد المنبر، وقال: إنه بلغني عنكم أنكم قلتم:أنفق الوليد بيوت الأموال في غير حقها، ثم قال: يا عمرو بن المهاجر، قم فأحضر أموال بيت المال. فحملت على البغال إلى الجامع، وبسطت الأنطاع تحت القبة، ثم أفرغ عليها المال ذهبًا صبيبًا وفضة خالصةً، حتى صارت كومًا، حتى كان الرجل لا يرى الرجل من الجانب الآخر، وهذا شيء كثير، ثم جيء بالقبانين فوُزنت الأموال، فإذا هي تكفي الناس ثلاث سنين مستقبلةً -وفي رواية: ست عشرة سنة مستقبلة- لو لم يدخل للناس شيءٌ بالكلية، ففرح الناس وكبروا وحمدوا الله[٣]، فقال لهم الوليد: والله ما أنفقتُ في عمارة هذا المسجد درهمًا من بيوت المال، وإنما هذا كله من مالي، لم أرزأكم من أموالكم شيئًا[٤]. ووسع مسجد النبي ﷺ، فأدخل الحجرة وبها القبر، وكان الخلفاء قبله يتجنبون الحجرة في التوسعة لنهيه ﷺ عن اتخاذ القبور مساجدَ.

وأنكر ابن المسيب ذلك خشية أن يتخذ القبر مسجدًا.

---

(١) أنساب الأشراف، للبلاذري (٨/ ٧٢).

(٢) الكامل لابن الأثير (١/ ٩٠٣).

(٣) البداية والنهاية (٩/ ٢٩٨).

(٤) السابق (٩/ ٢٩٨).

وأعطى المجذومين وقال لهم: لا تسألوا الناس. وبُني لهم مَشْفىً خاصٌ لا يزال يعرف باسمه حتى الآن[١].

وكان يختن الأيتام ويرتب لهم المؤدبين، ويرتب للزمنى من يخدمهم، وللأضراء من يقودهم من رقيق المسلمين، ورزق الفقهاء والفقراء والضعفاء، وحرّم عليهم سؤال الناس، وفرض لهم ما يكفيهم، وضبط الأمور أتم ضبط[٢]

وحج سنة ٩١هـ، فلما قرب من المدينة أمر عمرُ بن عبد العزيز عاملُه عليها أشراف الناس أن يتلقوه، فأحسن إليهم، ودخل المسجد النبوي فأخلاه عمر من الناس غير ابن المسيب لم يتجاسر أحد على إخراجه، فصلى الوليد في كل مكان في المسجد، ثم حانت منه التفاتة، فقال: من هذا؟ قال عمرُ: هذا ابن المسيب، ولو علم أنك قادم لقام إليك. فقال: قد علمتُ بغضه لنا[٣].

قال الوليد: نحن أحق بالسعي إليه. فوقف عليه وسلم، فلم يقم ابن المسيب، فقال الوليد: كيف الشيخ؟ فقال: الحمد لله، كيف أمير المؤمنين. فقال الوليد: بخير والحمد لله، ثم انصرف وهو يقول لعمر: هذا فقيه الناس، قال: أجل يا أمير المؤمنين[٤].

قال ابن خلدون: وكان من أفضل خلفاء بني أمية[٥]، كيف لا وقد بلغ عدله مبلغًا عظيمًا، واهتمامه بالرعية اهتمامًا كبيرًا، ولم يكن يهتم فقط بسد حاجات

---

(١) الكامل لابن الأثير (١/ ٩٠٢)، بتصرف.

(٢) تاريخ الإسلام، للذهبي (٢/ ١١٨٦).

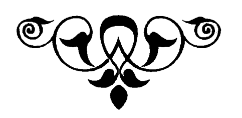
(٣) لأن عبد الملك بن مروان أخذ البيعة لابنيه الوليد وسليمان من بعده، فرفض ابن المسيب إعطاء بيعتين في وقت واحد لاثنين، ورأى ذلك لا يصلح.

(٤) التاريخ الإسلامي، للشيخ شاكر (٤/ ١٩٥)، بتصرف واختصار.

(٥) تاريخ ابن خلدون (١/ ٧٤٠).

رعيتـه البدنية، بل كان يهتـم بقلوبهم فيربيهم على الطاعة وقـراءة القرآن، فقد جاءه رجل من بني مخزوم يسأله قضاء دين عليه، فقال: نعم، إن كنتَ مستحقًا لذلك. فقال يا أمير المؤمنين: وكيف لا أكون مستحقًّا لذلك مع قرابتي؟! قال: أقـرأت القـرآن؟ قال: لا. قال: ادن مني، فدنا منه، فنزع عمامته بقضيب كان في يـده، وقرعه قرعات بالقضيب، وقال لرجل: ضم إليك هذا، فلا يفارقك حتى يقـرأ القـرآن، فقام إليه عثمـان بن يزيد، فقال: يـا أمير المؤمنيـن إن عليّ دينًا، فقـال: أتقرأ القرآن؟ قال: نعم. قال: فاسـتقرأه عشـر آيات من الأنفال وعشـر آيات من براءة، فقرأ، فقال: نعم نقضي عنكم، ونصل أرحامكم على هذا[1].

وكان محبًّـا للجهـاد شـغوفًا بـه، أقامه أتـم قيام، ولمـا جاءه البشـير بفتح الأندلس، جاءه أيضًا بشير بفتح مدينة من خراسان، قال الخادم: فأعلمته وهو يتوضأ، فدخل المسجد، وسجد لله طويلًا وحمده وبكى[2].



(١) أنساب الأشراف، للبلاذري (٨/ ٨٠).

(٢) تاريخ الإسلام، للذهبي (٢/ ١١٨٥).

الفتوحات في عهد الوليد

وفي عهده زادت الفتوحات، فكانت مدة حكمه غرة في جبين بني أمية، فالفتوحات الإسلامية لها قمتان: الأولى أيام عمر وعثمان، والثانية أيام الوليد(١).

فبلغت الدولة الإسلامية في عهده قمة المجد السياسي، وتعددت ميادين الفتوحات حتى وصلت إلى ثلاث قارات: قارة إفريقيا، وأوروبا، وآسيا، ففي جنوب أوروبا اكتسح طارق بن زياد و موسى بن نصير شبه جزيرة أيبيريا أو ما يسمى بأسبانيا والبرتغال، وتحركوا إلى شبه الجزيرة الهندية تحت قيادة محمد بن القاسم، ودكوا معاقل الوثنية، وانتصروا على ملك السند(٢).

وقتيبة بن مسلم يفتح في بلاد الترك، يقتل ويسبي ويغنم، حتى وصل إلى بلاد الصين، ومَسلمة بن عبد الملك يفتتح في بلاد الروم، ويجاهد بعساكر الشام حتى وصل إلى القسطنطينية وبنى بها جامعًا يعبد الله فيه، وكل هذه النواحي إنما دخل أهلها في الإسلام وتركوا عبادة الأوثان(٣)، فاجتمع للوليد خمسة من القادة النجباء، قل أن يجتمعوا لخليفة قبله إلا ماكان من الفاروق نفسه، وهم قيتبة بن مسلم، محمد بن القاسم، موسى بن نصير، طارق بن زياد، مسلمة بن عبد الملك(٤)، ونشير إشارة سريعة إلى أهم الفتوحات التي قاموا بها.

---

(١) التاريخ الإسلامي، لمحمود شاكر (٤/ ٢٠١)، باختصار.

(٢) الدولة الأموية، د/ حامد غنيم ص ٣٣٢، ٣٣٣.

(٣) البداية والنهاية (٩/ ١٠٤).

(٤) الأيام الأخيرة للدولة الأموية، ص ١٢، عمر أبو النصر.

الدولة الأموية في أقصى اتساعها

١- تقدم المسلمون في بلاد الروم من الجهة الغربية، وكانت الغزوات لا تنقطع صيفًا ولا شتاءً حتى وصلوا عمورية(١) موقع أنقرة اليوم، وكان القائد مسلمة بن عبد الملك أخو الوليد، ومعه أولاد الوليد: العباس وعبد العزيز وعمر ومروان(٢)، وفتحوا هرقلة وقمودية معها، وذلك سنة ٨٩هـ، ووصل المسلمون إلى خليج القسطنطينية(٣).

٢- وفي الجهة الشرقية لبلاد الروم تقدم أمراء الجزيرة حتى وصلوا أرمينيا وأذربيجان(٤).

٣- وفي البحر دخل المسلمون جزيرة صقلية وميورقة سنة ٨٩ هـ.

---

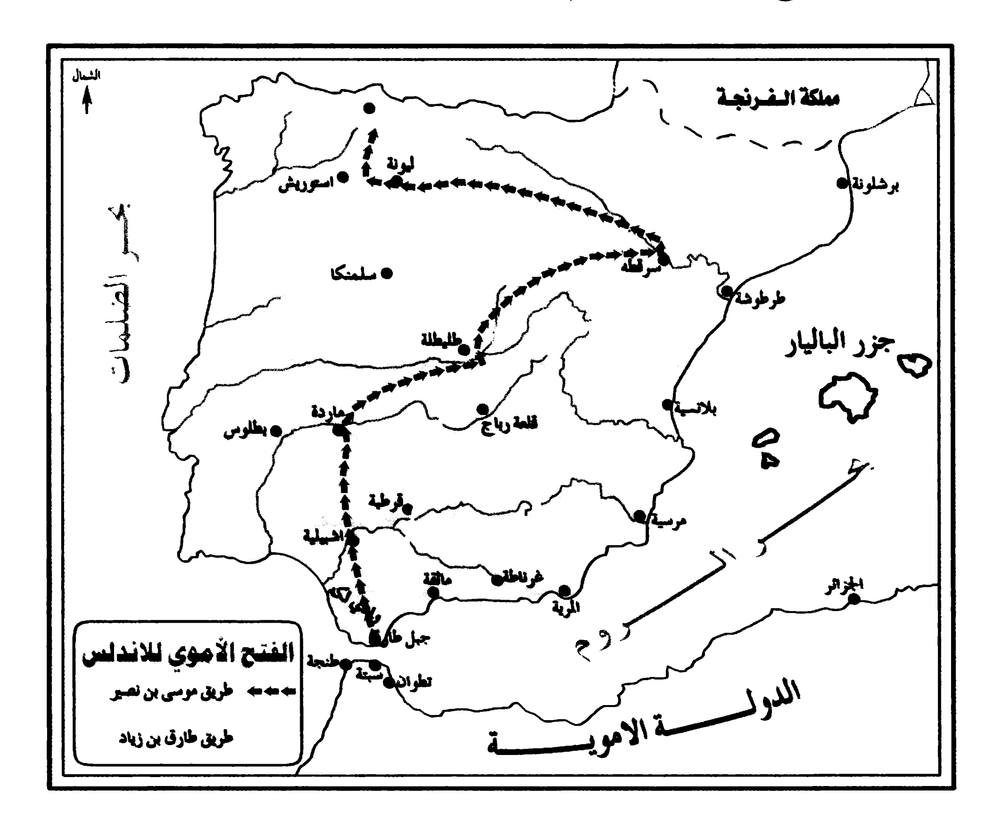
(١) الكامل لابن الأثير، (١/ ٨٧٧). بتصرف.

(٢) التاريخ الإسلامي، لمحمود شاكر (٤/ ٢٠١).

(٣) الطبري (٣/ ٧٤٣).

(٤) السابق (٣/ ٧٤٣).

٤- ووطـد موسـى بن نصير الوضـع في إفريقية، وتخطـى حتى وصل بلاد الأندلس (إسـبانيا اليوم)، وأمر طارق بن زياد القائد هناك أن يدرس المنطقة، فدخل مدينة سبتة، ثم جاز البحر الزقاق باثني عشر ألفًا من الجند من سبتة إلى شبه الجزيرة التي عُرفت بعد باسم (جبل طارق) سنة ٩٢هـ، ودخل قرطبة، ثم دخل موسـى بن نصير بلاد الأندلس من طريق آخـر، ولحق بطارق الذي كان قد فتح مدينة طليطلة[١]، والتي فرَّ منها أهلها حينما سمعوا بزحف المجاهدين نحوها،وأصبحت كبرى المدن الإسـبانية خاضعة مستسلمة أمام المجاهدين لاتجد من يدافع عنها، وذلك عام ٩٣ هـ[٢].



(١) فتوح البلدان، للبلاذري، ص ٢٣٩ بتصرف، مطبعة الموسوعات - القاهرة.

(٢) الدولة الأموية، د/ حامد غنيم ص ٣٨٤.

الفوائد والدروس والعبر

١ - لابُد أن نذكر شيئًا عن سيرة هذين القائدين العظيمين موسى بن نصير وطارق بن زياد، أما موسى بن نصير الإمام الكبير، متولي إقليم المغرب، وفاتح الأندلس، يعتبر من أبرز القادة المسلمين على مدار التاريخ، ولاه معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غزو البحر، فغزا قبرص وبنى بها حصونًا، وولي إمرة بلاد إفريقيا سنة تسع وسبعين، ففتح بلادًا كثيرة[1]، وافتتح بلاد الأندلس، فسبى منها ومن غيرها خلقًا كثيرًا، وغنم أموالًا جزيلة من الذهب والجواهر النفيسة شيئًا لا يُحصى ولا يُعد، وأما الآلات والمتاع والدواب فشيء لا يدرى ما هو، وسبى من الغلمان والنساء الحسان شيئًا كثيرًا، حتى قيل: إنه لم يُسْب أحدٌ مثله من الأعداء، وأسلم أهل المغرب على يديه، وبث فيهم الدين والقرآن، وكان إذا سار تُحْمل الأموال معه على العَجَل لكثرتها وعجز الدواب عنها.

وقد كان موسى بن نصير يفتح في بلاد المغرب، وقتيبه بن مسلم يفتح بلاد المشرق، فجزاهما الله خيرًا، فكلاهما فتح من الأقاليم والبلدان شيئًا كثيرًا، ولكن موسى بن نصير حظي بأشياء لم يحظ بها قتيبة[2].

وقد وفد موسى بن نصير على الوليد في آخر أيامه، فدخل دمشق يوم جمعة والوليد يخطب، وقد لبس موسى ثيابًا حسنة، ومعه ثلاثون من أبناء الملوك الذين أسرهم، وقد ألبسهم تيجان الملوك مع ما معهم من الخدم والحشم والأُبهة العظيمة، فلما نظر إليهم الوليد وهو يخطب بهت، لما رأى عليهم من الحرير والجواهر والزينة البالغة، وجاء موسى فسلم على الوليد، وأمر أولئك

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٩٦).

(٢) البداية والنهاية (٩/ ٣١٣).

فوقفوا على يمين المنبر وشماله، فحمد الوليدُ ربه عَزَّوَجَلَّ وشكره على ما أيده به ووسع به ملكه، ثم أحسن جائزة موسى بن نصير[١].

وقد قدم على الوليد ومعه ثلاثون ألفًا من السبي، وذلك خُمس ما كان غنمه في آخر غزوة غزاها في بلاد المغرب، وقدم معه من الأموال والتحف والجواهر واللآلئ ما لا يُحد ولا يُوصف[٢].

٢ - أما **طارق بن زياد** الفارس المقدام فاتح الأندلس مع موسى بن نصير، أسلم على يد موسى بن نصير، فاصطفاه وجعله من قادته، حتى تم فتح إفريقية جميعها، عيَّنَه الوليد واليًا على طنجة سنة ٨٩ هـ، وهي أقصى بلاد المغرب.

ولَّاه موسى بن نصير قائدًا على جيش قوامه ١٢ ألف مُقاتل لفتح الأندلس، فاتجه إلى إسبانيا لفتحها، فنزل على شواطئ جبل سُمي بـ «جبل طارق»، و سُمي مضيق البحر المتوسط على المحيط الأطلنطي بـ «مضيق جبل طارق»[٣]، وقبل المعركة خطب في الجند قائلًا: أيها الناس، أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو من أمامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر، وإني لم أحذركم أمرًا وأنا عنه بنجوة، واعلموا أنكم إن صبرتم قليلًا استمتعتم بالأرفة الألذ طويلًا، وإني عند مُلتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم «رذريق»، فقاتِلهُ إن شاء الله، فاحملوا معي، وتم له قتل رذريق ملك إسبانيا، وفتح إشبيلية، وأرسل مَن فَتَح قرطبة ومالقة، ثم احتل طليطلة عاصمة الأندلس، وتوجه شمالًا فعبر وادي الحجارة وواديًا آخر يُسمى «فج طارق»، واستولى على عدة مدن منها مدينة «سالم»، ثم استعان بموسى ابن نصير على فتح سرقسطة ففتحها، واحتل

---

(١) تاريخ الإسلام، للذهبي (٢/ ١١٧٩).

(٢) البداية والنهاية (٩/ ٣١٣).

(٣) تاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ١١١٨). بتصرف.

طرطوشة وبلنسية، وشاطبة ودانية[١].

وأقام طارق بن زياد سنين يفتح في بلاد الأندلس، ويأخذ المدن والأموال، ويقتل الرجال ويأسر النساء والأطفال، فغنم شيئًا لا يُحد، ولا يُوصف ولا يُعد من الجواهر والياقوت والذهب والفضة، وفتح من الأقاليم الكبار والمدن شيئًا كثيرًا[٢].

٣- أما في شرق الدولة، فنرى الحجاج يوجه الفتوح بنفسه ويختار قائدين عظيمين من القواد، هما محمد بن القاسم الثقفي وهو شاب في السابعة عشرة من عمره، وقتيبة بن مسلم الباهلي.

أما محمد بن القاسم الشاب فقد سار شرقًا متجهًا إلى السند - باكستان حاليًا -، وكان سريع الانقضاض بعزم الشباب وجرأته، فكان يستولي على المدينة تلو المدينة، ودوخ السند حتى بلغ أقصى ما بلغته الفتوح الإسلامية فيها، اللهم إلا ما فعله الغزنويون بعد ذلك، وقد لقى أهل السند منه معاملة حمدوها له، وكانوا يستسلمون له في معظم الأحيان[٣].

وأصبح وادي السند بأسره في قبضة الفاتح البطل، وجاءته القبائل تقرع الأجراس وتدق الطبول فرحة هاتفة مرحبة، فقد حررهم الفاتح الإسلامي من استبداد الهندوس[٤]، وكانت (المُلتان) أقصى ما وصل إليه ابن القاسم من ناحية الشمال، فقد حاصرها أشهرًا ثم انتشب بين الفريقين قتال هائل انجلى عند قتل قائدهم (داهر) ملك السند، ثم دانت له على أن يحقن دماءهم،

---

(١) عُظماء الإسلام، بتصرف يسير، محمد سعيد مرسي، ط مؤسسة إقرأ.

(٢) البداية والنهاية (٩/ ٢٣٨).

(٣) الدولة الأموية، د/ يوسف العش، ص ٢٤٨ ط دار الفكر.

(٤) العالم الإسلامي في العصر الأموي، د/ عبد الشافي محمد، ص ٣١٢.

وألا يعرض لصنمهم. ويؤدوا له الخراج، فوفى لهم[١]، قال البلاذري: ونظر الحجاج فإذا هو قد أنفق على محمد بن القاسم ستين ألف درهم، ووجد ما حُمل إليه عشرين ومائة ألف ألف، فقال: شفينا غيظنا وأدركنا ثأرنا، وازددنا ستين ألف ألف درهم، ورأس داهر[٢].

أما قتيبة بن مسلم الباهلي ذلك القائد الفذ الذي يعد من أعظم القادة الفاتحين في تاريخ الإسلام بعامة وتاريخ الدولة الأموية بخاصة، فقد حمل راية الفتوحات في بلاد ما وراء النهر، ففتح خلال عشر سنين أقاليم شاسعة، وهدى الله تعالى على يديه خلقًا لا يحصيهم إلا الله، فأسلموا ودانوا لله عَزَّوَجَلَّ.

وليس من اليسير تتبع خطوات قتيبة خطوة خطوة في فتوحاته التي فتح فيها بلاد ما وراء النهر، ثم عبر نهر سيحون وفتح عدة أقاليم خلفه، حتى وصل (كاشغر) على حدود الصين[٣]، لذا فإننا نكتفي بالإشارة إلى أهم تلك الفتوحات:

١- غزا قتيبة بن مسلم بلاد الترك وصالح ملكها على مال، وكذا غزا مدينة بيكند عام ٨٧هـ.

٢- وغزا بلاد (الصغد ونسف وكش) سنة ٨٩هـ، وسار نحو بخارى ولكنه لم يدخلها إلا بعد سنة ٩٠هـ، ، فتقابل مع ملك بُخَارَى والذي استعان بالقوى المجاورة كالصغد والترك، وانتصر المسلمون[٤]، ونشروا الإسلام في هذه المناطق.

٣- كما غزا بلاد الترك من ناحية أذريبجان.

---

(١) الأيام الأخيرة للدولة الأموية، عمر أبو النصر، ص١٧ ط المكتبة الأهلية- بيروت.

(٢) فتوح البلدان البلاذري، ص ٤٥٢.

(٣) العالم الإسلامي في العصر الأموي، د/ عبد الشافي محمد، ص ٢٩٥.

(٤) الدولة الأموية، د/ حامد غنيم، ص ٣٧١.

٤- وسار قتيبة إلى سجستان، ثم سار إلى الشمال لقتال بلاد خوارزم شاه، فصالحه خوارزم شاه، ثم انتقل ففتح سمرقند سنة ٩٣هـ[١] بعد معركة عنيفة أيقن أثناءها ملكُ سمرقند أن المقاومة لن تنفعهم أمام الأبطال المسلمين، فآثروا الصلح على خراج كبير يؤدَّى للجيش المسلم، وأن يفتحوا المدينة لقتيبة بن مسلم ليصلي فيها ويبني فيها مسجدًا، ثم يخرج منها بعد ذلك[٢].

٥ - باستقرار المسلمين في مدن بخارى وسمرقند وخوارزم استطاع قتيبة ابن مسلم أن يجعل منها مركزًا للثقافة الإسلامية كما كانت مرو ونيسابور في خراسان، وانتشر الإسلام بسرعة مذهلة في بلاد ما وراء النهر[٣]، والتي خرج منها بعد ذلك إمام الأئمة محمد بن إسماعيل البخاري، وكذا الإمام السمرقندي وغيرهما من فحول علماء الأمة، كل ذلك في موازين هذا القائد الفذ وجيشه المجاهد، فرحمة الله عليهم جميعًا.

٦- وعاد قتيبة إلى الغزو في العام التالي سنة ٩٤هـ، ففتح مدينة كابل، وفتح مدينة كاشغر في تركستان الشرقية سنة ٩٦هـ، وهي أدنى مدائن الصين[٤]، ولم يبق أمام قتيبة إلا التوجه لفتح الصين.

غزو الصين سنة ٩٦هـ

اقترب قتيبة بن مسلم من بلاد الصين، فطلب منه ملك الصين أن يُرسل إليهم وفدًا يُخبره عن المسلمين، ويسأله عن دينهم، فاختار قتيبة جماعة عليهم

---

(١) التاريخ الإسلامي (٤/ ٢٠٥)، لمحمود شاكر، باختصار.

(٢) العالم الإسلامي في العصر الأموي، د/ عبد الشافي محمد، ص ٣٠١.

(٣) الدولة الأموية، د/ حامد غنيم ص ٣٩٠.

(٤) تاريخ ابن خلدون (١/ ٧٤٠).

هبيرة بن الشمرج الكلابي، وكان مفوهًا بسيط اللسان، وقال له: فإذا دخلتم على ملك الصين فأعْلِموه أني قد حلفت ألا أنصرف حتى أطأ بلادهم، وأختم ملوكهم وأجبي خراجهم. فلما رآهم ملك الصين وحاشيته دخلهم الرعب والفزع.

فدعا هذا الوفد ملك الصين إلى إحدى ثلاث: الإسلام أو الحرب أو الجزية، فقال لهم ملك الصين: ما أحسن ما دبرتم دهركم، فانصرِفوا إلى صاحبكم فقولوا له: ينصرف، فإني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه، وإلا بعثت من يُهلككم.

فقال هبيرة له: كيف يكون قليل الأصحاب مَن أول خيله في بلدكم وآخرها في منابت الزيتون؟! وكيف يكون حريصًا من خلَّف الدنيا قادرًا عليها وغزاك؟ وأما تخويفك إيانا بالقتل، فإن لنا آجالًا إذا حضرت فأكْرَمُها القتلُ، فلسنا نكرهه ولا نخافه. فقال ملك الصين: وما الذي يُرضي صاحبكم؟ فقال هبيرة: قد حلف ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم ويجبي الجزية من بلادكم. فقال الملك: أنا أبرُّ يمينه، فأرسل إلى قتيبة بتراب من أرض الصين وأربعة من أبناء الملوك، وذهبًا كثيرًا وحريرًا، فقَبِله قتيبة وترك أرض الصين[1].

وهكذا امتدت المنطقة التي يُقاتل عليها قتيبة امتدادًا كبيرًا أواسط بلاد القفقاس إلى جنوب بحر الخزر، وشمالًا تتعمق في وسط آسيا في بلاد ما وراء النهر، وشرقًا تصل إلى تركستان الشرقية، وغربًا تصل إلى كابل فسجستان، ويبلغ طول هذه الحدود ما يزيد على ٤٠٠٠ كيلو متر.

---

(١) تاريخ الطبري(٤/ ٣٢)، والبداية والنهاية (٩/ ٢٩٠)، والتاريخ الإسلامي، لمحمود شاكر، (٤/ ٢٠٧)بتصرف، وبلاد الصين متسعة الأرجاء جدًّا، حتى قيل: إن بلاد الهند مع اتساعها كالشامة في مُلْك بلاد الصين، والصين لا يحتاجون إلى أن يسافروا في مُلْك غيرهم لكثرة أموالهم ومتاعهم، وغيرُهم محتاج إليهم لِما عندهم من المتاع والدنيا المُتسعة. (من «البداية والنهاية «(٩/ ٢٩٠)).

الفوائد والدروس والعبر

١- كان محمد بن القاسم الثقفي، هذا الشاب الباسل أمة وحده، تمثلت فيه سجايا الأمة العربية وعناصر قوتها، شرع في غزو الهند في السابعة عشر من عمره، وأتمه، ولم يتجاوز الثالثة والعشرين، وبذلك سبق الإسكندر المقدوني الذي اشتهر بحروبه في سن الثلاثين.

ومحمد ابن عم الحجاج يظهر للتاريخ وهو ما يزال شابًّا صغيرًا، وحوله الفتن تجري في كل مكان، والثورات في كل موطن[1]، فنراه يخط طريقه نحو المجد ويسطر إنجازاته في قلب صفحة التاريخ، فيوليه الحجاج غزو الهند وباكستان، ويدفع بقتيبة إلى غزو الصين.

تخلص محمد بن القاسم من أكبر ملوك الهند وهو داهر، وأذعنت له الممالك، وذلت له جنود الهند، وبنى أول مسجد في شبه القارة الهندية، بمدينة الديبل - كراتشي بباكستان حاليًا -.

٢- ولابُد أن نذكر شيئًا من سيرة هذا القائد العظيم **قتيبة بن مسلم**: كان قتيبة حازمًا مقدامًا وقورًا ذا هيبة، ولاه عبد الملك بن مروان الري، وولاه الوليد خرسان، افتتح خوارزم وسجستان وسمرقند وأطراف الصين، ودانت له بلاد ما وراء النهر كلها[2]، واشتهرت فتوحاته فاستمرت ولايته ١٣ سنة، قال عنه الحجاج: بعثت قتيبة فتى غَزَّاء، فما زدته باعًا إلا زادني ذراعًا. وكان عظيم المكانة مرهوب الجانب، دمث الخلق، داهية، طويل الروية، في خلافة سليمان بن عبد الملك أراد أن يستقل بما في يده، فاختلف عليه جنده، فقُتل بفرغانة سنة ٩٦ هـ.

---

(١) الأيام الأخيرة للدولة الأموية، عمر أبو النصر، ص ١٣.

(٢) تاريخ الإسلام، للذهبي (٢/ ١١٥٧). بتصرف.

قال أحد الأعاجم بعد قتله: «يامعشر العرب قتلتم قتيبة». والله لو كان فينا لجعلناه في تابوت واستفتحنا به غزونا»[١].

هلاك الحجاج

تُوفي الحجاج بن يوسف الثقفي سنة ٩٥هـ، قال ابن كثير: كان الحجاج نقمة على أهل العراق، بما سلف لهم من الذنوب والخروج على الأئمة وخذلانهم وعصيانهم و الافتيات عليهم.

وقد مر من قول أسماء أنه هو المُبير المُهلك، وقد كان ناصبيًّا يبغض عليًّا وشيعته في هوى آل مروان، وكان جبارًا عنيدًا، مقدامًا على سفك الدماء بأدنى شبهة، والشيعة كانوا يبغضونه جدًّا لوجوه، وربما حرفوا عليه بعض الكلم، وزادوا فيما يحكونه عنه بَشاعات وشناعات.

وعن هشام بن حسان قال: أحصوا ما قتل الحجاج صبرًا فبلغ مائة ألف وعشرين ألفًا[٢].

وعند موته أنشأ يقول:

يا رب قد حلف الأعداء واجتهدوا — بأنني رجل من ساكني النار
أيحلفون على عمياءَ وَيْحَهُم — ما علمهم بعظيم العفو غفار

فأُخبر الحسن، فقال: تالله إن نجا فبهما.

وقال عمر بن عبد العزيز: ما حسدت الحجاج عدو الله على شيء حسدي إياه على حبه القرآن وإعطائه أهله، وقوله حين احتضر: اللهم اغفرلي، فإن الناس يزعمون أنك لا تفعل.

---

(١) عُظماء الإسلام، محمد سعيد مرسي ص ٢١٣.

(٢) البداية والنهاية (٩/ ٢٦٧).

وقال عمر بن عبد العزيز أيضًا: لو تخابثت الأمم وجئنا بالحجاج لغلبناهم، ما كان يصلح للدنيا ولا للآخرة(1).

وقال زياد بن الربيع الحارثي لأهل السجن، وكانوا ثلاثة وثلاثين ألفًا: يموت الحجاج في مرضه هذا في ليلة كذا، فلما كانت تلك الليلة لم ينم أهل السجن فرقًا، جلسوا ينتظرون حتى سمعوا الداعية، وذلك ليلة سبع وعشرين من رمضان سنة ٩٥هـ، مات بواسط، وعُفي قبره وأُجري عليه الماء لئلا يُنبش ويُحرق.

ولما تحقق طاووس من موته قال: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

ولما أُخبر الحسن بموته خر ساجدًا، وكان مختفيًا فظهر وقال: اللهم أمَتَّه، فأذهب عنا سنته.

وقال القاضي أبو يوسف: كنت عند الرشيد فأُدخل عليه رجل، فقال: يا أمير المؤمنين رأيت الحجاج البارحة في النوم. قال: في أي زي رأيته؟ قال: في زي قبيح، فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: ما أنت وذاك يا ماصّ بظر أمه؟ فقال هارون: صدقت والله، أنت رأيت الحجاج حقًّا، ما كان أبو محمد لِيَدع صرامته حيًّا وميتًا(2).

نهاية خلافة الوليد

انتهت هذه الفترة العظيمة من تاريخ الإسلام والمسلمين بوفاة الوليد ابن عبد الملك بن مروان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

---

(١) تاريخ الإسلام، للذهبي (٢/ ١٠٧٦).

(٢) البداية والنهاية (٩/ ٢٦٧).

كانت وفاته في يوم السبت للنصف من جمادى الآخرة من هذه السنة (يَعني سنة ٩٦هـ)، والذي صلى عليه عمر بن عبد العزيز، وهو الذي أنزله القبر، وكانت خلافته تسع سنين وثمانية أشهر على المشهور[١].

وكان الوليد قد عهد من بعده لأخيه سليمان بالخلافة.

الفوائد والدروس والعبر

١- ارتفع عَلَمُ الجهاد في خلافة الوليد مرة ثانية بعد أن نُكِّس عشرات الأعوام بسبب الأحداث الداخلية، فغزت جيوشه بلاد الروم والترك وبلاد الأندلس والهند والسند وما وراء النهر، وكابل وسجستان، حتى بلغت المناطق المفتوحة ثلاثين منطقة، ودفع ملك الصين الجزية للمسلمين، فما أروع الوليد، وما أروع هؤلاء القادة والجنود الذين سطروا أمجادهم في تاريخ أمتنا بماء الذهب، وخلد الله اسمهم وأعلا قدرهم، فرحمهم الله ورضي عنهم.

٢- بالرغم من القيادات المختلفة التي كانت تقود الفتوح، فإن الفتوح كانت تسير في خطوط موحدة وسياسة معينة، وخططٍ واضحة، وأولها السرعة في العمل، فالجيش لا يقف، وينتقل من فتح إلى فتح، وإذا وجد مجالًا للاتفاق مع أهل البلد، ترك لهم بلادهم فعاهدهم على إدارتها، حتى إذا خانوا العهد عاد إليهم فضربهم ضربة شديدة[٢].

٣- الجيوش الفاتحة ليست جيوشًا فحسب، بل هي أسر تتقدم مع الفتح من أولاد ونساء وأهل، وكانت النساء يحرضن الرجال على الفتوح، والأطفال

(١) أنساب الأشراف، للبلاذري (٨/ ٩٢)، وتاريخ الإسلام للذهبي (٢/ ١١٨٥).

(٢) الدولة الأموية، د/ يوسف العش، ص ٢٤٨.

يثيرون الحماسة في النفوس، ويخشى هؤلاء على أولادهم فلا يترددوا، والواقع أن معجزة الفتوح عادت مرة أخرى إلى الظهور في عصر الوليد بعد أن انقطعت جيلًا من الناس[١].

٤- تعتبر حركة الفتوحات الإسلامية في زمان الوليد امتدادًا لحركة الفتوحات زمان الراشدين، فالميادين الثلاثة التي انطلقت فيها الفتوحات في عهد الوليد ليست سوى امتدادًا للميادين في عهد الراشدين، فميدان المغرب والأندلس امتداد لميدان إفريقيا، وميدان ما وراء النهر امتداد لميدان خراسان وميدان بلاد السند امتداد لميدان سجستان، وكذا الأهداف التي حكمت الحركتين واحدة وهي العمل على نشر الإسلام، وكذا القادة تشابهوا إلى حد بعيد، فالدارس للتاريخ يرى في موسى بن نصير وطارق بن زياد صورة عمرو ابن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعقبة بن نافع، ويرى في محمد بن القاسم صورة عمرو التميمي، وفي قتيبة بن مسلم الباهلي صورة الأحنف بن قيس[٢].

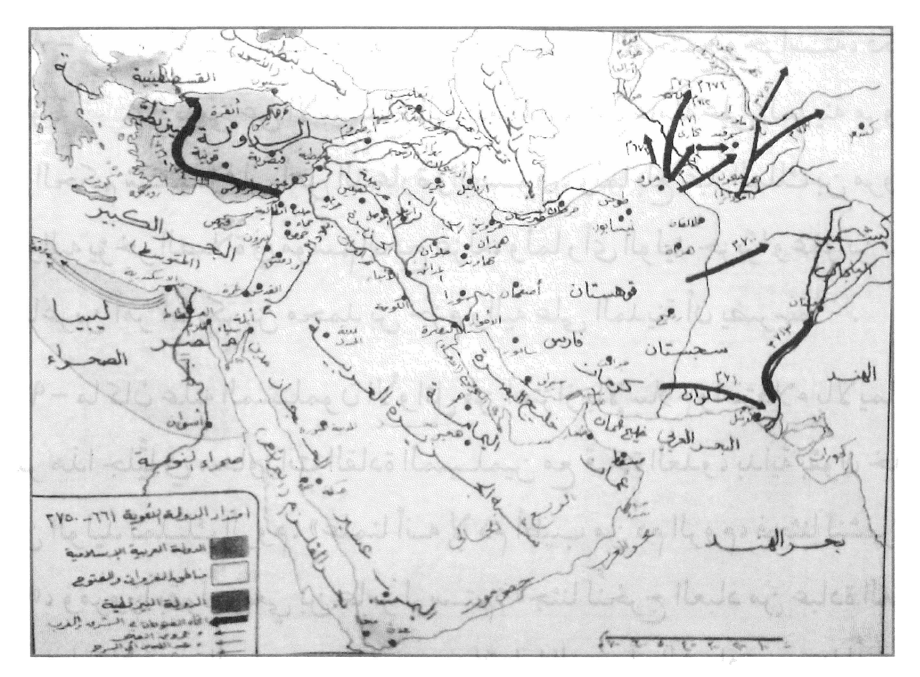
٥- حدث فاصل زمني بين عهد الراشدين وعهد الوليد والذي يصل إلى نصف قرن ضعفت فيه حركة الجهاد والفتوحات بسبب الأحداث الداخلية في الدولة الإسلامية، وهنا تبرز قيمة القائدين معاوية بن أبى سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعبد الملك بن مروان في المحافظةعلى روح الجهاد حية في نفوس المسلمين، وحينما استكملت الدولة عوامل الانطلاق اندفعت في حركة الفتوحات من جديد[٣].

---

(١) الدولة الأموية، د/ يوسف العش، ص ٢٤٨.

(٢) الدولة الأموية، د/ حامد غنيم، ص ٣٣٤، بتصرف يسير.

(٣) السابق ص ٣٣٤.



خريطة تُوضح الامتداد الواسع لفتوحات الدولة الأموية

٦- قـرّب الوليد أهل العلم، وهذا ثاني أعظم مَعلـم من معالم دولة الوليد، وهكذا يجب أن يُقَرب أهل العلم في كل زمان ومكان، فدولة تضطهد علماءها وتضيق عليهم لابُد وأن تزول ولو بعد حين، هذه سُنة الله في خلقه.

٧- عم الخير والصلاح بسبب عدل الوليد وسعيه على الأرامل والمساكين، واهتمامه بالمرضَى والزمنَى، فاستقرت له البـلاد وأحبته قلوب العباد، فكان عهده رَحِمَهُ ٱللَّهُ شبيهًا بعهد الأوائل.

كان ابـن أبـي عبلة يقول: رحـم الله الوليد، وأين مثل الوليـد؟ ولكن يُؤخذ علـى الوليد تركه الحجاج فلم يُنَحِّه رغم ظلمه وجوره، وإن كان بعض الرعية في زمـان ما ومكان ما لا يصلح لهم إلا مثل الحجاج خاصة أهل العراق الذين زاد فسقهم وظهر غدرهم، لكن هذا لا يكفـي تبريرًا لأفعال الحجاج، فالظلم ظلمات يوم القيامة.

٨ - كان ولاة بني أمية حريصين على صيانة المجتمع وحراسته، فكان معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ينهى عن الاستماع إلى الغناء، وكان عامله على المدينة مروان ابن الحكم شديدًا على أهل الدعارة والفسوق، ولما بلغ عبد الملك بن مروان أن واليه يؤخر الصلاة في موسم الحج عزله، ولما رأى الوليد جريرًا وعمر بن لجأ الشاعرين أمر أبا بكر بن محمد بن حزم واليه على المدينة أن يضربهما[1].

٩- ما كان عليه المسلمون الأوائل من اعتزاز بالإسلام واستعلاء بالايمان، ظهر هذا جليًّا في محاورات القادة المسلمين مع قادة العدو، بداية بقول خالد ابن الوليد لملك الروم: «علمنا أنه لا دم أطيب من دم الروم، فجئنا لنشرب منه»، ومرورًا بقول ربعي بن عامر لرستم: «جئنا لنُخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله رب العباد، وجئنا لموعود الله إما النصر أو الشهادة، وجئنا لنُخرج الناس من جور الأديان إلى عدل الإسلام»، وقول عبادة بن الصامت للمقوقس عندما رآه فهابه: «وإنّ فيمن خلّفتُ ورائي ألفًا من الرجال، لو رأيتهم لكنتَ أشد هيبة لهم مني»، وإصرار قتيبة بن مسلم وقسمه لملك الصين: «ليطأن أرضهم وليختمن ملوكهم على أقفائهم وليأخذن الجزية منهم»، فرضخ ملك الصين لقائد المسلمين وأبر يمينه، فتركهم قتيبة بن مسلم، فيا له من عز ومجد سطره الأوائل وخلدوه عبر الزمان.

١٠ - حرص الأمويين على أموال الدولة، فقد كان معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوزع على رعيته ما فضل من مال بعد أعطياتهم، ويقول: «فإنه ليس بمالي، وإنما هو مال الله الذي أفاءه عليكم»، وبلغ عبد الملك أن عامله قَبِلَ هدية، فقال له: لإن كنتَ قبلت هدية ولم تعوض إنك للئيم، ولئن أنلت مهديك لا من مالك، إنك لجائر خائن. وعزل الوليد أخاه عبد الله عن مصر لما شكاه بعض أهلها،

(١) الدولة الأموية المفترى عليها، د/ حمدي شاهين، ص ٢٣١.

وأحاط بماله كله لما ظن أن فيه غصبًا أو رشوة، وفي سنة ٩١هـ قدم محمد ابن يوسف الثقفي أخو الحجاج من اليمن بهدايا، فأرسل إلى زوجة الوليد بعضها فلم تقبلها، وقالت: غصبها. فأحلفه الوليد خمسين يمينًا أنه ما غصبها، فقبلتها، وكان الخلفاء إذا جاءتهم جبايات الأمصار يأتيهم مع كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس، فلا يدخل درهم ولا دينار بيت المال، حتى يحلفوا بالله الذي لا إله إلا هو مافيها درهم ولا دينار إلا أُخذ بحق[1]

١١- تشابه الوليد بن عبد الملك مع عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في ثلاثة أمور:

الأول: الفتوحات الكثيرة في عهده، ففتح الله على الإسلام فتوحًا عظيمة في دولة الوليد وعاد الجهاد شبيهًا بأيام عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2].

الثاني: مدة الخلافة، وهي عشر سنوات.

الثالث: المجتمع في عهده تشابه إلى حد كبير مع المجتمع في عهد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

١٢- اهتمام الولاة والأمراء باللغة العربية التي تميز الأمة عن غيرها، ومن النكات اللطيفة في ذلك ما ذكره روح بن زنباع أنه قال: دخلتُ على عبد الملك بن مروان يومًا وهو مهموم، فقلت ماهذه الكآبة التي بأمير المؤمنين لا يسوءه الله ولا يخزيه؟ قال: فكرت فيمن أوليه أمر العرب، فلم أجده. قلت: فأين أنت من الوليد؟ قال: إنه لايحسن النحو، ثم قال لي: أرح لي العشية فإني سأظهر كآبة فسلني عن ذلك وخلني والوليد. فرحت إليه والوليد عنده، وقد أظهر كآبة، فقلت: ما هذه الكآبة التي بأمير المؤمنين لا يسوءه الله ولا يخزيه؟ قال يا زنباع: فكرت فيمن أوليه أمر العرب فلم أجده. فقلت: فأين أنت من ريحانة قريش وسيدها: الوليد بن

---

(١) الدولة الأموية المفترى عليها، د/ حمدي شاهين، ص ٤٢٨ دار القاهرة للكتاب.

(٢) تاريخ الإسلام، للذهبي (٢/ ١٠٤٢).

عبد الملك؟ قال يا زنباع إنه لا يلي العرب إلا من تكلم بكلامهم. فسمعها الوليد، فقام من ساعته، وجمع أصحاب النحو ودخل إلى بيت وأدخلهم معه، وطين عليه وعليهم الباب، فأقام فيه ستة أشهر، قال: ثم خرج منه يوم خرج وهو أجهل في النحو منه يوم دخل فيه، فقال عبد الملك: أما إنه قد أعذر[1].

فانظر إلى هذا الاهتمام البالغ باللغة وعلومها واجتهاد الولاة والأمراء أن يكونوا على مستوى المسئولية، لذا قال المؤرخون: كان حكام بني أمية أكثر تدينًا في أنفسهم وكان حكام بني العباس أكثر فائدة لأمتهم وأقل تدينًا من حكام بني أمية، فرحمهم الله جميعًا.

١٣- الطريق إلى عودة الجهاد من جديد شاق وطويل، يبدأ من **إعداد الأمة عقديًّا** إذ إن العقيدة هي درع الأمة الحصين، وأساسها المتين، ولا سبيل إلى الخلاص مما تعانيه أمتنا إلا إذا رجعت إلى هويتها الأصلية وثقافتها الإسلامية المستمدة من عقيدتها الربانية، فالمجتمع المفكك الفاقد لثقافته وهويته، ولا يمكن أن ينتج قوة عسكرية قادرة ومتماسكة، ومهما حاولنا السير على درب خالد بن الوليد وصلاح الدين والوليد بن عبد الملك، فلا سبيل إلى النصر والتمكين دون العزم على إعادة بث العقيدة الصحيحة وغرسها في قلوب أبناء المسلمين، فيخرج لنا حينئذ جيل النصر والعز والتمكين.

ولوازم هذه العودة العقدية أن تتخلى الأمة عن تبني الأفكار اليسارية والشيوعية وكذلك العلمانية وغيرها، وتكف عن الإعجاب بكل مستورد وهجين من العادات والثقافات المنافية لأصول ديننا وعادات أمتنا وثقافتها، وتتأتى عن نشر الآراء الشاذة والأفكار المنحرفة باسم الحرية الشخصية وتحت مظلة الدساتير الوضعية.

---

(١) تاريخ الإسلام، للذهبي (٢/ ١١٨٣) دار الغرب العربي.

ثاني الخطوات: العمل على إقامة الوحدة الإسلامية

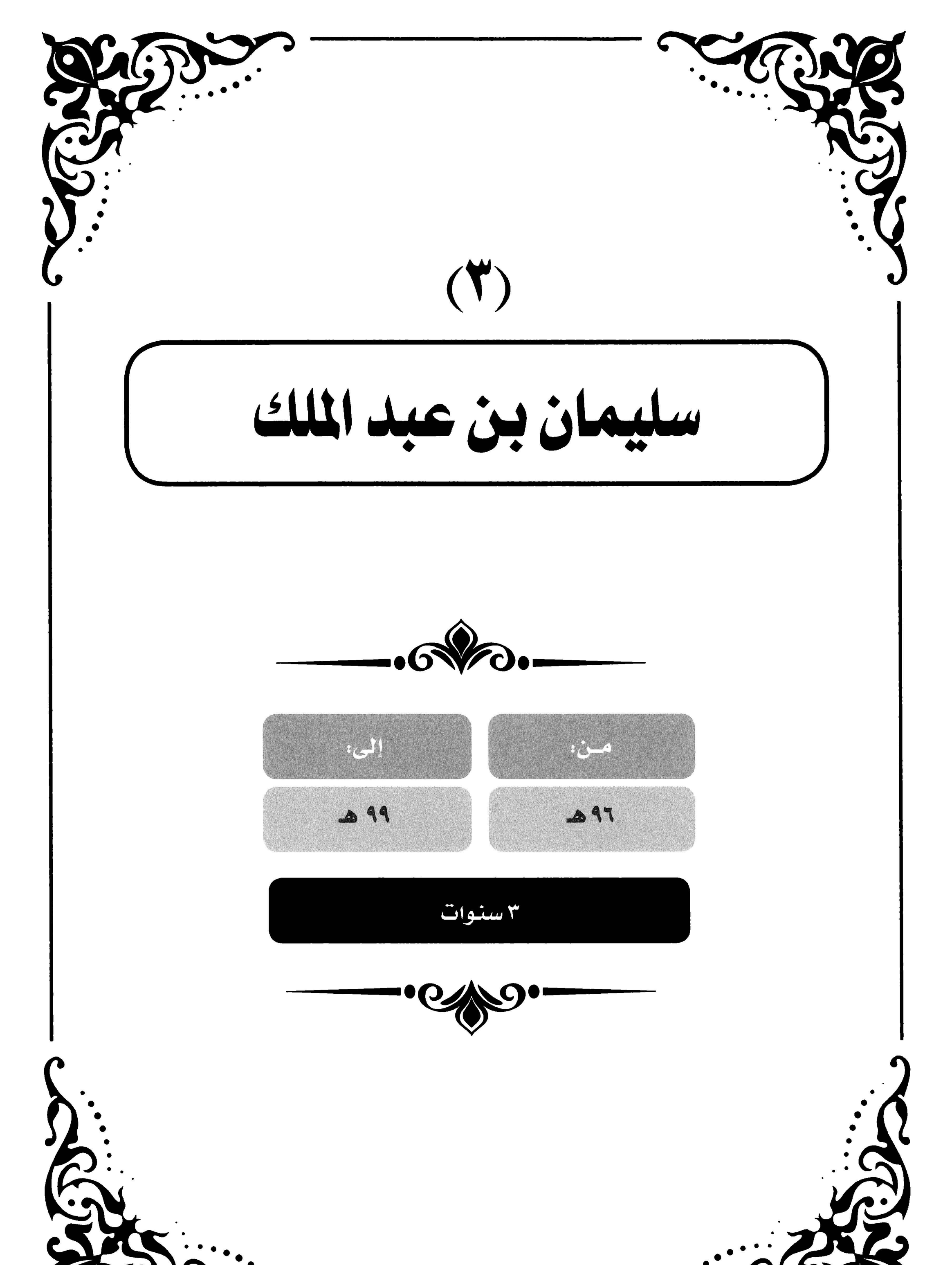
فهو مطلب شرعي وهدف عظيم حققه الإسلام منذ فجر الدعوة الإسلامية، فوحد العرب حتى صاروا امة واحدة متآلفة وقوية.

لقد حقق الأوائل وحدة عقدية متجانسة بعيدًا عن كل العصبيات إلا لحمة الدين، وآصرة الإسلام، فتمكن الخلفاء والأمراء من جمع الأمة كلها تحت راية واحدة، فقفزوا إلى مكان الريادة والقيادة في مدة وجيزة.

إن فكرة الوحدة بين الأقطار الإسلامية من أهم الخطوات لمواجهة الأخطار المحيطة بالأمة، خاصة إذا قامت هذه الوحدة على أسس سليمة من العقيدة الصحيحة والأهداف المشتركة بعد الدراسة والتخطيط بعيدًا عن العجلة والارتجال. ولا بدَّ من إدراك صعوبة هذا الهدف وذلك لسيطرة القوى العلمانية على مقاليد الأمور، وقدرتهم الإعلامية والاقتصادية التي يسهل معها تحويل العالم الإسلامي.

ويجب أن نعلم أن البون شاسع بين ما نصبوا إليه وبين الواقع الأليم، فالأمة مغيبة، والعقيدة ضائعة، والرابطة مفككة والعدو من خلف الصفوف، بل من أمامها يبث سمه وينشر فكره، لذا نقول: إن تحقيق هذا الهدف متوقف على تحقيق الهدف قبله.

إن العدو الصليبي اليهودي نجح في تقسيم الدول الإسلامية إلى كيانات متناحرة، وزرع حدودًا بينها، ثم أوقع الفتن وبث الأحقاد في أرجائها، مما ساعد على مزيد تفرق وتشتت، وفي المقابل تكتلت دول أوروبا وكونت تحالفات لصد الإسلام، وأنشأت ما يسمى «بحلف الأطلسي» والذي يشمل ست عشرة دولة حتى الآن، والهدف من إنشائه وقف المد الإسلامي ومحاربة ما يسمونه «بالأصولية».



(٣)

سليمان بن عبد الملك

إلى:	مـن:
٩٩ هـ	٩٦هـ

٣ سنوات

خلافة سليمان بن عبد الملك

تولى سليمان بن عبد الملك خلافة المسلمين وبايعه الناس يوم موت أخيه، وكان يوم السبت للنصف من جمادى الآخرة سنة ٩٦هـ[١]، وهمّ بالإقامة ببيت المقدس إلا أنه انتقل إلى دمشق لما سمع بخروج الروم إلى ساحل حمص[٢].

صفاته ومناقبه

قال الحافظ بن عساكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كان فصيحًا مُؤثرًا للعدل، مُحبًّا للغزو، وقد أنفذ الجيش لحصار القسطنطينية حتى صالحوهم على بناء الجامع بها، واتخذ ابنَ عمه عمر بن عبد العزيز مستشارًا ووزيرًا، وقال له: إنا وُلِّينا ما ترى وليس لنا علم بتدبيره، فما رأيت من مصلحة العامة، فمر به فليكتب. وكان من ذلك عزل نواب الحجاج، وإخراج أهل السجون منها، ورد الصلاة إلى ميقاتها الأول، بعدما كان مَن قبله يُؤخرونها إلى آخر وقتها، مع أمور حسنة كان يسمعها من عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ[٣].

وكان يرجع إلى دين وخير ومحبة للحق وأهله، واتباع القرآن والسنة وإظهار الشرائع الإسلامية[٤]، وكان بلغه خروج الروم إلى ساحل حمص وأنهم سبوا النساء، فغضب وقال: والله لأغزون غَزاة أفتح فيها القسطنطينية أو أموت دونها. فأغزى أهل مصر في ألف مركب إلى القسطنطينية، وأغزى أهل الشام في عشرين ومائة ألف مركب في البرد، وولى على الجميع أخاه مسلمة ابن عبد الملك، ثم قدم سليمان دمشق، فصعد المنبر يوم الجمعة وخطب

---

(١) البداية والنهاية (٩/ ٣١٣)، و(٩/ ٣٢٥).

(٢) مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، لسبط ابن الجوزي (٦/ ٤٤٢).

(٣) مختصر تاريخ دمشق، لابن عساكر، للإمام ابن منظور (١٠/ ١٧٠).

(٤) البداية والنهاية (٩/ ٣٣٠).

فأخبر الناس بيمينه التي حلفها على فتح القسطنطينية، وأتى مرج دابق، فأقام بها[١]، فمات هنالك، فحصل له بهذه النية أجر الرباط في سبيل الله، فهو إن شاء الله ممن يجري له ثوابه إلى يوم القيامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢].

وقال السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كان من خيار ملوك بني أمية، وكان مؤثرًا للعدل محبًّا للغزو[٣]، وكان الناس يقولون: سليمان مفتاح الخير، ذهب عنهم الحجاج وأطلق الأسرى وأخلى السجون وأحسن إلى الناس، واستخلف عمر بن عبد العزيز رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[٤].

وقال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كان دَينًا فصيحًا مفوهًا عدلًا، محبًّا للغزو، نقش خاتمه: «أؤمن بالله مخلصًا»، قَسَّم أموالًا عظيمة، ونظر في أمر الرعية[٥]، وقال الشعبي: حج سليمان فرأى الناس بالموسم، فقال لعمر بن عبد العزيز رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أما ترى هذا الخلق الذين لا يُحصيهم إلا الله، ولا يسع رزقهم غيره؟ فقال: يا أمير المؤمنين، هؤلاء اليوم رعيتك وهم غدًا خصماؤك. فبكى، وقال: بالله أستعين[٦].

وعن ابن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: يرحم الله سليمان افتتح خلافته بإحياء الصلاة واختتمها باستخلاف عمر، وكان سليمان ينهى الناس عن الغناء[٧]، سمع ليلة صوت غناء في معسكره فلم يزل يُفحص حتى أتى بهم، فقال سليمان: إن الفرس ليَصهلُ فتستودق له الرَّمكَة، وإن الجمل ليخطِرُ فتضبع له الناقة، وإن

---

(١) مرآة الزمان، لسبط ابن الجوزي (٦/ ٤٤٢).

(٢) البداية والنهاية (٩/ ٣٣٠).

(٣) تاريخ الخلفاء (١/ ٣٧٠).

(٤) الكامل لابن الأثير (١/ ٩١٤).

(٥) سير أعلام النبلاء (٥/ ١١١).

(٦) مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، للإمام ابن منظور (١٠/ ١٧٤).

(٧) السير (٥/ ١١٢).

التَّيْس ليَنِبُّ فكَثَرتْ له العنز، وإن الرجل ليتغنى فتشتاق له المرأة. ثم أمر بهم ليخصوهم، فيقال: إن عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: يا أمير المؤمنين إنها مُثلة، فتركهم[١].

وقال ابن الوردي: أحسن السيرة ورد المظالم، وكان غيورًا[٢].

ولم يحدث في حياة سليمان ما يستحق الذكر، فالفتوحات ضيقة جدًّا، والخوارج يواصلون هدوءهم، إلا أن والي خراسان قتيبة بن مسلم كان قد وافق الوليد على خلع سليمان وتولية ابنه عبد العزيز بن الوليد، فلما بلغه نبأ تولية سليمان أخذ يعاديه ويخاصمه ويأبى أن يبايعه، فقرر خلعه، إلا أن الجند لم يوافقوه، وقُتل على يد وكيع بن الأسود، وأُرسل رأسه إلى سليمان بن عبد الملك، وتولى يزيد بن المهلب من بعده شؤون خراسان[٣] وقد عزل سليمان ولاة الحجاج كذلك؛ لأن الحجاج كان ممن وافق الوليد على خلع سليمان.

ويقول ابن كثير في ذلك: وقد كان قتيبة بن مسلم الباهلي من سادات الأمراء وخيارهم، وكان من القادة النجباء الكبراء والشجعان، وذوي الحروب والفتوحات السعيدة، والآراء الحميدة، وقد هدى الله على يديه خلقًا لا يحصيهم إلا الله، فأسلموا ودانوا لله عَزَّوَجَلَّ والله سبحانه لا يضيع سعيه، ولا يخيب تعبه وجهده، ولكن زل زلة كان فيها حتفه، وفعل فعلة رغم فيها أنفه، وخلع الطاعة فبادرت المنية إليه، وفارق الجماعة فمات ميتة جاهلية، لكن سبق له من الأعمال ما يكفر الله به سيئاته، ويضاعف به حسناته، والله يُسامحه ويعفو عنه[٤].

---

(١) البداية والنهاية (٩/ ٣٢٧).

(٢) تاريخ ابن الوردي (١/ ٢٤٣)، المطبعة الحيدرية.

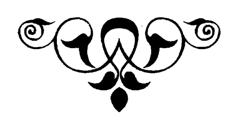
(٣) أعلام الخلفاء، ص ٢، محمد كمال، ط دار ربيع للنشر.

(٤) البداية والنهاية (٩/ ١٧٥).

الفوائد والدروس والعبر

١- كان سـليمان وعمر بن عبد العزيز متفقين على كراهة سياسـة الحجاج وأعماله، فأقبل سليمان من أول يوم على عمر بن عبد العزيز فاتخذه مستشارًا، وأطلـق الأمـر لعمر بن عبد العزيـز، فعمل على منع الجور الـذي كان يقوم به الحجاج وعماله، فأقال أتباع الحجاج وأيده سليمان في ذلك، بل ذهب سليمان لأبعد من ذلك، فقد تقصد أن يقتص من عُمَّال الحجاج(١).

٢- يجـب أن نؤرخ لحقبة عمر بن عبد العزيز منذ بداية عهد سـليمان، فقد أرسـى مباديء العدل ورفع الجور، وقام بإصلاحات عديدة، وأطلق الأسرى في العـراق وأخلى السـجون، وأعـاد الصلاة إلى وقتها، وأحسـن معاملة عامة النـاس وتتبع الفسـقة، حـدث إذن اتجـاه جديد في السياسـة الأمويـة في عهد سـليمان بأثر من عمر بن عبد العزيز، ذلك الاتجاه الذي سيأخذ حده الأقصى مع عمر بنفسه(٢).



(١) الدولة الأموية، د/ يوسف العش، ص ٢٥٤.

(٢) السابق.

الفتوحات في عهد سليمان

١- المحاولة الثالثة لغزو القسطنطينية

كانت الفتوحات في عهد سليمان ضعيفة جدًّا، ولعل ذلك يعود إلى قصر مدة عهده، واستبدال الولاة الذين هم على الثغور، إذ لابُد للوالي من فترة يتحسس فيها الأمر ويجهز للغزو.

لكن سليمان جهز جيشًا لغزو القسطنطينية سنة ٩٨هـ، بقيادة أخيه مسلمة ابن عبد الملك في جيش قوامه ١٢٠ ألفًا، لكنها استعصت عليه بعد حصار دام سنة كاملة.

وتعرض الجيش المسلم لضنك شديد حتى أكلوا كل شيء إلا التراب[1]، وأقسم سليمان ألا يعود من دابق شمالي الشام -التي اتخذها مركزًا لمتابعة العمليات بالقسطنطينية- حتى يفتحها أو يتوفاه الله.

لكن الجيش لم يستطع فتح القسطنطينية، وتوفي سليمان بالفعل.

وعلمت الجيوش بوفاته وتولية عمر بن عبد العزيز، فعادت أدراجها إلى الشام، ولكن مسلمة لم يرجع حتى صالح الروم على بناء مسجد بالقسطنطينية.

الفوائد والدروس والعبر

أ- كانت هذه الحملة الثالثة على القسطنطينية أعظم وأضخم الحملات التي استطاعت قوى الإسلام أن تجردها لهزيمة القوى الكافرة، وكانت أعظم مجهود استطاع المسلمون بذلك لحمل لواء الإسلام إلى أمم الغرب غير الإسلامي[2].

---

(١) تاريخ الطبري (٤/ ٥١). بتصرف.

(٢) الدولة الأموية، د/ علاء عبد العزيز أبو زيد، ص ٣١، المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

ب - من المفارقات أن أوروبا وقت خروج الحملة كان يسودها التمزق والصراع السياسي، في وقت كانت الدولة الإسلامية قد وصلت إلى ذروة قوتها لذا كان فشل الحملة عميق الأثر في مصائر الإسلام، إذ تأخر انتشار الإسلام كثيرًا في أوروبا، ولو نجح المسلمون في حملتهم لتغير مصير أوروبا، ولنشأت فيها أمم غير الأمم ودين غير المسيحية، ولانتقل النظام الدولي إلى نظام أحادي الأقطاب يتسيده المسلمون، ولأصبحت أوروبا ضمن ديار الإسلام، ولتغير ساعتها وجه الأرض(١).

٢ـ غزو دهستان وجرجان

في سنة ٩٨ هـ غزا يزيد بن المهلب (دهستان) من أرض الصين، فحاصرها وقاتل عنها قتالًا شديدًا، ولم يزل حتى تسلمها وقتل من الترك الذين بها أربعة آلاف صبرًا، وأخذ منها من الأموال والأثاث والأمتعة ما لا يحد ولا يوصف كثرة وقيمة وحسنًا(٢)، وغزا يزيد بن المهلب (جرجان) في مائة وعشرين ألفًا منهم ستون ألفًا من جيش الشام أثابهم الله، وقد تمهدت تلك البلدان بفتح جرجان، وكانت قبلُ مخوفة جدًّا، وغنم غنائم كثيرة، وكان مما غنم تاج فيه جواهر نفيسه لم تر عين مثله، فقال لجنده: أترون أحدًا يزهد في هذا؟ قالوا: لا نعلم أحدًا يزهد فيه.

قال: لكني أعلمه، محمد بن واسع، فدعاه، ثم عرض عليه التاج فأبى عليه، وقال: لا حاجة لي به. فأقسم عليه ليأخذنه، فأخذه وخرج من عنده، فأتبعه يزيد رجلًا ينظر ما يفعل، فمر بسائل فأعطاه التاج كله وانصرف فأرسل يزيد إلى السائل فعوضه مالًا كثيرًا وأخذ منه التاج(٣).

---

(١) الدولة الأموية، د/ علاء عبد العزيز أبو زيد، ص ٣١.

(٢) البداية والنهاية (٩/ ٣٢٢).

(٣) السابق (٩/ ٣٢٢)، وتاريخ الطبري (٤/ ٥٦).

٣- استعمل سليمان بن عبد الملك حبيب بن المهلب على حرب السند، فقدمها وقد رجع ملوك الهند إلى ممالكهم، ونزل حبيب على شاطئ مهران فأعطاه أهله السرور والطاعة، وحارب قومًا فظفر بهم[١].

سليمان وتقريب العلماء

تميز سليمان بن عبد الملك بتقريب أهل العلم واستماعه لنصحهم وسؤالهم عن أمور الدين، فقد روى النسائي من طريق أبي بكر بن عبد الرحمن ابن الحارث بن هشام أن سليمان بن عبد الملك لما حج جمع ناسًا من أهل العلم: منهم القاسم بن محمد وخارجة بن زيد وسالم وعبد الله ابنا عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وعمر بن عبد العزيز وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث، فسألهم عن التطيب قبل الإفاضة، فكلهم أمر به[٢]. وكذلك كان وزيري صدقه ومستشاريه رجاء بن حيوة وعمر بن عبد العزيز، ورجاء بن حيوة من جلة التابعين وأفقههم، كان إمامًا قدوة قال عنه مسلمة بن عبد الملك: برجاء بن حيوة وبأمثاله ننتصر[٣]. قال عنه صاحب حلية الأولياء: مشير الخلفاء والأمراء[٤]. وكان له تأثير قوى في زمان سليمان بن عبد الملك يظهر ذلك في موقفه من استخلاف عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ، وفي عهده ظل يتبوأ نفس المكانة العالية، فجعله عمر من خواصه ومستشاريه، وبعد وفاة عمر أقبل على شأنه وترك القرب من الخلفاء[٥].

---

(١) فتوح البلدان، للبلاذري، ص ٤٥٣.

(٢) سنن النسائي الكبرى (٢/ ٤٥٨)، وذكره الحافظ في الفتح (٤/ ٤١٩).

(٣) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٦٠).

(٤) حلية الأولياء (٥/ ١٣٨) ط دار الفكر.

(٥) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٦١).

أما استماعه لنصحهم فمن روائع ما ذُكر عنه أنه حج بالناس سنة ٩٧هـ، فمر على المدينة وهو يريد مكة، فقال: أهاهنا أحد يُذَكِّرُنا؟ فقيل له: أبو حازم. فأرسل إليه فدعاه.

فلما دخل عليه قال له: يا أبا حازم، ما هذا الجفاء؟

فقال: يا أمير المؤمنين، أعيذك بالله أن تقول ما لم يكن، ما عرفتني قبلُ ولا أنا رأيتك.

فالتفت سليمان إلى محمد بن شهاب، وقال: أصاب الشيخ وأخطأت أنا.

فقال سليمان: يا أبا حازم، ما لنا نكره الموت؟

قال: لأنكم أخرتم[1] آخرتكم، وعمرتم دنياكم، فكرهتم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب.

قال: صدقت، فكيف القدوم على الله عَزَّوَجَلَّ غدًا؟

قال: أما المُحسن، فكالغائب يقدم على أهله، وأما المُسيء فكالآبق يقدم على مولاه.

فبكى سليمان، وقال: ليت شعري، ما أنا عند الله؟

فقال يا أمير المؤمنين: اعرض عملك على كتاب عَزَّوَجَلَّ الله.

قال: وأين أجده؟

قال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار].

---

(١) هكذا بالأصل، ولعل الصواب: أو أخربتم.

قال يا أبا حازم: فأي عباد الله أفضل؟

قال: أولو المروءة والتُقى.

قال: فأي الأعمال أفضل؟

قال: أداء الفرائض مع اجتناب المحرمات.

قال: فأي الدعاء أسمع؟

قال: دعوة المحسن للمحسن.

قال: فأي الصدقة أزكى؟

قال: صدقة السائل البائس، وجهد من مُقل ليس فيها منّةٌ ولا أذى.

قال: فأي القول أعدل؟

قال: قول الحق عند من يخافه أو يرجوه.

قال: فأي الناس أحمق؟

قال: رجل انحط من هوى أخيه وهو ظالم، فباع آخرته بدنيا غيره.

قال: صدقت، فما الذي تقول فيما نحن فيه؟

قال: يا أمير المؤمنين تعفيني من ذلك.

قال: لا، ولكن نصيحة تلقيها إليّ.

قال: إنَّ آباءك قهروا الناس بالسيف، وأخذوا الملك عنوة من غير مشاورة من المسلمين ولا رضى، حتى قتلوا عليه مقتلة عظيمة، وارتحلوا عنها فلو سمعت ما قالوا وما قيل لهم.

فغُشي على سليمان، فقال رجل من جلسائه: بئس ما قلتَ يا أبا حازم.

قال أبو حازم: كذبتَ يا عدو الله، إن الله أخذ الميثاق على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه.

فأفاق سليمان فقال: يا أبا حازم، كيف لنا أن نصلح الناس؟

قال: تدع الصلف وتستمسك بالمروءة وتقسم بالسوية.

قال سليمان: كيف المأخذ به؟

قال: أن تأخذ المال من حله وتضعه في أهله.

قال سليمان: هل لك أن تصحبنا، فتُصيب منا ونُصيب منك؟

قال: أعوذ بالله يا أمير المؤمنين!

قال: ولم؟

قال: أخشى أن أركن إليكم شيئًا قليلًا فيُذيقني الله ضعف الحياة وضعف الممات.

قال: يا أبا حازم ارفع إليّ حوائجك.

قال: تُنجيني من النار وتُدخلني الجنة.

قال: ليس ذلك إليّ.

قال: فلا حاجة لي غيرها.

قال: فادع الله لي يا أبا حازم.

قال: اللهم إن كان سليمان وليك فيسِّره بخير الدنيا والآخرة، وإن كان عدوك فخذ بناصيته إلى ما تُحب وترضى.

قال سليمان: زدني.

قـال: يا أمير المؤمنين قد أوجزت وأكثـرت إن كنتَ من أهله، وإن لم تكن من أهله فما ينبغي لي أن أرمي عن قوس ليس لها وتر.

قال: أوصني يا أبا حازم.

قـال: سـأُوصيك وأُوجز، عَظِّم ربـك ونزهه أن يراك حيـث نهاك أو يفقدك حيث أمرك، ثم قام.

فبعـث إليـه سـليمان بمائـة ألف دينـار، وكتب إليـه أن أنفقها ولـك مثلها كثيـر، فردها عليـه، وكتب إليه: يا أميـر المؤمنين أعوذ بالله أن يكون سـؤالك إيـاي هزلًا وردي عليك باطلًا، فوالله ما أرضاها لك، فكيف أرضاها لنفسـي، يـا أميـر المؤمنين، إن كانـت هذه المائـة عوضًا لِمـا حدثتـك، فالميتة ولحم الخنزيـر في حـال الاضطـرار أحلّ مـن هذه، وإن كانـت هذه حقًا لـي في بيت المال، فلي فيها نظر، فإن سـويت بيننا وإلا فلا حاجة لي فيها[1]. وهذا الحوار يـدل على أن سياسـة بني أمية شـهدت تحـولًا في آخر القـرن الأول، إذ انتهى عهد الشـدة والعنف، وابتدأ عهد المسالمة والمشـاورة فأخذ الخلفاء يسألون الفقهاء عن أرائهم في سـيرة من سـبق مـن خلفائهـم، وكان أول من فعل ذلك سليمان بن عبد الملك، كما سبق من كلامه مع أبي حازم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2].

لقـد كان سـليمان بن عبد الملك رقيـق القلب زكي النفـس، ينصح لرعيته ويُذكرهـم بـالله دائمًا، ظهر ذلك من أول خطبة له، فقد روى ابن أبي الدنيا عن جابـر بن عون الأسـدي قال: أول كلام تكلم بن سـليمان بن عبد الملك حين ولي الخلافة أن قال:

---

(١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلّكان (٢/ ٣٥١) ط دار الكتب العلمية.

(٢) الفقهاء والخلافة في العصر الأموي، د/ حسين عطوان ص ٦٠، ط دار الجيل.

«الحمد لله الذي ما شاء صنع، وما شاء رفع، وما شاء وضع، ومن شاء أعطى، ومن شاء منع، إن الدنيا دار غرور، ومنزل باطل، وزينةٌ تقلّب، تُضحك باكيًا، وتُبكي ضاحكًا، وتُخيف آمنًا، وتُؤمِّن خائفًا، تُفقر ثريها، وتُثري فقيرها، ميالة لاعبة بأهلها.

يا عباد الله: اتخذوا كتاب الله إمامًا، وارضوا به حكمًا، واجعلوه لكم قائدًا، فإنه ناسخ لما قبله، ولن ينسخه كتاب بعده.

اعلموا عباد الله أن هذا القرآن يجلو كيد الشيطان وضغائنه كما يجلو ضوء الصبح إذا تنفس وإدبار الليل إذا عسعس»(١).

استخلاف سليمان لعمر بن عبد العزيز

أراد سليمان أن يُبايع لأحد بنيه، إلا أن وزير الصدق رجاء بن حيوة نصحه بتولية عمر بن عبد العزيز.

قال رجاء: لما ثَقُل سليمان عهد في كتاب كَتَبَهُ لبعض بنيه وهو غلام لم يبلغ، فقلت: ما تصنع يا أمير المؤمنين؟ إن مما يحفظ الخليفة في قبره أن يستخلف على المسلمين الرجل الصالح.

فقال سليمان: أستخير الله وأنظر فيه، ولم أعزم عليه. فمكث يومًا أو يومين، ثم دعاني، فقال: ما ترى في داود بن سليمان؟ فقلت: هو غائب عنك في القسطنطينية، وأنت لا تدري أحي هو أم ميت. فقال: ما ترى؟ فقلت: رأيك يا أمير المؤمنين، وأنا أريد أن أنظر من يذكر، قال: كيف ترى عمر بن عبد العزيز؟ فقلت: أعلمه والله خيِّرًا فاضلًا مسلمًا. فقال: هو والله على ذلك.

(١) البداية والنهاية (٩/ ٣٢٥).

ثم قال: والله لئن وليتُه ولم أولّ أحدًا سواه لتكونن فتنة، ولا يتركونه أبدًا يلي عليهم إلا أن يجعل أحدهم بعده، ويزيد بن عبد الملك غائب على الموسم. قال: فيزيد اجعله بعده، فذلك مما يسكنهم ويرضون به، قلت: رأيك. قال: فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم: هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز، فاسمعوا له وأطيعوا، واتقوا الله ولا تختلفوا فيطُمع فيكم[1].

ثم مات سليمان وفُتح الكتاب، فإذا فيه العهد لعمر بن عبد العزيز، فتغيرت وجوه بني عبد الملك، فلما سمعوا: وبعده يزيد بن عبد الملك، تراجعوا، فأتوا عمر فسلموا عليه بالخلافة، فعُقر به، فلم يستطع النهوض، حتى أُخِذَ بضبعيه[2].

الفوائد والدروس والعبر

١- مدى الجهد الكبير الذي بذله المسلمون لفتح القسطنطينية عاصمة الروم لينالوا شهادة النبي ﷺ لهم بأنهم خير الجند، وكذلك للقيام بالواجب المنوط بهذه الأمة من رفع راية الجهاد، لأجل تعبيد الناس لربهم جَلَّ وَعَلَا.

٢- تقريب سليمان بن عبد الملك لأهل العلم والفضل، وهذا يدل على فضيلته وعدله، فالوالي أو الرئيس كالسوق يُجْلب إليه ما ينفق فيه، فإن كان عادلًا فاضلًا أحاط به أهل العلم والفضل، وإن كان فاسقًا ظالـمًا مُستبدًا مُضيعًا لأمته وخائنًا لأمانته، أحاط به أهل الدنيا الخائنين المضيعين المستبدين الظالمين، فإذا أردت أن تتعرف على الوالي فانظر إلى حاشيته.

---

(١) تاريخ الطبري (٤/ ٦٣). بتصرف.

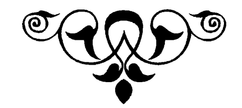
(٢) تاريخ الخلفاء، للسيوطي (١/ ٣٧٢).

٣- ما كان عليه علماء السلف من التورع عن مقارعة أبواب السلاطين، لما فيه من الافتتان بهم، وقد قيل: إذا رأيت الرجل يتردد على أبواب السلاطين، فاعلم أنه لص، وإذا رأيته يتردد على أبواب الأغنياء، فاعلم أنه يريد الدنيا.

٤- لا مانع من مخالطة السلاطين إن كان في ذلك مصلحة عامة تعم الرعية وتنفع الدعوة، وإن كان السلطان ممن يستجيب لداعي الحق وينتصح لأهل العلم، وإن كان مَن يُخالطهم ويتردد عليهم ذا صلاحٍ وتُقىً لا يُخشى عليه من تغير قلبه وميله إلى الدنيا وزُخرفها، فإذا توفرت هذه الشروط الثلاثة، فبها ونعمت، وإلا فالترك والبعد أولى.

٦- الجهاد من أعظم أسباب الغنى المادي الذي يحصل من الغنائم والفيء، لذلك افتقر المسلمون لما تركوا هذا الباب، يقول النبي ﷺ: «**جُعل رزقي تحت ظل سيفي، وجُعل الذل والصغار على من خالف أمري**»، فالذل والصغار والفقر المعنوي والمادي في ترك الجهاد في سبيل الله.

٧- تلك الحسنة الكبرى والمنقبة العظمى لسليمان بن عبد الملك وهي استخلافه لأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، ذاك القرار الذي غيَّر مجرى التاريخ، وقدَّم لنا أحد الخلفاء الراشدين.

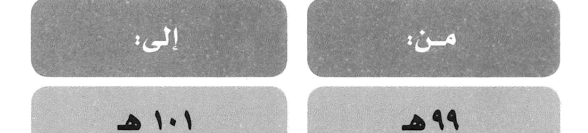




عمر بن عبد العزيز

أحد الخلفاء الراشدين





سنتان وخمسة أشهر



أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز

وُلد عمر بن عبد العزيز بالمدينة سنة ٦١هـ سنة مقتل الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، كان مع أبيه بمصر عندما تولى إمرتها، ولكنه طلب من أبيه أن يذهب إلى المدينة ليتعلم من علمائها، فوافق والده، وسيره إلى صالح بن كيسان ليؤدبه، ولما حج أبوه فسأله عنه، فقال: ما خبرت أحدًا الله أعظم في صدره من هذا الغلام[١].

وتُوفي والده سنة ٨٥هـ، فضمه عمه عبد الملك بن مروان إلى أولاده وقدمه عليهم، وزوجه ابنته فاطمة[٢]، ولما بُويع الوليد بالخلافة أعطاه إمرة المدينة فقرب العلماء وجعلهم رجال مشورته، ثم انتقل إلى دمشق فعاش فيها، فلما بُويع سليمان بالخلافة استوزره، ثم عهد إليه بالخلافة من بعده[٣].

كان عمر نحيف الجسم، غائر العينين، أبيَض، بجبهته أثر دابة، لذا يُسمى أشج بني أمية[٤]، ويُكنى بأبي حفص نسبة إلى عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

كان في شبابه مُترفًا كثير الطيب يُشم من بُعد، ينتظر الناس ثيابه بباب الغسّال فإذا أرسلها تسابق الناس إليه يعطونه دراهم كثيرة حتى يغسل ثيابهم في إثر ثيابه، من كثرة ما حملت وما تترك في الماء من عنبر وطيب.

---

(١) عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي، ص ١٣٣ بتصرف، ط الكتب العلمية - بيروت.

(٢) وفي ذلك يقول الشاعر:

بنتُ الخليفةِ والخليفةُ جَدُّها ... أختُ الخلائفِ والخليفةُ زوجُها

فأبوها عبدالملك، وجدها مروان، وإخوتها الوليد وسليمان ويزيد وهشام، وكلهم ملوك، قال الزبير ابن بكار: ولا نعرف امرأة بهذه الصفة إلى يومنا هذا. البداية والنهاية (٩/ ٣٤٢)، ولا إلى يومنا هذا أيضًا.

(٣) تاريخ الإسلام، للذهبي (٣/ ١١٥).

(٤) السير (٥/ ١١٥).

وكان إذا مشـى راح مُتبختراً مُتكبراً يتصنع له مشية يخترعها، هي بين الكبر والتبختر.

وكان يرتـدي أغلـى الأُزر وأثمـن الأرديـة، وقـد غالـى في ذلـك حتى كاد لا يعجبه ثوب.

إلا أن هـذا قـد تبـدل كلية منـذ تولـى الخلافة، بل منـذ أواخـر إمرته على المدينة[١].

كان عمر تابعيًّا جليلًا، رَوَى عن أنس والسائب بن يزيد، قال أحمد: لا أرى قول أحد من التابعين حُجة إلا قول عمر بن عبد العزيز[٢].

قال ابن الوردي: وكان متحريًّا سنة الخلفاء الراشدين[٣].

وقال الذهبي: وكان من أئمة الاجتهاد، ومن الخلفاء الراشـدين -رحمة الله عليه-[٤].

قـال ابـن كثير: لمـا رجع عمر مـن جنـازة سـليمان أُتي بمراكـب الخلافة ليركبهـا، فامتنـع من ذلك، ثـم أمر ببيع تلـك المراكب -وكانـت من الخيول الجياد والثمينة- وجعل ثمنها ببيت المال[٥].

و لما اسـتقرت الخلافة له انقلب وهو مُغتم مهمـوم، فقال له مولاه: مالك هكـذا مُغتمًا وليس هذا وقت هذا؟ فقال: ويحـك! ومالي لا أغتم وليس أحد

(١) التاريخ الإسلامي، لمحمود شاكر (٤/ ٢١٩)، بتصرف.

(٢) البداية والنهاية (٩/ ٣٤٦).

(٣) تاريخ ابن الوردي (١/ ٢٤٥).

(٤) السير (٥/ ١١٤).

(٥) البداية والنهاية (٩/ ٣٤٦)، وما بعدها.

من أهل المشارق والمغارب من هذه الأمة إلا وهو يُطالبني بحق أن أؤديه إليه، كتب إليَّ في ذلك أو لم يكتب، طلبه مني أو لم يطلب[١].

ثم خير امرأته فاطمة بين أن تقيم معه على أنه لا فراغ له إليها، وبين أن تلحق بأهلها، فاختارته رَحِمَهُمَااللَّهُ.

وخطب الناس فقال وقد خنقته العَبرة: «أيها الناس، أصلحوا آخرتكم تصلح لكم دنياكم، وأصلحوا سرائركم تصلح لكم علانيتكم، والله إن عبدًا ليس بينه وبين آدم أب إلا قد مات، إنه لمُعْرق له في الموت. وقال: كم عامر مُؤنّق عما قليل يخرب، وكم من مُقيم مُغتبط عما قليل يظعن، فأحسنوا، رحمكم الله، من الدنيا الراحلة بأحسن ما بحضرتكم من النقلة، بينما ابن آدم في الدنيا ينافس فيها قرير العين قانعًا إذ دعاه الله بقدره ورماه يوم حتفه، فسلبه آثاره ودنياه، وصير لقوم آخرين مصانعه ومغناه، إن الدنيا لا تسر بقدر ما تضر، تسُرُّ قليلًا وتُحزن طويلًا»[٢]، وكتب إلى بعض عماله يوصيه بالرعية: «نزل رعيتك بمنزلة ولدك، فوقر كبيرهم وارحم صغيرهم، وقوِّم ناشئهم[٣]»، وأجمع أهل العلم على أنه أحد الخلفاء الراشدين.

قال ابن كثير: وأجمع العلماء قاطبة على أنه من أئمة العدل وأحد الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين، وذكره غير واحد من الأئمة الإثنى عشر الذين جاء فيهم الحديث الصحيح: «**لا يزال أمر هذه الأمة مستقيمًا حتى يكون فيهم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش**»[٤].

---

(١) تاريخ الإسلام، للذهبي (٣/ ١٢٢).

(٢) عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي، ص ٢٣٢، ٢٥٤.

(٣) أنساب الأشراف، للبلاذري، (٨/ ١٣٩).

(٤) البداية والنهاية (٩/ ٣٤٦) ومابعدها.

وقالت زوجه فاطمة: دخلت يومًا عليه وهو جالس في مُصلاه واضعًا خده على يده ودموعه تسيل على خديه، فقلت: ما لك؟ فقال: ويحك يا فاطمة! إني قد وليت من أمر هذه الأمة ما وليت، فتفكرت في الفقير الجائع، والمريض الضائع، والعاري المجهود، واليتيم المكسور، والأرملة الوحيدة، والمظلوم المقهور، والغريب والأسير، والشيخ الكبير، وذي العيال الكثير والمال القليل، وأشباههم في أقطار الأرض وأطراف البلاد، فعلمت أن ربي سيسألني عنهم يوم القيامة، وأن خصمي دونهم محمد ﷺ، فخشيت أن لا تثبت لي حجة عند خصومته، فرحمت نفسي فبكيت[1].

وقال ابن كثير: ولم يكن له سوى قميص واحد، فكان إذا غسلوه جلس في البيت ينتظر حتى ييبس، ووقف مرة على راهب فقال له: عظني. فقال:

تجرد من الدنيا، فإنك خرجت إلى الدنيا وأنت مجرد.

فكان يعجبه ويكرره.

وكان مناديه يُنادي كل يوم: أين الغارمون؟ أين الناكحون؟ أين المساكين؟ أين اليتامى؟ حتى أغنى كل هؤلاء[2]، بل كان يحصي الفقراء ليطمئن على عطائهم بنفسه، فقد كتب إلى عدي بن أرطأة: «أما بعد، فاحصِ أهل المسكنة بالبصرة، واكتب إليّ بعدتهم إن شاء الله»، فأحصاهم فبلغوا ثلاثين ألفًا وتسعمائة وخمسة عشر إنسانًا، فكتب إلى عدي يأمره أن يعطي كل إنسان جريبًا في كل شهر من طعام كَسْكَر والسواد، إذا قُدم عليه الطعام[3].

---

(١) تاريخ الإسلام، للذهبي (٣/ ١٢٤).

(٢) البداية والنهاية (٩/ ٣٤٦) ومابعدها.

(٣) أنساب الأشراف، للبلاذري (٨/ ١٥٦).

وكان فقيهًا في استدراج الناس إلى الخير، فعن ميمون بن مهران، أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز قال له يا أبت: ما يمنعك أن تمضي لما تريد من العدل؟ فوالله ما أبالي لو غلت بي وبك القدور في ذلك. قال يابني: إنما أروض الناس رياضة الصعب، إني لأريد أن أحيي الأمور من العدل، فأؤخر ذلك حتى أخرج معه طمعًا من طمع الدنيا، فينفروا لهذه ويسكنوا لهذه، وقال: ما طاوعني الناس على الحق حتى بسطت لهم من الدنيا شيئًا[١].

ودخل على زوجته يومًا فسألها أن تقرضه درهمًا يشتري به عنبًا، فلم يجد عندها شيئًا، فقالت له: أنت أمير المؤمنين وليس في خزانتك ما تشتري به عنبًا؟ فقال: هذا أيسر من معالجة الأغلال والأنكال غدًا في نار جهنم.

وكان لفرط ورعه وعدله يدقق في أقل الأمور، فقد ذكر **الذهبي عن عمر بن أبي الزبير قال:** كتب عمر إلى أبي بكر بن حزم: أن أَدِقَّ قلمك، وقارب بين أسطرك، فإني أكره أن أُخْرِج من أموال المسلمين ما لا ينتفعون به. وكان له سراج يكتب عليه حوائجه، وسراج لبيت المال يكتب عليه مصالح المسلمين، لا يكتب على ضوئه لنفسه حرفًا[٢].

وكتب بعض عماله إليه: أما بعد، فإن مدينتنا قد خربت، فإن يرى أمير المؤمنين أن يقطع لنا مالًا نرمها به فعل. فكتب إليه عمر: أما بعد، فقد فهمت كتابك، وما ذكرت أن مدينتكم قد خربت، فإذا قرأت كتابي هذا، فحصنها بالعدل، ونق طرقها من الظلم، فإنه مرمتها والسلام[٣].

---

(١) عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي، ص ٨٨، ط دار الكتب العلمية.

(٢) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٣٢).

(٣) عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي، ص ١١٠.

وكان حريصًا على تمييز الأمة عن غيرها، فكتب إلى عماله: «لا يركبن نصراني سرجًا، ولا يلبس قباءًا ولا طيلسانًا، ولا سراويل ذات خدمة، ولا يمشين بغير زنار من جلد، ولا يمشي إلا مفروق الناصية، ولا يوجد في بيت نصراني سلاح إلا أُخذ[١]»، وقال لآخر محذرًا له عن تولية أحد من أهل الكتاب أمور المسلمين: «فلا تولين أمور المسلمين أحدًا من أهل ذمتهم وخراجهم فتنبسط عليهم أيديهم وألسنتهم فتذلهم بعد أن أعزهم الله، وتهينهم بعد أن أكرمهم الله وتعرضهم لكيدهم والاستطالة عليهم مع مالا يؤمن من غشهم إياهم، فإن الله يقول: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾ ويقول: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾[٢]، وكان يوصي بإقامة الشرع ونشر السنن ومذاكرتها، فعن أيوب قال: كتب إلينا عمر بن عبد العزيز: «مروا أهل الصلاح يتذاكروا السنن في مجالسهم ومساجدهم وأسواقهم»[٣]، وقال لأحد عماله: «أمت كل بدعة، وأحي كل سنة من سنن الإسلام وشريعة من شرائعه، ولا تأخذك في الله لومة لائم».[٤]

وعن مالك بن دينار: قالت رعاة الشاة في ذروة الجبال: إذا قام على الناس خليفة صالح، كفت الذئاب والأسد عن شأننا، إذا صلح الرأس، فليس على الجسد بأس، وقال أحمد بن مروان عن موسى بن أعين- وكان يرعى الغنم لمحمد بن أبي عيينة- قال: كانت الغنم والأُسْدُ والوحش ترعى في خلافة عمر ابن عبد العزيز في موضع واحد، فعرض لشاة منها ذئب، فقلت: إنا لله ما أدري الرجل الصالح إلا هلك، فحسبناه فوجدناه هلك في تلك الليلة[٥].

(١) عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي ص ١١٩.
(٢) أنساب الأشراف، للبلاذري (٨/ ١٦٤).
(٣) السابق (٨/ ١٦٠).
(٤) نفسه (٨/ ١٥٦).
(٥) عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي، ص ٨٧.

وقال مقاتل بن حيان: صليت وراء عمر بن عبد العزيز فقرأ: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾ [الصافات: ٢٤]، فجعل يكررها وما يستطيع تجاوزها. وقالت امرأته فاطمة: ما رأيت أحدًا أكثر صلاة وصيامًا منه، ولا أحدًا أشد خوفًا من ربه منه، كان يُصلي العشاء ثم يجلس يبكي حتى تغلبه عينه، ثم ينتبه فلا يزال يبكي حتى تغلبه عينه، ولقد كان يكون في الفراش معي فيذكر الشيء من أمر الآخرة فينتفض كما ينتفض العصفور في الماء، ويجلس يبكي.

وقال ابن كثير أيضًا: ذكرنا أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يُجدد لها دينها**»، فقال جماعة منهم أحمد: إن عمر بن عبد العزيز كان على رأس المائة[(١)].

وقد كان يكتب للولاة يُذكرهم ويعظهم، فكان مما قال لأحدهم: أُذكّرك طول سهر أهل النار في النار مع خلود الأبد، وإياك أن يُنْصرف بك من عند الله فيكون آخر العهد بك وانقطاع الرجاء منك، فَخَلَع هذا العامل نفسه، وقدم على عمر، فقال له: مالك؟ فقال: خلعتَ قلبي بكتابك يا أمير المؤمنين[(٢)].

قال عنه الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كان حسن الخَلْق والخُلق، كامل العقل، حسن السمت، جيد السياسة، حريصًا على العدل بكل ممكن، وافر العلم، فقيه النفس، ظاهر الذكاء والفهم، أوَّاهًا منيبًا، قانتًا لله، حنيفًا زاهدًا مع الخلافة، ناطقًا بالحق مع قلة المُعين وكثرة الأمراء الظلمة الذين ملُّوه وكرهوا محاققته لهم ونقصه أعطياتهم، وأخذه كثيرًا مما في أيديهم مما أخذوه بغير حق، فما زالوا به حتى سقوه السُم، فحصلت له الشهادة والسعادة، وعُد عند أهل العلم

---

(١) البداية والنهاية (٩/ ٣٤٦) ومابعدها.

(٢) عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي، ص ١١٩.

من الخلفاء الراشدين والعلماء العاملين[١]، وكان قبل أن يلي الخلافة نائبًا للوليد بن عبد الملك على مدينة النبي ﷺ، وكان قد ساسهم سياسة صالحة، فقدم الحَجَّاجُ من العراق وقد سامهم سوء العذاب، فسأل أهلَ المدينة عن عمر: كيف هيبته فيكم؟ قالوا: ما نستطيع أن ننظر إليه. قال: كيف محبتكم له؟ قالوا: هو أحب إلينا من أهلنا. قال: كيف أدبه فيكم؟ قال: ما بين الثلاثة الأسواط إلى العشرة، قال: هذه هيبته، وهذه محبته، وهذا أدبه، هذا أمر من السماء[٢].

وقيل له عند وفاته: ماذا تركت لأولادك؟ قال: تقوى الله، فإن كانوا صالحين فالله يتولى الصالحين، وإن كانوا غير ذلك، فلن أترك لهم مايعينهم على معصية الله. قال الراوي: فوجدنا بعض أولاده يُحمل له ثمانون فرسًا في سبيل الله، وكان من بعض أولاد سليمان بن عبد الملك على كثرة ما خَلَّف لهم يتعاطى ويسأل من أولاد عمر[٣].

الولايات

كانت الولايات هادئة كما كانت، لم يحدث فيها شيء يُذكر إلا ما كان من عزل الولاة الذين كان يراهم عمر بن عبد العزيز ظالمين.

الخوارج

لم يُحرك الخوارج ساكنًا أيام الوليد وسليمان، فلما كان زمان عمر خرجوا في أرض العراق، فلقيهم مسلمة بن عبد الحميد في جيش الشام فهزمهم.

---

(١) السير (٥/ ١٢٠).

(٢) السياسة الشرعية، لابن تيمية ص ٧٩، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد.

(٣) تاريخ الإسلام، للذهبي (٣/ ١٢٩).

الفتوحات

عندما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة أمر الجيش المُحاصِر للقسطنطينية بقيادة مسلمة بن عبد الملك بالعودة خوفًا على الجند من الهلاك، وأرسل إليهم طعامًا كثيرًا وخيولًا كثيرةً، ففرح الناس بذلك(١).

وأغار الترك على المسلمين بأذربيجان فقتلوا منهم جماعة، فسيَّر إليهم عمرُ بن عبد العزيز حاتم بن النعمان الباهلي فقتلهم، وقَدِم على عمر بخمسين أسيرًا منهم(٢).

وغزا السمح بن مالك الخولاني فرنسا.

أما السند (الهند وباكستان) فقد غزا عمرو بن مسلم الباهلي بعضها فظفر، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى ملوكها يدعوهم إلى الإسلام والطاعة على أن يملكهم، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، وقد كانت بلغتهم سيرته، ومذهبه، فأسلم بعضهم وتسموا بأسماء العرب(٣).

ولم تطل مدة خلافة عمر إذ تُوفي ولم يتجاوز الأربعين من عمره، ولربما لو طالت لكثرت الفتوحات ولانتشر الإسلام على نطاق أوسع.

وفاته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ورحمه

لما حضرته الوفاة قال: إلهي أنا الذي أمرتني فقصرت، ونهيتني فعصيت، ولكن لا إله إلا أنت.

---

(١) البداية والنهاية (٩/ ٣٣٢).

(٢) الكامل، لابن الأثير (١/ ٩١٦).

(٣) فتوح البلدان، للبلاذري، ص ٢٤٦.

وأَخْـرَجَ من كان عنده، فجلس على الباب مسـلمة بـن عبد الملك وزوجه فاطمة، فسـمعوه يقول: مرحبًا بهذه الوجوه التي ليست بوجوه إنس ولا جان، ثم قـرأ: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣]، ثم هدأ الصوت فدخلوا فوجدوه قد غُمِضَّ وقُبض[1]، وكانت وفاته في دير سمعان من أعمال دمشق يوم الخميس ٢٥ من رجب سنة ١٠١هـ، فكانت خلافته بذلك سنتين وخمسة أشهر.

الفـوائد والـدروس والعبـر

١- لابد من تهيئة البيئة المناسـبة والاهتمام بالتربية الصالحة لإخراج جيل من القادة يعيدون مجد الأمة من جديد، فلا يمكن أن نغفل تأثير البيئة المحيطة في شـخصية عمـر بن عبد العزيـز وعلى رأسـهم والده عبد العزيـز ابن مروان ومؤدبه صالح بن كيسان.

٢- عندمـا يتحقق الصلاح في جميع أفراد المجتمع، فإنه حتمًا سَـيخرُج من بينهم صالح يحكمهم وهو مالا يتحقق إلا بنشر العلم، ومبادئ الإسلام وأحكامه بين قطاعات الأمة، وتصحيح مفاهيم الناس ومعتقداتهم، الذي من شـأنه إيجاد الفرد المؤمن والأسرة المؤمنة التي حتمًا ستُوجد المجتمع المؤمن[2].

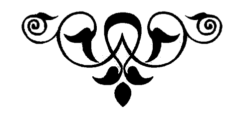
٣- أهـم ما تميز به الحكام الأوائل رقة قلوبهم، وصفاء نفوسـهم؛ فانظر إلى عمـر بن عبد العزيز كيف أنه في أول خطبة لـه مع الرعية يذكرهم الموت والدار الآخرة، فهذه قمة التزكية التي ما ينبغي أن تغيب عن جيل الصحوة لحظة واحدة.

---

(١) تاريخ الإسلام، للذهبي (٣/ ١٣٠).

(٢) الموقع الإلكتروني: أنا السـلفي، على الشـبكة العنكبوتية الدولية (الإنترنت)، من مقال بعنوان: هل السلفيون عقبة في طريق الإصلاح؟

٤ - تواضع عمر بن عبد العزيز ومعرفته قدر نفسه، قال رجاء بن حيوة: ألا تقومـون إلى أميـر المؤمنين فتبايعونه!! فنهضوا إليه، ومـد يده إليهم، فلما مد هشـام بن عبـد الملك يده إليه، قال: إنا لله وإنا إليـه راجعون. فقال عمر: نعم، إنا لله حين صار يلي هذه الأمة أنا وأنت، ثم قام فحمد الله وأثنى عليه، وخطب في الناس(١).



(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٢٦).

بدء الدعوة العباسية

قال ابن كثير: وفي هذه السنة - سنة ١٠٠ هـ - كان بدء دعوة بني العباس، والمعروف أن كثيرًا من الناس يرغبون في السلطة ويعملون لها، فتقع بسبب هذه الرغبة العداوات، وتثور الخلافات، وأحيانًا يقع الاقتتال وتُستباح الأعراض والحُرمات[١].

وقد استغل عدد من هذه الشخصيات الراغبة في السلطة محبة الناس لآل البيت فدعوا إلى شخص منهم، ولم يكن لهم هدف سوى نَيْل السلطة، أما الدعوة لأحد آل البيت فإنما هي تكأة شيطانية لنيل الهدف الذي يسعون له.

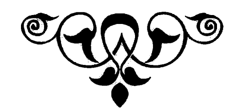
ولقد ادعى المختار الثقفي ذاك الكذاب العمل لمصلحة محمد بن الحنفية، ويزعم أنه المهدي.

وبعد وفاة ابن الحنفية في الطائف سنة ٨١ هـ ادعى بعضهم أن الإمامة انتقلت منه إلى ابنه عبد الملك المعروف باسم (أبو هاشم) الذي كان ينتقد الأمويين، وعندما أحس بدنو أجله تنازل لابن عمه محمد بن علي بن عبد الله بن عباس -وكان يُقيم بالحميمية من أرض الأردن- عن حقوق المطالبة بالخلافة ولُقب بـ "الإمام"، فسهَّل ذلك عليه وعلى أولاده دعوة الناس سرًّا إلى بيعتهم، فعظم شأنهم وشأن شيعتهم بخراسان[٢]، فبدأ يعمل ويخطط بجد منذ سنة ١٠٠ هـ، فوجه أحد أتباعه إلى العراق، ووجه أبا محمد الصادق إلى خراسان، فاختار اثني عشر نقيبًا وبدأ العمل الفعلي للحصول على الخلافة، وبذا نشأت أولى

(١) البداية والنهاية (٩/ ٣٣٧).

(٢) تاريخ مصر إلى الفتح العثماني عمر الإسكندري، ص ١٨٣ مكتبة مدبولي - القاهرة.

لبنـات دولة بني العباس[1]، وكان مبادئ أمر قد كتب الله إتمامه، وأول رأي قد أحكم الله إبرامه؛ وذلك أن دولة بني أمية قد بان عليها مخايل الوهن والضعف ولاسيما بعد موت عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2].



(١) التاريخ الإسلامي، لمحمود شاكر (٤/ ٢٢٨)، بتصرف واختصار.

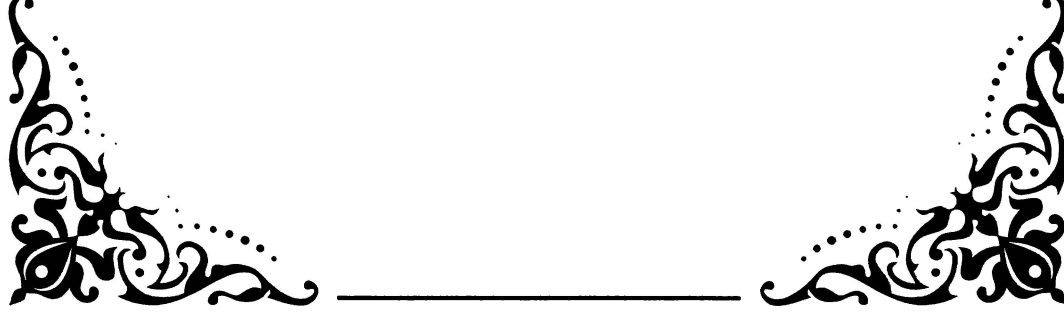
(٢) البداية والنهاية (٩/ ٣٣٧).

(٥)

يزيد بن عبد الملك

من:	إلى:
١٠١هـ	١٠٥ هـ

أربع سنوات



يزيد بن عبد الملك

تولى الخلافة بعد عمر بعهد من أخيه سليمان بن عبد الملك، وكان شابًّا صغيرًا عمره حينئذ ٢٩ سنة، كان جسيمًا أبيضَ مدور الوجه لم يشب[١].

ومن محاسنه أنه كان يُجالس العلماء قبل الخلافة فعن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر قال: بينما نحن جلوس عند مكحول إذ أقبل يزيد بن عبد الملك، فهممنا أن نوسع له، فقال مكحول: دعوه يجلس حيث انتهى به المجلس، يتعلم التواضع[٢]، فلما تولى عزم على أن يتأسى بعمر، فما تركه قرناء السوء حتى حَسَّنوا له الظلم، وقد اتهمه بعضهم في الدِّين، وليس بصحيح، إنما ذاك ولده الوليد بن يزيد، أما هذا فما كان به بأس[٣].

ثورة يزيد بن المهلب

لما تولى يزيد بن عبد الملك وكان يكره آل المهلب، فسجن عاملُه على البصرة عدي بن أرطأة أولادَ المهلب، وهم المفضل وحبيب وعبد الملك ومروان.

وكان عدي قد أرسل يزيد بن المهلب إلى عمر بن عبد العزيز فسجنه، فلما توفي عمر، انفلت يزيد من الحبس، وقصد البصرة، ودعا إلى نفسه وتسمى بالقحطاني، ونصب رايات سوداء[٤]، فلما ظهر عليها بسط العدل في أهلها وبذل الأموال، وحبس عاملَها عدي بن أرطأة، واستقر أمر يزيد بن المهلب بالبصرة، وبعث نوابه في النواحي والجهات.

---

(١) تاريخ الإسلام، للذهبي (٣/ ١٨٠).

(٢) السابق (٣/ ١٨٠).

(٣) البداية والنهاية (١٠/ ٥).

(٤) تاريخ الإسلام، للذهبي (٣/ ٩٨).

وكان الحسن البصري يُحذر من هذا الخروج، ويعظ الناس بعدم الدخول في الفتنة كما حدث أيام الحجاج مع ابن الأشعث وراح ضحيتها وقتئذ عشرات الآلاف من العلماء والعُباد.

ولكن أهل العراق كما هي عادتهم يُحبون الفتن وإشاعتها، فهذا في طبائعهم.

فأرسلت دولة الخلافة جيشًا قوامه ١٢٠ ألفًا بقيادة مسلمة بن عبد الملك ابن مروان، فهزموا يزيد بن المهلب بعدما انفض مِن حوله أهلُ العراق، وحُملت رأسه إلى يزيد بن عبد الملك بالشام، وقد كان يزيد بن المهلب من الشجعان المشهورين، وله فتوحات كثيرة، وكان جوادًا ممدَّحًا له أخبار في الكرم والشجاعة، وآخر أمره أن قُتل[1].

الفوائد والدروس والعبر

١ - اندلعت هذه الثورة بصورة مفاجئة بعد عهد عمر بن عبد العزيز مباشرة، لعدة أسباب منها: العداء الشخصي بين يزيد بن عبد الملك ويزيد بن المهلب، وخشية أهل العراق من عودة سياسة الحجاج حيث إن يزيد بن عبد الملك كان متعصبًا لآل الحجاج وكان متزوجًا من بنت أخت الحجاج، وكذلك فإن طبيعة أهل البصرة أنهم حين يرون أنفسهم أكبر قوة من العامل يثورون عليه ولاتردعهم إلا القوة القاهرة، لذلك باركوا ثورة يزيد الذي شق طريقه نحو دار عدي بن أرطأة بمساعدة أتباعه من أزد عمان ومواليهم، ولم يكن لعدي جيش كبير من الشاميين[2].

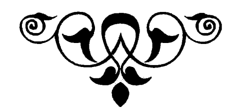
---

(١) البداية والنهاية (٩/ ٣٦١).

(٢) الدولة الأموية، د/ يوسف العش، ص ٢٧٨.

٢ – **قال الحافظ الذهبي في ترجمة يزيد بن المهلب:** كان شريفًا جوادًا بطلًا شجاعًا، من جلة أمراء زمانه، ولكنه تحرك بحركة ناقصة أفضت إلى استئصال شأفة أهل بيته[١].

٣ – انتهت بذلك أسرة عظيمة من أسر العرب التي كان لها شأن عظيم في حرب الخوارج وفي حروب خراسان والخزر والترك، وكان آل المهلب معقل اليمنيين، لذلك رأينا العنصر اليمني يؤيدهم ويناصرهم، وكان القضاء على هذه الأسرة سببًا في إشعال نار العصبية لدى ذلك العنصر وحقده على دولة بني أمية[٢]، مما ساعد في إضعاف قوة الدولة.



(١) تاريخ الإسلام، للذهبي (٣/ ١٨٤).

(٢) الأيام الأخيرة للدولة الأموية، عمر أبو النصر ص ١٢٤.

الفتوحات في عهد يزيد بن عبد الملك

١- أرسل خاقان ملك الترك جيشًا إلى الصُّغْد لقتال المسلمين، وذلك سنة ١٠٢هـ، فحاصر قصر الباهلي وفيه خلق من المسلمين، فصالحهم نائب سمرقند عثمان بن عبد الله بن مطرف على أربعين ألفًا، ثم انتدب الناس، فجاءه المسيِّب بن بشر في أربعة آلاف، فالتقى بالترك المحاصرين للقصر، وحدثت مقتلة رهيبة صبر فيها المسلمون حتى فتح الله عليهم، وفر المشركون لا يلوون على شيء، وقد كان شعار المسلمين «يا محمد»، ودخل المسلمون القصر فأخرجوا المسلمين المحاصَرين، وحازوا ما في معسكر الترك من الأموال والأشياء النفيسة، وانصرفوا راجعين سالمين بمن معهم من المسلمين المنصورين، ثم غزا سعيد بن عبد العزيز المُلقب بـ «خذينة» أميرُ خراسان بلاد الصُّغْد؛ لأنهم أعانوا الترك على المسلمين، فقاتلهم قتالًا شديدًا حتى نصره الله عليهم وأخذ أموالًا جزيلة(١).

٢- غزا عمر بن هبيرة الروم من ناحية أرمينية، فهزمهم وأسر منهم خلقًا كثيرًا قيل: سبعمائة أسير، وذلك سنة ١٠٢هـ(٢).

٣- ودخل جيش من المسلمين بلاد الخَزَر من أرمينية وعليهم ثبيت النهراني، فاجتمعت الخزر وأعانهم الترك وأوقعوا بالمسلمين مقتلة عظيمة، فاستعمل يزيد بن عبد الملك الجَرَّاح بن عبد الله الحكمي على أرمينية وأمده بجيش كثيف وأمره بغزو الخَزَر، فدخل مدينة باب الأبواب، وحصن الحصين فأمن أهله على مال يحملونه إليه ونقلهم عن الحصن، ثم سار إلى حصن

(١) البداية والنهاية (٩/ ٣٦٥)، بتصرف.

(٢) الكامل لابن الأثير (١/ ٩٣٩).

بلنجر ففتحه عنوة، ونزل على حصن الوبندرة وبه نحو أربعين ألفًا من الترك فصالحهم الجراح على مال يؤدونه، فكان الجَرَّاح بذلك أعظم الولاة أثرًا وفتحًا في هذه البلاد القاصية[١].

٤- غزا العباس بن الوليد بن عبد الملك الروم، فافتتح دلسة، وذلك سنة ١٠٣هـ[٢].

٥- في سنة ١٠٣هـ حدث أمر عجيب وهو تولية سعيد بن عمرو الحرشي على خراسان خلفًا لخذينة، فلما علمت الصُّغد بذلك خافوا على أنفسهم من الحرشي؛ لأنهم قد كانوا أعانوا الترك أيام خذينة، فأجمعوا على الخروج من بلادهم، فقال لهم ملكهم: لاتفعلوا أقيموا واحملوا إليه خراج ما مضى، واضمنوا له خراج ما تستقبلون، واضمنوا له عمارة أرضكم، والغزو معه، إن أراد ذلك، واعتذروا عما كان منكم، وأعطوه رهائن يكونون في يديه. قالوا: نخاف ألا يرضى، ولا يقبل منا، ولكنا نأتي (خُجنْدة)، فنستجير ملكها، ونرسل إلى الأمير، فنسأله الصفح عما كان منا، ونوسق له ألا يرى أمرًا يكرهه[٣]. وبالفعل ارتحلوا فزعًا وهلعًا من الحرشي والمسلمين، وافتتح الحرشي عامة حصون الصغر، ونال من العدو نيلًا شافيًا[٤].

٦- سار عنبسة بن سحيم الكلبي أمير الأندلس، فدخل فرنسا واستولى على سبتمانيا، ووصل إلى حوض الرون، واستولى على مدينه ليون[٥].

---

(١) الدولة الأموية، للخضري بك، ص ٥٣٣.

(٢) السابق (١/ ٩٣٩).

(٣) تاريخ الطبري (٤/ ١٠٨).

(٤) فتوح البلدان، للبلاذري، ص ٤٤٠.

(٥) التاريخ الإسلامي (٤/ ٢٣٨)، لمحمود شاكر.

الخوارج في عهد يزيد

لما تولى يزيد بن عبد الملك أرسل جيشًا قوامه ألفا رجل فقابلهم شوذب أمير الخوارج، فهزم الخوارج هذا الجيش، فوجه إليهم جيشًا آخر قوامه ألفان أيضًا فهزمهم الخوارج كذلك.

فأرسل إليهم جيشًا قوامه عشرة آلاف ووجهه إلى شوذب، فهزمهم الخوارج أيضًا عدة مرات، لكنهم حملوا على الخوارج حملة رجل واحد فطحنوهم حيث كانوا قلة وقُتِل شوذب.

وقبل وفاة يزيد بن عبد الملك بسنة وُلد سفاح بني العباس أول خلفائهم وهو أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي[1].

وفاة يزيد بن عبد الملك

تُوفي يزيد في الخامس والعشرين من شهر شعبان سنة ١٠٥هـ، وعمره أربع وثلاثون سنة، وكانت مدة خلافته أربعة أعوام وشهرًا كاملًا، وعهد بالخلافة من بعده إلى أخيه هشام بن عبد الملك ومن بعده لابنه الوليد بن يزيد.

الفوائد والدروس والعبر

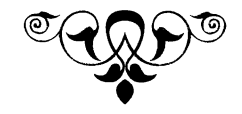
١- الأثر الكبير لقرناء السوء بصفة عامة، وحاشية الملك بصفة خاصة، فلولاهم لسار يزيد بن عبد الملك بسيرة عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولم تتوفر ليزيد بطانة صالحة كما كان رجاء بن حيوة وعمر بن عبد العزيز مع سليمان ابن عبد الملك، وكما كان رجاء ومزاحم وميمون بن مهران والسدِّي وغيرهم مع عمر بن عبد العزيز، فلا أحد ينكر تأثير البطانة والجلساء على الحكام[2].

(١) البداية والنهاية (٩/ ٣٦٠)، وما بعدها.

(٢) العالم الإسلامي في العصر الأموي، د/ عبد الشافي محمد، ص ١٦٦.

٢- ما كان عليه المسلمون الأوائل من عزٍّ واستعلاء بالإيمان حتى هابتهم الممالك الكافرة، فأخلوا لهم البلاد قبل مجيئهم إليها خوفًا وفزعًا، وهُزِموا بالرعب كما أخبر النبي ﷺ.

٣- بدأت علامات الضعف تدب في جسد دولة بني أمية لغياب أبرز مَعْلَم من مَعالِم بقائها وهو الجهاد في سبيل الله.

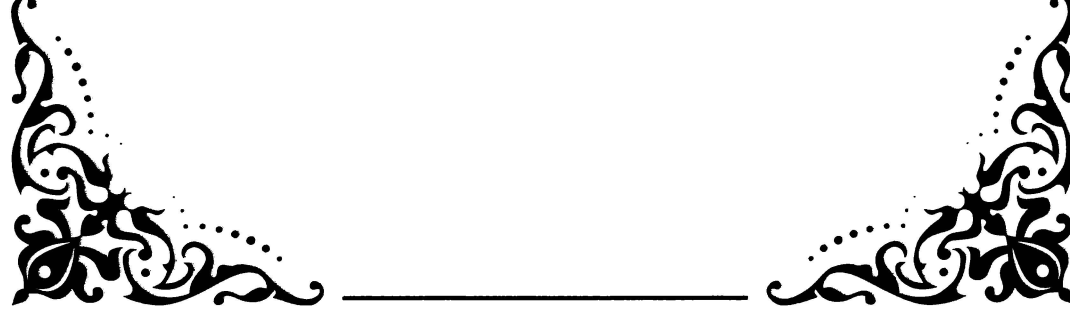


(٦)

هشام بن عبد الملك

من:	إلى:
١٠٥هـ	١٢٥ هـ

عشرون سنة



هشام بن عبد الملك

صفته ومناقبه

ولد هشام بدمشق سنة ٧٢ هـ، تولى الخلافة بعد أخيه لأربع بقين من شعبان سنة ١٠٥هـ، وعمره آنذاك ٣٤عامًا، وكان جميلًا أبيضًا مسمَّنًا أحول، خضب بالسواد[(١)]، وكان فيه حلم وأناة، شتم مرة رجلاً من الأشراف، فقال: أتشتمني وأنت خليفة الله في الأرض؟ فاستحيا وقال له: اقتص مني بمثلها. فقال: إذًا أكون سفيهًا مثلك. قال: فخذ عوضًا منها، قال: لا أفعل، قال: فاتركها لله قال: هي لله ثم لك. فقال هشام عند ذلك: والله لا أعود إلى مثلها[(٢)].

وكان يولي أبناءه أمر الجهاد والغزو في أرض الروم، ولم يكن يُعطي أحدًا من بني مروان عطاءه حتى يغزو.

وُلد له من الأولاد من أمهات الأولاد معاوية الذي تُوفي في حياة أبيه سنة ١١٩هـ، وقاد الصوائف إلى بلاد الروم عشر سنوات، وهو والد عبد الرحمن الداخل الذي أسس الدولة الأموية في الأندلس[(٣)].

وعُدّ هشام أحد السواس الثلاثة من بني أمية، وهم معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعبد الملك وهشام[(٤)] وماكان أحد من الخلفاء أكره إليه الدماء ولا أشد عليه من هشام[(٥)]، وكان معظمًا لأبناء الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فقد حج ذات مرة فدخل على سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وهو مريض، فقال له: يا

---

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٥١).

(٢) الكامل (١/ ١٠٠٨).

(٣) البداية والنهاية (١٠/ ٥٨)، والتاريخ الإسلامي، لمحمود شاكر (٤/ ٢٤٢).

(٤) الأيام الأخيرة للدولة الأموية، عمر أبو النصر، ص ١٢٩.

(٥) تاريخ الخلفاء، للسيوطي ص ٤٠١.

أبـا عمر ألك حاجة؟ قال: اتق الله. قال: أوصني بأهلك. قال: هم في سـعة من فضل الله. فآنسه ودعا له بصلة، وقال: هذا بقية الناس وابن الفاروق وخير أهل زمانكم. فمات فصلى عليه سـنة سـت ومئة، فكان يقول: ما أدري أي الأمرين أنا أشد به سرورًا، إتمامي حجي أم صلاتي على أبي عمر[١].

وكان حريصًـا على رعيتـه، حازمًا في أمور بيت المال، فعن عبد الله بن علي وهو العباسـي قال: جمعت دواوين بني مـروان فلم أر ديوانًا أصح ولا أصلح للعامة والسلطان من ديوان هشام[٢].

وكان يُـؤدب أولاده ويحرص علـى تربيتهم، ففي يوم جمعة لم يحضر أحدُ أولاده الجمعـة، فقـال له: ما منعـك من الصلاة؟ قال: نفقـت دابتي. فقال له: أفعجزت عن المشي؟ فمنعه الدابة سنة[٣].

وكان يُقَرِّب أهل العلم ويُقدرهم، فقد سأل الزهريَّ أن يكتب لأبنائه شيئًا من حديثـه، فأملى على كاتبه أربعمائة حديث، ثم خرج على أهل الحديث فحدثهم بها، وكان الزهري حظيًّا عند هشام وحج معه وجعله مُعلم أولاده[٤]، وكان يقبل إنكاره عليه، فقد أخرج يعقوب بن شيبة بسنده قال: دخل سليمان بن يسار على هشـام بن عبد الملك، فقال له ياسـليمان: الذي تولى كبره من هو؟ قال: عبد الله بـن أبيّ، قـال: كذبت، هـو علي. قال: أميـر المؤمنيـن أعلم بما يقـول. فدخل الزهـري فقال يا ابن شـهاب: من الذي تولى كبره؟ قال: ابـن أبيّ. قال: كذبت، هـو علي، فقال: أنا أكـذب لا أبا لك، والله لو نادى منادٍ من السـماء أن الله أحل الكذب ماكذبت، حدثني عروة وسـعيد وعبيد الله عن عائشـة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن الذي

(١) انساب الأشراف، للبلاذري، (٨/ ٣٨٧).
(٢) السابق (٨/ ٣٩١)
(٣) الكامل (١/ ١٠٠٧).
(٤) البداية والنهاية (١٠/ ٥١) وما بعدها.

تولى كبره عبد الله بن أبي. فقال هشـام: نحن هيجنا الشـيخ[1]، وكان قد أشيع في زمـن بني أمية أن الذي تولى كبره علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فأبـى ذلك أهل العلم الأثبات، وكان الخلفـاء يرجعون إلى أقوالهم، وكان هشـام كذلك شـديدًا على أصحاب البدع؛ فغيلان القدري أظهر القول بالقدر في خلافة عمر بن عبد العزيز، فاستتابه عمـر، فقـال له: لقد كنتُ ضـالًّا فهديتني، فقال عمر: اللهـم إن كان صادقًا وإلا فاصلبه واقطع يديه ورجليه. فلما كان عهد هشام ناظره الأوزاعي فانقطع غيلان ولم يتب، فقال هشـام: ويحك! قد أكثر الناس فيـك فنازعنا بأمرك فإن يك حقًّا اتبعنـاك، وإن يـك باطلًا نزعت عنه، ثـم دعا ميمون بن مهـران ليكلمه، فقال له ميمون: سـل، فإن أقوى ما تكونون إذا سألتم. قال له: أشاء الله أن يُعصى؟ فقال له ميمون: أفعُصي كارهًا؟ فسكت. فقال هشام: أجبه، فلم يجبه.

فقال هشام: لا أقالني الله إن أقلته. وأمر بقطع يديه ورجليه، فنفذت فيه دعوة عمر بن عبد العزيز.

وروى اللالكائي بسنده قال: قرأت في دواوين هشام بن عبد الملك إلى عامله بخراسـان نصر بن سيار، أما بعد: فقد نجم قبلك رجل من الدهرية من الزنادقة يقـال له جهم بن صفوان، فـإن ظفرت به فاقتله، وإلا فادسـس إليه من الرجال غيلـة ليقتلوه[2]. ونقل الحافظ بن حجر عن ابن أبي حاتم: أن سَـلَمَ بن أحواز، عامـل نصر بن سـيار على مرو، لمـا قبض على جهم، قال: يا جهم، إني لسـت أقتلك لأنك قاتلتني، أنت عندي أحقر من ذلك، ولكني سـمعتك تتكلم بكلام باطـل، أعطيت لله عهـدًا أن لا أملـكك إلا قتلتك، فقتله[3]. وقـال البخاري في

(١) فتح الباري (٩/ ٢٥١).

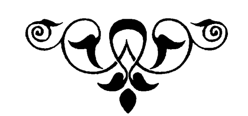
(٢) شرح أصول الاعتقاد (٣/ ٣٨١).

(٣) فتح الباري (١٧/ ٢٨٧).

«كتاب خلق أفعال العباد»: وكان خالد القسري أمير العراق خطب فقال: إني مضح بالجعد بن درهم، لأنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا ولم يكلم موسى تكليمًا، وكان ذلك في خلافة هشام بن عبد الملك[1].

الفوائد والدروس والعبر

- إن فهم شخصية هشام بن عبد الملك يساعدنا في إعطاء صورة عامة عن عصره، فقد كان منظمًا واضح الرأي، حازمًا، ذا سيطرة وقوة، غير أنه لم يكن من الجبابرة، وكان همه الإدارة والمال وضبط الأمور، وفي ذات الوقت لم يكن عبقريًّا فلم يحدث شيئًا جديدًا في الدولة يُنسب إليه، وكان تقيًّا متعبدًا حريصًا على السنة محاربًا للبدعة، لكنه لم يكن كعمر بن عبد العزيز في تعميمها على النواحي والبلدان، وكانت الإدارة عنده تقوم على تدبير المال وحسن إدارته، أما السهر على أفعال الخير فلم يكن يميزه، أما عمر بن عبد العزيز فالإدارة عنده كانت تقوم على العدل والسهر على أحوال الرعية، وكان هَمُّ هشام الفتوح وغلبة الأعداء مهما كلفه ذلك من خسائر في الأرواح، أما عمر فكان يوازن جيدًا بين الأمور، فلا يضحي بسهولة بأرواح جنده، لذلك كان يسحب الجيوش من بعض المناطق حفاظًا على أرواحهم[2].



---

(١) فتح الباري (١٧/ ٢٨٧).

(٢) الدولة الأموية، يوسف العش، ص ٢٨٣.

الفتوحات في عهده

أما الفتوحات في زمان هشام فكانت أضعف منها في زمان الوليد؛ فكانت عبارة عن غزوات يحدث بها تقدم قليل ثم يعود المسلمون إثرها إلى ثغورهم:

١- ففي سنة ١٠٧هـ غزا معاوية بن هشام على رأس صائفة، وكان على جيش الشام ميمون بن مهران فقطع البحر إلى قبرص.

٢- وفي سنة ١٠٨هـ افتتح مسلمة بن عبد الملك قيسارية من بلاد الروم[١].

٣- وفتح إبراهيم بن هشام بن عبد الملك حصنًا من حصون الروم أيضًا[٢].

٤- وفي سنة ١١٢هـ استعمل هشام الجنيد بن عبد الرحمن على خراسان، فحارب الترك وهزمهم، وظفر بابن أخي خاقان ملك الترك، فبعث به إلى الخليفة هشام[٣]، ولم يزل يقاتل الترك حتى دوخهم، وأمده هشام بعمرو بن مسلم في عشرة آلاف من أهل البصرة، وبعبد الرحمن بن نعيم في عشرة آلاف من أهل الكوفة، وحمل إليه ثلاثين ألف قناة، وثلاثين ألف ترس[٤].

٥- وفي البحر غزا أمير إفريقية جزيرة صقلية سنة ١٢١هـ، وكذا تم غزو جزيرة سردينيا سنة ١١٧هـ.

٦- وفي الأندلس استُشهد عتبة بن سحيم الكلبي أثناء عودته بعد تقدمه في فرنسا، فأضعف ذلك معنويات المسلمين، فانسحبوا إلى ناربونة قاعدتهم في جنوب فرنسا.

---

(١) البداية والنهاية (١٠/ ٨).

(٢) السابق (١٠/ ٨).

(٣) تاريخ ابن خلدون (١/ ٧٥٥).

(٤) فتوح البلدان، للبلاذري، ص ٤٣٥.

٧- وتولى أمر الأندلس عبد الرحمن الغافقي، فخرج في ثمانية آلاف مُقاتل، واستولى على إكيتانيا وضم وادي الرون ثانية، واستعان دوق إكيتانيا بالفرنجة، ودارت معركة **بلاط الشهداء** سنة ١١٤ هـ، وانهزم فيها جيش المسلمين وأصيب عبد الرحمن، وحدث اضطراب في صفوف المسلمين، فانسحبوا ليلًا ولم يبق معهم في فرنسا إلا مقاطعة سبتمانيا، ولم يحتفظوا بغير إسبانيا التي كانت حالتها أيضًا مضطربة[١].

٨- وفي أرمينيا كثر فيها الغزو وسار الترك إلى أذربيجان، فلقيهم الحارث ابن عمرو سنة ١١٢هـ فردهم مهزومين، وعَيَّنَ هشام مروان بن محمد سنة ١١٤هـ على ولايتي أرمينية وأذربيجان، وأمده بمائة وعشرين ألفًا، ودخل مروان بلاد الخزر وتغلغل فيها حتى بلغ آخرها، وقد فر أمامه ملك الخزر ذليلًا، وفتح الحصون والقلاع وقهر العدو ودان له الملك، ولما رأى أهل تلك البلاد قوة المسلمين رغبوا في مصالحتهم، فصالحهم مروان على ألف رأس، وخمسمائة غلام وخمسمائة جارية ومائة ألف مُدْيٍ تحمل إلى الباب[٢].

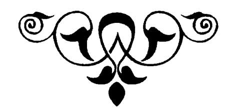
٩- وفي بلاد ما وراء النهر أيضًا ظلت الغزوات مُستمرة فيها.

١٠- أما على النطاق الداخلي فلم يكن هناك سوى واقعة خروج زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على هشام بن عبد الملك، وذلك أن ناسًا من أهل الكوفة، قالوا له: نحن نأخذ لك الكوفة، فجاءهم، وخرجوا معه[٣]، وكتب هشام إلى نائبه على الكوفة يوسف بن عمر أن يلح في طلب زيد، ويعطيه الأمان، فإن لم يقبل فليقاتله، فجرت مقتتلة عظيمة قُتل فيها زيد بن علي، سنة ١٢٢هـ[٤]، فاستشهد، فكانت سببًا لرفع درجته، وقد حزن

(١) الأيام الأخيرة للدولة الأموية، عمر أبو النصر، ص ١٥٨.
(٢) الكامل (١/ ٩٧٣).
(٣) تاريخ الإسلام، للذهبي (٣/ ٤١٥).
(٤) البداية والنهاية (١٣/ ١٠٦).

لمقتله هشام بن عبد الملك حُزنًا شديدًا وقال: وددت أني كنت افتديته، وتفرق عن زيد من خرج معه[١] وكذلك وقعت أشهر معركة التي قال عنها الليث بن سعد ما غزوة أحب إلي أن أشهدها بعد غزوة بدر من غزوة **"القرن بالأصنام"**، وهي القرية التي دارت فيها رحى الحرب بين حنظلة بن صفوان والخوارج سنة ١٢٤هـ بالقيروان، وخرج معه العلماء والقراء والوعاظ، وأكثروا الدعاء وضج النساء والأطفال بالبكاء، والتقى الجيشان، فحملوا على الخوارج فهزموهم وقتلوا منهم خلقًا لا يُحصى[٢]، قال الذهبي: وهؤلاء يستبيحون سبي نساء المسلمين وذرياتهم ودماءهم ويكفرون أهل القبلة[٣].

قال ابن الأثير: قيل لم يقتل بالمغرب أكثر من هذه القتلة، فإن حنظلة أمر بإحصاء القتلى، فعجز الناس عن ذلك، حتى عدوهم بالقصب، فكانت عدة القتلى مائة ألف وثمانين ألفًا، وكتب حنظلة إلى هشام بن عبد الملك بالفتح[٤]، لكن هذه الحركات أسفرت عن اضطراب في أحوال إفريقيا وضعضعة سلطة الدولة هناك، وحفر بعض الشروخ في جسم الدولة الأموية في قسمها الإفريقي والتي سهلت استقلال أجزاء من الشمال الإفريقي فيما بعد[٥].



(١) طبقات ابن سعد (٧/ ٣١٩).

(٢) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، لأحمد بن خالد الناصري السلاوي (١/ ٩٦) ط دار الكتب العلمية.

(٣) تاريخ الإسلام، للذهبي (٣/ ٣٥٧).

(٤) الكامل (١/ ٩٨٠).

(٥) هشام بن عبد الملك والدولة الأموية، د/ علي عبد الرحمن العمرو، ص ١٥٦.

الدعوة العباسية في عهد هشام

توسعت دعوة بني العباس في عهد هشام بن عبد الملك رغم قتله لأبرز دعاتها في ذلك الوقت، مثل: أبي عكرمة، وأبي محمد الصادق.

ومات محمد بن علي بن عبد الله سنة ١٢٤هـ، وقام بعده بشأن الدعوة ابنه إبراهيم بن محمد بن علي.

وفي هذا الوقت ظهر أبو مسلم الخراساني الذي اشتراه بُكَيْر بن ماهان الداعية العباسي، وأرسله إلى إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، فكان من دعاة بني العباس[1]، وفي ذات الوقت ظهر زيد بن علي بن الحسين ابن علي، ودعاه أهل العراق للخروج على بني أمية، فخرج فعلًا ١٢١هـ، ونصحه محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب بعدم الخروج وذَكَّره بفعل أهل العراق مع علي والحسن والحسين، إلا أنه خرج بأربعة عشر ألفًا، إلا أنهم خذلوه، وبدأوا يسألونه عن رأيه في العمرين فذكرهما بخير، فرفضوه وانفضوا من حوله فسُموا "الرافضة"، وبقي معه عدة مئات فقاتل بهم قتالًا لا مثيل له، وفي الصباح لم تقم لجماعة زيد قائمة فسَهُل قتلُه وذلك سنة ١٢٢هـ، وإلى زيد هذا تُنسب الفرقة الزيدية الموجودة في اليمن، وتُعد أقرب فرق الشيعة لأهل السنة[2].

وفاته

طالت مدة خلافة هشام بن عبد الملك، وبرغم ما شهدته البلاد من اضطرابات إلا أن راية الجهاد مع ضعفها لم تنقطع، وبموت هشام انقطعت الفتوحات تمامًا ولم يعد للجهاد ذكر في دولة بني أمية، وبذلك ضاع مصدر

---

(١) التاريخ الإسلامي، لمحمود شاكر (٤/ ٢٥٧).

(٢) الكامل لابن الأثير (١/ ٩٩٤). بتصرف.

العز والفخر والشرف، وبدأ الإسلام في التراجع منذ ذلك الحين، وبدأ الضعف والخلاف يدب في جسد الدولة.

تُوفي هشام بالرصافة بقرب الرقة في ربيع الآخر لست خلون، منه سنة خمس وعشرين ومائة(١).

وبموت هشام مات مُلْكُ بني أمية عمليًّا وإن تأخرت دولتهم بعده عدة سنين كما سيأتي.

الفوائد والدروس والعبر

١- ما كان عليه خلفاء بني أمية من حُسن الخلق، والتواضع في قبول النصيحة، والرفق بالرعية والصبر على أذاهم، والحرص على مصالحهم.

٢- جاء هشام بن عبد الملك ثالثًا من حيث ترتيب الأفضلية، سبقه في الفضل والعدل أخواه الوليد وسليمان، وفاق هو أخاه يزيد.

٣- اهتمام الخلفاء بتربية أبنائهم التربية الإسلامية الصحيحة على أيدي المُربين وأهل العلم من السلف.

المعاصرون من السلف لهشام بن عبد الملك:

- **الزهري**: أحد الأعلام من أئمة المسلمين، تابعي جليل، سمع من غير واحد من الصحابة.

قالوا: قرأ القرآن في نحو من ثمانين يومًا، وجالس ابن المسيب ثماني سنين تمس ركبته ركبته(٢)، وفد على عبد الملك بن مروان بدمشق، فأكرمه وقضى

---

(١) أنساب الأشراف، للبلاذري، (٨/ ٣٦٨).

(٢) البداية والنهاية (١٠/ ٥٠).

دَيْنه، وفرض له في بيت المال، ثم كان بعدُ من جلسائه، ثم كان عند أولاده من بعده الوليد وسليمان، وكذلك عند عمر بن عبد العزيز، ثم كان عند يزيد واستقضاه مع سليمان بن حبيب[١]، وحج هشام بن عبد الملك سنة ست ومئة، ومعه الزهري حصره مع ولده يفقههم ويعلمهم ويحج معهم، فلم يفارقهم حتى مات.

وقال عمر بن عبد العزيز: عليكم بابن شهاب فإنه ما بقي أحد أعلم بسنة ماضية منه. وقال: ما استودعت قلبي علمًا فنسيته، وكان ينزل على الأعراب يعلمهم، وقال مالك: إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم، لقد أدركت في هذا المسجد سبعين ممن يقول: قال فلان قال رسول الله ﷺ، ويقدم علينا الزهري وهو شاب، فنزدحم على بابه. وعن ربيعة أن عبد الملك بن مروان قال للزهري: هل جالست عروة؟ قال: لا، فأمره به، قال الزهري: ففجرت به بحرًا، وقال: أما عروة فبئر لا تكدره الدِّلاء، وقال: أُدخلت على عبد الملك بن مروان، فقال: من أنت؟ فانتسبت له، فقال: اجلس، فجلست، فقال: أتقرأ القرآن؟ قلت: نعم. قال: اقرأ من سورة كذا ومن سورة كذا. فقرأت، فقال: اتفرض؟ قلت: نعم، قال: فما تقول في امرأة تركت زوجها وأبويها؟ قلت: لزوجها النصف، ولأمها السدس، ولأبيها ما بقي. قال: أصبت الفرض وأخطأت اللفظ، إنما لزوجها النصف ولأمها ثلث ما بقي وهو السدس من رأس المال، ولأبيها ما بقي، هات حديثك. قلت: حدثني سعيد فذكر قضاء عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في أمهات الأولاد، فقال: وهكذا حدثني سعيد.

وقال مالك: حدث الزهري بمائة حديث ثم التفت إليّ، وقال: كم حفظت

---

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ٤٣٢).

يـا مالـك؟ قلت: أربعيـن حديثًا. قال: فوضـع يده على جبهته، ثـم قال: إنا لله كيف نقص الحفظ، ومات لسـبع عشـرة خلت من رمضان سنة أربع وعشرين ومائة[١].

- **قتادة:** هو ابن دِعامة السدوسي حافظ العصر، قدوة المفسرين والمحدثين، الضرير، الأكمه، وُلد سنة ستين، روى عن أنس بن مالك وعبد الله بن سَرْجِس وسـعيد بـن المسـيب وغيرهـم، وروى عـن أئمة الإسـلام أيوب السـختياني والأوزاعي وشعبة.

قال ابن سيرين: قتادة أحفظ الناس.

عن ابن المسيب: ما أتاني عراقي أحفظ من قتادة. وقال لقتادة: ما كنت أظن أن الله خلـق مثلـك[٢]. وكان أحـد من يُضرب المثل بحفظه، وقال عن نفسـه: مـا قلـت لمحدث قط أعد عليَّ، وما سـمعت أذناي شـيئًا قـط إلا وعاه قلبي. وقـال أحمد: قتادة عالم بالتفسـير وباختلاف العلماء، ثـم وصفه أحمد بالفقه والحفظ. وقال: قلما تجد من يتقدمه، توفي سنة سبع عشرة[٣].

ومن المعاصرين من السلف لهشام أيضًا:

- **وهب بن منبه:** وهو تابعي جليل.
- **عامر الشعبي:** تولى قضاء الكوفة لعمر بن عبد العزيز.
- **أبان بن عثمان بن عفان:** من فقهاء التابعين وعلمائهم.
- **سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

(١) تاريخ الإسلام، للذهبي (٣/ ٤٩٩).

(٢) البداية والنهاية (١٠/ ٥٥).

(٣) تاريخ الإسلام، للذهبي (٣/ ٣٠١).

- **طاووس بن كيسان:** من أكابر أصحاب ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

- **عكرمة مولى ابن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أحد المفسرين والعلماء الربانيين.

- **القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

- **مكحول الشامي:** تابعي جليل، إمام أهل الشام في زمانه، وكان نوبيًّا وقيل: من سبي كابل.

- **عطاء بن أبي رباح:** أحد كبار التابعين الثقات الرفعاء، يقال: أدرك مائتي صحابي.

- **أبو جعفر الباقر:** وهو محمد بن عليّ بن الحسين بن علي بن أبي طالب، تابعي جليل القدر كثير العلم، أحد أعلام هذه الأمة علمًا وعملًا وعبادةً ونسبًا وشرفًا، أحد من تدعي فيه طائفة الشيعة أنه أحد الأئمة الإثنى عشر، ولم يكن الرجل على طريقهم ولا على منوالهم، ولا يدين بما وقع في أذهانهم وأوهامهم، بل كان ممن يُقَدِّم أبا بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وقال: ما أدركت أحدًا من أهل بيتي إلا وهو يتولاهما[1]. قال ابن فضيل عن سالم بن أبي حفصة: سألت أبا جعفر وابنه جعفرًا الصادق، عن أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فقالا لي: يا سالم تولاهما وابرأ من عدوهما، فإنهما كانا إمامي هدى.

هذه حكاية مليحة لأن راوييَهْا سالم وابن فضيل من أعيان الشيعة[2]، وقد روى عن غير واحد من الصحابة، وحدث عن جماعة من كبار التابعين منهم ربيعة، والأعمش، والأوزاعي، والزهري.

---

(١) البداية والنهاية (١٣/ ٥٨) ومابعدها.

(٢) تاريخ الإسلام، للذهبي (٣/ ٣٠٧).

وقال عنه محمد بن سعد: كان ثقة كثير الحديث، وتُوفي سنة ١١٥هـ[1].

- **رجاء بن حيوة**: تابعي جليل، كبير القدر، ثقة فاضل، عادل، وزير صدق لخلفاء بني أمية؛ كان مكحول إذا سُئل يقول: سلوا شيخنا وسيدنا رجاء بن حيوة، تُوفي سنة ١١٢هـ.

- **شهر بن حوشب**: تابعي جليل، كان عالمًا عابدًا ناسكًا، تُوفي سنة ١١٢هـ.

- **زيد بن عليّ بن الحسين بن على بن أبي طالب** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: روى عن أبيه وأخيه أبي جعفر الباقر وعروة، وروى عنه شعبة[2]، تُنسب له الزيدية، وهم جماعة من أهل الكوفة خرجوا معه على هشام بن عبد الملك وبايعوه، ثم اجتمعوا عنده وقالوا له: ما قولك في أبي بكر وعمر؟ فقال: غفر الله لهما، ما سمعت أحدًا من أهل بيتي يتبرأ منهما، وأنا لا أقول فيهما إلا خيرًا. فرفضوه وانصرفوا عنه ونقضوا بيعته، فلهذا سُموا «الرافضة» من يومئذ، ومن تابعه من الناس على قوله سموا «الزيدية»، وغالب أهل الكوفة منهم رافضة، وغالب أهل مكة إلى اليوم على مذهب الزيدية[3]، وفي مذهبهم حق وهو تعديل الشيخين، وباطل وهو اعتقاد تقديم عليّ عليهما، وليس عليّ مُقدمًا عليهما، بل ولا على عثمان على أصح قولي أهل السنة والآثار الصحيحة الثابتة عن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وبدت منه هفوة فاستشهد، فكانت سببًا لرفع درجته وذلك زمن هشام بن عبد الملك سنة ١٢٢هـ..

- **ميمون بن مهران**: الإمام الحُجة عالم الجزيرة، حدث عن أبي هريرة وعائشة وابن عباس وابن عمر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ- وروى عنه الأعمش والأوزاعي،

---

(١) البداية والنهاية (١٣/ ٧٢).

(٢) تاريخ الإسلام، للذهبي (٣/ ٤١٥).

(٣) إلى يوم ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ، وإلا فأهل مكة الآن على عقيدة أهل السنة والجماعة ومنهجهم.

قال أحمد: هو أوثق من عكرمة.

عن سليمان بن موسى قال: هؤلاء الأربعة علماء الناس في زمن هشام ابن عبد الملك: مكحول والحسن والزهري وميمون بن مهران، وكانت وفاته ١١٧هـ[١].

- **نافع مولى ابن عمر** رَحِمَهُ اللَّهُ: الإمام المُفتي الثبت، عالم المدينة، روى عن ابن عمر وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وكثير، وروى عنه الزهري، وأيوب، وحميد الطويل، والأوزاعي، ومالك، والليث، وخلق سواهم[٢]، وأرسله عمر بن عبد العزيز إلى أهل مصر يعلمهم السنن، مات بالمدينة سنة سبع عشرة ومائة في خلافة هشام بن عبد الملك.[٣]

قال مالك: كنت آتي نافعًا وأنا حدث السن، فيقعد ويُحدثني.

وقال: إذا قال نافع شيئًا، فاختم عليه.

وقال البخاري: أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[٤].

فهذه الكوكبة الرائعة من علماء سلفنا الصالح وغيرهم ممن لم نذكر، قد عاشوا في خلافة بني أمية، فملأوا الدنيا علمًا ونورًا وهداية، وقد استطاعوا أن يصبغوا المجتمع آنذاك بصبغة علمية، فكثرت حلقات العلم واتسعت، حتى كان شعارهم: «بالمحبرة إلى المقبرة».

وقد استطاع هؤلاء السلف أن يُؤثروا في كل طبقات المجتمع حتى وصل تأثيرُهم إلى حيث الحكم والمُلْك؛ فكان الأمراء يُولونهم القضاء ويخشون من الوقوع في الأخطاء حتى لا يقعوا تحت طائلة حُكمهم، فهم لا يُفرقون بين الراعي والرعية، فالكل أمام أحكام الشرع سواء.

---

(١) السير (٥/ ٧١).
(٢) طبقات ابن سعد (٧/ ٤٢٣).
(٣) السير (٥/ ٩٥).
(٤) السابق (٥/ ٧١) ومابعدها.

نهضة صناعية كبرى:

شهد عهد هشـام بن عبد الملك نهضة صناعية كبرى في مختلف المجالات، فكانت صناعة النسـيج من أهم الصناعات التي اشـتهرت بها الكوفة، وكانت في بدايتها محدودة وبدائية، ثم تطورت مع مرور الزمن، وقد ارتكز هذا التطور على توفر المواد الخام ولا سيما القطن، مع وجود الأيدي العاملة المدربة.

وكانــت صناعة الخزف أكثـر رواجًا في مدن العراق والشـام أيضًا، وتميزت كل مدينة من مدن العراق والشـام بنوع معين من الصناعات؛ فاشتهرت البصرة بجـودة صناعتهـا التـي تمثلت في إنتـاج الخَـزِّ والديباج فتفوقـت في ذلك على الكوفة والشام.

وتميزت الموصل بصناعة الوشي والمطارف والثياب المصنوعة من القطن والكتـان، وكان أهـل الموصل يخصصون لكل صناعة شـوارع خاصة تسـمى بأسمائها، وعُرف لكل حرفة شعار خاص بها.

وقد ذاعت شـهرة الكوفة بين سائر الأمصار بأنها تجيد عمل الوشي والخز، ولاقت هذه المنسـوجات رواجًا كبيرًا في جميع البلدان الإسـلامية، واشتهرت الكوفة كذلك بصناعة العمائم الكوفية المنسوجة من الخز والمشهورة بجمالها وجودتهـا، وكذلك المناديل الحريرية لتغطية الرأس والتي لاتزال تسـمى حتى اليـوم بـ «الكوفية» وكذلك اشـتهرت بصناعة الثياب أو الحُلـل النجرانية، وقد تطلب صناعة النسيج وجود صناعة الصباغة، فاستعمل العرب الأصباغ النباتية، فاستخرجوا منها سائر الألوان التي تُصْبَغُ بها المنسوجات والحُلل.

وتميزت الحيرة بصناعة البُسـط والسـجاد ذات الأغـراض المتعددة، فمنها البسـط التي تفرش علـى الأرض، والأنماط التي تعلق للزينة، والسـجاد الذي يستعمل في الصلاة عليه.

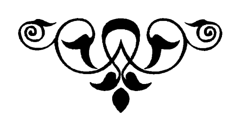
وتميـزت كذلك الكوفـة بصناعة الخيام والتي كانـت تُصنع من الصوف أو الشعر أو الوبر أو القطن، وتختلف أسماء الخيام حسب المادة المصنوعة منها وحسب حجمها. فالخيمة المصنوعة من الصوف تسمى الخباء، والمصنوعة من الشعر تسمى بالفسطاط، والمصنوعة من الوبر تسمى السجاد، والمصنوعة من القطن تسمى السرادق.

أمـا الصناعـات التجارية فقد تميزت بهـا الكوفة كصناعة الأثـاث المنزلي الذي تطور مع مرور الزمان، أما صناعة السـفن فقد تميزت بها البصرة والأبلة، وكانـت الكوفة مركزًا مهمًا لصناعة الأسـلحة بصفتها قاعـدة الدولة الحربية، ومركزًا لتجمع الجيوش وانطلاقها.

وتميزت الكوفة كذلك باسـتخراج الدهون مـن البذور، والزيوت من زيت الزيتون وزيت السمسـم، ودهن اللـوز والخروع، ودهن بذور القطن والكتان، وصار لهذه الزيوت سوقًا خاصة في الكوفة عرف باسم «سوق الزياتين».

وكانت الكوفة والبصرة من أشهر المدن في صناعة العطور، فصنعت ماء الورد ودهن البنفسج الذي استخرج من الأزهار التي زرعت خصيصًا لهذا الغرض.

وكان الأغنياء يصبغون بعض أدواتهم بالذهب والفضة لإظهار التفاخر، وكان لهذه الصناعة سوقٌ خاصٌ بها في الكوفة قرب الجامع، يُسمى «سوق الصاغة»[1].



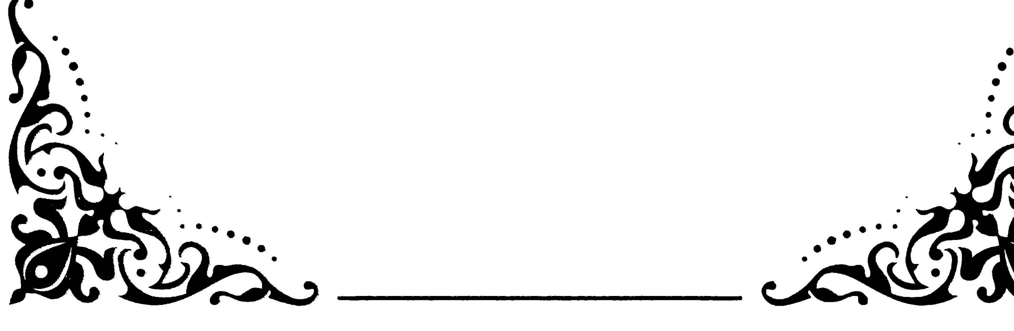
(١) الكامـل (٤/ ٧، ٥/ ١٨) لابـن الأثيـر، «الحياة الاجتماعيـة والاقتصادية في الكوفـة ص١٤٤» ابن الفقيه، «مختصر كتاب البلدان ص ١٦٨»، ياقوت، «معجم البلدان (٤/ ٤٩٢).

(٧)

الوليد بن يزيد

مـن:	إلى:
١٢٥ هـ	١٢٦ هـ

سنة واحدة



الوليد بن يزيد

وُلـد الوليد بن يزيد سـنة ٩٠هـ، وقيل سـنة ٩٢هـ، وأمـه أم الحجاج بنت محمد بن يوسف الثقفي ابنة أخي الحجاج بن يوسف.

عهد إليه بالخلافة أبوه يزيد بن عبد الملك بعد عمه هشام[١].

ظهرت عليه أيام عمه علامات الاستهتار، فعزم هشام على خلعه وتولية ابنه مسلمة بن هشام، ففر الوليد إلى البرية ولم يزل بها حتى مات هشام.

وكان هشام يخشى الفتنة فلم يُقْدِم على خلعه.

بُويع للوليد بعد وفاة عمه، فسار في الناس سيرة حسنة بادئ الأمر، فأمر بإعطاء الزمنى والمجذومين والعميان، لكل إنسان خادمًا، وأخرج من بيت المال الطيب والتحف لعيالات المسلمين، وزاد في أعطيات الناس، ولا سيما أهل الشام والوفود، وكان كريمًا ممدحًا شاعرًا مجيدًا لا يُسأل شيئًا قط فيقول: لا[٢]، لكن أعدائه من بني أمية وغيرهم ألصقوا به شناعات فتغيرت عليه قلوب العامة والخاصة على السواء[٣]، وبايعوا سرًّا ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك، وكان معروفًا بصلاحه، فنادى بخلع الوليد، وأرسل إليه جماعة من أصحابه فقتلوه في قصره[٤]، وكان مقتله في ٢٨ جمادى الآخرة سنة ٢٦ هـ، فكانت مدة خلافته سنة وثلاثة أشهر تقريبًا[٥].

---

(١) السير (٥/ ٣٧٣).

(٢) العالم الإسلامي في العصر الأموي، د/ عبد الشافي محمد، ص ١٧٥.

(٣) الدولة الأموية، للخضري بك، ص ٥٤٧.

(٤) التاريخ الإسلامي، لمحمود شاكر (٤/ ٢٦٠).

(٥) السير (٥/ ٣٧٣).

الفـوائد والـدروس والعبـر

١- من الأسـباب التـي عجلت بمقتل الوليد سياسـته الانتقامية من أقاربه، وذلك أن يزيد بن عبد الملك قدم شـقيقه هشـامًا على ابنه الوليد، فأراد هشـام عزلـه وأخذ البيعة لأحد أبنائه، فأبى الوليد واعتزل، فوقعت الخصومة بينهما، فأكثر هشام من نقده والتشهير به، فأخذ الوليد ينتظر موت عمه لينتقم من أعدائه ممـن أيدوا هشـامًا، فلما آل الأمـر إليه انتقم من أبناء أخيـه وأهله وأنصارهم، فراحوا يمعنون في التشـهير به ونشـر الدعاية ضده، بل وتكفيره، وعلى رأسهم يزيـد بـن الوليد بن عبد الملك، الذي كان يظهر النسـك، فاقـترب الناس منه، وازداد الكره للوليد، وعظمت الوحشة، فوقع ما كان[١]

٢- رمـى كثير مـن المُؤرخين الوليد بـن يزيد بالكفر والزندقـة، وارتكاب الفواحش وشـرب الخمر، ولكن ذلك لم يثبت بالسـند الصحيح، بل المؤكد أن هـذا من وضع وتلفيق أعداء الوليد وخصومه من الأمويين وأعداء بني أمية مـن بني العباس وغيرهم، ويظهر ذلك -كما سـيأتي- مـن خُطَب أبي العباس وأبـي جعفر المنصور وداود بن علي عندما آلت إليهم الأمور، وقد رفض هذه التهـم المؤرخون الكبار، كالإمام الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنه قال: لم يصح عن الوليد كفـر ولا زندقـة[٢]، وكالإمام ابن خلـدون رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنه قال: لقد سـاءت القالة فيـه كثيـرًا، وكثير من الناس نفوا عنـه ذلك، وقالوا: إنها من شـناعات الأعداء ألصقوهـا به[٣]، وقال أيضًا: وقال شـبيب بن شـبة: كنا جلوسًـا عند المهدي، فذكـر الوليد، فقـال: الوليد كان زنديقًا، فقـام ابن عُلاثة الفقيـه، فقال: يا أمير

(١) الأيام الأخيرة للدولة الأموية، عمر أبو النصر، ص ١٧٥.

(٢) تاريخ الاسلام للذهبي (٣/ ٥٥٥).

(٣) تاريخ ابن خلدون (١/ ٧٦٦).

المؤمنيـن: إن الله لأعـدل مـن أن يُولي خلافة النبـوة و أمر الأمـة زنديقًا، لقد أخبرني عنه من كان يشـهده في ملاعبه وشـربه ويراه في طهارته وصلاته، فكان إذا حضـرت الصـلاة يطرح الثياب التي عليـه المُصبغة المصبوغـة، ثم يتوضأ فيحسـن الوضوء ويؤتى بثياب بيض نظيفة فيلبسـها ويشـتغل بربه، أترى هذا مـن فعل من لا يُؤمن بالله؟ فقال المهدي: بـارك الله عليك يا ابن عُلاثة، وإنما كان الرجـل محسـودًا في خلاله ومزاحمًا بكبار عشـيرته من بنـي عمومته، مع لهـو كان يصاحبه أوجد لهم به السـبيل على نفسـه[1]. ورفض هذه التهم أيضًا الإمام ابن الأثير فقد قال: وقد نزه قوم الوليد مما قيل فيه، وأنكروه ونفوه عنه، وقالوا: إنه قيل عنه وأُلصق به وليس بصحيح[2]. وقد ورد ما ينفي عنه مثل هذه الفواحـش، كما جاء عند الطبري: «دخـل الوليد القصر وأغلق الباب، وأحاط عبـد العزيز وأصحابـه بالقصر، فدنا الوليـد من الباب، فقال: أمـا فيكم رجل شـريف له حسـب وحياء أكلمه؟ فقال له يزيد بن عنبسـة السكسـلي: كلمني، قـال له: من أنـت، قال: أنا يزيد بن عنبسـة، قال يا أخا السكاسـك، ألـم أزد في أعطياتكـم؟ ألـم أرفـع المؤن عنكم؟ ألـم أعـط فقراءكم؟ ألـم أخـدم زمناكم؟ فقـال: إنـا ما ننقـم عليك في أنفسـنا، ولكن ننقـم عليك في انتهاك مـا حرم الله وشرب الخمر، ونكاح أمهات أولاد أبيك، واستخفافك بأمر الله، قال: حسبك يا أخا السكاسـك، فلعمري لقد أكثرتَ وأغرقتَ، وإن فيما أحل الله لي لَسَـعَةٌ عما ذكـرتَ، ورجع إلى الدار فجلس وأخذ مصحفًـا، وقال: يوم كيوم عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ونشر المصحف وقرأ[3].

---

(١) تاريخ ابن خلدون (١/ ٧٦٦).

(٢) الكامل لابن الأثير (١/ ١٠١٨)، المكتبة العصرية.

(٣) الطبري (٤/ ٢٦٢).

فحتى نُثبت ارتكاب الوليد لهذه المعاصي لابد من إقامة البينة من الشهود، أو اعتراف المذنب نفسه، وهذا كله لم يتحقق، كما لم يحكم عليه قاضٍ عادل في زمانه، وليس بين أيدينا سوى بعض الروايات التاريخية والتي لاترقى لأن تكون دليلًا وبينة شرعية، لو كنا في زمانها، ولاهي مما يوجب العلم القطعي، فالواجب أن نكل حاله إلى الله تعالى، ونتأدب بما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾، فنحن نرجح أن الوليد بن يزيد مظلوم وقد رُمَيَ بتهم باطلة، لكن القدر الصحيح الباقي من سيرته لا يؤهله لدور عظيم[1].

٣- ما ذُكر في بعض مصادر التاريخ من أن الإمام الزهري كان يُحرِّض هشام بن عبد الملك على خلع الوليد بن يزيد مما لا يثبت بالسند الصحيح، فإنه من رواية الواقدي المتروك[2].

٤- قال الذهبي: ونقل عنه المسعودي (يعني عن الوليد بن يزيد) مصائب، مما لا يُلتفت إليه لكون المسعودي شيعيًا حاقدًا على بني أمية، وكتابه (مروج الذهب) مما لا يُعتمد عليه[3].

٥- وما ذُكر عن الوليد بن يزيد أيضًا عندما فتح القرآن الكريم فوقع على قوله تعالى: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٥]، فأنشد قائلًا:

أتوعد كل جبار عنيد ... فها أنا ذاك جبار عنيد

فإذا ما جئت يوم الحشر ... فقل يارب مزقني الوليد

---

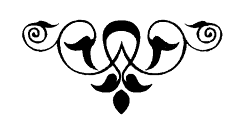
(١) بنو أمية بين السقوط والانتحار، د/ عبد الحليم عويس، ص ٨٤.

(٢) تاريخ الإسلام، للذهبي (٣/ ٣٥٨).

(٣) السير (٥/ ٣٧٣).

مما لا يصح ولا يثبت عنه أيضًا، ففي سنده عمرو بن أبي سعيد وهو مجهول[١]، بل الثابت أنه كان مُعظمًا للقرآن، فعن الوليد بن هشام القحذمي[٢] عن أبيه قال: لما أحاطوا بالوليد نشر المصحف، وقال: أُقتَلُ كما قُتل ابن عمي عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ولا يفعل ذلك أحدٌ مع القرآن الكريم إلا وهو يُعظمه.

٦ - بمقتل الوليد بن يزيد سنة ١٢٦هـ اضطرب أمر بني أمية، وهاجت الفتنة، وبدت في الأفق بوادر نهاية هذه الدولة العظيمة، فإن سنة الله لا تتخلف عن عباده، فعند التماسك والترابط تقوى الدول، وعند الاختلاف والاضطراب تضعف ثم تزول، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ فبالرغم من أن قاتله يزيد بن الوليد أعلن عن رغبته في أن يسير بسيرة عمر بن عبد العزيز، ويأخذ بالشورى، إلا أن الناس لم يجمعوا على بيعته، بل اضطرب الحال، وعظم عليهم مقتل الخليفة السابق فتأخر بعض العمال عن البيعة، وتأخرت بعض الأمصار، وَوُجِد من بني أمية متذمرون معاكسون[٣].



(١) تاريخ الخلافة الأموية، د/ أحمد أبو الأشبال.

(٢) السير (٥/ ٣٧٣).

(٣) الدولة الأموية، د/ يوسف العش ص ٣٠٤.



(٨)

يزيد بن الوليد

من:	إلى:
١٢٦هـ	١٢٦ هـ

ستة أشهر

خلافة يزيد بن الوليد

كان رجلًا صالحًا، لكنه نقم على ابن عمه الوليد بن يزيد فقتله[١].

وكان يُقال: الأشج والناقص أعدلا بني أمية، والأشج عمر، والناقص هو هذا، وسُمي بالناقص لنقصه الزيادة التي كان زادهم الوليد بن يزيد في أعطياتهم، وهي عشرة عشرة، ورده إياهم إلى ما كانوا عليه في زمن هشام[٢]، ومما يُروى عنه قوله: يا بني أمية إياكم والغناء؛ فإنه يُنقص الحياء ويزيد في الشهوة ويهدم المروءة، وإنه لينوب عن الخمر، ويفعل ما تفعل المُسكر، فإن كنتم لابُد فاعليه فجنبوه النساء فإنه داعية الزنا[٣]. وكان يعُرف بالتنسك والتأله والتواضع، وكان الوليد بن عبد الملك يذكر ولده فيقول: عبد العزيز سيدهم، والعباس أفرسهم، ويزيد ناسكهم. ولقى يزيدُ أيوبَ السختياني في السنة التي حج فيها فكتب عنه، وكان كثير الصلاة طويل الليل[٤]

وبايع يزيد من بعده لأخيه إبراهيم بن الوليد، ولم يلبث أن تُوفي بالطاعون في ٧ من ذي الحجة سنة ١٢٦هـ، فكانت دولته ستة أشهر، فما مُتع ولا بلع ريقه[٥].

---

(١) التاريخ الإسلامي، للشيخ شاكر (٤/ ٢٦٤).

(٢) البداية والنهاية (١٠/ ٧١)، لكن هذا من رواية الواقدي المتروك؛ لذلك لا يُعول عليه كما هي عادتنا في هذا الكتاب ألا نأخذ عن الوضاعين والكذابين والمتروكين والشيعة الرافضين، أما ما نختاره سببًا لهذه التسمية فهو ما قاله علي بن محمد فيما نقله عنه الطبري: سَبّه مروان بن محمد، فقال: الناقص بن الوليد، فسماه الناس الناقص.

(٣) السير (٥/ ٣٧٦).

(٤) أنساب الأشراف، للبلاذري (٩/ ١٨٩).

(٥) السير (٥/ ٣٧٥)، وما بعدها.

ولقد خطب يزيد بن الوليد خطبة مؤثرة بليغة عندما استتب له الأمر بعد مقتل الوليد بن يزيد، فكان مما قال: «أيها الناس، إن لكم عليَّ أن لا أضع حجرًا على حجر، ولا لبنةً على لبنة، ولا أكري نهرًا، ولا أُكثر مالًا، ولا أُعطيه زوجةً ولا ولدًا، ولا أنقل مالًا من بلد إلى بلد حتى أسد ثغر ذلك البلد وخصاصة أهله بما يعينهم، فإن فَضَلَ فَضْل نقلته إلى البلد الذي يليه ممن هو أحوج إليه، ولا أجمِّركم في ثغوركم فأفتنكم وأفتن أهليكم، ولا أغلق بابي دونكم فيأكل قويكم ضعيفكم، وإن لكم عندي أعطياتكم في كل سنة، وأرزاقكم في كل شهر، حتى تستدر المعيشة بين المسلمين، فيكون أقصاهم كأدناهم، فإنْ أنا وفيت لكم بما قلت فعليكم السمع والطاعة وحسن المؤازرة، وإنْ أنا لم أف لكم فلكم أن تخلعوني إلا أن تستتيبوني، فإن تُبت قبلتم مني، أيها الناس إنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، إنما الطاعة طاعة الله فمن أطاع الله، فأطيعوه، فإذا عصى فدعا إلى معصيته، فهو أهل أن يُعصى ويُقتل»[1].

الفوائد والدروس والعبر

١- حدد يزيد بن الوليد معالم سياسته في عدة نقاط، أهمها أنه لن يُنفق أموالًا من بيت المال في بناء القصور وغيرها؛ حفاظًا على هذه الأموال ليُنفقها على المسلمين في سد حاجاتهم.

٢- أعلن أن كل جهة ستنفق دخلها على شؤونها وإذا توفر فائض يمكن استعماله لسد حاجات المناطق المجاورة، ولا شك أن هذه السياسة لو نُفذت على أرض الواقع لسدت الهوة السحيقة بين طبقات المجتمع، فيغدو المجتمع متماسكًا متآلفًا متحابًا لا يحقد الفقير فيه على الغني.

---

(١) أنساب الأشراف، للبلاذري (٩/ ١٩٢).

٣- من أهم ما أعلنه يزيد أنه أبدى الخضوع التام لمحاسبة الرعية له، وأن لهم حقَّ مناقشته فيما اشترطه على نفسه، فإن زاغ أقاموه، وإن طغى زجروه، فإن انتصح وإلا خلعوه، ولا شك أن ذلك موكول لأهل الحل والعقد لا لآحاد المسلمين، هذا الذي جرى عليه عمل الأوائل.

٤- لم يستطع يزيد بن الوليد تنفيذ هذه السياسة على أرض الواقع مما ساعد في انتشار الثورات واضطراب حال البلاد، قال الطبري: واضطربت الأمور في ولايته، وانتشرت الفتن، واختلفت كلمة بني مروان[1].

٥ - إن الأفق العالي والمثل الرفيع الذي قدمه الخلفاء الراشدون للسياسة الإسلامية، كان يعمل تأثيره الجذاب عند بعض الخلفاء والرعية على حد سواء، ولكنه كان يستعلي على قدراتهم فيجهدون أنفسهم لتحقيقه ثم يعودون إلى جذبة الواقع مقرين بصعوبة المحاولة، فقد سأل معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ابنه يزيد كيف سيعمل بعد الخلافة؟ قال: أعمل فيهم عمل عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكذلك قال عبد الملك: «انصفونا يا معشر الرعية، أتريدون منا سيرة أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ولاتسيرون بسيرة رعية أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[2]!» فكان هذا مطلبًا للرعية أيضًا، وتمنى الوليد بن عبد الملك أن يسير بسيرة الخلفاء وكذلك يزيد بن عبد الملك، ثم يزيد بن الوليد، لكن تحقيق هذا الأمر مسئولية مشتركة بين الراعي والرعية، ويقرر شيخ الإسلام ابن تيمية من أن سوء الحكم يرجع إلى نقص في الراعي والرعية جميعًا فإنه «كما تكونون يول عليكم»، وقد قال الله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾«[الأنعام: ١٢٩][3].

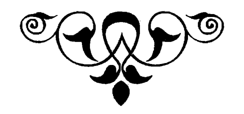
---

(١) تاريخ الطبري (٤/ ٢٧٣).

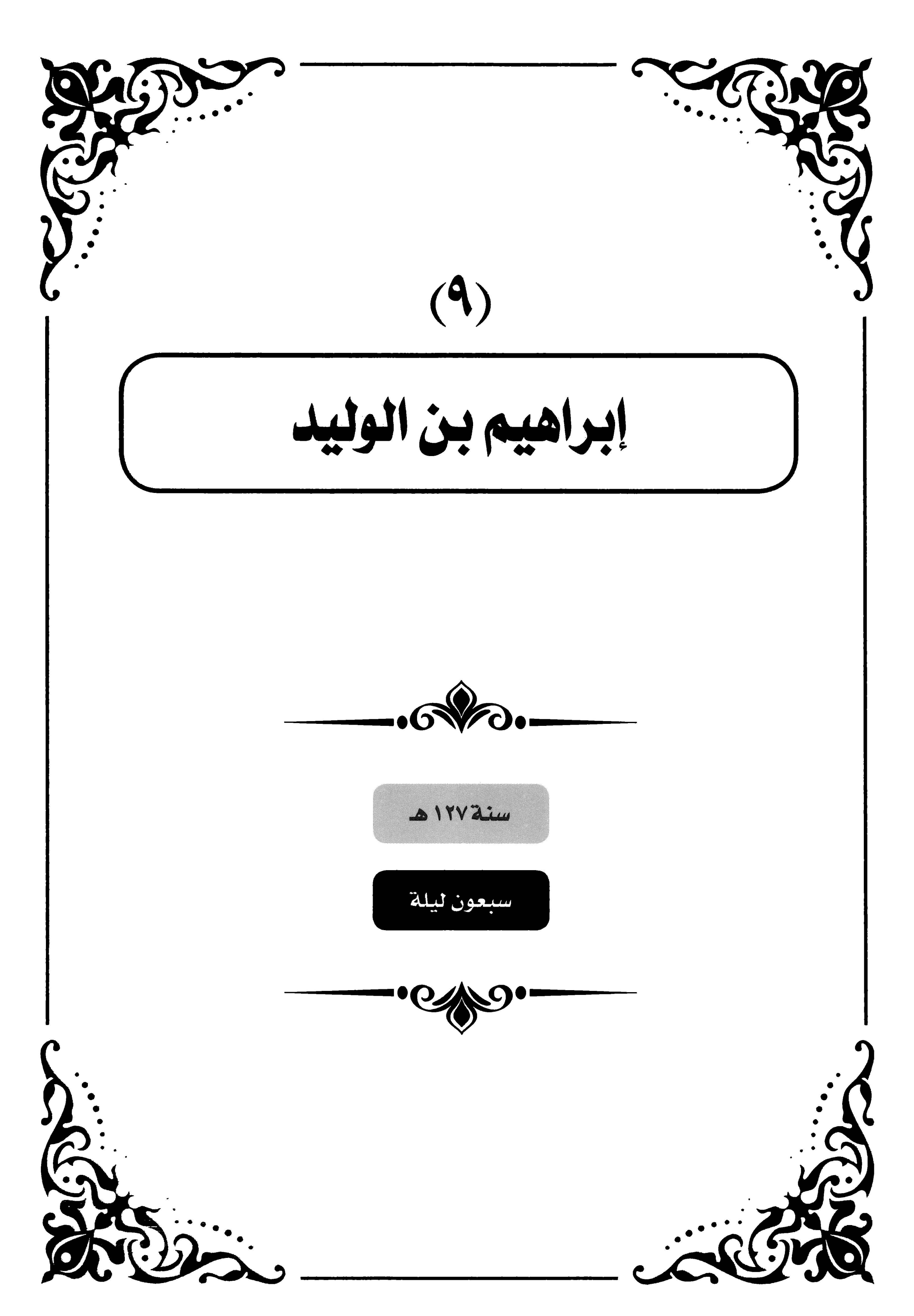
(٢) الدولة الأموية المفترى عليها، د/ حمدي شاهين، ص ٢٧٦.

(٣) الفتاوى (٣٥/ ٢٠).

٦ - لا يعني ذلك أن العودة إلى صفاء الحياة في عصر الراشدين أمر مستحيل، ولكن لا يأتي به الحاكم وحده وإن صلحت نيته، وعظمت عزيمته، بل لابد من تحقيق ذلك القدر من التوافق والانسجام بين الراعي والرعية، وطريق ذلك شاق طويل، يحتاج إلى أجيال من الدعاة والحكام الذين يبذلون جهدهم لتربية الرعية[1] على معاني الإحسان والايمان والإسلام، ويستفرغون في ذلك جهدهم ووقتهم، ويربون جيلًا بعد جيل حتى يأذن الله بإقامة شريعته والحكم بها، والتحاكم إليها.



(١) الدولة الأموية المفترى عليها، د/ حمدي شاهين، ص ٢٧٧.



(٩)

إبراهيم بن الوليد

سنة ١٢٧ هـ

سبعون ليلة

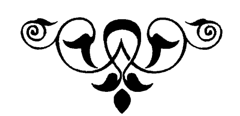
خلافة إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك

كانت ولاية إبراهيم بن الوليد سبعين ليلة ولم يتم له الأمر، وكان يُسَلَّم عليه جمعة بالخلافة، وجمعة بالإماراة، وجمعة لا يسلمون عليه لا بالخلافة ولا بالإمارة[١]، وقال بعض شعرائهم:

نبايع إبراهيم في كل جمعة ... ألا إن أمرًا أنت واليه ضائع[٢]

ودعا لنفسه، وسمَّى الوليد الخليفة المظلوم، وأظهر أنه يطلب بدمه، وقال: إنما قتله القدرية فبايعه، خلق من أهل الجزيرة، ثم أظهروا أمره، وسار بأهل الجزيرة وقِنِّسْرين وحمص يريد إبراهيم بن الوليد[٣]. وازدادت الاضطرابات والفتن في أيامه السبعين، وجهز مروان بن محمد جيشًا، ولما اقترب من دمشق، هرب إبراهيم بن الوليد منها وتركها.

ولما استوثق الشام لمروان بن محمد رجع إلى حرّان، وعند ذلك طلب منه إبراهيم بن الوليد الذي كان خليفة وابنُ عمه سليمان بن هشام الأمان فأمنهما، وقدم عليه سليمان بن هشام بن عبد الملك في أهل تدمر فبايعوه[٤].



(١) الطبري (٤/ ٢٩٩).

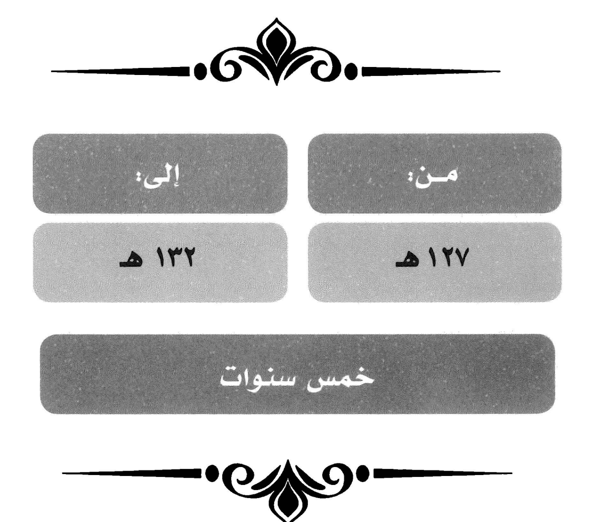
(٢) تاريخ الحلفاء للسيوطي ص ٤١٠.

(٣) أنساب الأشراف (٩/ ١٩٩).

(٤) البداية والنهاية (١٠/ ٨٢).



مروان بن محمد



آخر خلفاء بني أمية مروان بن محمد

وهو حفيد مروان بن الحكم الذي انتقل إليه الحكم الأموي من بني سفيان، كانت أول الأمر في يد أولاد عبد الملك، ثم انتقلت إلى ابن أخيه عبد العزيز، وهي تنتقل الآن مع مروان إلى ابن الأخ الآخر لعبد الملك وهو محمد[١] ويلقب بالجعدي نسبة إلى مؤدبه الجعد بن درهم، وبالحَمَّار، لأنه لم يكن يجف له لبدٌ في محاربة الخارجين عليه[٢].

بُويع بالخلافة بعد دخوله دمشق أواخر سنة ١٢٦هـ، واستمر حتى أواخر سنة ١٣٢هـ حيث زال بزوال دولة بني أمية وقيام دولة بني العباس، فكانت خلافته ما يقرب من ست سنين[٣].

صفته ومناقبه:

كان مروان بن محمد أبيضَ مُشربًا، أزرق العينين، كبير اللحية، ضخم الهامة، ولاّه هشام نيابة أذربيجان وأرمينية والجزيرة في سنة أربع عشر ومائة، ففتح بلادًا كثيرة وحصونًا متعددة في سنين كثيرة، وكان لا يُفارق الغزو، وقد كان شجاعًا، بطلًا مقدامًا، حازم الرأي، لكن من يخذل الله يُخذل[٤]، ومع كمال أدواته لم يُرزق سعادة، بل اضطربت الأمور، وولت دولته[٥].

---

(١) الدولة الأموية، د/ يوسف العش ص ٣٠٤.

(٢) تاريخ الخلفاء، للسيوطي ص ٤١٣.

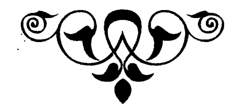
(٣) التاريخ الإسلامي (٤/ ٢٧٢)، بتصرف، لمحمود شاكر.

(٤) البداية والنهاية (١٠/ ١٠٧).

(٥) السير (٦/ ٧٥).

وكان يتميز بالشجاعة والجرأة، فقد غزا أرض الروم سنة ١٠٥هـ، وفتح مدينة قونية، وقام بعدد من الغزوات وهو أمير أرمينيا وأذريبجان.

واشتعلت فتنة الخوارج في عهده، فخرج إليهم الخليفة مروان بنفسه وكان في القلب، فشد الخوارج عليه فأزالوهم عن مواضعهم، وثبتت الميمنة والميسرة، وشدوا على الخوارج فهزموهم.



نهاية الدولة الأموية

خرج الكثيرون على خلافة مروان بن محمد، فأعلن ثابت بن نعيم عامله على فلسطين خلعه، وعصت اليمانية لتقديم القيسية عليها، فهمَّ بنو مصاد بن زهير الكلبي أن يفتكوا بمروان وكان معهم معاوية بن الأعلى السكسكي، فأتى حمص فدعا أهلها إلى خلع مروان فأجابوه، فقاتلهم مروان فأذعنوا له، ولما فرغ بلغه أن أهل غوطة دمشق دعوا إلى ثابت بن نعيم وهزموا جيش مروان(١)، وإنما ثارت الشام على الخليفة مروان لأنه ترك دمشق ومعها الشام الجنوبية، وجعل مقر الخلافة في حران بالجزيرة، ولم يكن يثق إلا بأتباعه ورفاقه في الجزيرة وأرمينية، وبذلك فقدت دمشق ومعها الشام الجنوبية مركزها، فكان طبيعيًّا أن تثور عليه(٢)

وأما الكوفة فبايع الشيعة فيها عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر، والتقوا بنائب الكوفة عبد الله بن عمر بن عبد العزيز الذي هزمهم وأخرجهم من الكوفة، وظهر بخراسان أبو مسلم الخراساني صاحب الدعوة للعباسيين، وتقابل مع جيش نصر بن سيار فهزمه واستولى على أكثر مدن خراسان وظفر بعبد الله بن معاوية فقتله، وأقبلت سعادة الدولة العباسية من كل وجه(٣)، وتخلى الكثيرون من البيت الأموي عن مروان بن محمد، وقويت شوكة العباسيين، ودخل قحطبة بن شبيب الكوفة وتقابل مع ابن هبيرة، وهزمه، ودخل الكوفة سنة اثنتين وثلاثين ومائة، وفي ثالث ربيع الأول بويع أبو العباس السفاح كأول خليفة عباسي بالكوفة(٤).

وسارت بلاد المسلمين مقسمة بين خليفتين أحدهما أموي في دمشق والآخر عباسي في الكوفة.

---

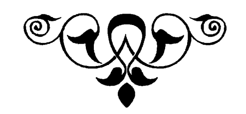
(١) أنساب الأشراف، للبلاذري (٩/ ٢٢٥) ومابعدها.
(٢) الدولة الأموية، د/ يوسف العش ص ٣٠٩.
(٣) تاريخ الإسلام، للذهبي (٣/ ٣٥٩).
(٤) السابق (٣/ ٥٨٣).

سـار مـروان بن محمد في مائة وعشـرين ألفًـا، حتى نزل بقـرب الموصل، فالتقـى هـو وعبد الله بـن علي عم السـفاح في جمادى الآخرة سـنة ١٣٢هـ في معركة «الزاب» أحد فروع دجلة، فانكسر جند مروان بن محمد وفرّ، فاستولى على الجزيرة عبد الله بن علي، ثم طلب الشـام ففر مروان إلى فلسـطين، فلما علـم بسـقوط دمشـق في أيدي العباسـيين فر إلى مصـر، فأدركوه وقتلوه سـنة ١٣٢هــ، وبمقتلـه زالـت دولة بنـي أمية وحكمت دولـة بني العبـاس، وبُويع بالخلافة لعبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، المُلقب بالسفاح(١).

الفوائد والدروس والعبر

وهكذا انتهت الدولة الأموية التي امتد حكمها مسافة مائتي يوم من المشرق إلى المغرب، تُقرأ آي القرآن في سمرقند كما تتلى في قرطبة.

ملكوا من براري جبل الطور إلى قفار ما وراء الهند، ومن وادي كشـمير إلى منحدر جبل طوروس على البحر المتوسـط، وأطراف الأناضول وسائر مملكة الأكاسـرة، وأخـذت الجزيـة من النوبة كمـا أخذت من الهنـد والصين على ما قدرها مسـلم بن قيتبة الباهلي، وانتشـرت حضارة الإسلام في نصف قرن تقريبًا من سواحل البحر الأطلسي إلى بلاد الصين، ومن جبال القوقاز وماوراءها إلى خط الاستواء وما وراءه، ودخلت في حوزة الإسلام أمم كثيرة وسلالات عديدة وأرض لا تغيب عنها الشمس(٢).



(١) السير (٦/ ٧٦). بتصرف.

(٢) الأيام الأخيرة للدولة الأموية، عمر أبو الخير، ص ٢١٣.

الدولة الأموية ما لها وما عليها

لابُـد وأن نُنَبـه أولًا على أن هـذه الحُقبة والتي اسـتمرت قريبًا من قرن من الزمان امتلأت بالفتوحـات والانتصارات حتى امتدت رقعة دولة الخلافة من المحيـط الأطلنطي إلـى الصين وجبال الهند، ومن بلاد السـودان واليمن إلى سهول سيبيريا، وهي أكبر مساحة وصلت إليها الدولة الإسلامية[١].

لذلـك يجب على الباحث المُحقق أن يتناول هذه الحقبة بكثير من الحيطة والحـذر مـع الإنصـاف والعـدل، بعيدًا عـن الغُلـو والتنطع والقـول بلا علم أو دليـل، وممـا يُذكر أنه ليـس من الإنصـاف أن يَنْصَبَّ تركيـز الباحثين على النواحي السلبية والأخطاء التي وقع فيها الخلفاء دون أدني إشارة إلى ما أنجزه هؤلاء وما فعلوه من أجل أُمتهم ودينهم، وما بذلوه من تضحيات عظيمة، ومن المعلوم أن الميزان عند الله تعالى يقوم على الحسـنات والسيئات، فمن زادت حسناته على سيئاته كان من الفائزين الممدوحين، والعكس بالعكس، وما يقال على الأفراد يقال على الدول والأمم، فإذا ما اختل هذا الميزان اختلت الأمور وضـاع العدل والإنصاف وانقلبت الحقائق، **يقول ابن حزم مبينًا أنه لم يكن في تاريخ المسـلمين أفضل مـن الدولة الأموية**: وانقطعت دولـة بني أمية وكانت دولـة عربية، لم يتخذوا قاعدة إنما كان سـكن كل امرئ منهم في داره وضيعته التـي كانت لـه قبل الخلافـة، ولا أكثروا احتجـان الأموال ولا بنـاء القصور، ولا اسـتعملوا مع المسـلمين أن يخاطبوهم بالتمويل ولا التسويد ويكاتبوهم بالعبوديـة والملك، ولا تقبيـل الأرض ولا رجل ولا يـد، وإنما كان غرضهم الطاعـة الصحيحة من التولية والعـزل في أقاصي البلاد، فكانوا يعزلون العمال

(١) تاريخ مصر إلى الفتح العثماني، ص ١٨١، مكتبة المدبولي - القاهرة.

ويولون الأخر، في الأندلس وفي السند وخراسان وأرمينية واليمن فما بين هذه البلاد، وبعثوا إليها الجيوش، وولوا عليها من ارتضوه من العمال، وملكوا أكثر الدنيا، فلم يملك أحد من ملوك الدنيا ما ملكوه في الأرض، إلى أن تغلب عليهم بنو العباس بالمشرق وانقطع به ملكهم، فسار منهم عبد الرحمن بن معاوية بالأندلس وملكها هو وبنوه، وقامت بها دولة بني أمية نحو الثلاثمائة سنة، فلم يك في دول الإسلام أنبل منها، ولا أكثر نصرًا على أهل الشرك، ولا أجمع لخلال الخير، وبهدمها انهدمت الأندلس إلى الآن، وذهب بهاء الدنيا بذهابها[١] وكذلك ذكر ابن خلدون وابن تيمية أنها أفضل خلافة بعد الراشدين ظهرت في تاريخ الإسلام[٢].

فأولًا: مما يُذكر لها

١- رفعها لراية الجهاد عالية خفاقة في سماء العز، تصول وتجول في كل مكان تصل إليه، حتى سيطر الرعب والفزع على أكبر ملوك العالم حينئذ، كملوك الصين والصرب والأندلس وغيرهم، فتسابقوا إلى خطب ودِّ دولة الخلافة والرضوخ لها، وامتدت رقعة البلاد الإسلامية في عهدها امتدادًا عظيمًا حتى وصلت إلى بلاد الصين شرقًا، والأندلس وجنوبي فرنسا غربًا.

يقول ابن كثير: كانت سوق الجهاد قائمة في بني أمية، ليس لهم شغل إلا ذلك، وقد اذلوا الكفر وأهله، وامتلأت قلوب المشركين من المسلمين رعبًا، لايتوجه المسلمون إلى قطر من الأقطار إلا أخذوه[٣].

---

(١) رسائل ابن حزم (٢/ ١٤٥) المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

(٢) بني أمية بين السقوط والانتحار، عبد الحليم عويس، ص ٦٣ ط مكتبة الأسكندرية.

(٣) البداية والنهاية (٩/ ١٠٤).

٢- إرسال الخلفاء لأولادهم على رأس الغزوات يقودون الجيوش ويُحققون الانتصار تلو الانتصار، وهذا إن دل فإنما يدل على مدى بذل هؤلاء وتضحيتهم لأجل الإسلام، والعمل على رفعته فوق كل الأديان، ونشره في كل بقاع الأرض.

٣- كان الخلفاء الأمويون على قدر كبير من التدين والورع وإن وقعت في زمنهم حوادث ما كنا نتمنى وقوعها، ولكن معظمهم كان ديِّنًا تقيًّا مقدِّمًا لأهل العلم، وأُذَكِّرُك ببعض ذلك:

- فهذا **يزيد بن معاوية** على ما قيل فيه، قال عنه ابن الحنفية: رأيته مواظبًا على الصلاة، مُتحريًّا للخير، يسأل عن الفقه، علمه أبوه العدل والإنصاف والتواضع وأرسله إلى القسطنطينية ٤٩هـ وكان تحت إمرته كبار الصحابة كابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبي أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وهذا الجيش الذي قاده يزيد هو الجيش الذي وعده رسول الله ﷺ بالمغفرة[١].

- وهذا ابنه **معاوية الثاني**، قال عنه الذهبي: كان ديِّنًا خيرًا من أبيه.

- وهذا **عبد الملك بن مروان** يبكي عندما ينصحه زر بن حبيش، وكان يجلس بنفسه للنظر في مظالم الناس، وكان يُكرم أهل العلم والفضل، ولم يكن يسمح لأحد أن يداهنه أو ينافقه أو يضيع وقته[٢].

- وهذا **الوليد بن عبد الملك** الذي كان يختم القرآن في كل ثلاث، وكان أهل الشام يعدونه من أفضل ملوكهم، وأكثرهم فتحًا، وأعظمهم نفقة في سبيل الله،

---

(١) بنو أمية بين السقوط والانتحار، عبد الحليم عويس، ص ٢٤.

(٢) السابق ص ٢٥.

وكان مُعظِّمًا لأهل العلم، يظهر ذلك من حواره مع ابن المسيب وإجلاله له، وكان ابن عبلة يقول: رحم الله الوليد، وأين مثل الوليد؟!

- وهذا **سليمان بن عبد الملك**، قال عنه الحافظ ابن عساكر: كان مُؤْثرًا للعدل، مُحبًّا للغزو، اتخذ عمر بن العزيز ورجاء بن حيوية مستشارين ووزيرين له، افتتح خلافته برد الصلاة إلى ميقاتها، واختتمها باستخلاف عمر بن عبد العزيز، قال عنه ابن كثير: كان يرجع إلى دين وخير ومحبة للحق وأهله واتباع للقرآن والسنة وإظهار الشرائع الإسلامية. وفي عصره وعصر أخيه الوليد بلغت الدولة الإسلامية أوج قوتها ووصلت إلى عمق قارات العالم القديم، ففي آسيا فتحوا أقاليم ما وراء النهر، وثبتوا فتوحاتهم في خراسان وسجستان وطبرستان، وفي إفريقيا فتحوا الشمال الإفريقي برقة وطرابلس وإفريقيا والمغربين الأوسط والأقصى، وفي أوروبا فتحوا شبه جزيرة أيبيريا وعبروا ما وراء جبال البرانس، وحاولوا الاستيلاء على القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية[١].

- وهذا **عمر بن عبد العزيز** الذي قد بلغ عدله وورعه وصدقه كل مبلغ، حتى عُدَّ من الخلفاء الراشدين، وسيرته معروفة مشهورة، واتجه إلى الشيء الأهم والأعظم وهو نشر الدعوة الإسلامية في أقطار الأرض؛ فكتب إلى ملوك الهند يدعوهم إلى الإسلام، على أن تبقى أملاكهم بأيديهم، وكانت سيرة عمر في الحكم والحياة قد بلغت هؤلاء فأسلموا وتسموا بأسماء العرب، كما دفع عمر برسائله ووفوده إلى بلاد ما وراء النهر، فاستجاب له بعضهم، وكتب له بعضهم، وكتب إلى (ليو الثالث) إمبراطور الروم يدعوه إلى الدخول في الإسلام[٢].

---

(١) بنو أمية بين السقوط والانتحار، عبد الحليم عويس، ص ٢٦.

(٢) السابق، ص ٢٨.

- وهــذا **يزيد بن عبد الملك** والذي أراد أن يتأسَّــى بعمــر بن عبد العزيز في سـيرته، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على حُبه للخير والصلاح، قال عنه ابن كثير: أما هذا فما كان به بأس.

- **أما هشام بن عبد الملك** فكان أشد الناس كرهًا لسفك الدماء، وكان يُولي أبنـاءه أمر الجهاد، وكان لا يعطى أحدًا من بني مروان حتى يغزو، وكان يقرب أهل العلم من السلف ودليل ذلك أنه اختار الإمام الزهرى مربِيًّا لأبنائه، وكان شديدًا على أهل البدع حتى قتل غيلان القدري المبتدع الضال.

- وهــذا **الوليــد بــن يزيــد** بالرغم ممــا أُشــيع حوله مــن افــتراءات واتهامه بالشـناعات، إلا أنــه كان إذا حضــرت الصــلاة أســرع إلى الوضوء فيُحســنه، ويطرح الثياب المصبوغة ويلبس الثياب البيض ويشتغل بربه عَزَّوَجَلَّ.

- وهــذا **يزيد بــن الوليد** خطب في رعيتــه خطبة بليغة، فــكان مما قال: ولا أغلق بابي دونكم، فيأكل قويكم ضعيفكم... وإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وكان معروفًا بالصلاح.

- ويأتي على رأس هؤلاء خال المؤمنين وكاتب الوحى لرسول رب العالمين ﷺ الصحابي الجليل عظيم القدْر، الملك العادل، **معاوية بن أبي سفيان** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

وهــذا مــروان بن محمــد كان لا يفارق الغزو، شــجاعًا بطــلًا مقدامًا حازم الرأي رضي الله عنهم جميعًا.

فهؤلاء اثنا عشــر مَلكًا وخليفة من ملوك وخلفاء بني أمية من مجموع ثلاثة عشــر خليفة، ذكرنا محاســنهم بكل حيادية وإنصاف، وما يخلو أحد من البشر مــن هنــات وأخطاء فهذا ليس عيبًــا، إنما العيب أن يُصَوَّرَ هــؤلاء بصورة فجة مُنكَرة لتشويه صورة الإسلام.

إن الحقيقـة التـي لا ينبغـي أن تغيـب عـن أذهاننا هـي أن تاريـخ بني أمية بـل تاريخ المسـلمين جُملـةً كالصفحة البيضاء ذات الخط الأسـود، فتسـابق الحاقدون والشانئون لطمس ذلك البياض الناصع، وإظهار الخط الأسود فقط وكأنـه يُغطـي كل الصفحة حتى تظهر في نهاية المطاف للقارئ في غاية السـواد وتكامله.

٤- توليتهم للقضاة المشـهورين بالعدل والورع والتُقى من علماء السـلف الأجـلاء، وكان مُعظمهـم مـن الصحابـة وأبنائهـم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وهـذا يدل على عدلهم وحرصهم على تطبيق شـرع الله سـبحانه، وكان القضاة يعتمدون على الكتاب والسنة في قضائهم وأحيانًا على اجتهادهم، وأحيانًا يستشيرون الخلفاء الأمويين فيما يواجهون من مشاكل، وهذا ما كان يحدث قليلا[(١)].

ومن أبرز القضاة الذين تولوا القضاء لخلفاء بني أمية:

مـن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: أبو هريرة - النعمان بن بشـير- عمران بن حصين، وكانوا قضاة لمعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

ومـن التابعيـن: فضالة بـن عبيد، وعبـد الله بن الحـارث بن نوفـل والذي قضـى بالحـق علـى آل مـروان، فأُعجـب بـه مـروان جـدًّا، وأبـو سـلمة بن عبـد الرحمـن بـن عـوف، ومصعـب بـن عبـد الرحمن بـن عوف، وشـريح القاضـي، ومسـروق بن الأجدع، وأبـو بكـر بـن محمـد بـن حزم، وابـن أبي ليلـى، وسـعد بن إبراهيم، ويحـي بن سـعيد، وعبد الله بـن عثمـان التميمي، وعبد الله بن نوفـل بـن الحـارث، وزرارة بـن أوفى، وعبيـد الله بـن أبـي بكر،

---

(١) مقدمة مديحة الشـرقاوي لكتاب نُزهة النظار في قضاة الأمصار، لابن الملقن، مكتبة الثقافة الدينية.

وأبو بردة بن أبي موسى الأشعري، وأخوه أبو بكر، وأبو إدريس الخولاني، وثمامة بن أنس بن مالك، وغيرهم من أبناء الصحابة وعلماء السلف العظماء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ[١]، مما جعل المهمة سهلة في إقامة الحق والعدل بين الرعية؛ فهذا شريح - الذي اشتهر بالعدل - استمر مدة طويلة في قضاء الكوفة رغم تقدم سنه، ولما طلب من الحجاج أن يعفيه لكبر سنه، رفض حتى يدله على رجلٍ عدلٍ، فقال شريح: «عليك بالعفيف الشريف أبي بردة بن أبي موسى الأشعري» فأحضره وولاه.

وكانوا لشدة تحريهم للعدل يحكمون على الوالي نفسه، كما حكم قاضي المدينة أبو بكر بن حزم على واليها عثمان بن حيان المري بحد الخمر[٢]، بعدما عثر على الخمر في منزله، وحكم قاضي القيروان جميل بن كريب على والي القيروان، وأنصف خصمَه حتى رضي عنه، مما يدل على قوة القضاة في الحق واستقلال القضاء وعدم تأثير الولاة عليهم[٣].

٥ - استشارة الولاة والأمراء لأهل العلم وتوقيرهم إياهم؛ فكان والي العراق عمر بن هبيرة يستدعي كلًّا من الحسن البصري والشعبي وابن سيرين ويستشيرهم فيما يرد إليه من رسائل يزيد بن عبد الملك، ومن قبله زياد بن أبيه كان يستيشر الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ومروان بن الحكم لما تولى إمارة المدينة كان يجمع أصحاب رسول الله ﷺ يستشيرهم، وعمر بن عبد العزيز دعا عشرة من فقهاء المدينة وقال لهم: «اعلموا أني لست أقطع أمرًا إلا برأيكم، فأشيروا

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط، ص ١٧٢ وما بعدها فهو يذكر قضاة كل خليفة.

(٢) مواقف ولاة بني أمية من الاتجاهات العلمية والفكرية، طارق بن عبد الله الرميح، ص ٢٧١، رسالة دكتوراه، جامعة الإمام محمد بن سعود.

(٣) السابق ص ٢٧١.

علـيّ»، وكذا والي المدينة عبد الواحد بن عبد الله النضري، لم يكن يقطع أمرًا إلا باستشارة القاسم بن محمد وسالم بن عبد الله[١].

٦- إحداث نهضة علمية كبرى، ففي زمان عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ بدأت أولـى خطوات الاهتمام بالعلم متمثلة في تدوين السـنة المُطهرة على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسـليم، فأحدث ذلك التدويـن طفرة علمية هائلة، ونفع الله تعالى به الأمة جمعاء، فقد كتب عمر رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى الإمام الثبت أمير المدينة وأعلم أهل زمانه بالقضاء أبي بكر بن حزم يأمره بذلك، ففي صحيح البخاري: «وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أبى بكر بن حزم: انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ، فاكتبه؛ فإني خفـت دروس العلم (ضياعه) وذهاب العلماء، ولا تقبل إلا حديـث النبي ﷺ ولتُفْشُـوا العلم، ولتجلسـوا حتى يُعَلَّـم من لا يعلم، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرًّا»[٢].

كذلـك وجه كتابًا بهذا الشـأن إلى الإمـام الحُجة ابن شـهاب الزهري، فقد ذكـر ابـن عبد البر أن ابن شـهاب قال: «أمرنا عمر بن عبد العزيز بجمع السـنة، فكتبناهـا دفـترًا دفترًا، فبعـث إلى كل أرض له عليها سـلطان دفـترًا»[٣]؛ لذلك قـال ابن حجر: «وأول من دَوّن الحديث ابن شـهاب الزهري على رأس المائة بأمـر من عمر بن عبد العزيز، ثم كثـر التدوين ثم التصنيف، وحصل بذلك خير كثيـر، فلله الحمـد «ولـم يقف عمر بن عبـد العزيز عند ذلك، بـل عمّم أوامره إلى كل الأمصار الإسـلامية، ليقوم كل عالم بجمع وتدوين ما عنده، فقد روى أبـو نعيـم في «تاريخ أصفهان»: كتب عمـر بن عبد العزيز إلـى الآفاق: «انظروا

(١) مواقف ولاة بني أمية من الاتجاهات العلمية والفكرية طارق بن عبد الله الرميح، ص ١٣٧.
(٢) البخاري، كتاب العلم باب : كيف يقبض العلم.
(٣) جامع بيان العلم وفضله (١/ ٣٣١) ط ابن الجوزي.

حديث رسـول الله ﷺ، فاجمعوه، واحفظوه؛ فإني أخاف دروس العلم وذهاب العلماء»[١].

ثم أرسل عمر بن عبد العزيز العلماء إلى مختلف أقاليم الدولة وحواضرها وبواديهـا ليُعَلِّموا أهلها الشـرع المُطهر؛ فبعث إلى مصـر الإمام المفتي الثبت عالم المدينة «نافعًا» مولى ابن عمر، قال عبيد الله بن عمر: «بعث عمر بن عبد العزيز نافعًا مولى ابن عمر إلى أهل مصر يُعلمهم السنن»[٢].

وأرسـل عشـرة من فقهاء مصر من رجال التابعين إلى إفريقية ليُفقهوا أهلها ويُعلموهم[٣].

وكذلـك كان يُرسـل العلمـاء إلى البـدو ليُعلمـوا الناس دينهـم، روى ابن الجـوزي عن ابن أبي غيلان قال: «بعث عمر بن عبد العزيز يزيد بن أبي مالك الدمشقي والحارث الأشعري يُفقهان الناس في البدو، وأجرى عليهم رزقًا»[٤].

وكذلـك كان يُرسـل الكتب إلـى الأمصار الإسـلامية يعلمهم فيها السـنن والفقه، ويأمرهم بإحياء ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وكانت الكتـب تُوجـه إلى الولاة والأمـراء ليعملوا بها، ويحملوا النـاس على الالتزام بمـا جاء فيها، يقول الإمام مالـك رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان عمر بن عبد العزيز يكتب إلى الأمصار يُعلمهم السـنن والفقه، ويكتب إلى المدينة يسـألهم عما مضى، وأن يعملوا بما عندهم».

---

(١) فتح الباري (١/ ٣٤١).

(٢) السير (٥/ ٤٣٨).

(٣) عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، ص ٧٤.

(٤) مختصر تاريخ دمشق (٦/ ١٧٥).

وقام بكفالة العلماء وطلاب العلم، وتفريغهم لنشر العلم وتعلمه و تعليمه، فقد روى الخطيب البغدادي عن أبي بكر بن أبي مريم قال: «كتب عمر بن عبد العزيز إلى والي حمص: مُرْ لأهل الصلاح من بيت المال بما يُغنيهم، لئلا يشغلهم شيء عن تلاوة القرآن، وما حملوا من الأحاديث»(١).

وكذلك انتشرت الدراسة النظامية على نطاق واسع في عهد بني أمية عن طريق الكتاتيب التي يلتحق بها الأطفال وهم في سن الخامسة أو السادسة، ويبقون فيها خمس سنين أو ستة ليتمكنوا من حفظ القرآن والسنة واللغة وغير ذلك، وقد كان الآباء يحرصون على أن يذهب أبناؤهم إلى المعلمين المجيدين، ليتربوا ويتعلموا في آن واحد.

وكان الأمراء والخلفاء حريصين على إلحاق أبنائهم بالكتاتيب ليتربوا فيها، وأحيانًا يختار الخليفة أحد أبرز العلماء ويعهد إليه بتربية أولاده، كما فعل هشام بن عبد الملك مع الإمام الزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

بل كان الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ يشاركون بقوة في هذه النهضة العلمية، فيقول سويد بن عبد العزيز: كان أبو الدرداء إذا صلى الغداة في جامع دمشق، اجتمع الناس للقراءة عليه، فكان يجعلهم عشرة عشرة، وعلى كل عشرة عريفًا، ويقف هو في المحراب يرمقهم ببصره، فإذا غلط واحد رجع إلى عريفه، فإذا غلط العريف رجع إلى أبي الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فسأله عن ذلك، فلما مات أبو الدرداء خلفه ابن عامر. وعن مسلم بن مشكم قال: قال لي أبو الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: اعدد من يقرأ عندي القرآن. فعددتهم ألفًا وستمائة ونيفًا، وكان لكل عشرة منهم مقرئ، وكان أبو الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يطوف عليهم قائمًا، فإذا أحكم الرجل منهم

(١) أثر العلماء في الحياة السياسية، عبد الله الخرعان، ص ١٧٩.

- يعني حفظ القرآن - تحول إلى أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١]. وعُرف عن الضحاك بن مزاحم أنه كان فقيه مكتب عظيم في أحد كتاتيب الكوفة، وكان لديه ثلاثة آلاف صبي، وكان يركب حمارًا ويدور عليهم إذا عَيِيَ[٢].

وكان ظهور الكتاتيب بهذه الصورة المُشرقة مع بداية فتح بلاد الشام مباشرة، وقد تعلم فيها أبناء الفاتحين العلوم الشرعية، يقول أدهم بن محرز الباهلي الحمصي: «أنا أول مولود ولد بحمص - يعني من المسلمين - وأول مولود رُئِيَ في كتف - يعني يحمل كتفًا مكتوبًا فيه قرآن - وأنا أختلف إلى الكُتَّاب أتعلم الكِتاب - يعني القرآن»[٣].

وقد كثرت حلقات العلم واتسعت في عهد بني أمية، فيقول أبو إسحاق السبيعي واصفًا الحلقة العلمية في مجلس الصحابي البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كنا نجلس عند البراء بعضنا خلف بعض»[٤]، وهذا يُوضح سعة الحلقة العلمية، وازدحام الطلاب فيها، وإقبال الناس عليها.

وقد كانت كل طوائف المجتمع الإسلامي حريصة على الإقبال على التعلم في هذه الحلق التي هي بمثابة التعليم العالي في وقتنا، لذلك كان يُقبل عليها العلماء والكبار وعِلْية القوم، فقد ذكر ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ أن علي بن الحسين كان «إذا دخل المسجد تخطى الناس حتى يجلس في حلقة زيد بن أسلم، فقال له

(١) معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، للذهبي، (١/ ١٢٥) تحقيق د/ طيار آلتي قولاج - استانبول.

(٢) العبر في خبر من غبر، لمؤرخ الإسلام الحافظ الذهبي (١/ ٩٤) ط دار الكتب العلمية.

(٣) تاريخ دمشق، لابن عساكر (٤/ ٣٧) ط دار الكتب العلمية.

(٤) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي (١/ ١٧٤) ط مكتبة المعارف - الرياض.

نافع بن جبير بن مطعم: غفر الله لك! أنت سيد الناس وقريش، تأتي تخطى حلق أهل العلم، حتى تجلس مع هذا العبد الأسود؟! فقال له علي بن الحسين: «إنما يجلس الرجل حيث ينتفع، وإن العلم يُطلب حيث كان»[(١)].

ولشهرة بعض هذه الحلق كان الطلاب يؤمونها من كافة بقاع العالم الإسلامي، وقد كانت حلق الإمام نافع بن عبد الرحمن أحد القراء السبعة في مسجد رسول الله ﷺ من أشهر الحلقات يومئذ، وقد حكى لنا الإمام ورش المصري عن تجربته في حلقة الإمام نافع، فقال: «خرجت من مصر لأقرأ على نافع، فلما وصلت إلى المدينة صرت إلى مسجد نافع، فإذا هو لا تطاق القراءة عليه من كثرتهم، وإنما يُقْرِئ ثلاثين، فجلست خلف الحلقة، وقلت لإنسان: مَن أكبر الناس عند نافع؟ فقال لي: كبير الجعفريين، فأتيته أتوسط به، فقال: نعم وكرامة، وجاء نافعًا، وقال له: جاء من مصر ليس معه تجارة ولا حج، إنما جاء للقراءة خاصة. فقال له: ترى ما ألقى من أبناء المهاجرين والأنصار؟ فقال صديقه: تحتال له. فقال له نافع: يمكنك أن تبيت في المسجد؟ قلت: نعم. فبتُّ في المسجد، فلما كان الفجر جاء نافع، فقال: ما فعل الغريب؟ فقلت: ها أنا، رحمك الله. قال: أنت أَوْلى بالقراءة. قال: وكنتُ مع ذلك حسن الصوت مدادًا به، فاستفتحت فملأ صوتي مسجد رسول الله ﷺ، فقرأت ثلاثين آية، فما زلت أقرأ عليه حتى قرأت عليه ختمات قبل أن أخرج من المدينة»[(٢)].

وكانت بعض الحلق عظيمة العدد، لذلك كانت تلفت أنظار الوافدين عليها، وهذا ما حدث للإمام أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، إذ يقول: وُلدتُ سنة ثمانين، وحججت مع أبي سنة ست وتسعين، وأنا ابن ست عشرة سنة، فلما دخلت المسجد الحرام

---

(١) البداية والنهاية (٩/ ١٠٦).

(٢) معرفة القُراء الكبار، للذهبي (١/ ٣٢٥).

رأيت حلقة عظيمة، فقلت لأبي: حلقة مَن هذه؟ قال: حلقة عبد الله بن جزء الزبيدي صاحب رسول الله ﷺ. فتقدمت فسمعته يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من تفقه في دين الله كفاه الله همه، ورزقه من حيث لا يحتسب**»(١). وقد كان الأمراء من أشد الناس حرصًا على تعلم العلم هم وأبناؤهم، فقد رحل سليمان بن عبد الملك إلى عطاء هو وابناه «فجلسوا إليه وهو يصلي، فلما انفتل إليهما، فما زالوا يسألونه عن مناسك الحج وقد حوّل قفاه إليهم، ثم قال سليمان لابنيه: قوما، فقاما، فقال يابَنيّ: لا تنيا في طلب العلم»(٢).

وكذلك شهدت دولة بني أمية نهضة علمية في جانب التأليف والتصنيف في مختلف فروع العلم الشرعي.

ففي علم الفقه: برز قبيصة بن ذؤيب، وروى كتابه في الفرائض عن زيد بن ثابت لكنه لم يصل إلينا.

وإبراهيم النخعي الذي وُلد سنة (٥٠هـ)، وتُوفي سنة (٩٦هـ)، صنف كتابًا في الفقه ولم يصل إلينا كذلك(٣).

ويقول ابن القيم: إن فتاوى الزهري كانت في ثلاثة أسفار، وفتاوى الحسن البصري تقع في سبعة أسفار مرتبة على أبواب الفقه(٤)، ووضع معاصروا مكحول الدمشقي كتاب «السنن في الفقه»، وكتاب «المسائل في الفقه»(٥).

---

(١) الخيرات الحسان في مناقب الإمام أبي حنيفة النعمان، لابن حجر الهيتمي، بتعليق محمد عاشق إلهي، ص ٤٥ ط دار الأرقم.

(٢) المختار من مناقب الأخيار، لابن الأثير الجزري (٢/ ٤٢٠) ط دار الكتب العلمية.

(٣) الدولة الأموية، للشيخ مجدي فتحي السيد، بتصرف، ط دار الصحابة.

(٤) إعلام الموقعين (١/ ٢٦).

(٥) الفهرست، لابن النديم ص ٣١٨، ط دار المعرفة.

وصنف الإمام الأوزاعي كتابًا في الجهاد والسير سماه «السير» يوجد منه أجزاء في (الأم) للشافعي، وتُوفي الأوزاعي سنة ١٥٧هـ.

وابن أبي ليلى وُلد ٧٤هـ وتوفي سنة ١٤٨هـ، وتولى القضاء للأمويين والعباسيين، صنف كتاب «الفرائض»(١).

وفي علم التفسير: نجد تفاسير كثيرة مُسندة إلى ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وإلى كثير من التابعين مثل: ابن أبي رباح، وابن المسيب، وابن جبير، ومجاهد، وقتادة، وهي المنثورة في كتب التفسير، كتفسير عبد الرزاق وسعيد بن منصور والطبري، وصنف الحسن كتابًا في التفسير وصل إلينا أشياء منه مسندة في كتب التفاسير.

وفي علم العقائد: صنف الحسن كتابًا في «القدر»، وصنف عمر بن عبد العزيز كتابًا في «الرد على القدرية».

وهكذا يظهر لنا أن العهد الأموي كان زاخرًا بالتصنيف العلمي، ولكن ضاعت أغلب هذه المصنفات وفُقدت(٢).

وفي العلوم التجريبية والترجمة، أنشأ معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بيتًا للحكمة، ويعتبر خالد بن يزيد بن معاوية أول من نقل الطب والكيمياء إلى العربية، وجُمعت له الكتب وجعلها في خزانة الإسلام، وأمر عمر بن عبد العزيز بنقل معاهد الطب من الأسكندرية إلى أنطاكية وحران، وكان هشام بن عبد الملك شغوفًا بالاطلاع على الآثار الأدبية للأمم الأخرى، فترجم كتابًا عن تاريخ فارس(٣)، فشهد بذلك العصر الأموي نهضة ثقافية كبيرة.

---

(١) الفهرست، لابن النديم، ص ٢٨٥.

(٢) الدولة الأموية، بتصرف، للشيخ مجدي فتحي السيد.

(٣) الدولة الأموية المفترى عليها، د/ حمدي شاهين، ص ٤٥٩.

ثانيًا: ما يُؤخذ عليها

سنشير بكل موضوعية وتجرد إلى هذه المآخذ والسلبيات التي وقع فيها حكام بني أمية؛ قاصدين أخذ العبرة والغظة وتحليل الوقائع والأحداث بما يخدم أمتنا ويضع الأمور في نصابها الصحيح، ولا نقصد بالطبع التشنيع وتشوية الصورة.

١- تراجع الدولة عن الغاية التي قامت من أجلها.

وهي حراسة الدين وسياسة الدنيا بالدين، فحل الضعف بين أركانها، فتحولت الوحدة إلى فرقة والاجتماع إلى تشتت، والقوة بكل معانيها إلى ضعف وخور فلما غيروا غير الله حالهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ فكثرت الاضطرابات والثورات وسيطرة روح العصبية بين الحكام والمحكومين، وبات الناس مشغولين بأمور الملك والخلافة، مما عَجّل بسقوط الدولة وظهور عجزها وضعفهما فهي سنة ماضية في كل المجتمعات التي تحيد عن منهج الله تعالى.

٢- الصراع الداخلي بين أفراد البيت الأموي

المنازعات والخلافات التي تقع بين الأفراد والجماعات والدول من أكبر معاول الهدم، وأسباب الضعف التي يقضي عليها، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ وقد استقرأ هذه الحقيقة ابن خلدون، حيث ذكر أن من آثار الهرم في الدولة انقسامها، وأن التنازع بين القرابة يقلص نطاقها، كما يؤدي إلى قسمتها ثم اضمحلالها[1].

---

(١) الضعف المعنوي وأثره في سقوط الأمم، حمد بن صالح السحيباني، ص ١١٨، مكتبة الملك فهد.

لقد ظهر أثر هذا الصراع مع خلافة الوليد بن يزيد، فقد كانت علاقته بأبناء عمه هشام عدائية، فقد نعتوه بنعوت قاسية، وراحوا يجسمون أخطاءه، حتى حملوا الناس على الفتك به، واشتدت الصراعات الأموية الدامية في عهد يزيد الثالث، الذي كانت وفاته وبيعة أخيه إبراهيم من المشاكل الخطيرة، فازداد التفسخ في البناء الأموي، وبرز مروان بن محمد الذي قرر حسم الأمور لصالحه، لكنه واجه عدة حركات معادية في بلاد الشام؛ أبرزها حركة سليمان بن هشام بن عبد الملك، فانهمك مروان في التصدي له، حتى أنهكت قواه، فوجد نفسه عاجزًا عن التصدي للعباسيين الذين زحفوا من الشرق وقضوا على دولة الخلافة[١].

إن هذا السبب مع عدم الاهتمام بالشريعة ونشر الدعوة هما أبرز سببين لهلاك دولة بني أمية، إنه لا أسباب حقيقية تذكر سقوط بنى أمية، فكل الأسباب التي جنح لها الدارسون أسباب لا تكفي لسقوط هؤلاء العظماء وهي أسباب تكاد توجد في معظم الدول، وكثير منها عاشت أضعاف ما عاشوا، ولذلك يمكن أن تتهاوى كل الأسباب التي تساق في هذا الطريق، وليس هناك إلا هاتان الحقيقتان: حقيقة أنهم انتحروا من داخلهم، وحقيقة أنهم لم ينبعثوا بتيار حضاري يتمم تيار الفتوحات ويمتص كل حركات الخروج والفتن[٢].

٣- الأثر السيئ لبدعة الجهمية

في أواخر عصر بني أمية وتحديدًا في عصر مروان بن محمد ظهرت البدع والمحدثات، وفرق الضلالة التي اتخذت لأنفسها مصادر مغايرة للكتاب

---

(١) تاريخ الدولة الأموية، د/ محمد سهيل طقوش، ص١٨٤ ط دار النفائس.

(٢) بنو أمية بين السقوط والانتحار، عبد الحليم عويس، ص ٩٨، ط مكتبة الاسكندرية.

والسنة في التلقي والاستدلال، مما كان له أسوأ الأثر على كيان الدولة الأموية، وأبرز هذه البدع بدعة الجهمية.

يقول شيخ الإسلام: إن دولة بني أمية كان انقراضها بسبب هذا الجعد المعطل، وغيره من الأسباب التي أوجبت إدبارها، وفي آخر دولتهم ظهر الجهم بن صفوان بخراسان(١). وقال: وهذا الجعد إليه ينسب مروان بن محمد الجعدي آخر خلفاء بني أمية، وكأن شؤمه عاد عليه حتى زالت الدولة، فإنه إذا ظهرت البدع التي تخالف دين الرسول ﷺ انتقم الله ممن خالف الرسل وانتصر لهم(٢).

ويصف الدكتور يوسف العش أثر البدعة الجديدة على المجتمع الشامي فيقول: بل اتخذ هذا المجتمع كيانًا خاصًّا وأفكارًا جديدة، فأصبح يقول بمذهب الجعد بن درهم الذي نُسب إليه مروان بن محمد وتأدب على يديه(٣).

٤ - تحول الخلافة من الشورى إلى التوريث

وهذا السبب نتج كغيره عن السبب الرئيس وهو: اتساع زاوية الانحراف عن تطبيق الشريعة، فبعد أن كان أهل الحل والعقد يعينون الخلفاء صار الأمر وراثيًّا، يرث الابن أباه والأخ أخاه حتى ولو كان غير مؤهل لحمل تلك الأمانة الثقيلة، مما أضعف الدولة وقلل من هيبتها من جهة، وأثار بغض وحسد الرعية لراعيها من جهة أخرى، إذ إنهم كانوا ينظرون إليه دائمًا بعين النقص وعدم الأهلية.

---

(١) الفتاوى (١٣/ ١٨٢).

(٢) الفتاوى (١٣/ ١٧٧).

(٣) الدولة الأموية، د/ يوسف العش، ص ٣٣٥.

يقول الخضري بك: كانت ولاية العهد سببًا كبيرًا في انشقاق البيت الأموي، وذلك أن بني مروان اعتادوا أن يولوا عهدهم اثنين، يلي أحدهما الآخر.

وأول من فعل ذلك مروان، فإنه أزاح خالد بن يزيد وعمرو بن سعيد، ثم وَلَّي عهده عبد الملك ثم عبد العزيز، وأراد عبد الملك عزل أخيه وتولية ابنه الوليد، لولا أن الوفاة عاجلت عبد العزيز، وخطر ببال الوليد أن يعزل سليمان ويولي ابنه.

وولي يزيد بن عبد الملك أخاه هشامًا ثم ابنه الوليد، فأراد هشام أن يخلع الوليد، ولج في ذلك حتى تباعد ما بين هشام والوليد، ولما تولى الوليد انتقم مِن كل مَن مالأ هشامًا على رأيه، ومنهم بنو عمه، فكان ذلك نذير الخراب[١].

٥- كثرة الثورات التي أضعفت كيان الدولة

كان المسلمون في الفترة التي سبقت الثورات الداخلية قوة لا سبيل إلى صدها، وأنهم لو ساروا سيرتهم الأولى في الزحوف السابقة، وأكملوا ما بدأوه بدلًا من محاربة بعضهم بعضًا، لكان التاريخ الذي نكتبه يختلف في كثير من ظواهره ونتائجه عن التاريخ الذي نكتبه اليوم[٢].

لقد توالت الثورات الداخلية على الأمويين، وكان أبرزها ثورة الحسين بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سنة ٦٤هـ، وأدى استشهاده إلى تعاطف الكثيرين معه وحنقهم على الأمويين، مما ساعد في تشويه صورتهم[٣]، ومن ذلك الحين كثرت الفتن الداخلية وقويت الأحزاب المشايعة لأهل البيت[٤]، فقامت ثورة

(١) الدولة الأموية، الخضري بك، ص ٥٧٣.

(٢) الأيام الأخيرة للدولة الأموية، عمر أبو النصر، ص ٢٤٠.

(٣) انظر: العصر الأموي، د/ عبد الشافي محمد، ص ٤٠٥ ومابعدها.

(٤) تاريخ مصر إلى الفتح العثماني، ص ١٨٢.

التوابيـن التـي انفجرت من الكوفة بعد شـعورهم بالتقصير في نصرة الحسـين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وذلك سنة ٦٥ هـ، تبع ذلك ثورة المختار الثقفي سنة ٦٦هـ، ثم ثورة زيد بن علي بن الحسـين سـنة ١٢١هـ في زمان هشام بن عبد الملك، دعاه أهل الكوفة وبايعه خمسـة عشـر ألفًا، ثم لم يبق معه سـوى مائتيـن وثمانين رجلًا كعادتهم، وقُتل زيد بن علي.

وقامت ثورات أخرى ليسـت على أسـس مذهبية، كثورة ابن الأشعث سنة ٨١هـ، قامت في عهد عبـد الملك وكانت من أخطر الثورات، ثم ثورة يزيد بن المهلب سـنة ١٠١هـ في ولاية يزيد بن عبـد الملك، ثم انتشـرت الثورات في أخريات الدولة زمن مروان بن محمد[١].

كل ذلك كان له أكبر الأثر في إضعاف الدولة، ثم إنهاكها وزوالها.

٦ - العصبية الجاهلية

التي جاء الإسـلام معفيًا لأثرها ومشـددًا في النعي عليها، لأنه رأى أن حياة الأمة لا تستقيم مع هذه العصبيات التي أضعفت قواهم في الإسلام[٢].

ولـم تظهـر العصبية القبليـة في العصر الأموي إلا في أثنـاء ضعف الخلافة، وأن ذلك لم يستغرق شطرًا كبيرًا من عمر الدولة كما توهم بذلك بعضُ أقوال المؤرخين[٣].

لكـن في عهد الوليـد بن يزيد بن عبد الملك ظهـرت العصبية جلية، فانحاز الخليفـة إلـى جانب القيسـيه أو عرب الشـمال لأن أمه كانـت منهم، وأقصى

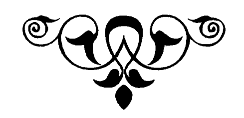
---

(١) العصر الأموي، د/ عبد الشافي محمد، ص ٤٠٥ ومابعدها. بتصرف.

(٢) الدولة الأموية، الخضري بك، ص ٥٧٤.

(٣) الدولة الأموية المفترى عليها، د/ حمدي شاهين، ص ٣٧٩.

العنصـر اليمني أو عرب الجنوب، فأثار ذلك سـخط اليمنية، خاصة بعد مقتل زعيمهم خالد بن عبد الله القسري اليمني، فدبروا مكيدة لقتل الخليفة، وانضم إليهـم يزيد بـن الوليد بن عبـد الملك، وقتلوا الخليفة سـنة ١٢٦هـ، وبايعوا يزيـد[١] الذي انضـم إلى اليمنييـن الذين نكلوا بالقيسـيين، فثـاروا في حمص وفلسـطين والأردن، ثم انضموا إلى مروان بن محمد، واسـتفحلت النزاعات العصبيـة في عهـد خلافته، حتى تصـدع البيت الأموي وأشـرف على الزوال، وبالفعل فاجأته الرايات السـوداء من خراسان فانهزم وتبعته جيوش العباسيين إلى الشـام فمصر، حتى لحقته بقرية بوصير من مديرية الجيزة وقتلته، وبذلك انقرضت دولة بني أمية سنة ١٣٢هـ[٢].



(١) تاريخ الإسلام، د/ حسن إبراهيم حسن (١/ ١٧٦).

(٢) تاريخ مصر إلى الفتح العثماني، عمر الإسكندري، ص ١٨٢.

فهرس المحتويات

